# الفتوح الإسلامية

## عبر العصور

دراسة تاريخية لحركة الجهاد الإسلامي
من عصر الرسول ﷺ حتى أواخر العصر العثماني

أ.د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري



دار السلام
DARUSSALAM

# الفُتُوحُ الإِسْلامِيَّةُ

عبر العصور

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ عبدالعزيز بن إبراهيم العُمري ، ١٤٤٥هـ

العُمري ، عبدالعزيز بن إبراهيم
الفتوح الإسلامية عبر العصور. / عبدالعزيز بن إبراهيم العُمري -
ط٥. .- الرياض ، ١٤٤٥هـ
٤٩٧ ص ؛ ١٧×٢١ سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٢٢٥٨٥
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-١٠١٤-٦

الطبعة الخامسة
طبعة مزيدة ومنقحة

# الفُتُوحُ الإِسْلَامِيَّةُ

## عبر العصور

دراسة تاريخية لحركة الجهاد الإسلامي

مِن عصر الرسول ﷺ حتى أواخر العصر العثماني

(تأليف)

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

أُستاذ الدراسات العليا

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالريَاض (سابقًا)

دار السلام الدولية للنشر والتوزيع

| | | |
|---|---|---|
| الفصل:١ | عصر السيرة النبوية ﷺ | 18 |
| الفصل:٢ | عصر الخلفاء الراشدين ﷺ | 97 |
| الفصل:٣ | عصر الدولة الأُموية | 184 |
| الفصل:٤ | عصر الدولة العباسية | 216 |
| الفصل:٥ | عصر الحروب الصليبية | 237 |
| الفصل:٦ | الغزو المغولي للعالم الإسلامي | 363 |
| الفصل:٧ | عصر الدولة العثمانية | 385 |

# إهـداء

إلى من لم يتبعوا أذناب البقر.

إلى صلاح الدين الأيوبي الذي حكم البلاد فقرب العلماء العُباد وتزعم السياسة فجمع القلوب والأجناد للجهاد، وقاد الجيوش فدرب وسلح، وملك الأموال فتصدق، وللأسرى أطلق، وفتح القدس فأعادها إلى الإسلام بعد البؤس.

وإلى كل من يفكر بتحرير القدس أهدي هذا الجهد المتواضع.

# المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وأول المجاهدين الفاتحين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار علي نهجه وأحبه حق المحبة إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن تاريخ الفتوح والجهاد يعد من أوسع الأبواب في التاريخ الإسلامي، حيث تحتل أحداثه مساحة واسعة في المصادر التاريخية الإسلامية، وتلك الأحداث مقرونة دائمًا بامتداد الإسلام وانتشاره وتأمين المسلمين في بلادهم وفي البلاد المفتوحة، وهذا بالطبع لا يعني أن الإسلام انتشر بقوة الجهاد فقط، فالإسلام دين الفطرة فيه من المقومات الذاتية ما أقنع الناس على الدخول فيه، لكن حركات الجهاد والفتوح لها الدور الأول في حفظ معتنقي الإسلام من الخروج منه أو الإجبار على تركه، كما كان لتلك الحركات دور في بقاء أقاليم كاملة تحت راية الإسلام على مر العصور، وبالتالي فإن التأريخ لانتشار الإسلام لا يستغني عن تاريخ الجهاد فهما صنوان، وقد بدأ الجهاد منذ أيام رسولنا محمد ﷺ إلى يومنا الحاضر وسيظل حيًا إلى يوم القيامة: ((الْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)).

واهتم المسلمون بالتأريخ له في العصور الأولى فألفت فيه كتب مختلفة مثل «فتوح البلدان» للبلاذري، و«الفتوح» لابن أعثم الكوفي، و«فتوح الشام» للأزدي وما نسب للواقدي من كتب في هذا الباب، كما أن أحداثه تمثل العصب الأساس في التأريخ لعصور معينة في الحوليات مثل عصر الراشدين وعصر الحروب الصليبية، والصراع بين المسلمين ونصارى الأسبان في الأندلس في مراحل تاريخ الأندلس المختلفة، وكذلك الصراع في العصور العثمانية الأولى والوسطى وحتى سقوط الخلافة.

وقد رأيت أن أجمع في هذا الكتاب أهم أحداث الجهاد والفتوح منذ عصر

الرسول ﷺ حتى سقوط الخلافة العثمانية، مع التعريف الموجز بكل عصر من العصور، والمرور على أهم المعارك الإسلامية فيه.

وكان من أهدافي من هذا العمل أن يكون مرجعًا عن أهم أعمال الفتوح والجهاد الإسلامي وما صاحبه من ظروف فيسهل الاطلاع عليها بعيدًا عن التفصيلات الزائدة التي قد لا تخدم الهدف، الذي رصدت من أجله تلك الحركة وبعض معاركها.

مع محاولة جادة في تأصيل الآثار والأخبار، ومناقشتها بمنهجية موضوعية متجردة، ولذلك فقد اعتمدت على المصادر المعتبرة في الوصول إلى أصح الروايات عن جهاد المسلمين الأوائل في نشر الإسلام وعمدت إلى الخروج ببعض الحكم والمواقف ذات الاعتبار آخذًا في الحسبان أن هذه الوقفات مقصودة للعبرة والقدوة.

والموضوعات في هذا الجانب كثيرة جدًا، وبالتالي فقد كان عليّ في معظم الأحيان أن أختار بين المعارك والأحداث أيها أهم من الآخر، وما يمكن التوسع فيه أو المرور عليه بعجالة، ولعلي قد أكون وقعت في بعض الأخطاء حيث أختصر أحيانًا أو أطيل في الحديث عن بعض الموضوعات الأخرى أحيانًا أخرى، وحسبي في ذلك أنني اجتهدت رأيي واخترت ما أظنه أهم من غيره على اجتهاد مني، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

وقد كانت المعارك التي تحدثت عنها مما وقع بين المسلمين وأعدائهم، فلم أتطرق لمعارك المسلمين مع بعضهم أو مع من ينتسبون للإسلام، أو الفتن التي حدثت بين المسلمين.

وإنني هنا أقر وأعترف أن في هذا الكتاب قصورًا كبيرًا في التغطية، فالباب واسع فوق أن يشمله كتاب واحد، كما أنني قد قصرت كثيرًا في تاريخ صراع المسلمين مع النصارى في الأندلس.

كما لا يفوتني هنا التنبيه إلى أنه قد سبقني كثير من الباحثين والمؤلفين في جزئيات كثيرة من هذا الكتاب، لكنني مع اجتهادي في الاطلاع ما أمكنني حول هذه الموضوعات (لم اطلع) على كتاب مختصر حول حركة الجهاد عبر العصور الإسلامية

المختلفة، فهناك فصل عند معظم المؤرخين بين التاريخ الإسلامي وتاريخ العصر الحديث وكأن المسلمين لا أثر لهم في هذا العصر.

وقد حاولت الربط بين تاريخ الإسلام بشكل موحد منذ أيام الرسول ﷺ إلى يومنا الحاضر، ومن المعلوم أن الموضوعات الحضارية والجهادية من الصعب إيقافها في فترة زمنية معينة ومن الأولى دراستها عبر العصور.

كما أن بعض من ألفوا حديثًا في هذا الموضوع لم يهتموا بالتأصيل من المصادر الأصلية وإن أفادوا في العديد من القضايا، ولكن تقصير أهل الاختصاص جعل لكتاباتهم مكانة على الساحة، كما أن بعضهم قد استعان بكتابات المستشرقين التي كان لها صدى على الساحة العلمية العربية فترة من الزمن.

وقد كان منهجي في هذا الكتاب هو الأخذ عن المصادر الأصلية أولاً، كما أنني أخذت عن بعض المراجع الحديثة وخصوصًا ما تعود فيه تلك المراجع إلى مصادر مترجمة أو غير متوفرة بين يدي، مع توخي الحذر والحيطة في هذا المقام.

ومن خلال متابعتي لبعض الأحداث في العديد من المصادر الأصلية اكتشفت أن بعضًا منها يهمل أحداثًا هامة، فقد لا يذكر الحدث إطلاقًا أو قد يمر به مرور الكرام كما فعل الطبري في حديثه عن فتح الأندلس.[1]

ولا يفوتني التنويه أن هذه الطبعة الخامسة من الكتاب قد احتوت على مواضيع جديدة؛ وأجريت تعديلات واضافات على الخرائط وإعادة رسمها بطريقة تسهل قراءتها ومتابعة سير عمليات الفتوح بالاضافة لبعض الصور المناسبة.

وقد بدأت هذا الكتاب بتمهيد: تحدثت فيه عن مفهوم الفتوح وأهدافها في الإسلام، ومبشراتها الأولى في القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله ﷺ.

وتحدثت في الفصل الأول: عن الفتوح في أيام رسول الله ﷺ، واخترت عددًا من المعارك، ومنها غزوة بدر وغزوة أحد، والخندق وخيبر ومؤتة وفتح مكة وغزوة

١. انظر: تعليق ابن الأثير على إهمال الطبري لهذه الحادثة وقارن بين ما كتبه الطبري وما كتبه ابن الأثير في: الطبري، تاريخه، ج ٨/٨٢. ابن الأثير، الكامل، ج ٤/٥٥٦ ـ٥٦٧.

حنين والطائف وغزوة تبوك، وحرصت على الروايات الصحيحة في البحث عمومًا، وفيما يتعلق بأحداث السيرة خصوصًا، حيث حرصت على الأخذ من كتب الحديث، والاستفادة من كتب المغازي والسير.

وفي الفصل الثاني: انتقلت للحديث عن عصر الراشدين، حيث مررت بالأحداث المهمة للفتوح في عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فتطرقت لموقعة اليمامة، كأهم معارك الردة، ثم تطرقت لفتح الشام والعراق وأهم المعارك التي جرت في عهده رضي الله عنه وانتقلت بعد ذلك للحديث عن عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفتوح الشام والعراق في أيامه رضي الله عنه، ثم فتوح مصر والجزيرة في عهده رضي الله عنه، وانتقلت بعد ذلك للحديث عن عهد عثمان ابن عفان رضي الله عنه حيث تطرقت لفتح أرمينية، وفتوح البحر: قبرص وذات الصواري، كما تحدثت عن فتوح إفريقيا في أيامه رضي الله عنه وانتقلت بعد ذلك للحديث عن نهاية عهد الخلفاء الراشدين في عصر علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي الفصل الثالث: انتقلت للحديث عن عصر الدولة الأموية وأهم الفتوح في ذلك العصر حيث تطرقت للصراع مع الروم، ولفتح شمال أفريقيا والسند، وبلاد ما وراء النهر والأندلس.

وفي الفصل الرابع: انتقلت للحديث عن الفتوح في عصر العباسيين، حيث مررت بحركة الجهاد في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم، كما تطرقت لجهاد الغزنويين في بلاد الهند، ومررت بجهاد السلاجقة حيث تحدثت عن موقعة «ملازكرد».

وفي الفصل الخامس: انتقلت للحديث عن الجهاد في عصر الحروب الصليبية، حيث تحدثت عن بدايات الجهاد، وركزت على دور عماد الدين زنكي وابنه محمود، ثم انتقلت للحديث عن صلاح الدين الأيوبي، وأهم المعارك بينه وبين الصليبيين وعن تحريره لبيت المقدس، كما تحدثت عن خلفاء صلاح الدين من بني أيوب، وتطرقت لدور المماليك في جهاد الصليبيين وقضائهم النهائي على آخر المعاقل الصليبية.

أما الفصل السادس: فقد كان عن الغزو المغولي للعالم الإسلامي، حيث تحدثت عن مواجهة المسلمين لهذا الغزو، وتحدثت عن سقوط بغداد في يد المغول، وعن

هجومهم على الشام، ثم تحدثت عن موقعة عين جالوت.

وفي الفصل السابع والأخير: تطرقت للحديث عن العصر العثماني حيث ذكرت بداية الدولة العثمانية وتوسعها في الأراضي البيزنطية، وجهادها المختلف ضد الروم وفتوحها في أوروبا وفتح القسطنطينية وصراعها مع نصارى أوروبا في البلقان ومع الروس في شرق أوروبا، وتطرقت لدفاعهم عن العالم الإسلامي في البحر الأحمر والخليج العربي. كما تحدثت خلاله عن سقوط الأندلس بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بها، وقد حاولت أن يكون الكتاب مرجعًا مؤصلاً للمهتمين بتاريخ الجهاد وانتشار الإسلام.

وأشكر مركز أبحاث دار السلام لعملهم على تحديث الخرائط واختيار بعض الصور المناسبة للكتاب، كما أشكر الأستاذ/ مصعب بشير على متابعة الإخراج لهذه الطبعة ومراجعة الصور والخرائط.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به وأن يغفر لي ما فيه وما في غيره من زلات، إنه غفور حليم، والحمد لله وحده.

# تمهيد

## مفهوم الفتوح:

الفتح في اللغة نقيض الإغلاق، ويقصد به هنا افتتاح دار الحرب ودخول دار العدو، وجمعه فتوح، كما يأتي الفتح بمعني النصر والغلبة، وقد وردت لفظة «الفتح» في العديد من الآيات القرآنية ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح: ١).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح: ١٨).

وقوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الصف: ١٣).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾(النصر: ١).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (الحديد: ١٠).

ولا يقتصر مفهوم الفتوح على الانتصار العسكري فحسب، بل يتعداه إلى الانتصار في مختلف الميادين العسكرية والأدبية والأخلاقية، التي سببت مجتمعة دخول الأقوام في البلاد المفتوحة عسكريًا في دين الإسلام بقناعة ورضا، مما سبب انتصار عقيدة التوحيد على الشرك في تلك البلدان.

فكلمة «الفتوح» بهذا المفهوم الشامل تعني ما قام به المسلمون من جهاد وفتح للبلدان وتمهيد لدعوة الله وتبليغ دين الإسلام إلى خلق الله وتحطيم قوى الشر التي كانت تمنع المسلمين والناس من ذلك في البلاد المختلفة، وتشمل الأحداث العسكرية وما صاحبها من دعوة ابتداءً من الرسول ﷺ، وتبرز واضحة بمفهومها الخاص في انطلاقتها الكبرى والمباركة أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومن تلاه من الخلفاء الراشدين، مرورًا بالعصور الإسلامية الأخرى المختلفة، كالعصر الأموي، والعباسي، وأيام الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وغيرهم من الدول الإسلامية التي تلتهم أو عاصرتهم، وما حدث في تلك العصور من حركات جهادية مميزة يصح أن تدخل ضمن أحداث الفتوح والجهاد، ومنها ما حدث من حركات جهادية معاكسة استهدفت رد الأعداء والمحافظة على ما تم فتحه سابقًا.

## أهداف الفتوح:

لقد بعث الله سبحانه وتعالى رسوله محمد ﷺ إلى الناس كافة بدين الإسلام كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبأ: ٢٨).

وقد وعد الله بنصر هذا الدين وإظهاره في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:٣٣).

ومن هذا المنطلق فإن الرسول ﷺ قد بذل جهده وسعى لتبليغ هذا الدين إلى كافة الناس دون إجبارهم على الدخول فيه، كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وقال تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (المائدة: ٩٩).

وقد حاولت قوى الشرك المختلفة في مكة وفي غيرها أن تمنعه من تبليغ دعوته، وتمنع الناس من الاستماع إليها، فاضطر إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، بعد أن حاولت قريش قتله والخلاص منه، ثم أخذ يجاهد المعاندين للإسلام، من مشركي العرب ومن اليهود وغيرهم، كما قام ﷺ بمراسلة ملوك العالم في زمانه عارضًا عليهم دعوة الإسلام، حيث كتب إلى هرقل ملك الروم، وإلى كسري ملك الفرس، وهما أقوى دولتين في العالم في ذلك الوقت وعرض عليهما رسول الله ﷺ الإسلام، إلا أنهما أصرا على الكفر والمعاندة.

وفي الوقت نفسه كان يخوض المعارك الجهادية ويقوم بفتح البلاد في جزيرة العرب حتى دانت كاملة للإسلام في زمانه ﷺ رغم ما حدث من ردة في بعض أجزائها في أواخر حياته ﷺ.

وبعد وفاته ﷺ انشغل المسلمون بقيادة أبي بكر الصديق ﵁ في موجة أخرى من الفتح والجهاد كانت في أولها موجهة للمرتدين من قبائل العرب، وما أن فرغت منها جيوش الإسلام حتى وجهها أبو بكر الصديق ﵁ في وقت واحد لجهاد أقوى دولتين في العالم في ذلك الوقت هما فارس والروم، وكان هدف الجهاد الأول تبليغ دعوة الإسلام إلى الشعوب في تلك الدول التي كانت قواها تمنع ذلك، وكانت أنظمتها تحجب الناس عن رؤية الحق، وكان الفاتحون المجاهدون يعرفون موقف الإسلام من الدعوة وأنه لا إكراه في الدين، ولذلك فإنهم كانوا يعرضون على الأعداء ثلاثة

أمور قبل الدخول معهم في أي معركة: إما الإسلام، أو الجزية، أو القتال وهو آخر الخيارات، فإن هم أسلموا فهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وأن هم دفعوا الجزية فإن لهم حقوقًا كان المسلمون أوفى الناس بها لهم، ويقوم المسلمون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بينهم، وأما الإجبار على الدخول في الإسلام فلم يكن واردًا على الإطلاق لقوله تعالى:

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾(التوبة: ٢٩).

- كما أن الجهاد والفتح كان يهدف إلى رفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين الذين وقعوا تحت أيدي الطواغيت وأولياء الشيطان، قال تعالى:

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٥ ـ ٧٦).

- كما أن الكفار كانوا يحاولون القضاء على دين الإسلام بالقتال إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، قال تعالى:

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾(البقرة: ٢١٧)

ومن هذه المنطلقات فإن الحروب التي جرت بين المسلمين وأعدائهم لم يكن هدف المسلمين منها قتل الناس ومصادرة الأموال، أو إجبار الناس على الدخول في الإسلام بالقوة، وإنما كان الهدف منها إعطاء الناس الحرية الكاملة في الاختيار، وألا يحول بينهم وبين اختيار الدين الصحيح أيّ قوة أو أيّ دولة، ثم وكما جاء في قوله تعالى:

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ (الكهف: ٢٩).

ونتيجة لهذه الحرية أخذ الناس في البلاد المفتوحة يفكرون في الإسلام بعقلية سليمة متحررة من ضغوط قوى الطواغيت المختلفة، فحققت الدعوة الإسلامية بينهم نجاحًا كبيرًا فدخل الناس في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجًا كما وعد الله، وأصبحوا يدافعون عنه كما دافع المسلمون الأوائل، وأصبحت كلمة الله هي العليا، وهذا أهم أهداف الفتوح التي من أجلها جاهد المسلمون في العصور المختلفة.

## مقدمات الفتوح:

إن دعوة الإسلام منذ ظهورها عالمية الطابع كما قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ (الصف: ٩).

وقد ربّى القرآن الكريم المسلمين على الإيمان والعمل الصالح ووعدهم الله سبحانه وتعالى بالنصر وتحقيق السيادة في الأرض إن هم حققوا ذلك في أنفسهم، كما قال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ (لنور: ٥٥).

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

وقال تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (القصص آية: ٥).

ومن هذه الأسس فإن الرسول ﷺ كان يعد نفسه وأصحابه وبقية أمته لفتح العالم بهذا الدين الجديد، فكان يبشر أصحابه في مكة بذلك مثل قوله:

((وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّه)).[١]

وحينما كان الرسول ﷺ في مكة يعرض نفسه على القبائل في أحد مواسم الحج قبل الهجرة عرض نفسه على بني بكر بن وائل، على أن يهاجر إليهم ﷺ وأن ينصروه على من جاورهم من العرب، واعتذروا عن نصرته على الفرس المجاورين لهم وقالوا: إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، فردَّ عليهم رسول الله ﷺ إن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه الله من جميع جوانبه، وأخبرهم الرسول ﷺ أنهم لن يلبثوا إلا قليلاً حتى يورثهم الله أرض وأموال الفرس، وقد كان ضمن الوفد المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه.[٢]

كما روى ابن إسحق عن جابر بن سمرة بسنده أن رسول الله ﷺ قال:

((لَتَفْتَحَنَّ أرض كِسْرَى عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)).[٣]

وهذا يعني أن الرسول ﷺ يؤكد قرب فتح المسلمين ونشرهم للدين في بلاد الفرس أو غيرها التي كان من ضمنها العراق، وحينما كان الرسول ﷺ في طريق الهجرة من مكة إلى المدينة عرض له سراقة بن مالك فأخبره ﷺ أنه سيلبس سواري كسرى وتاجه، وهذا يعني أن المسلمين سيفتحون بلاد فارس ومن ضمنها ما كان تحت حكم الفرس كالعراق وغيرها.[٤]

وفي أثناء حفر الخندق قبيل غزوة الأحزاب في السنة الخامسة من الهجرة اعترضت لبعض الصحابة صخرة فقام الرسول ﷺ ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبر وكبر المسلمون معه ثم ضربها ثانية فبرقت فكبَّر وكبَّر المسلمون

١. رواه البخاري: فتح الباري، ج٧/١٩٥. وأخرجه أحمد في مسنده، ج٥/١١٠.
٢. الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٢/٥٩٦.
٣. ابن إسحاق: السيرة، ص ٢٧١. وانظر: أحمد بن حنبل، المسند، ج٤/٨٩، ١٠٠.
٤. ابن حجر، الإصابة، ج٢/١٩.

معه، ثم ضربها ثالثة فكبر وكبر المسلمون معه وقال ﷺ إثر الضربة الأولى:

((اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لأَنْظُرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ، فَكَسَرَ ثُلُثَهَا الآخَرَ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لأَنْظُرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الأَبْيَضَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللهِ إِنِّي لأَنْظُرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا))،[١]

وبهذا كان ﷺ ومن معه من الصحابة متيقنين أنهم سيغلبون تلك الممالك، ويفتحون ديارها ومنها كما ورد الحيرة[٢] وغيرها مما هو تحت سيطرة الفرس، وكانوا ينتظرون هذه الأيام ويستعدون لها، ولذلك فإن المسلمين حين أقبلوا على المدائن قبل فتحها وشاهدوا القصر الأبيض صاحوا مكبرين قائلين: الله أكبر أبيض كسرى هذا ما وعد الله ورسوله.

وقد بدأ الرسول ﷺ إتصالاً سلميًا بهذه المماليك عن طريق مكاتبة ملوكها، قبل الحرب والجهاد، حيث دعاهم في تلك الكتب إلى الإسلام،[٣] وعرضه عليهم، وبلغهم إياه، حتى يعذر إليهم أمام الله وأمام الناس في حال مقاتلتهم.

١. رواه أحمد في مسنده، ج٤/٣٠٣، وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر ( انظر: د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج٢/٤٢٣. ود. مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، ص ٤٤٩، هامش ٤٢).

٢. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٥.

٣. انظر: حول تلك الكتب، خالد سيد علي، رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء، الطبعة الأولى، دار التراث، الكويت، ١٤٠٧هـ.

الفصل ١

# عصر السيرة النبوية

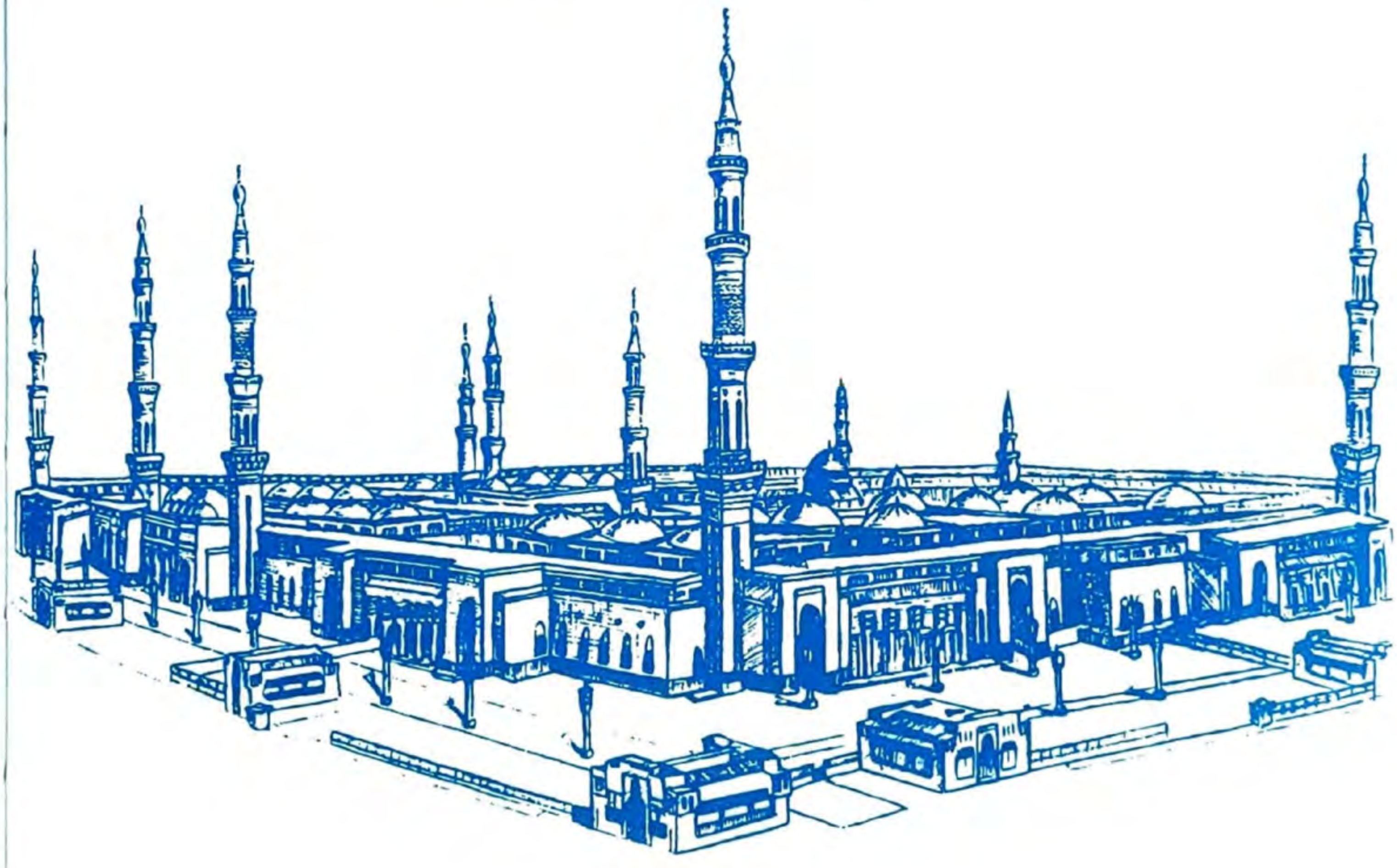

# عصر الرسول ﷺ

استمر الرسول ﷺ بعد بعثته ثلاث سنوات يدعو سرًا إلى الإسلام، الدين الجديد على أهل مكة، وفي هذه المرحلة لم يواجه أذى يذكر من مشركي مكة ومعانديها، وبعد ذلك نزل عليه أمر الله تعالى بالجهر بالدعوة في قوله:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)

وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام، حيث بدأ الرسول ﷺ ومن آمن معه يتلقون مختلف أنواع الأذى، صابرين على الابتلاء، وقد أمروا بذلك، لم يكونوا في هذه المرحلة يوجهون جهودهم لمقاومة كفار مكة، وإنما كان كثير منهم يخفي إسلامه حيث كانوا يجتمعون سرًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقوا برسول الله ﷺ ومعه بقية المؤمنين، وقد استمرت هذه المرحلة قرابة عشر سنوات كان الرسول ﷺ في أواخرها يبحث له ولأصحابه عن مقر يؤويهم، ويمنعهم من أذى قومهم، وقد وضع الرسول ﷺ نصب عينيه وهو يبحث عن دار للهجرة أن تكون مقرًا لدعوة الإسلام، ومنزلاً لحكومتهم، ومقرًا لمعسكره انتظارًا لإذن الله لهم بالجهاد.

## وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين

وقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، بعد أن اتفق مع الأنصار في بيعة العقبة على شروط، تُمكّن الرسول ﷺ من الجهاد عند الإذن له بذلك من الله تعالى.

وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وظل يبني المجتمع المسلم ودولته في المدينة ويدرب أصحابه على الجهاد من خلال سرايا مختلفة وتدريبات عامة، لكنه لم يبدأ جهاد المشركين إلا بعد أن نزل عليه قوله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٣٩ ـ ٤٠).

وأتى الإذن بالقتال للمسلمين بعد أن أصبحت لهم بلد ودولة وقوة تمكنهم من ذلك، ثم تبع مرحلة الإذن مرحلة فرض القتال ضد من يقاتل المسلمين في قوله تعالى:

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة: ١٩٠).

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

ثم فرض قتال المشركين كافة، في قوله تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (التوبة: ٣٦)

وهكذا أصبح الجهاد مأمورًا به للمؤمنين.[١]

وقد خاض الرسول ﷺ العديد من المعارك في حياته، حيث بلغت غزواته ﷺ (٢٧) غزوة كما بلغت سراياه التي بعثها أكثر من (٤٧) سرية،[٢] ولن نتحدث عن جميع غزواته أو سراياه ﷺ، لكن سنختار منها ما نتصور أن له تأثيرًا أكبر على مجريات الأحداث في صراعه ﷺ مع قوى الكفر، مع قناعتنا أن جميع تلك الأحداث لها دورها المشهود الذي لا يستهان به.

---

١. انظر: صالح أحمد الشامي، من معين السيرة النبوية، ص ١٧٨.

٢. ابن سعد، غزوات الرسول ﷺ وسراياه، ص ٦.

# معركة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ).[1]

تعد هذه المعركة أشهر المعارك في التاريخ الإسلامي على الإطلاق حيث سماها الله سبحانه وتعالى يوم الفرقان، في قوله تعالى:

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(الأنفال: ٤١).

ومن أسبابها أن رسول الله ﷺ كان يتتبع أخبار قريش ويتربص بهم، وقد آذوه وأخرجوه وأصحابه من ديارهم، وسطوا على أموالهم وسجنوا بعضهم وعذبوهم، فعلم ﷺ أن عير قريش قد قدمت من الشام في طريقها إلى مكة، وهي بالقرب من المدينة، فندب الرسول ﷺ من كان حاضرًا من الصحابة للخروج معه،[2] وخرج معهم على عجل دون استعداد، وكان يصحبه ﷺ «بضعة عشر وثلاث مئة»[3] رجل أكثرهم راجلة، ليس معهم سوى فرسين وسبعين بعيرًا،[4] كانوا يظنون أنهم سيلقون العير (القافلة) وأنهم لن

---

١. لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ومروياتها وتخريج تلك المرويات، انظر: أحمد محمد العليمي باوزير، مرويات غزوة بدر، الطبعة الأولى، مكتبة طيبة، الرياض، ١٤٠٠هـ.

٢. انظر: حديث البخاري، (فتح الباري)، ج ١٥/ ١٤٧. وانظر: شرح ابن حجر للحديث. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٠٦.

٣. من حديث البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/ ١٥٦.

٤. الواقدي، المغازي، ج١/ ٢٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ١٢.

بدر الكبرىٰ
والغزوات الأخرى
﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ... ﴾
(آل عمران: ١٢٣/٣)
(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)
كيلومترات
100
200
300
400
أذرح
معان
مؤتة
العقبة
أيلة
دومة الجندل
سيناء
تبوك
مدين
النفود الكبرى
تيماء
المويلح
ضبا
مدائن صالح (حجر)
العُلاء
الوجه
بحر القلزم (البحر الأحمر)
نجد
ذات الرقاع
خيبر
فدك
وادى القرىٰ
نوأمر
ذوقَرَد
مصر
الحجاز
أُحد
بنولحيان
بواط
المدينة المنورة
العُشيرة
بنوقريظه
بنوالنضير
ينبع
بدر
حمراء الأسد
السويق
بنوسُليم
صحراء النوبة
ودان
بحران
رابغ
المريسيع
نجد
الحديبية
مكة المكرمة
حنين
الطائف

يلقوا قتالاً، ولذلك فإنهم لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكامل للمعركة.

كان قائد قافلة قريش أبو سفيان بن حرب، وكان حذرًا خائفًا على أموال القافلة التي معه، ولذلك كان يتحسس الأخبار على وجل من المسلمين، فعلم أن الرسول ﷺ قد خرج في طلبه والعير التي معه، فغير الطريق التي كان يسلكها وسار بالعير بالقرب من الساحل في طريق لم يكن المسلمون يتوقعونها، وفي الوقت نفسه أرسل إلى قريش في مكة يستنفرها لتنقذ قافلتها من المسلمين، وخرجت قوات قريش مسرعة لتنقذ العير ـ بزعمها ـ، يترأسها الحكم بن هشام «أبو جهل»، وخرج معه كبار رجالات قريش وشجعانها ورؤوس الكفر والمعاندون لله ورسوله من أهلها،[1] ونجح «أبو سفيان» في إنقاذ العير من المسلمين، واقترب من مكة وأمن على قافلته، وأرسل مندوبًا إلى أهل مكة، يبلغهم بنجاة العير، ويطلب منهم العودة إلى مكة.

ولكن «أبا جهل» زعيم كفار قريش أصر على التحدي والكبر والخيلاء، حيث أعلن أنه لن يرجع حتى يرد ماء بدر وينحر الإبل ويطعم الطعام ويشرب الخمر، وتعزف القيان، وتسمع العرب بمسيرهم، فتكون هيبة لهم طول الدهر، وبالفعل واصلوا مسيرتهم إلى بدر هدفهم المنشود.[2]

علم ﷺ بتحرك قريش فجمع الصحابة ليستشيرهم، وكان ﷺ وهو المعصوم المسدد يستشير أصحابه دائمًا لأمور هامة، منها أمران رئيسان:

١. انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج ١٤٧/١٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦٠٩/٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١٣/٢.

٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦١٨/٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١٣/٢. الواقدي، المغازي، ج٤٢/١.

الأول: توحيد صفوف المسلمين وتطييب خواطرهم، وهو أمر مهم جدًا خصوصًا مع الأنصار في هذه المرحلة وهم أهل الدار.

والثاني: الوصول إلى القرار الأصوب.

وطرح ﷺ الأمر على جموع صحابته المرافقين له قائلاً لهم: ((أشيروا عليَّ أيها الناس))، وتكلم جمع من المهاجرين فيهم أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)، وكان من المتكلمين المقداد بن عمرو الذي قال: (يا رسول الله والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون،[1] ولكن اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه). فدعاء له الرسول ثم قال مرة أخرى: ((أشيروا عليَّ أيها الناس))، وكان ﷺ يريد رأي الأنصار فهم أهل الدار، وهم الأكثرية ويريد ﷺ أن يكسب قلوبهم ولا يتصرف إلا بقناعة منهم تحافظ على الصف المسلم، خصوصًا وهي أول لقاء بين الرسول ﷺ وجنده من المهاجرين والأنصار، وبين قريش ورؤوس الكفر فيها، فبادر سعد بن معاذ رضي الله عنه يقول: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فأجاب ﷺ: ((أجل))، فرد سعد بالثناء على رسول الله ﷺ ، وذكر لهم أنهم على عهده وقال: (يا رسول الله امض لما أردت فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله).[2]

فسر رسول ﷺ بقول سعد ودعا له وللمهاجرين والأنصار، واطمأن إلى موقف جنده من اللقاء.

فسار وسار معه الصحابة، وهو يقول لهم سيروا وابشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وذلك مصداق لقوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ

---

١. من الآية (٢٥) من سورة المائدة، انظر حول هذه المشاورة: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٢١٥. وقارن بحديث البخاري (فتح الباري)، ج١٥/١٥١.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦١٥. وانظر: تخريج هذه الحادثة بالتفصيل عند د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٣٥٩. د. مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص٣٤١.

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال:٧).

وسار الرسول ﷺ ومن معه باتجاه بدر، وهم موقنون أنهم سينالون عير قريش أو جيشها ونزل المسلمون قرب بدر وهم يتحسسون الأخبار عن الأعداء، وعلم ﷺ أن القوم ما بين التسع مئة إلي الألف، وعرف من في الجيش من صناديد قريش فقال ﷺ: ((هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كبدها)) وتيقن الرسول ﷺ ومن معه أن المواجهة ستكون مع ذات الشوكة شجعان مكة وفرسانها، وأن العير قد فاتتهم.

وجاء الخباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ وقد كان نزول المسلمون أدنى ماء بدر فقال متأدبًا مع الرسول يعرض عليه رأيًا صائبًا: (يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال ﷺ: ((بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ))، فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من القلب ونبني عليه حوضًا ونملؤه ماء فنشرب ولا يشربون)، فدعاء له الرسول ﷺ، وقال: ((لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ))،[١] وكان هذا الموقف من الرسول القائد ﷺ درسًا عظيمًا في استماع القائد إلى رأي جنده للوصول إلى الموقف الأسلم، واتخاذ الأسباب الدنيوية والمادية مع التوكل على الله وهو الأساس في كل تحركاته ﷺ.

وكان الرسول ﷺ يخبر بمصرع عدد من زعماء مشركي قريش، ويُري الصحابة الأماكن التي سيصرعون بها،[٢] مما زاد من يقينهم بنصر الله لهم.

وبنى الصحابة ﷺ عريشًا لرسول الله ﷺ.[٣] يخلو فيه بعض الوقت للدعاء والصلاة، مع بقائه في مقدمة الصفوف في القتال فقد كان أشجع الشجعان ﷺ.

وصلت قريش قبل المعركة، فلما أقبلت قال ﷺ:

---

١. من رواية ابن إسحاق، (ابن هشام): السيرة النبوية، ج٢/٦٢٠. انظر: تخريج هذه الحادثة عند د. رزق الله، السيرة النبوية، وقد حكم عليها بأنها رواية حسنة لغيرها، ص ٣٤٥.

٢. انظر: الواقدي، المغازي، ج١/٤٩. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦١٥. وانظر: تخريج ذلك عند د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٣٥٩. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٣٤٤.

٣. من حديث للبخاري، (فتح الباري)، ج١٨/٢٥٤. الواقدي، المغازي، ج١/٤٩. انظر: تخريج ذلك عند د. أكرم العُمري: السيرة النبوية، ص ٣٤٦.

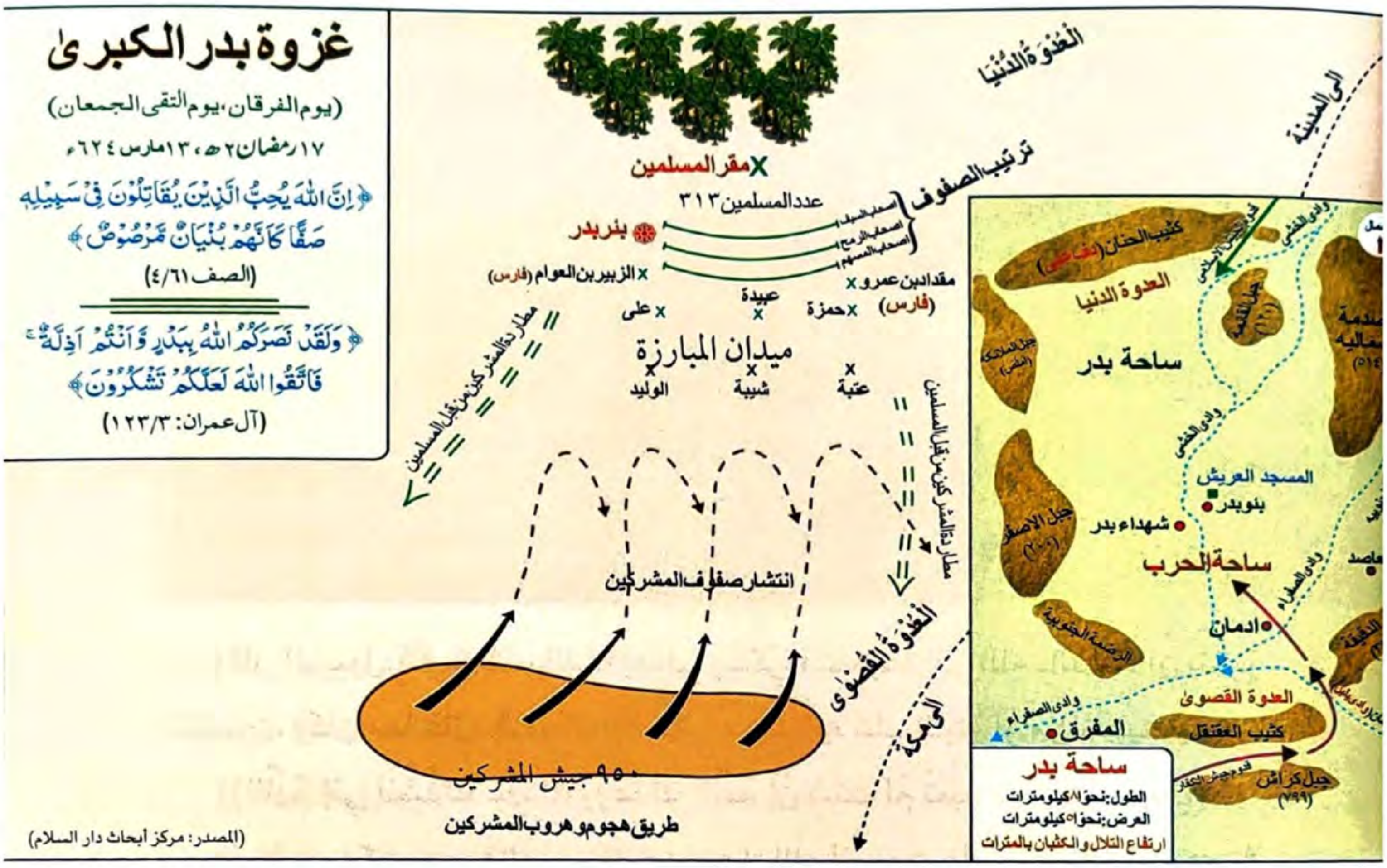


((اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخَيْلَائِهَا وَفَخْرِهَا تُحَادُّكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ فَأَحِنْهُمُ الْغَدَاةَ)).[1]

حاول بعض حُلماء قريش أن يثنوا قومهم عن الحرب ويقنعوهم بالرجوع إلى مكة، لكن «أبا جهل» وأمثاله من رؤوس الكفر، أفسدوا عليهم وأقنعوا قريشًا بالعناد والمجابهة ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.[2]

بات المسلمون ليلة بدر وهم يدعون الله ويتضرعون إليه بالنصر والفوز على الأعداء، وأنزل الله سكينته عليهم فكانوا هادئين وأصابهم النعاس، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١).

---

١. الواقدي، المغازي، ج١/٥٩.

٢. الواقدي، المغازي، ج١/٦٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/٦٢٢.

وكان الرسول ﷺ في تلك الليلة يصلي ويبكي متضرعًا إلى الله بالدعاء أن ينصر المؤمنين. وكان مما قال في دعائه ﷺ في العريش في تلك الليلة أو من صبيحتها:

((اللّهُمّ إني أنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللّهُمّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْم أبدًا)).

فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو في الدرع يقول:

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر:٤٥ ـ ٤٦).[1]

أما مشركو قريش فقد باتوا يأكلون ويشربون الخمر وتعزف لهم القيان، ويفاخرون بقوتهم وما أوتوا من الماديات، ويصرون على كفرهم وشركهم ومعاندتهم لله ورسوله.

وفي صبيحة يوم المعركة صلى المسلمون خلف رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة خطبهم وحضهم على القتال والصبر.

ثم أشرف الرسول ﷺ بنفسه على تنظيم صفوف المسلمين، وتوجيههم، وكان مما قال لهم ﷺ: ((إِذَا أَكْثَبُوكُمْ ـ يعني أكثروكم ـ فَارْمُوهُمْ وَاسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ))،[2] وكان ﷺ يعجبه الرمي ويحث عليه، وبينما رسول الله ﷺ يسوي الصفوف إذا بـ «سواد بن

١. رواه البخاري (فتح الباري)، ج١٨/٢٥٤.

٢. من حديث البخاري (فتح الباري)، ج١٥/١٧٣.

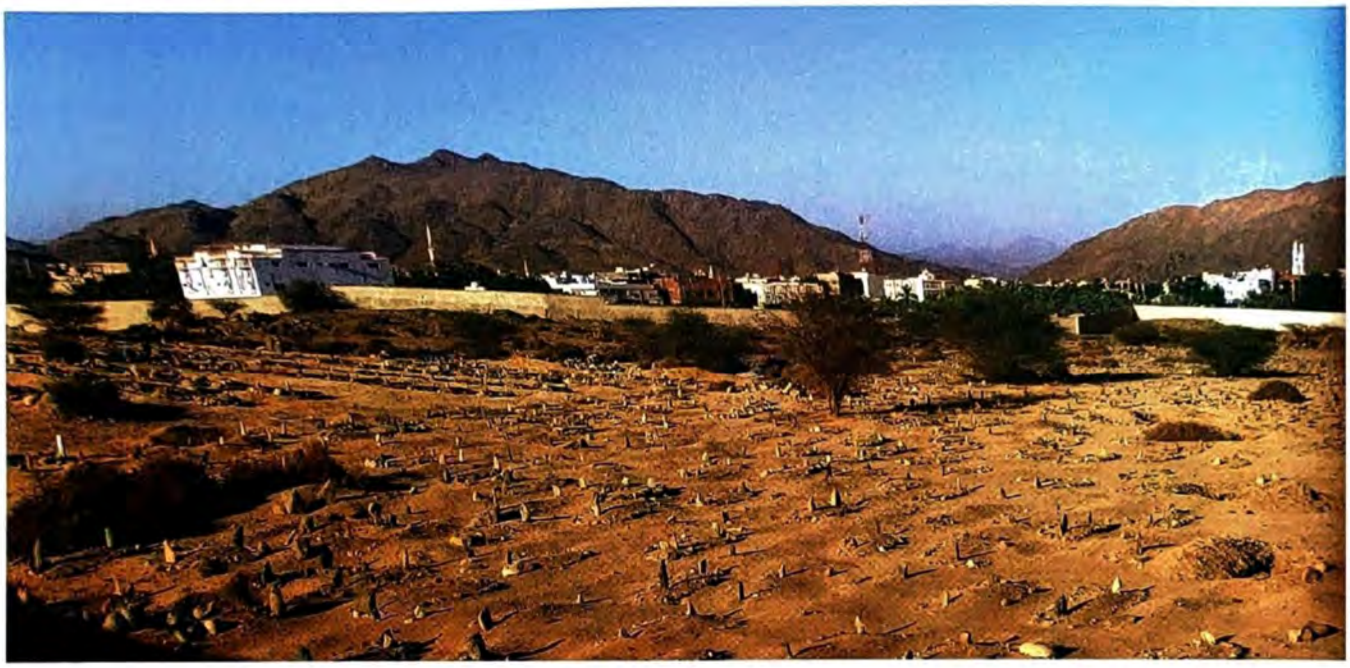

غُزية» ﷺ قد ند من الصف فيسوسه الرسول ﷺ بسهم كان في يده ويقول له استو يا سواد، فيقول أوجعتني يا رسول الله فدعني أقتد منك فيكشف له ﷺ عن بطنه الشريف ليقتاد لنفسه، فيقبل بطن رسول الله ﷺ. فيقول له الرسول ﷺ:

((مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ؟)) فيقول: يا رسول قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له ﷺ.[1]

وانتظر القوم أمر الرسول ﷺ ببدء القتال، ورجع الرسول ﷺ إلى العريش وأخذ يدعو ربه: ((اللّهُمّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ، اللهُمّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي))[2] ولم يزل يدعو وبجواره أبو بكر ﷺ حتى أشفق عليه فقال له: يا نبي الله بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك ثم أغفى إغفاءة ثم قال: (أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده)، فاستبشر المسلمون بعد أن خرج إليهم ﷺ، وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر:٤٥ ـ ٤٦).[3]

---

١. الواقدي، المغازي، ج١/٥٦ ـ ٥٧.

٢. انظر: الحديث السابق (فتح الباري)، ج١٨/٢٥٤.

٣. انظر: حديث البخاري الذي أوردناه سابقًا، ج ١٦/٢٥٤.

وأخذ ﷺ يشجع الناس على القتال ويذكرهم بالجنة ويبشرهم بنزول الملائكة معهم، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال:٩).

وفي قوله تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾(الأنفال: ١٢).

وفي الوقت نفسه أعدت قريش صفوفها واستعدت للقتال.

وقد حاول أحد القرشيين الشرب من الماء مخترقًا صفوف المسلمين، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه فقتله.[١]

ثم بدأت أول مبارزة في المعركة بين عتبة بن ربيعة وأخيه شيبة بن ربيعة وابن أخيه الوليد بن عتبة من المشركين، وبين حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث من المسلمين رضي الله عنهم وكلهم من آل النبي ﷺ وانتهت تلك المبارزة بمقتل المشركين الثلاثة وجرح عبيدة بن الحارث رضي الله عنه ثم استشهاده.[٢]

ثم التحم الجمعان وبدأت المعركة وأخذ الرسول ﷺ حفنة من الحصى ورماها على القوم وقال: ((شاهت الوجوه)).[٣] وفي هذا أنزل قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾( الأنفال: ١٧).

واشتد القتال بين الطرفين، وكان الرسول ﷺ في مقدمة الصفوف حتى أن

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٢٤. الواقدي، المغازي، ج١/٦٨.

٢. انظر: حديث البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (فتح الباري)، ج١٥/١٦١.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٧٠٦.

الصحابة كانوا يحتمون به ﷺ، وكان لكثير من الصحابة مواقف بطولية في هذه المعركة، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، وانهزم المشركون وقتل صناديدهم أمثال أبي جهل[١] و(عتبة بن ربيعة) و (أمية بن خلف) وغيرهم من كفار قريش الذين بلغ عددهم سبعين رجلاً، وولى الأحياء منهم الأدبار منهزمين لا يلوون على شيء.[٢]

وأقام المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة، دفنوا فيها شهداءهم، الذين بلغوا أربعة عشر شهيدًا،[٣] وأما قتلى المشركين فقد ألقوا في قليب بدر، ووقف عليهم رسول الله ﷺ:

((حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَةِ الرَّكِيِّ فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالَ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسَادٍ لَا أَرْوَاحَ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ قَالَ قَتَادَةُ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبِيخًا

١. انظر: إلى مقتل أبي جهل من حديث عبد الله بن مسعود عند البخاري (فتح الباري)، باب قتل أبي جهل، ج١٥/١٥٨.

٢. انظر: حديث أنس بن مالك عند البخاري (فتح الباري)، ج١٥/١٦٧. ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢/٦٢٥، ٦٣١، ٦٣٤، ٦٣٨، ٦٤٢. (وانظر: العنوان الذي وضعه لذلك، ص٧٠٨ ). الواقدي: المغازي، ج ١/ ٨٢، ٨٥، ٨٨، ٩٢، ١٠٠.

٣. انظر: أسماء شهداء المسلمين في بدر عند: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٧٠٦ ، ٧٠٧.

وَتَصْغِيرًا وَنَقِيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا)).[١]

وبعد ذلك عاد الرسول ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى المدينة سالمًا غانمًا فاستقبله المسلمون في المدينة بالسرور العظيم لسلامته ﷺ، ولانتصار المسلمين هذا النصر المبين.[٢]

وقد كان قسم آخر من سكان المدينة مغتاظين من انتصار المسلمين، حيث كان اليهود، والمنافقون وبقايا المشركين في المدينة يكرهون ما أصاب المسلمين من قوة وعزة ونصر.

وقد نزلت بعض الآيات في أحداث غزوة بدر ومنها قوله تعالى:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥
يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦
وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ
تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧
لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ
فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ
ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ
ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي
فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ
بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ

---

١. البخاري (فتح الباري)، ج١٥/١٦٨.

٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٦٤٣. الواقدي، المغازي، ج١/١٤٤.

أسماء شهداء بدر

ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾
وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ
بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن
تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾
(الأنفال: ٥ ـ ١٩).

ويقول الله سبحانه وتعالى عن أحداث هذه الغزوة في موضع آخر من السورة نفسها:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ
عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ

أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ
تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا
لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ
وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ
يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ
أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾(الأنفال: ٤١ ـ ٤٤).

بئر بدر

وتواصل بقية سورة الأنفال الحديث عن بعض القضايا المتعلقة بالجهاد عمومًا وبغزوة بدر خصوصًا، وأصبحت تلك السورة تسمى سورة الجهاد، وداوم المسلمون على قراءتها في صفوف القتال قبل المعارك في كل غزوات الفتح، وخصوصًا في عهد الراشدين حيث كانوا يعينون القراء في كل جيش لتلاوتها نظرًا لأهمية تعلم وقراءة هذه السورة لما فيها من معاني الجهاد وقواعده.

وكانت غزوة بدر هي أول انتصار للمسلمين على مشركي مكة، وقد تناقل العرب أخبارها، وعلم الناس بعدها أن المسلمين أصبح لهم قوة يحسب لها حسابها.

# غزوة أحد (شوال سنة ٣ هـ).[١]

ما كانت قريش لتسكت بعد هزيمتها في بدر، ولذلك فإنها أخذت تعد العدة لغزو المسلمين في المدينة، وقام أعداء الإسلام كل منهم بدوره، فالذين قُتل آباؤهم أو أبناؤهم أو أحد من أهليهم كانوا يسيرون في الناس ليحرضوهم على رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وكان اليهود يدورون في مكة ويشتركون في تحريض زعمائها، والمنافقون في المدينة يعدون قريشًا ويمنونهم بالمساعدة إن قدموا لاستئصال محمد ومن معه من المسلمين ويتحملون الإعداد المادي لذلك، وفيهم نزل قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٦).[٢]

١. ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠١ . ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٦٠.

٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٦٠. الواقدي،المغازي، ج١/١٩٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧١.

وتم استعداد قريش ومن حالفها من قبائل تهامة وغيرهم، وتوجه جيشها بحديده ورجاله وعبيده، وبعض نسائه يقصدون المدينة وقد بلغ تعدادهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.[١]

في هذه الأثناء كانت الأخبار تأتي لرسول الله ﷺ من عيونه في مكة عن تحركات القوم بالتفصيل.[٢]

جمع الرسول ﷺ المسلمين واستشارهم في الأمر كعادته، واختلفت آراؤهم، فمنهم من رأى الخروج للقاء الأعداء خارج المدينة وكانوا الأكثرية، ومنهم من رأى البقاء في المدينة، وقتال المشركين من داخلها إن هم قدموها، وكان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الثاني وهو البقاء داخل المدينة،[٣] ولكن أصحاب الرأي القائل بالخروج للقاء القوم كانوا من شجعان المسلمين وأكثروا على الرسول ﷺ، فدخل داره ثم خرج إليهم وقد لبس درعه وسلاحه واستعد للقتال، فندم الذين أكثروا على الرسول ﷺ بالخروج وقالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فأقعد. فقال ﷺ:

((إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهُ حَتَّى يُقَاتِلَ)).[٤]

كان ﷺ قد رأى رؤيا قصها على أصحابه، ومنها كما روى البخاري قوله:

---

١. ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٢. الواقدي، المغازي، ج١/٢٠٢، ٢٠٣، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٧٣.
٢. الواقدي، المغازي، ج١/٢٠٧. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٣٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٧٣.
٣. ابن إسحاق، السيرة، ص ٣٠٢. الواقدي، المغازي، ج١/٣١٠. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٤/٢٧٥ .
٤. الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٣/ ٣٥١. وانظر: تخريج الحديث عند رزق الله، السيرة النبوية، ص ٢٨١ .

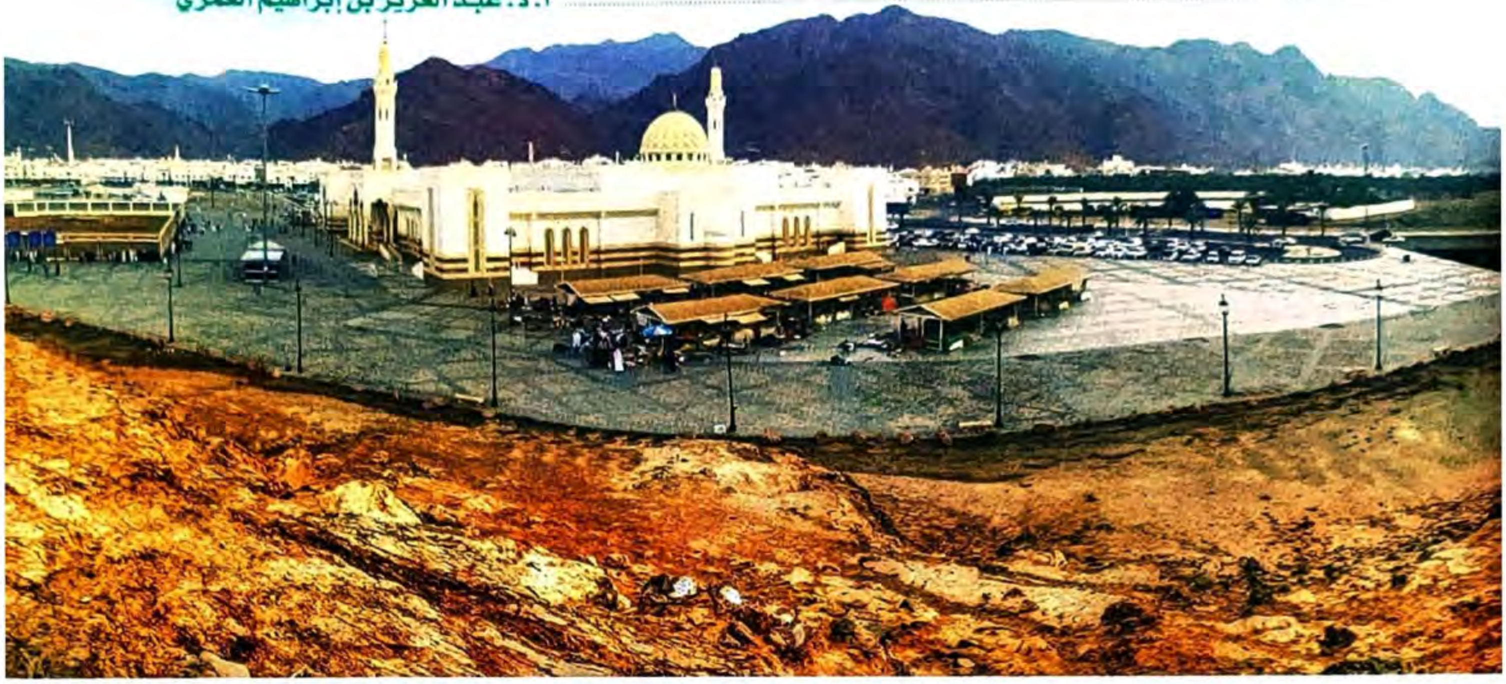

((وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفًا، فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ، فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ، ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَى فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ، فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضًا بَقَرًا وَاللَّهُ خَيْرٌ، فَإِذَا هُمُ النَّفَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ)).[1]

وكانت قريش قد نزلت أحد الأودية بالقرب من المدينة فخرج الرسول ﷺ ومعه ألف من أهل المدينة، وفي الطريق إلى أحد رجع زعيم المنافقين عبد الله بن أبي سلول، ومعه ثلث الجيش خاذلين لرسول الله ﷺ، وزعم ابن أبي أنه ما فعل ذلك إلا لأنه كان يرى البقاء في المدينة، وثبت المؤمنون مع رسول الله ﷺ.[2]

كانت أحد منزل رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين. واختار الرسول الموقع بنفسه، ونظم صفوف المسلمين فيه حيث جعل مركز الجيش الشعب، وجعل جبل أحد من خلفهم، واختار جبلاً صغيرًا أمام القوم وعين فيه من الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جبير ﷺ وأوصاهم أن يثبتوا في مكانهم حتى يأتيهم أمر الرسول ﷺ وأن ينضحوا المشركين عن المسلمين بالنبل، حتى لا يأتوهم من الخلف. وأوصاهم بالثبات مهما كانت نتيجة المعركة وانتظار ما يصدر لهم من أوامر الرسول ﷺ. روى البخاري في

---

١. البخاري (فتح الباري)، ج١٤/١٢٣. وانظر: الروايات الأخرى عند الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٧٤.

٢. الواقدي، المغازي، ج١/٢١٩. ابن سعد، الطبقات، ج٢/٣٩. وانظر: البخاري، فتح الباري، ج١٥/٢٣٢.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمّر عليهم عبد الله، وقال:

((لاَ تَبْرَحُوا، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلاَ تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلاَ تُعِينُونَا)) الحديث.[1]

واختار الرسول ﷺ مصعب بن عمير ﷺ لحمل لواء المسلمين، وتولى الرسول ﷺ ترتيب صفوف أصحابه المجاهدين معه، وذكرهم بموعود الله من الجنة، وبالصبر والثبات عند اللقاء، ثم رد بعض الصغار إلى المدينة.[2]

وفي جهة المشركين قام زعيمهم أبو سفيان ﷺ بتعبئة المقاتلين، وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل أكثر من أربعة أضعاف المسلمين، وقسمهم، وجعل على الميمنة خالد بن الوليد ﷺ وأخذ ذوو الصيت والصوت منهم يحرضون الناس على القتال واستئصال محمد ﷺ ومن معه من المسلمين، وقامت نساء قريش بتحريض الرجال على القتال، وذكرنهم بمن قتل من أهلهم في بدر العام الماضي.[3]

---

١. فتح الباري، ج١٥/٢٢٤. وانظر: ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٥. الواقدي، المغازي، ج١/٢١٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٨٢.

٢. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٣، ٣٠٨. الواقدي، المغازي، ج١/٢٢١. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٨٢، ٢٨٣.

٣. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٦. ابن قتيبة، المغازي، ج١/٢٢٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٤١. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٨٣.

بدأت المعركة وقد أخذ كل موقعه، وأخرج الرسول ﷺ سيفًا كان معه فقال: ((مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ ؟)) فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشه رضي الله عنه وقال: يا رسول الله وما حقه؟ فقال ﷺ: ((أَنْ تَضْرِبَ بِهِ فِي الْعَدُوِّ حَتَّى يَنْحَنِيَ))، فأخذه أبو دجانة، وأخرج من جيبه عصابة حمراء فربطها على رأسه وأخذ يختال بالسيف، فقال ﷺ: ((إِنَّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللّٰه إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَاالْمَوْطِن))، وبدأ القتال، وقاتل أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ قتال الأبطال.[١] كما قاتل حمزة رضي الله عنه بشجاعة لا نظير لها وقاتل غيرهم من شجعان المسلمين، حتى لاحت الهزيمة في صفوف المشركين، وبدأ النصر واضحًا للمؤمنين، وولى المشركون من الميدان، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم، فلما رأى الرماة ذلك من على الجبال تحركوا من أماكنهم، وحاول عبد الله بن جبير رضي الله عنه أن يمنعهم من المغادرة مذكرًا إياهم بأمر الرسول ﷺ، ولكنهم عصوه وانصرفوا ولم يثبت معه إلا نفر يسير دون العشرة.[٢]

١. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٥. الواقدي، المغازي، ج١/٢٤١. وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج٤/٥٨.

٢. انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٢٥. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٦، الواقدي، المغازي، ج١/٢٢٩.

كان خالد بن الوليد ﷺ ومعه جماعة من فرسان قريش يرقبون الموقف عن كثب فما رأى الرماة قلة لا يستطيعون منع الخيل حمل عليهم فقتلهم وقائدهم، ثم نزل بالفرسان إلى المسلمين، وهم مكشوفون فأتوهم من الخلف، ورجع جند قريش إلى ساحة المعركة بمساعدة الفرسان، وتغير مسير القتال وأصبح في صالح مشركي قريش.[1]

وحاولوا أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ شخصيًا ليقتلوه، وتبارى في ذلك شجعانهم. وصمد رسول الله ﷺ وقاتل قتال الأبطال، وقتل بيده: «أُبي بن خلف» الذي كان معاندًا وحريصًا على قتل الرسول ﷺ ويردد: محمد ...!! لا نجوت إن نجا، فرفض الرسول ﷺ أن يبادر إليه أحد من الصحابة غيره حيث واجهه ﷺ بنفسه بحربة أصابته في عنقه فمات منها فيما بعد.[2]

ثم إنه ﷺ وقع في أحد الحفر فشج رأسه وكسرت رباعيته وشقت شفته،[3] وصمد نفر من الصحابة مع رسول الله ﷺ واستماتوا في الدفاع عنه منهم أبو طلحة الأنصاري، وسهل بن حنيف، ومنهم مصعب بن عمير ﷺ حامل لواء المسلمين الذي استشهد بين يدي النبي ﷺ، ومنهم علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسعد بن أبي وقاص ﷺ حيث قال رسول الله ﷺ لسعد وهو يرمي دفاعًا عنه: ((ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي)).[4] كما كان معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ أم عمارة ﷺ.[5]

وأشاع المشركون أنهم قتلوا رسول الله ﷺ ففت ذلك في عضد المسلمين فقام الصحابي أنس بن النضر ﷺ فقال ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد رسول الله قال: فما تصنعون بالحياة بعد قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل ﷺ فوجد به يومئذ سبعين طعنة فما عرفه إلا أخته ببنانه.[6] واستشهد جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وصل عددهم إلى السبعين رجلاً منهم

---

١. البخاري (فتح الباري)، ج ١٥/٢٢٥. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٧. الواقدي، المغازي، ج١/٢٣٥، ابن سعد، الطبقات، ج٢/٤١.

٢. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣١٠. الواقدي،المغازي، ج ٢/٢٥٢. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣٠٧.

٣. انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٤٣. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣١١. الواقدي، المغازي، ج١/٢٤٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣١٠.

٤. البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/٢٢٥.

٥. نظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٣، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣٠٧. الواقدي، المغازي، ج١/٢٤٠ - ٢٤٣، ٢٧٨.

٦. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٩. الطبري، تاريخه، ج٣/١٨.

جبل الرماة وخلفه جبل أحد

عمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ قتله وحشي وهو غلام حبشي،[1] وسعد بن الربيع،[2] ومصعب بن عمير،[3] وعبد الله بن جحش،[4] وحنظلة الغسيل ﷺ وغيرهم، والتجأ الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة ﷺ إلى الشعب، وعلا أبو سفيان الجبل على الرسول ﷺ ومن معه فقال رسول الله ﷺ: ((اللّهُمّ إِنّهُ لا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا))، فقاتل عمر بن الخطاب ﷺ وبعض الصحابة ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، فقال أبوسفيان: أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ: ((لا تُجِيبُوهُ))، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟... ثم قال أبوسفيان: إن هؤلاء قد قتلوا ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يتمالك عمر بن الخطاب ﷺ نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يخزيك، ثم قال أبو سفيان: أُعل هبل فقال ﷺ: ((أجيبوهُ))، قالوا: ما نقول، قال: ((قُولُوا الله أعْلَى وأجَّل))، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال ﷺ: ((أجيبوهُ))، قال: ما نقول؟ قال: ((قُولُوا: الله مَولانَا وَلا مَولى لَكُم))، وقالوا: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ثم قال أبوسفيان: أن موعدكم بدر العام

١. انظر: باب مقتل حمزة عبد البخاري (فتح الباري)، ج ٢٤٥/١٥.ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص ٣٠٨. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢١٨.

٢. الواقدي، المغازي، ج ٢٩٣/١. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٢٦.

٣. انظر: البخاري، (فتح الباري)، ج١٥/٢٢٩.

٤. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٢٢٢.

القادم.[1]

وغادرت قريش أرض المعركة، بعد أن هلك منهم أربعة وعشرون قتيلاً وداوى المسلمون جرحاهم وفيهم رسول الله ﷺ، وصلى الرسول ﷺ على الشهداء الذين بلغوا سبعين شهيدًا ودفنوهم.[2]

ثم رجع الرسول ﷺ ومن معه إلى المدينة ودخلوها والنساء تبكي القتلى فتأثر رسول الله ﷺ وزرفت عيناه.[3]

وكان ﷺ حذرًا فخشي من عودة قريش إلى المدينة، فخرج عليهم في اليوم التالي لطلب العدو وإرهابه حتى لا يعود إلى المدينة، وقال ﷺ:

((لا يخرج معنا إلا من حضر معنا بالأمس)).[4]

ووصل المسلمون إلى حمراء الأسد على مسيرة عشرة أميال من المدينة وبقوا فيها ما يزيد على ثلاثة أيام، ووصلت أخبارهم إلى قريش، وكانوا قد فكروا بالعودة للهجوم على المدينة وثناهم عن ذلك تتبع الرسول ﷺ لهم، وجعلهم يسرعون بالعودة إلى مكة[5]

وقد نزلت آيات من القرآن الكريم تتحدث عما جرى على المسلمين في أحد ومنها قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ

١. انظر: صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٢٧. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣١٢. الواقدي، المغازي، ج١/٢٩٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣٢٥.

٢. انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٢٥. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ص٣١٣. الواقدي، المغازي، ج١/٣٠١، ٣١٠. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣٣٠.

٣. انظر: الواقدي، المغازي، ج١/٣١١، ٣١٥، ٣١٦. ابن هشام السيرة النبوية، ص ٩٨. ابن حجر، (فتح الباري)، ج١٥/٢٥٥، ٢٥٦. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٣٣٤.

٤. انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٥٣. (وانظر: شرح ابن حجر على الحديث). الواقدي،المغازي، ج١/٣٣٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/ ٤٨. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/١٠١.

٥. انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٥٣. (وانظر: شرح ابن حجر على الحديث) الواقدي، المغازي، ج١/٣٣٤. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣/١٠٤. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٤٣٨ ـ ٤٤٢.

مقبرة حمزة (سيد الشهداء) يمكن رؤية جبل أحد في الخلفية

عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾
۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ
بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ
إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ
ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا
ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

(آل عمران: ١٥٢-١٥٥).

ثم يقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر من السورة نفسها:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ
أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ
ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ
لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ
قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ
إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ
عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ
يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ
بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ
وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢
ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ
حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ
وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٦٥ - ١٧٤).

وهكذا كانت هذه الغزوة ابتلاءً لصف المؤمنين وتمحيصًا اختار الله فيها بعض الشهداء وفضح فيها المنافقين، وتاب فيها على المؤمنين، فكانت من أهم غزوات الرسول ﷺ، وشهدها بنفسه وأصابه وأصاب المؤمنين الكثير من الجراح.

# غزوة الأحزاب (الخندق).[1]

كان سبب الغزوة أن جماعة من زعماء اليهود في المدينة ذهبوا إلى مكة، وأخذوا يحرضون قريشًا على غزو الرسول ﷺ في المدينة، ووعدوا أنهم سوف يساعدون قريشًا حتى يستأصلوا محمدًا ﷺ ومن معه، وأفتوهم بأن دين قريش خير من دين محمد ﷺ، وفيهم وفي قولهم نزل الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾(النساء: ٥١).[2]

١. وضع البخاري في صحيحه بابًا سماه: (غزوة الخندق وهي الأحزاب)، فتح الباري، ج١٥/٢٧٤.

٢. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٤٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢١٥. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥١٣. وانظر تخريج ذلك عند: رزق الله، السيرة النبوية، ص٤٤٥.

فأجابت قريش بزعامة أبي سفيان إلى ذلك، ثم إن أولئك النفر من اليهود توجهوا إلى غطفان وغيرها من قبائل نجد فدعوهم إلى حرب المسلمين في المدينة وواعدوهم ومنوهم كما فعلوا مع قريش، وتمكن اليهود من تحزيب الأحزاب لحرب الرسول ﷺ ومن معه.[1]

وكان الرسول ﷺ كعادته يتتبع أخبار أعدائه من قريش وغيرها، وقد جاءته عيونه بالخبر قبل تحرك القوم، وبالتالي جمع الصحابة يستشيرهم فيما ينبغي عمله في مواجهة الاعتداء القادم، خصوصًا أن الأعداء كثروا والمدينة قد لا تتحمل الدفاع ضد تلك القوات.

وكان أحد الآراء المطروحة إشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة، يمنع الفرسان والراجلة من اقتحامها وفي الوقت نفسه يمكن المسلمين من الدفاع، خصوصًا أن الوضع الجغرافي للمدينة كان مناسبًا لذلك، وقد استحسن الرسول ﷺ الفكرة،[2] وخطط مكان الخندق المقترح، وقسم العمل فيه على الصحابة فكان نصيب كل عشرة منهم أربعين ذراعًا، وعمل الرسول ﷺ مع الصحابة في الحفر حيث كان يمسك الفأس ويحمل التراب بيديه الكريمتين.

كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو أغبر بطنه يقول:

((والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينـا

فـأنــزلـن سكينـة علـينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألـى قـد بغـوا علـينـا ... إذا أرادوا فـتـنـة أبينـا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا)).[3]

١. انظر: ابن حجر (فتح الباري)، ج١٥/٢٧٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢١٥. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٤٣. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥١٣.

٢. ابن حجر، فتح الباري، ج١٥/٢٧٥. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٤٥. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥١٤. وانظر: تخريج ذلك عند د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ص ٤٢٠. د. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٤٤٦.

٣. البخاري: فتح الباري، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، ج١٥/٢٨٤.

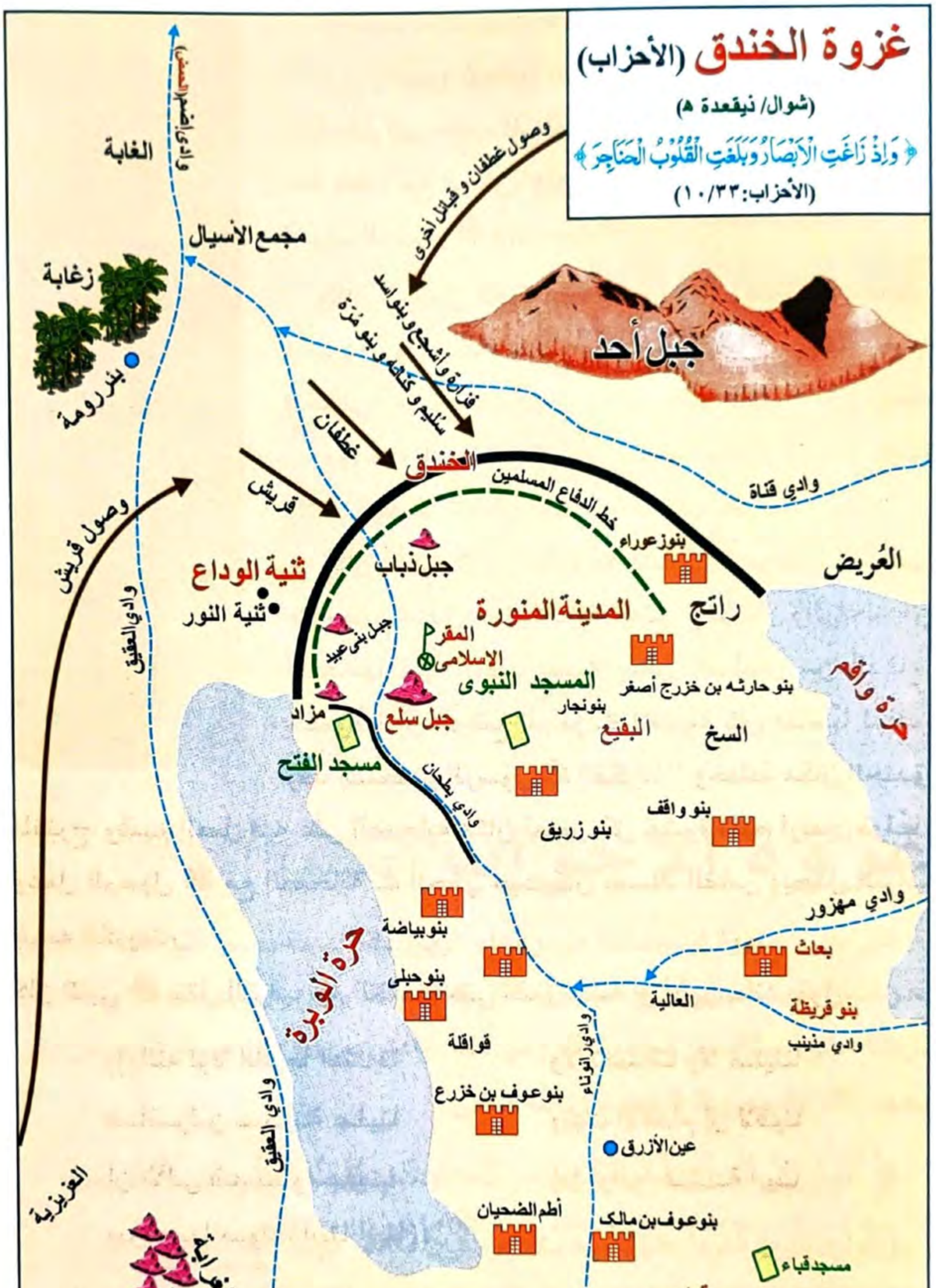


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

وتسلل جماعة من المنافقين فارين من تأدية الواجب الملقى عليهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله:

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣)

وكان المؤمنون إذا احتاج منهم الرجل إلى حاجة لم ينصرف إليها حتى يأذن له رسول الله ﷺ فامتدحهم الله في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ٦٢).

وفي أثناء حفر الخندق اعترضت للمسلمين صخرة فقام الرسول ﷺ ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبَّر وكبَّر المسلمون معه ثم ضربها ثانية فبرقت فكبَّر وكبَّر المسلمون معه، ثم ضربها ثالثة فكبر وكبر المسلمون معه وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولى:

((اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا))

ثم ضربها الثانية فقال:

موقع جبل أحد على طول الأفق

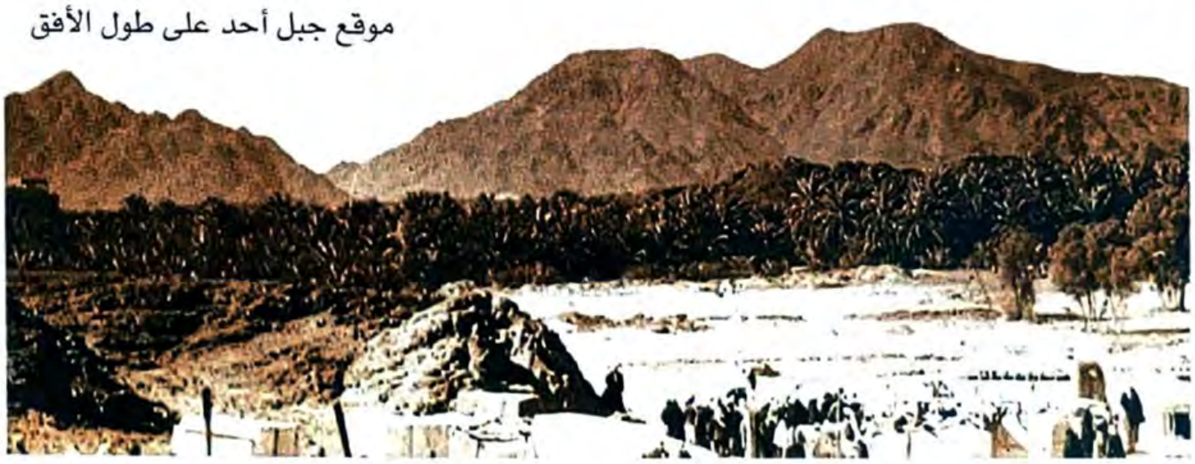

((اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ وَاللهِ إِنِّى لأُبْصِرُ المَدائِنَ وَأُبْصِرُ قَصْرَهَا الأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِى هَذَا))

ثم ضربها الثالثة وقال:

((اللهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ وَاللهِ إِنِّى لأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِى هَذَا)).[1]

فاستبشر المسلمون، وبهذا تيقن ﷺ والمؤمنون معه أنهم سيغلبون أولئك الملوك وسيفتحون ديارهم، وصدقوا ما وعد الله ورسوله. أما المنافقون فقد أخذوا يتهكمون بما ذكره الرسول ﷺ من موعود الله:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (الأحزاب: ١٢).

ووصلت قريش ومعها الأحزاب، وعددهم يصل إلى عشرة الآف مقاتل، وعسكروا حول المدينة، واستغربوا من وجود الخندق حيث لم يكن للعرب عهد به، وعسكر الرسول ﷺ ومعه قرابة ثلاثة آلاف من المجاهدين، بعد أن جمعوا النساء والذرية في حصون الأنصار.[2]

وكان الوقت عصيبًا جدًا، إذا لم يكن المسلمون يأمنون على أنفسهم ليلاً ولا نهارًا، خصوصًا أن يهود بني قريظة كانوا في ناحية من المدينة، والمسلمون قد عاهدوهم في الدفاع المشترك عن المدينة، وهم لا يأمنون أن يستمر يهود على عهدهم، وبالتالي أحس المسلمون بالخطر يحدق بهم من كل جانب كما وصفهم الله في ذلك بقوله:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الأحزاب: ١٠ - ١١).[3]

---

١. رواه أحمد في مسنده، ج٤/٣٠٣. وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر (انظر: د. أكرم ضياء العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج٢/٤٢٣. ود. مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، دراسة تحليلية، ص ٤٤٩، هامش ٤٢).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢١٩. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٤٣. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٢٤.

٣. انظر: صحيح البخاري، فتح الباري، ج١٥/٢٨٣.

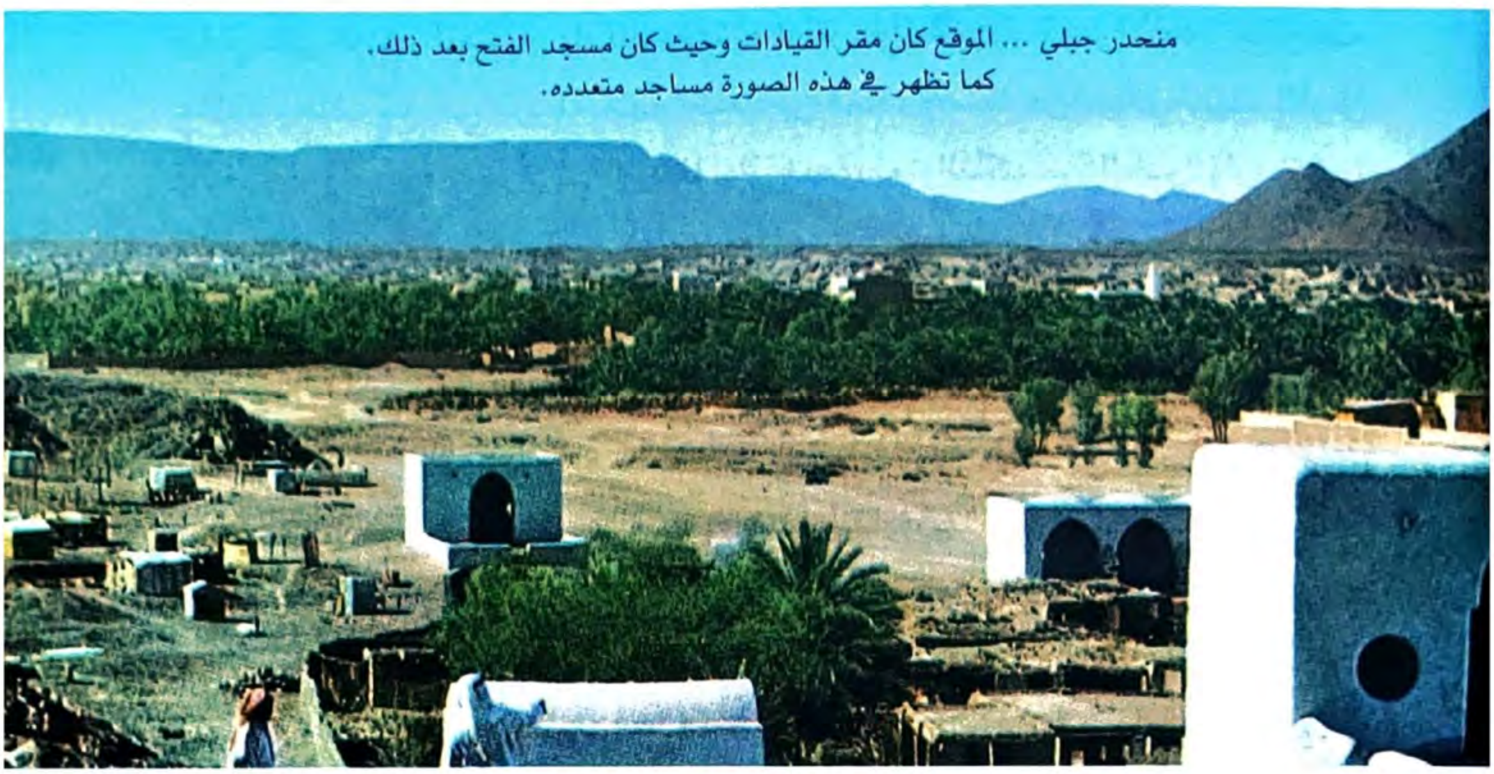
منحدر جبلي ... الموقع كان مقر القيادات وحيث كان مسجد الفتح بعد ذلك.
كما تظهر في هذه الصورة مساجد متعدده.

وبدأت قوات الاستطلاع للأحزاب بتحسس الخندق لعلهم يجدون فرجة ينفذون منها، وتمكنت مجموعة من فرسان قريش من اختراق الخندق في أحد المواضع لكن جند الإسلام وعلى رأسهم علي بن أبي طالب ﷺ تمكنوا من صدهم وقتل بعضهم، فأمر الرسول ﷺ بتسليم قتلى قريش ولم يرض أن يأخذ مقابلاً لذلك.[1]

وقد استمر المسلمون ليلاً ونهارًا في حراسة الخندق ومنع القوم من اختراقه، وكان الرسول ﷺ يهتم بنفسه في حراسة المناطق الضعيفة منه. ولذلك حاول الأحزاب أن يجدوا وسيلة أخرى يفسدوا بها تحصن المسلمين، وكان مع قريش رجال من يهود وعلى رأسهم حيي بن أخطب، الذي توجه إلى يهود بني قريظة في حصونهم، وبذل جهودًا مختلفة من المعارك والحيل حتى تمكن من إقناع زعيمهم بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وقد جاءت عيون النبي ﷺ بخبر زيارة (حيي بن أخطب) لبني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين ووعدهم لقريش بالتعاون معهم ضد النبي ﷺ والمؤمنين معه، حزن الرسول ﷺ لهذا الخبر، ولكنه أراد أن يتأكد منه بنفسه، وفي الوقت نفسه حرص على أن لا يعلم به أحد من المسلمين حتى لا يفت في عضدهم

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٢٥. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٦٨. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٦٤، ٤٧٤. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٣٢، ٥٣٦.

ويؤثر على قواهم المعنوية، ولذلك فقد بعث الرسول ﷺ أربعة من الأنصار ممن لهم علاقة وحلف مع بني قريظة منهم «سعد بن معاذ» و«سعد بن عبادة» سيدا الأوس والخزرج، وأمرهم بزيارة بني قريظة في حصونهم والتأكد من الخبر، وأن يكتموا الأمر عن الناس إن كان القوم قد غدروا، وأن يلحنوا للرسول ﷺ لحنًا يعرف منه الموقف، فخرج القوم إلى بني قريظة، والتقوا بهم، وبحثوا معهم الأمر فأغلظ اليهود في سب النبي ﷺ وسب أصحابه وقالوا: من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، فنصحهم سعد بن معاذ وخوفهم وكان حليفًا لهم، فردوا عليه بفحش وبذاءة، وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ فقالوا له: عضل والقارة، يعني أن اليهود قد غدروا كغدر عضل والقارة،[1] واشتد البلاء على المسلمين وتعاون اليهود والمشركون والمنافقون في إيصال خبر غدر اليهود، وبرز النفاق وأهله على أشده، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(الأحزاب: ١٣)

واشتد البلاء على المسلمين، حيث قويت شوكة الأحزاب بانضمام بني قريظة إليهم، وحاول بعض اليهود الاعتداء على نساء المسلمين في الحصون، فدافعن عن أنفسهن دفاع الشجعان وعلى رأسهن صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها عمة النبي ﷺ.[2]

وفي هذه الظروف العصيبة، جاء إلى النبي ﷺ نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه «من غطفان»، وكان قد قدم مع الأحزاب فالتقى برسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي فمرني بما شئت، فأراد الرسول ﷺ أن يستفيد من هذا المجاهد المجهول إلى أقصى حد ممكن فقال له:

((إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ))،[3]

---

١. انظر: ابن حجر، (فتح الباري)، ج١٥/٥٨٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٢٢١. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٥٨. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٢٨.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٢٨. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٦٢،٤٦٠. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٢٨. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٦٢،٤٦٠. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٢٨ ـ ٥٢٩.

فخرج نعيم بن مسعود ﷺ وقد تلقى توجيهات النبي ﷺ حتى أتى بني قريظة، وكان على معرفة بهم منذ أيام الجاهلية فقال لهم: قد عرفتم ودي إياكم، فقالوا لست عندنا بمتهم، قال: لقد ظاهرتم قريشًا وغطفان على حرب محمد، وليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم، وأبناؤكم، ونساؤكم، ولا تقدرون على أن تتحولوا منه، وإن قريشًا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها، وإن رأوا غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به ثم واصل حديثه معهم: وأرى أن لا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمدًا ولا يتركوكم وحدكم، ثم أن نعيمًا نفسه أتى قريشًا فقال لزعيمها أبي سفيان بن حرب ومن معه: قد عرفتم ودي وإياكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أن قريظة ندموا على فعلهم مع محمد، وقد أرسلوا إلى محمد وقالوا له: هل يرضيك عنا أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم ؟ فأجابهم: نعم. ثم واصل نعيم حديثه متظاهرًا بتحذير قريش قائلاً لهم: فإن طلبت منكم قريظة رهنًا فلا تعطوهم رجلاً واحدًا، ثم خرج إلى قطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم من بني قريظة، وكانت غطفان وقريظة وقريش قد أتعدوا من الغد أن يبدأوا القتال، وكان ذلك يوم سبت، فأرسلت قريش إلى بني قريظة ليشاركوا في ذلك اليوم فقالوا: إن اليوم يوم سبت ولسنا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل يقصدون النبي ﷺ، فقالت قريش وغطفان: والله لقد صدقكم نعيم بن مسعود والله لا ندفع لكم رجلاً واحدًا. وقالت قريظة لقد

مسجد الخندق

صدقكم نعيم بن مسعود، وفشل اتفاق القوم، وساء ظن بعضهم ببعض.(1)

فجاءهم المساء ولم يعملوا شيئًا مع المسلمين. وفي الليل أرسل الله على الأحزاب ريحًا شديدة وبردًا، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم، وهى التي قال الله تعالى عنها:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٩).

فاضطرب معسكر المشركين وسمع فيهم ضجيج.(2)

فبعث النبي ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ليستطلع له أخبار القوم، وقد أمره ألَّا يحدث

---

١. انظر: تفاصيل القصة في: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٢٩، ٢٣١. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٨٠، ابن سعد، الطبقات، ج٢/٦٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٤١ ـ ٥٤٤.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣١. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٦٩، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٤٥.

شيئًا وألّا يقوم بأي عمل غير الاستطلاع حتى لو أتته الفرص، فذهب حذيفة ودخل معسكر قريش، وجلس مع جمع منهم ملتفين بعبيهم حول النار، وتمكن من أن يندس بينهم دون أن يعرفه أحد، والبرد شديد والريح تعبث بهم، وكان أبو سفيان في القوم وهو حريص على عدم وجود عيون النبي ﷺ بينهم، فقال للقوم قبل أن يبدأ الحديث: ليتعرف كل منكم على جليسه، فما كان من حذيفة إلا أن بادر بسؤال جليسه الذي عن يمينه: من أنت؟ ثم التفت إلى الرجل الذي يجلس عن يساره وسأله من أنت ؟. وبذلك تجاوزه السؤال ولم ينتبه له القوم، وقد تحدث أبوسفيان في القوم وقال: يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا قريظة ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما يقر لنا قدر ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا إني مرتحل، ثم ركب أبوسفيان جمله يريد الرحيل فاستوقفه القوم ليرحلوا معه، فانسحبت قريش وأبقت بعض الفرسان لتحمي انسحابها، ثم تبعتها بقية قبائل الأحزاب.

وجاء حذيفة رضي الله عنه ليبشر رسول الله ﷺ بانسحاب القوم، بعد أن حاصروا المدينة قرابة خمس وعشرين ليلة.[1]

وحين خلت المدينة من الأحزاب قال ﷺ لأصحابه: ((الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم)).[2] وبعد ذلك سمح الرسول ﷺ بعودة المجاهدين إلى بيوتهم وصدق الله القائل:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

وقد فقد المسلمون ستة شهداء[3] كما قتل من المشركين ثلاثة نفر[4] وقد نزلت حول أحداث هذه الغزوة سورة الأحزاب وكان مما ورد فيها قوله تعالى:

---

١. انظر: قصة حذيفة في: فتح الباري، ج١٥/٢٨٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣١ - ٢٣٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٨٨ - ٤٨٩. ابن سعد، الطبقات، ج٢/٦٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٤٦ - ٥٤٩.

٢. البخاري، فتح الباري، ج١٥/٢٩٠.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٥٢. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٥. وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/٧٠. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٥٠.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ص ٢٥٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٦. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/٥٥١.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ٩ ـ ١٥).

ويقول الله تعالى في موضع آخر من السورة:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢٠ ـ ٢٥).

ومع رحيل الأحزاب فإن جولة المعركة لم تنته بعد، فما أن رجع الرسول ﷺ إلى بيته ووضع سلاحه حتى أتاه جبريل عليه السلام فقال له:

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

((قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ وَاللَّهِ مَا وَضَعْنَاهُ فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ قَالَ ﷺ فَإِلَى أَيْنَ قَالَ هَا هُنَا وَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ)).[1]

فعلم رسول الله ﷺ أن قتال الخونة يهود بني قريظة هو أمر من الله سبحانه وتعالى. فدفع لواءه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه،[2] وأمر بالنداء في المسلمين:

((لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُم الْعَصْرَ إِلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ)).[3]

ثم خرج ﷺ بنفسه للحاق بأصحابه، وعسكر الرسول ﷺ ومعه أصحابه حول حصون بني قريظة وبدأ حصارهم الذي استمر بضع عشرة ليلة أنزل الله فيها الرعب في قلوب اليهود وزلزلهم الله واشتد عليهم الخوف حتى أصبحوا يطلبون بعض حلفائهم من الأوس، ولكنهم كانوا أعلم الناس بغدرهم ومكرهم برسول الله ﷺ، حتى أنهم في أثناء الحصار كانوا ينالون منه ﷺ.[4] ولما اشتد الحصار على يهود بني قريظة وأيقنوا أنه لا مفر من وقوعهم في يد المؤمنين، وزلزل الله قلوبهم، وأعلنوا نزولهم واستسلامهم على حكم رسول الله ﷺ فجاء الأوس إلى رسول ﷺ يشفعون فيهم، ((فرد الحكم إلى سعد بن معاذ فقال: إني أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية))،[5] فقال ﷺ: ((قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللَّهِ)).[6]

وقد اتصل بهم سعد أثناء حصار الخندق، وكان من الذين اطلعوا على غدر اليهود حيث بعثه الرسول ﷺ مع الوفد الذي اتصل بهم فأخذ سعد العهد على الجميع بأن يقبلوا حكمه فقبلوه، ثم أعلن الحكم الصارم في حق يهود ناقضي العهد وخائني الرسول ﷺ والمؤمنين وخائني موطنهم، وهو أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى نساؤهم وذراريهم وأن تقسم أموالهم، ونفذ الحكم فيهم وهم أعلم الناس باستحقاقهم لتلك العقوبة، وسلم من هذا الحكم أحد زعماء بني قريظة، وكان قد عاب على قومه نقضهم للعهد مع الرسول ﷺ وقال أني لم أشرككم في غدركم، وكان ما يزال على يهوديته إلا أن رفضه لنقض

---

1. صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٩٣.
2. ابن هشام، السيرة النبوية، ص٢٣٤. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٠.
3. البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٩٤.
4. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣٤. الواقدي، المغازي، ج٢/٤٩٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٢.
5. البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٣٠٠.
6. البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٢٩٨.

العهد منعه من العقوبة،[1] وكانت غزوة الأحزاب وبني قريظة نصرًا للمؤمنين هزم الله فيها الأحزاب لم ينالوا من المسلمين، وأظهر الله اليهود على حقيقتهم وطهر المدينة من بني قريظة وغنم المسلمون أموالهم ومزارعهم فيها. وقد نزلت في بني قريظة آيات منها قوله تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢٦ - ٢٧).

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٣٨. الواقدي، المغازي، ج٢/٥٠٣.

# فتح خيبر (ربيع الأول سنة ٧هـ)[١].

كان وفد اليهود الذين حرضوا الأحزاب على غزو المدينة قد تحرك من خيبر كما أن يهود خيبر كانوا يخططون لغزو المدينة، وقد اتصلوا ببعض القبائل لهذا الغرض حيث عقدوا حلفًا مع غطفان، وأخذوا يعدون يهود خيبر ووادي القرى وتيماء وما جاورها لضرب المدينة،[٢] وقد تأكدت هذه المعلومات للمسلمين بعد عودتهم من غزوة الحديبية، حيث كان من عادة الرسول ﷺ تسقُّط أخبار أعدائه ومتابعتها، وكانت أحزابًا جديدة، فاستعد المسلمون لهذا الأمر، وفي الوقت نفسه كان يهود خيبر، يبثون الدعايات عن قوتهم، ويشيعون أن لديهم قرابة عشرة آلاف مقاتل، وأن لديهم حصونًا منيعة، كما أنهم أخذوا يهددون المسلمين ويتوعدونهم بطريقة مباشرة وغير

---

١. منطقة زراعية تقع شمال الحجاز كان بها سبعة حصون لليهود زمن النبي ﷺ، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٤٠٩.

٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/١٩١، ٢٧٣، ٣٣٠. الواقدي، المغازي، ج٢/٥٣١، ٦٣٤. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٤/١٨٠، ٤٦١.

حصون خيبر القديمة

مباشرة بواسطة بقايا اليهود في المدينة وبعض المنافقين فيها[١] وقد كانت ظروف المواجهة مع قريش مناسبة، نتيجة لصلح الحديبية الذي اتفق فيه المسلمون مع قريش على أن تتوقف الحرب بينهم عشر سنوات، لكن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه بادروا الأحزاب اليهودية في خيبر قبل أن تبادرهم، حيث أخذ المسلمون استعدادهم وتوجهوا إليهم مع رسول ﷺ وكانوا ألفًا وأربعمائة مقاتل.[٢]

وفي أثناء توجه المسلمين إلى خيبر، تحركت غطفان من نجد لمساعدة يهود خيبر، فعمل المسلمون على خديعتهم حيث سربوا إليهم أخبارًا بأن بعض المسلمين قد توجهوا للإغارة علي ديارهم فصدقت غطفان الخبر، ورجعت إلى ديارها تاركة يهود خيبر،[٣] وفي الوقت نفسه فإن الرسول ﷺ تعمد أن ينزل على خيبر من ناحية الشام،[٤] أي في موقع بينها وبين ديار غطفان ليقف في وجه أي احتمال لغطفان أو ليهود شمال الحجاز في الوصول إلى ساحة المعركة أو الاتصال بيهود خيبر. وصل المسلمون ليلاً إلى قرب خيبر فعسكروا ولم يتعرضوا لهم بأذى في الليل،[٥] وعندما

١. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٣٤ . الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/١٨١.
٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/١٠٧.
٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٠. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٥٠. وانظر: رزق الله، السير النبوية، ص ٥٠١.
٤. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/١٨٤.
٥. البخاري (فتح الباري)، ج١٥/٤٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٠. الواقدي، المغازي، ج ٢/٦٤٣.

غزوة خيبر (محرم ٧هـ)

قدوم الجيش الاسلامى الى فدك و وادى القرى

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

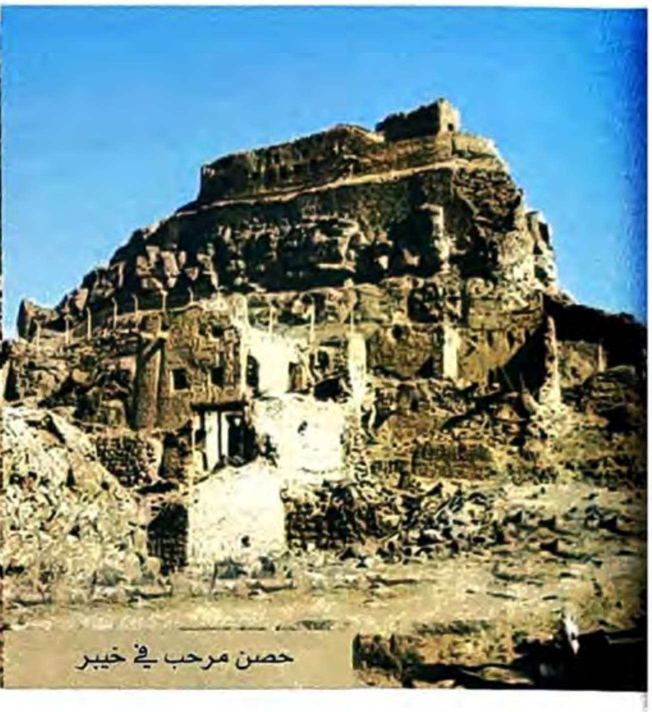

حصن مرحب في خيبر

آثار خيبر القديمة

توجه اليهود في الصباح إلى مزارعهم فوجئوا بالمسلمين فرجعوا إلى حصونهم وهم يرددون: (محمد والخميس) يقصدون الجيش، وكان مما قال ﷺ:

((خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)).[1]

كانت حصون اليهود بخيبر عديدة، وقد توزع المسلمون عليها لمحاصرتها، وكانوا يترامون بالنبل مع اليهود حتى أصيب عدد من المسلمين جراء ذلك،[2] وقد كان الرسول ﷺ حريصًا على معرفة أحوال الحصون الأخرى،[3] وقد فتح المسلمون الحصون الواحد تلو الآخر، ومن ضمنها حصن ناعم والصعب،[4] وكان حصن النطاة وهو أحد حصون خيبر لا يوجد به سوى عدد قليل من المدافعين وعلم الرسول ﷺ أنه مليء بالأسلحة والمؤن، وأن بداخله منجنيقًا ودبابة، فإن فتحه المسلمون فستساعدهم تلك الآلات على فتح بقية الحصون، فركز المسلمون حصارهم وهجومهم على هذا الحصن حتى تمكنوا من فتحه، فوجدوا فيه الأطعمة والمؤن ما أعانهم على أعدائهم، كما أنهم استفادوا مما فيه من أسلحة مختلفة في هجومهم على بقية الحصون

١. البخاري، صحيح البخاري، كتاب المغازي.
٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٣٤، الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٣. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٨٦.
٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/١٩١.
٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣١، ٣٣٢. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/١٨٧.

الأخرى،[1] وقد استعصى حصن (القموص) على المسلمين فبشر الرسول ﷺ بفتحه في ما روي عن سهل بن سعد ؓ أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر:

((لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ))،

فبات الناس يدوكون ليلتهم،أيهم يعطاها، فما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال:

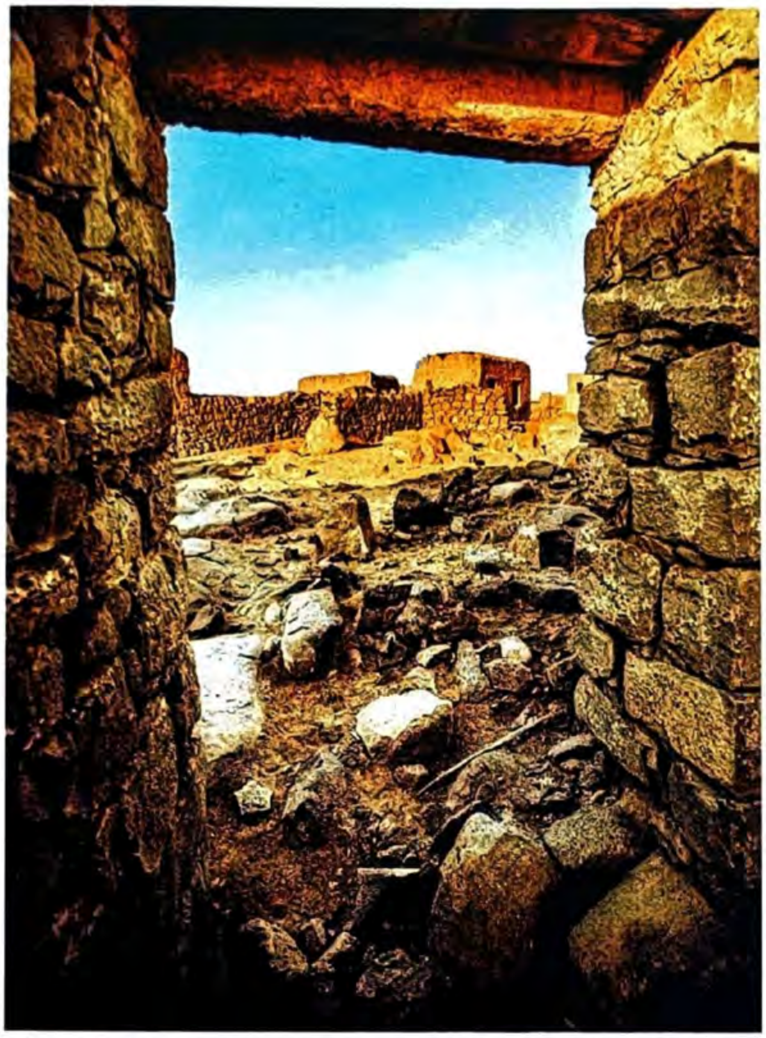

آثار خيبر

((أَيْنَ عَلِيُّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ؟))

فقيل: يا رسول الله هو يشتكي عينيه قال ﷺ: ((فأرسلوا إليه))، فأُتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال علي ؓ يا رسول الله: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال عليه الصلاة والسلام:

((انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلام وَأَخْبِرْهِمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))،[2]

وقد فتح الله على علي ؓ كما أخبر رسول الله ﷺ، وتساقطت بقية حصون

١. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٤٧.

٢. صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٦/٥٧ ـ ٥٨.

خيبر واحدًا تلو الآخر، مما أضطر يهود آخر الأمر أن يفاوضوا رسول الله ﷺ، واستسلموا للمسلمين على أن تحقن دماؤهم ويسمح لهم بالخروج من خيبر،(١) وبعد أن وقع الصلح بينهم والمسلمين على رحيلهم اتفق المسلمون على أن يعملوا في النخيل والمزارع، على أن لهم نصف الثمرة، وأن من حق المسلمين الاستغناء عنهم متى شاءوا،(٢) وكان نتيجة هذه الغزوة استشهاد عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ومقتل ثلاثة وتسعين من يهود خيبر، وقد استمر حصار وقتال أهل خيبر بضعة عشر يومًا(٣)

وبعد أن سالم اليهود رسول الله ﷺ حاولت امرأة أن تسم رسول الله ﷺ عن طريق شاة مطبوخة أهدتها إليه، ولكن الله سلَّمه منها.(٤)

وبعد أن فتح المسلمون خيبر ورتبوا أمورها توجه رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى وادي القرى فاستقبلوا المسلمين بالرمي، فأصيب خادم لرسول ﷺ من جراء رميهم، فقاتلهم المسلمون، وفتحوا بلدهم عنوة وأبقاهم الرسول ﷺ على العمل في النخل بالنصف كفعله مع أهل خيبر،(٥) فلما بلغت أخبار خيبر ووادي القرى بقية مناطق شمال الحجاز بادرت إلى مصالحة النبي ﷺ وخصوصًا فدك وتيماء وأيلة وغيرها.(٦)

---

١. ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٥٧.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٧. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٩٠. ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٥٧.

٣. انظر أسماء الشهداء عند: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٣٤٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٩٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٢٠٨.

٤. البخاري (فتح الباري)، ج١٢/٢٦١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٧. الواقدي، المغازي، ج٢/٦٧٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٢٠٨.

٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٣٨، الواقدي، المغازي، ج٢/٧٠٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٢٢٩.

٦. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٥٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٧٠٦. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٢١٤.

(تيماء) بليدة صغيرة بين الشام ووادي القرى على طريق الحج الشامي، وقد اشتهرت بحصن الأبلق، وكان يقطنها جماعة من اليهود زمن الرسول ﷺ. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج١/٣٢٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/٦٧.

(أيلة) تقع شمال بلاد الشام وهي ميناء على خليج العقبة وتسمى حاليًا أيلات (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/٢٩٢).

(فدك) من أعمال المدينة بينها وبين خيبر مسيرة يومين (انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج٣/١٥، ١٠).

# غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨هـ).

بعد فتح خيبر كتب رسول ﷺ كتبًا إلى الملوك والأمراء ليبلغهم دعوة الله، وكانت إحدى هذه الرسائل موجهة إلى حاكم (بصرى) بالشام، وقد أعطى الرسول ﷺ هذه الرسالة إلى أحد الصحابة ليحملها إلى ملك بصرى من قبل «هرقل: «الحارث بن أبي شمر الغساني»، ولكن أحد أمراء غسان في الشام ويدعى (شرحبيل بن عمرو الغساني) قبض على مبعوث النبي ﷺ فلما علم أنه يحمل رسالة من النبي ﷺ قتله،

مع أن الرسل لا تقتل عادة.[1]

ولما علم النبي ﷺ بمقتله غضب، وجمع جيشًا قوامه ثلاثة آلاف من المسلمين، وأمر عليهم مولاه زيد بن حارثة، فإن قتل فيليه جعفر بن أبي طالب ﷺ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ﷺ،[2] فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم.[3]

وكان خالد بن الوليد ﷺ مع الجيش حديث عهد بإسلام جنديًا عاديًا في صفوف المجاهدين، وأمر الرسول ﷺ الجيش بالتوجه إلى أطراف الشام وتأديب وتهييب القبائل النصرانية العربية، وإظهار قوة المسلمين والعودة مرة أخرى إلى المدينة، وقبل أن يتحرك الجيش التقى بهم رسول الله ﷺ وأمرهم بتقوى الله، وذكرهم بتعاليم دينهم في الحرب، ثم سلم الراية إلى زيد بن حارثة ﷺ وشيعهم وودعهم.[4]

موقع معركة مؤتة التاريخي والأثري قرب الكرك

وسلك الجيش طريقه إلى أطراف بلاد الشام،[5] وكان هذا يعني تحرش مباشرًا لأول مرة بمملكة الروم وحدودها، وقد علم الروم والغساسنة بتحرش الجيش فأعدوا له جيشًا آخر لمقابلته اشترك فيه متنصرة العرب من لخم وبهراء وجذام وبلي، وكان ذلك الجيش يزيد على مئة ألف مقاتل، وقد عسكرت جيوش الروم في أرض البلقاء في الأردن حاليًا، وقد علم جيش المسلمين بذلك التجمع، فأرادوا أن يكتبوا للرسول ﷺ لعله يمدهم

---

١. انظر: الواقدي، المغازي، ج٢/٥٧٥، ٥٧٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/١٢٨. ويرى د. أكرم العُمري في كتابه: «السيرة الصحيحة»، ج٢/٤٦٧. ود. رزق الله في كتابه: «السيرة الصحيحة»، ص٥٤٣، ضعف هذا الخبر، وعلى أي حال فإن رسول الله ﷺ كان يتطلع إلى الجهاد ضد الروم ويبشر به أصحابه في فترات سابقة لهذه الغزوة وإن كان هناك سبب معين في توقيت الغزوة فالجهاد في الأصل ماض ضد الروم وغيرهم وهو السبب الأول فيها وفي غيرها من الغزوات.

٢. البخاري (فتح الباري)، ج١٦/٩٨. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٧٣.

٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٧٥٦. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/١٢٨.

٤. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٧٣. الواقدي، المغازي، ج٢/٧٥٦. وانظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١٦/١٢٨.

٥. وضع البخاري في صحيحه بابًا سماه: (باب غزوة مؤتة من أرض الشام)، انظر: فتح الباري، ج ١٦/٩٧.

أطلال من الإمبراطورية الرومانية

بمزيد من المجاهدين،[1] ولكن الوقت كان قصيرًا والعدو قريب ولن يمهلهم، وأبطال المسلمون يشجع بعضهم بعضًا على القتال فالتقوا مع الروم في مكان يسمى مؤتة،[2] فقاتلوا قتال الأبطال وكان حامل الراية زيد بن حارثة ﷺ، أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ عبد الله بن رواحه فأصيب،[3] فأخذ الراية أحد الأنصار ودعا الناس إلى الاجتماع، ثم دفع الراية إلى خالد بن الوليد ﷺ،[4] الذي تمكن بعون الله ثم بخبرته العسكرية من إعادة تنظيم صفوف المسلمين وقيادتهم في القتال ومن ثم الانسحاب بهم في خطة محكمة:

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٧٥، الواقدي، المغازي، ج٢/٧٦٠.
٢. تقع مؤتة في بلاد الأردن حاليًا.
٣. من رواية البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٠٠.
٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٢٧٩.

((حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)).[1]

وقد جنب المسلمين المزيد من الخسائر، حيث أنه رغم الفارق الكبير بين جيش الأعداء وجيش المسلمين فإن خسائر المسلمين كانت خمسة عشر شهيدًا،[2] وهذا في تصوري يعد نصرًا للمسلمين، مقارنة بموازين القوى في هذه المعركة، وقد كان الرسول ﷺ يثني خيرًا على أولئك الشهداء ويقول عنهم:

((مَا يَسُرُّنِي أو يَسُرُّهُمْ أَنَّهُمْ عِنْدَنَا)).[3]

وقد عاد الجيش بعد ذلك إلى المدينة، يقوده سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث كانت هذه أول معركة جهادية له في صفوف المسلمين بعد إسلامه، وقد أخبر الرسول ﷺ أهل المدينة بما جرى قبل وصول الجيش، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال:

((أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)).[4]

وهي فتح كما سماها رسول الله ﷺ.

وعند قدوم الجيش إلى المدينة، استقبلهم أهل المدينة، وقد سمع الرسول ﷺ بعضهم يقول لهم يا فرارون أفررتم وأنتم في سبيل الله ؟ فقال ﷺ ليسوا بفُرار ولكنهم كُرار إن شاء الله،[5] وكانت لهم كرة وأي كرة وذلك في فتوح الشام في اليرموك على يد خالد بن الوليد وأمثاله رضي الله عنهم كما سنرى ذلك في عهد الصديق.

❁❁❁

١. من رواية البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٠١.
٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/٣٨٨. الواقدي، المغازي، ج٢/٧٦٩.
٣. البخاري (فتح الباري)، ج١٢/١٥٢.
٤. البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٠٠.
٥. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٣٨٢. الواقدي، المغازي، ج٢/٧٦٥.

# فتح مكة (٢٠ رمضان سنة ٨ هـ).

كان ضمن شروط صلح الحديبية: «إن من شاء أن يدخل في عقد محمد دخل فيه، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل فيه»، فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ، ودخلت بكر في عقد قريش،[1] فاعتدت بكر على خزاعة وساعدتهم في ذلك قريش فعُد هذا نقضًا للعهد من قبل قريش، وقد جاء أحد زعماء خزاعة وهو عمرو ابن سالم الخزاعي فأنشد الرسول ﷺ أبياتًا يستحثه فيها على العهد ومساعدتهم

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣١٨.

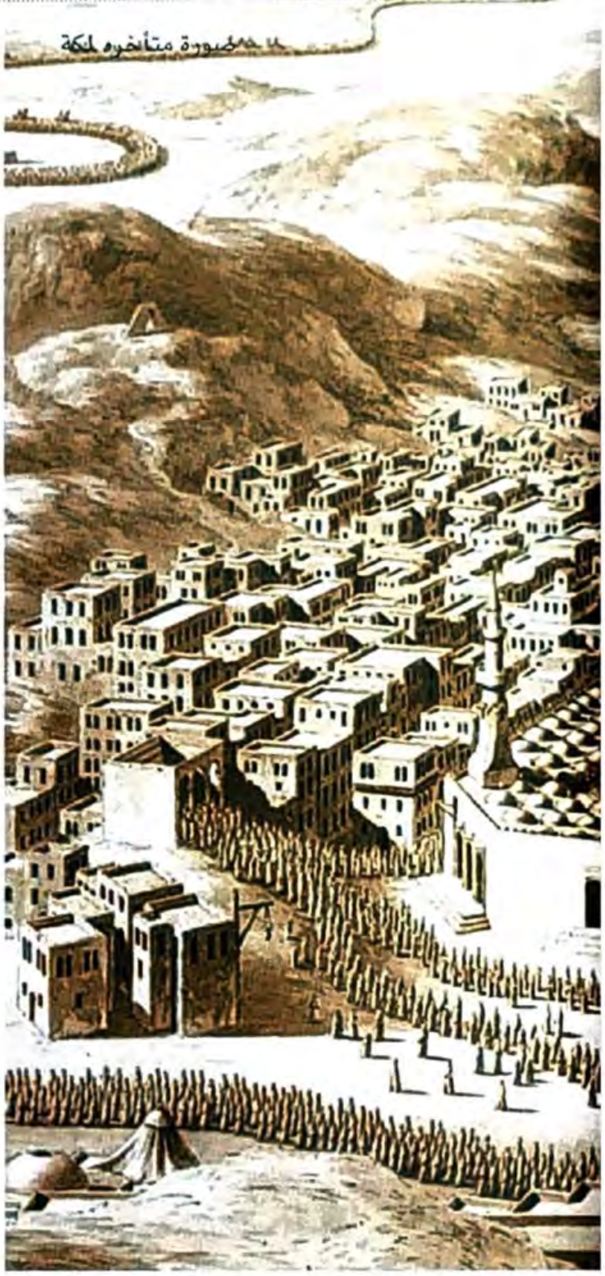
صورة متأخرة لمكة

بناءً على العهد وخصوصًا أن قريشًا ساعدت حلفاءها وهذا اعتداء على حلفهم مع المسلمين، وكان مما قال:

يا رب إني ناشد محمدًا

حلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]

إلى آخر القصيدة، فقال ﷺ:

((نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ))[2]

ثم جاء وفد آخر من خزاعة يطلب مناصرة النبي ﷺ فوعدهم، ثم أن قريشًا أحست بالخطر، وجاء زعيمها «أبو سفيان بن حرب» إلى المدينة ليجدد العهد مع النبي ﷺ فدخل بيت ابنته أم المؤمنين (حبيبة بنت أبي سفيان) حيث كان صهرًا للنبي ﷺ، فلما دخل البيت أراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ فرفعته أم حبيبة عنه فقال أبو سفيان: يا بنيه ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: (بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ)، فقال والله لقد أصابك بعدي شر، ثم أن أبا سفيان أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه[3] ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه ليتوسط له عند النبي ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، ثم كلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أن أشفع لكم عند رسول الله ﷺ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم أتى عليًا وعنده فاطمة رضي الله عنهما، والحسن بن علي بينهما غلام صغير، فقال له علي: (والله لقد

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣٩٤. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٢٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٠٨.

٢. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣٩٥. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٥٢٧. (وانظر: إلى تخريج د. أكرم العُمري لها في السيرة النبوية الصحيحة، ج٢/ ٤٧٣).

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣٩٧.

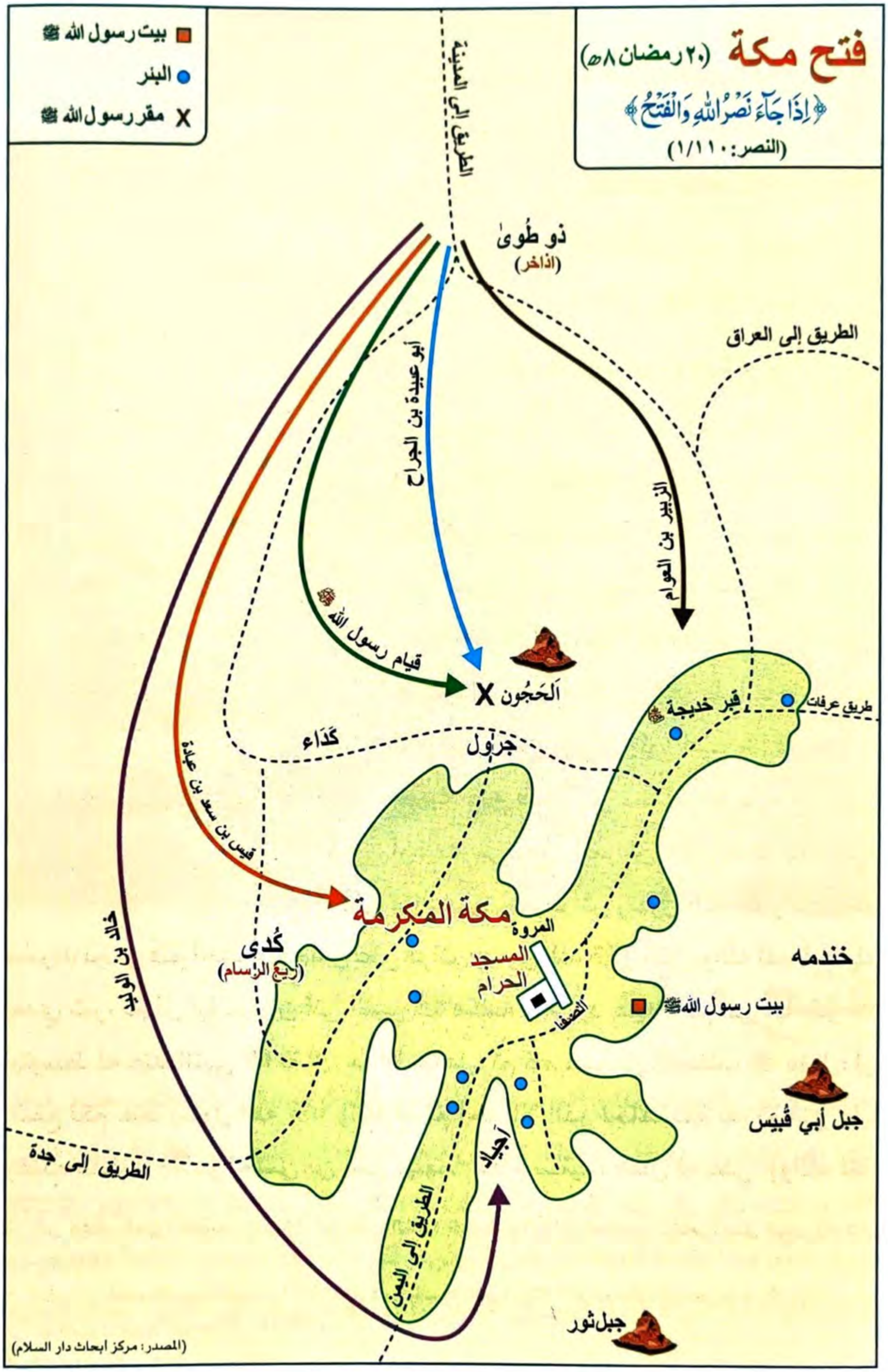

فتح مكة (٢٠ رمضان ٨هـ)
﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾
(النصر: ١١٠/١)
بيت رسول الله ﷺ
البئر
مقر رسول الله ﷺ
الطريق إلى المدينة
ذو طوى
(أذاخر)
الطريق إلى العراق
أبو عبيدة بن الجراح
الزبير بن العوام
قيام رسول الله ﷺ
الحجون
قبر خديجة
طريق عرفات
كداء
جرول
قيس بن سعد بن عبادة
خالد بن الوليد
مكة المكرمة
المروة
المسجد الحرام
الصفا
كدى
(ريع الرسام)
خندمه
بيت رسول الله ﷺ
جبل أبي قبيس
الطريق إلى جدة
أجياد
الطريق إلى اليمن
جبل ثور
(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلمه فيه)، فقال لفاطمة ﵂: يا بنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: ما بلغ ابني هذا أن يجير الناس. فلما اشتد عليه قال لعلي ﵁: انصحني فقال له علي: (أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس ثم ألحق بأرض قومك)، قال أوترى ذلك يغني عني شيئًا؟ قال علي ﵁: (لا ولكن لا أجد غير ذلك)، فقام أبوسفيان في المسجد وقال: إني قد أجرت بين الناس، فلما قدم مكة قال له أهلها ما زاد علي على أن سخر بك.[1]

ثم إن رسول الله ﷺ جهز الناس للغزو، وكان حريصًا على أن لا تعلم قريش بخبر تحركه، وأرسل إحدى سراياه الطلائعية إلى جهة غير مكة حتى يظن الناس أنه يجهز لتلك الجهة، وفي الوقت نفسه أخبر أصحابه أنه متوجه إلى مكة وطلب منهم أن يكتموا الخبر، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها.

وخرج الرسول ﷺ إلى مكة في رمضان وخرج معه خمسة آلاف من المهاجرين والأنصار، ولحقت به جموع مسلمة من قبائل مزينة وسُليم وغفار وجهينة وتميم وأسد حتى كان مجموع جيشه حين وصل قرب مكة عشرة آلاف مقاتل،[2] نزل بهم رسول الله ﷺ مَرّ الظهران.

وكان العباس بن عبد المطلب ﵁ قد قابل الرسول ﷺ وهو في الطريق مظهرًا إسلامه،[3] وقيل إنه كان يكتم إسلامه قبل ذلك بوقت طويل وله مواقف مع النبي ﷺ منذ بيعة العقبة الثانية تدل على ذلك،[4] وكان العباس حريصًا على إسلام قومه، فركب بعد ذلك بغلة النبي ﷺ وأخذ يبحث عن من يبعثه إلى قريش في مكة لعلهم يأتوا النبي ﷺ يستأمنوه أو يسلموا، وكان ﷺ قد أمر المسلمين أن يكثروا من نيرانهم ـ وكانوا في الليل ـ ليرعبوا أهل مكة حتى لا يقاتلوا، فأشعلت قرابة عشرة آلاف نار

---

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٣٩٦. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٣١.

٢. من رواية البخاري، ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/١١١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢/١٣٥.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٢. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٤٣.

٤. انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب (بهامش الإصابة، ج٣/٩٥). ابن حجر، فتح الباري، ج١٤/٢٢٣. الإصابة، ج٢/٢٧١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/٧٨.

في وقت واحد،[١] فلما رأتها قريش خرج أبو سفيان ليستطلع الخبر وكان زعيمها، فلقيه العباس ﷺ عم النبي ﷺ فأمنه، ثم أتى به النبي ﷺ فأمضى تأمين العباس إياه فلم يعرض له المسلمون بشر، وفي الصباح جاء به العباس ﷺ إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه، ثم أن العباس قال للنبي ﷺ: إن أبا سفيان يحب الفخر عند قومه فلو أمنت من دخل داره.[٢]

وكان النبي ﷺ حريصًا أشد الحرص على أن يكون دخوله إلى مكة سلميًا وأن لا يراق في ذلك دم، ولذا فعند دخوله مكة قسم جيشه إلى أربعة أقسام تدخل من جهات مكة الأربع مظهرة قوتها وكافة عن الناس حتى يستسلم أهل مكة للأمر الواقع ويسلموا بسلام، وفي الوقت نفسه أعلن الرسول ﷺ:

((مَنْ دَخَلَ دَارَ أبي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ))،[٣]

وبذلك أتاح كل فرص الأمان لمن رغب فيه، ودخل رسول الله ﷺ مكة بسلام وركزت رأيته في الحجون،[٤] ولقد لقيت كتيبة خالد بن الوليد ﷺ بعض المقاومة التي سرعان ما سقطت،[٥] وفر المشاركون فيها إلى بيوتهم أو إلى خارج مكة، وكان دخول رسول الله ﷺ دخول المتواضعين لله حيث كان مطأطئ الرأس خاشعًا لله تعالى،[٦] وكان يقرأ سورة الفتح،[٧] ثم توجه إلى الكعبة وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم قال ﷺ:

((لَا إِلَه إِلَّا اللّٰه وَحْده لَا شَرِيك لَهُ صَدَقَ وَعْده وَنَصَرَ عَبْده وَهَزَمَ الْأَحْزَاب وَحْده أَلَا كُلّ مَأْثُرَة أَوْ دَم أَوْ مَال يُدْعَى فَهُوَ تَحْت قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانه الْبَيْت

---

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٠٣. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٥٤٧. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٢٤، ٣٢٥.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٣. ابن كثير ، السيرة النبوية، ج٣/٥٤٨. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٣٠.

٣. البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٢٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٣. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٤٩. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٣٠.

٤. البخاري (فتح الباري)، ج٦/١١٨.

٥. البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١١٩. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٠٧. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٦٠.

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٠٥. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٥٥. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ٥/٣٤٢.

٧. البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٢٣. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/٥٥٥.

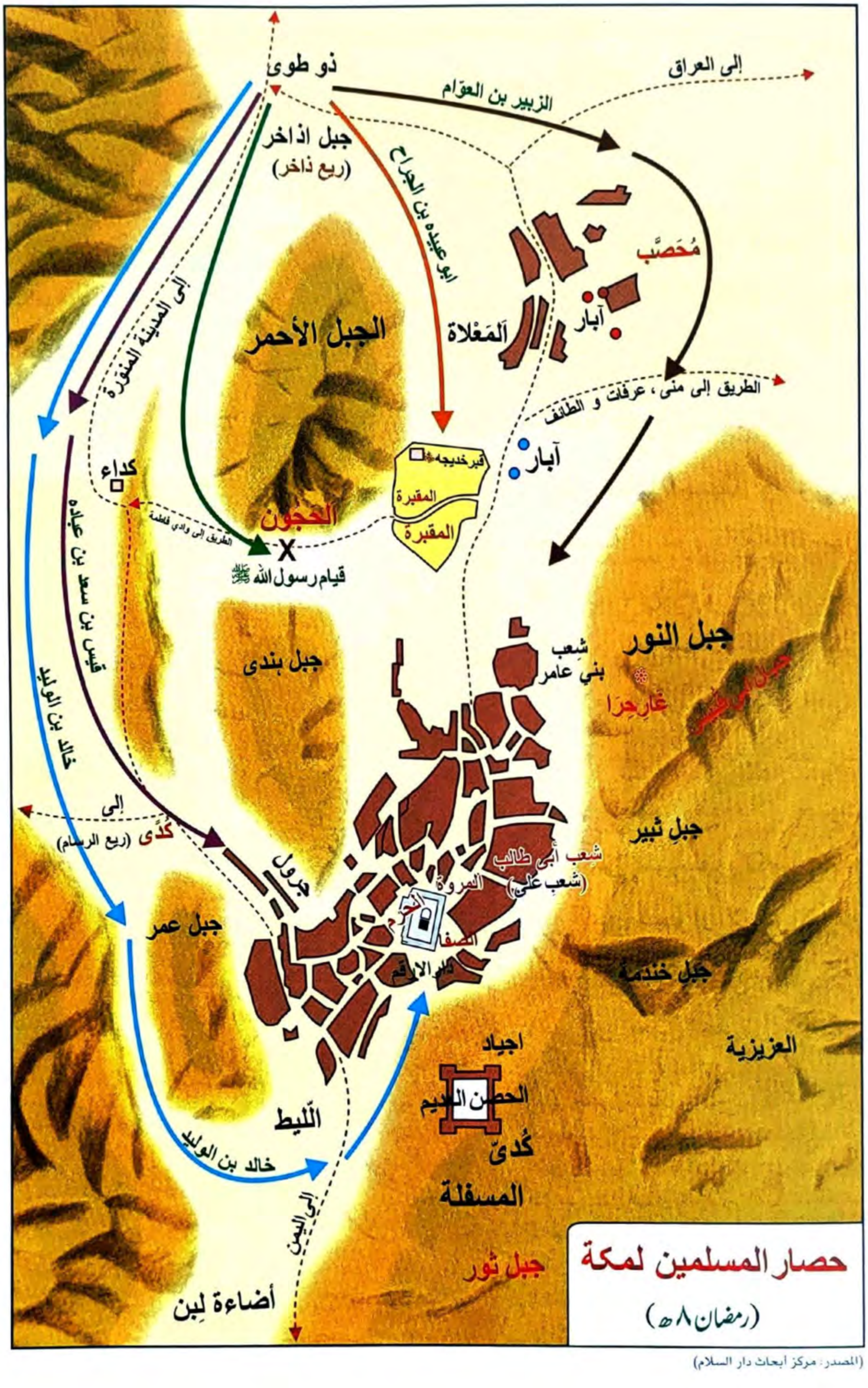


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

وَسِقَايَة الْحَاجّ))،ثم قال:

((يا مَعْشرَ قريشٍ، ما تَظُنُّونَ أني فاعِلٌ بكُمْ؟))

قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم . فقال ﷺ قولته المشهورة:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))[1] ثم دعا بسادن الكعبة فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة،[2] فوجد بها صورًا فأمر بها فطمست، ثم دار على الأصنام، وكانت ثلاث مئة وستين صنمًا وكان يشير إليها ويقرأ:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (الإسراء: ٨١)،

فأسقطها جميعًا وأمر بها فحطمت[3] ثم بايع الرسول ﷺ من بايع من الرجال على الإسلام، ثم بُويعت النساء على الإسلام وعلى شروط أخرى خاصة بهن،[4] وحين حضرت صلاة الظهر رفع بلال صوت الحق من على ظهر الكعبة معلنًا الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدًا رسول الله. وقد كره بعض حديثي الإسلام

١ .ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٦/١٢٩. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤١١، ٤١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/٥٧٠. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٦٤.

٢ .البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٢٨.

٣ .ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٦/١٢٧.

٤ .الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٧١.

مفتاح الكعبة

من قريش رؤيتهم وسماعهم لذلك ثم ندموا على ما قالوا بعد أن حسن إسلامهم،[١] وهكذا تطهرت مكة من الشرك بالله وانتهت قوتها المعاندة للإسلام وأصبحت أحد مدن المسلمين بل أهمها، حيث نظمها رسول الله ﷺ وعيّن عليها عتابًا بن أسيد أميرًا.

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتعليم أهل مكة الإسلام حيث بقي عندهم تسعة عشر يومًا،[٢] غادر بعدها لملاقاة قبيلتي ثقيف وهوازن اللتين استعدتا لقتال رسول الله ﷺ بعد أن فتح مكة، وقد كان فتح مكة سببًا عظميًا في خفة حدة العرب في حرب الإسلام، حيث دخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا،[٣] بعد دخول قريش فيه وسقوط أقوى قوى الشرك المعادية للإسلام.

---

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤١٣. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٥٧٥. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٣٧٢.

٢. صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٣٢.

٣. انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٣٤.

# غزوة حنين والطائف (شوال سنة ٨هـ).[١]

تأهبت هوازن وعلى رأسها ثقيف لملاقاة المسلمين بعد أن فتحوا مكة وخرجت معهم غطفان وغيرها، وأخذوا معهم بنيهم وذراريهم ليصمدوا في القتال ومواجهة النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين[٢] وتأكد الرسول ﷺ من صحة الخبر، فخرج بجيش الفتح وهم عشرة آلاف مقاتل «كما خرج مع النبي ﷺ عشرة آلاف من الطلقاء»[٣]

١. عقد البخاري بابًا سماه: باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ انظر: (فتح الباري)، ج١٦/١٣٩.

٢. انظر: البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٧٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٤٣٨.

٣. صحيح البخاري (فتح الباري)، ج١٦/١٧٢.

ـ مسلمة الفتح ـ حتى أن بعض المسلمين قد اغتروا بكثرتهم وقالوا لن نغلب اليوم من قلة، واستعار الرسول ﷺ أسلحة من يعلى بن أمية عارية مضمونة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم أعادها إليه بعد الغزوة وشكره على ذلك.[1]

كانت هوازن قد اجتمعت في حنين يتزعمها مالك بن عوف، وقد أمر قومه أن يحملوا نساءهم وأموالهم حتى يكون ذلك دافعًا لهم على الثبات عند اللقاء، وقد عاب عليه دريد بن الصمة وكان مع هوازن شيخًا لا يغني شيئًا، لكنه صاحب حكمة وكان مما قال له: إنها إن كانت لك لم تنفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك.[2]

ودخل المسلمون وادي حنين ولكن لم يكونوا يعلمون أن القوم قد كمنوا لهم، وكانوا في مطلع الصبح، وكان جيش المسلمين كثيفًا وفيه من القبائل والطلقاء وغيرهم أكثر مما فيه من المهاجرين والأنصار، وقد فوجئت جموع المسلمين بهجوم مباغت من هوازن فتفرقت طلائعهم وخصوصًا تميم والطلقاء من أهل مكة واضطربت صفوف الجيش، فثبت رسول الله ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار منهم عمه العباس وأبوبكر وعمر وعلي ﷺ، وانحاز يمين الجيش وجعل ينادي (فنادى نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال:

((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ))، قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك. ثم التفت عن يساره فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ))، قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: ((أنا عبدالله ورسوله،[3] أيها الناس هلموا إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله))، ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهور

---

١. انظر تخريج ذلك عند: رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٣.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٤٣٨. الصالحي الشامي، سبل الهدى الرشاد، ج٥/٤٦٠.

٣. رواه البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/١٧٢.

الصوت أن ينادي يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، وكان ﷺ ينادي: ((أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ))،[1] فلما سمع الناس نداء العباس أجابوا لبيك لبيك، فاجتمع على رسول الله ﷺ جمع منهم فاستقبل بهم الأعداء، واشتد القتال بين المسلمين وهوازن حتى قال ﷺ: ((الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ))[2] فهو أول من قالها،[3] وقاتل المسلمون مع رسول الله ﷺ قتال الأبطال، وأخذ الرسول حفنة من التراب فرمى بها وجوه القوم وهو يقول: ((شَاهَتِ الْوُجُوهُ))،[4] فانهزموا، وبعد وقت قصير تأكدت الهزيمة في صفوف الأعداء ورجع المسلمون بالأسرى والغنائم،[5] وقتل من الأعداء ما يزيد على سبعين رجلاً، واستشهد جماعة من المسلمين،[6] وأرسل الرسول السرايا لملاحقة المهزومين، والقضاء عليهم أو تفريق قوتهم ونجحت بعوث الرسول ﷺ وأمر الرسول ﷺ بالغنائم والسبايا والأسرى فجمعوا بالجعرانة،[7] وبعد أن هدأت الأمور واصل الرسول ﷺ مسيرته إلى الطائف وهي المقر الرئيس لثقيف التي جمعت بقية هوازن على حرب رسول الله ﷺ،

مسجد أثري الطائف

١. من رواية البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/١٤٣. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٤٤٤، ٤٤٥. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٤٧١.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤/٤٤٥. وانظر تخريجها في: رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٩.

٣. انظر: السهيلي، الروض الأنف، ج٤/١٣٨.

٤. رواه مسلم، انظر: رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٨٩.

٥. انظر: البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/١٧٢.

٦. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٤٩.

٧. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/١٦٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٨٨، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٤٨٩. د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٠٤، رزق الله، السيرة النبوية، ص٥٩٦.

صورة حديثة مسجد الجعرانة

وكانت الطائف محصنة بالأسوار وأسوارها التي تطيف بها هي سبب تسميتها[١] ولذلك لم يتمكن الرسول ﷺ من اقتحامها فحاصرها نيفًا وعشرين ليلة[٢] ونصب عليهم المنجنيق الذي أشار به سلمان الفارسي، ورماهم به ولكنه لم يؤثر فيهم،[٣] واستشهد مجموعة من الصحابة من رمي أهل الطائف للمسلمين بالنبال وغيرها، وقد حاول نفر من المسلمين اقتحام الأسوار عن طريق دبابة صنعوها من الخشب والجلود احتموا داخلها واقتربوا بها من الأسوار فرمى عليها أهل الطائف قطع حديد محماة فأحرقت الجلود وأثرت في الخشب فخرج من بداخلها من المجاهدين فرموهم من على الأسوار بالنبال فقتلوا منهم رجالاً[٤] ونزل بعض رقيق أهل الطائف إلى المسلمين فأعلنوا إسلامهم فأعتقهم الرسول ﷺ[٥] ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن طال الحصار

١. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/٩. وانظر: د. عبد الجبار منسي العبيدي، الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، ص ١٦.

٢. وقد رأى قوم غير ذلك في مدة الحصار، انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦٥. د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٠٧. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٦.

٣. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٨٣. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦٠. وانظر: د. أكرم الضياء العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٠٩. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٥.

٤. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٨٣. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦١. وانظر: تخريج هذه الحادثة عند د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٠٩.

٥. انظر: صحيح البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/١٦١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٤٨٥. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٦٢.

من حصون الطائف القديمة

أخبر أنه لم يؤذن له في فتح الطائف، ورحل وتركها لا يأسًا منها ولكن طمعًا في أن يأتي أهلها مسلمين طوعًا من تلقاء أنفسهم، حيث دعا لهم قائلاً: ((اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا))،[1] وتوجه الرسول ﷺ إلى مكة وتوقف في الطريق بالجعرانة، حيث مقر الغنائم والأسرى والسبايا من هوازن وأحلافهم، وفي الجعرانة انتظر رسول الله ﷺ اتصالاً من هوازن أو توبة عما جرى منهم مع المسلمين وبعد عدة أيام من الانتظار قسم رسول الله ﷺ الغنائم والسبي على المسلمين ثم جاءت وفود هوازن معلنة إسلامها وتوبتها عما بدر منهم في حق رسول الله ومن معه من المسلمين وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرد عليهم أموالهم وأولادهم، وقال أحد شعرائهم قصيدة طويلة يستشفع فيها برسول الله ﷺ مطلعها:

أمن علينا رسول الله في كرم          فإنك المرء نرجوه وندخر[2]

فخيرهم الرسول ﷺ بين أن يأخذوا أموالهم أو أولادهم ونساءهم فاختاروا الأولاد والنساء: فقال ﷺ:

---

١. انظر: تخريجها عند رزق الله، السيرة النبوية، ص ٥٩٦.

٢. انظر: القصيدة، عند الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/٥٧١.

((مَعِي مَنْ تَرَوْنَ وَأَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ إِمَّا السَّبْيَ وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِكُمْ))،

وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد لهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: (فإنا نختار سبينا فقام رسول ﷺ فأثني على الله بما هو أهل له، ثم قال:

((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللَّهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ))

فقال الناس: قد طيبنا لكم ذلك يا رسول الله)،[1] وقد بادر المسلمون بالتنازل عن نصيبهم من السبي تقليدًا لرسول الله ﷺ ثم أوصى الرسول ﷺ هوازن، وقال لهم:

((أَخْبِرُوا مَالِكًا ـ مالك بن عوف زعيم هوازن ـ إِنْ أَتَانِي مُسْلِمًا رَدَدْتُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَأَعْطَيْتَهُ مِئَةً مِنَ الإِبِلِ))،

فخرج من الطائف سرًا وأتي رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه وعينه

١. من حديث البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/١٤٥ ـ١٤٧.

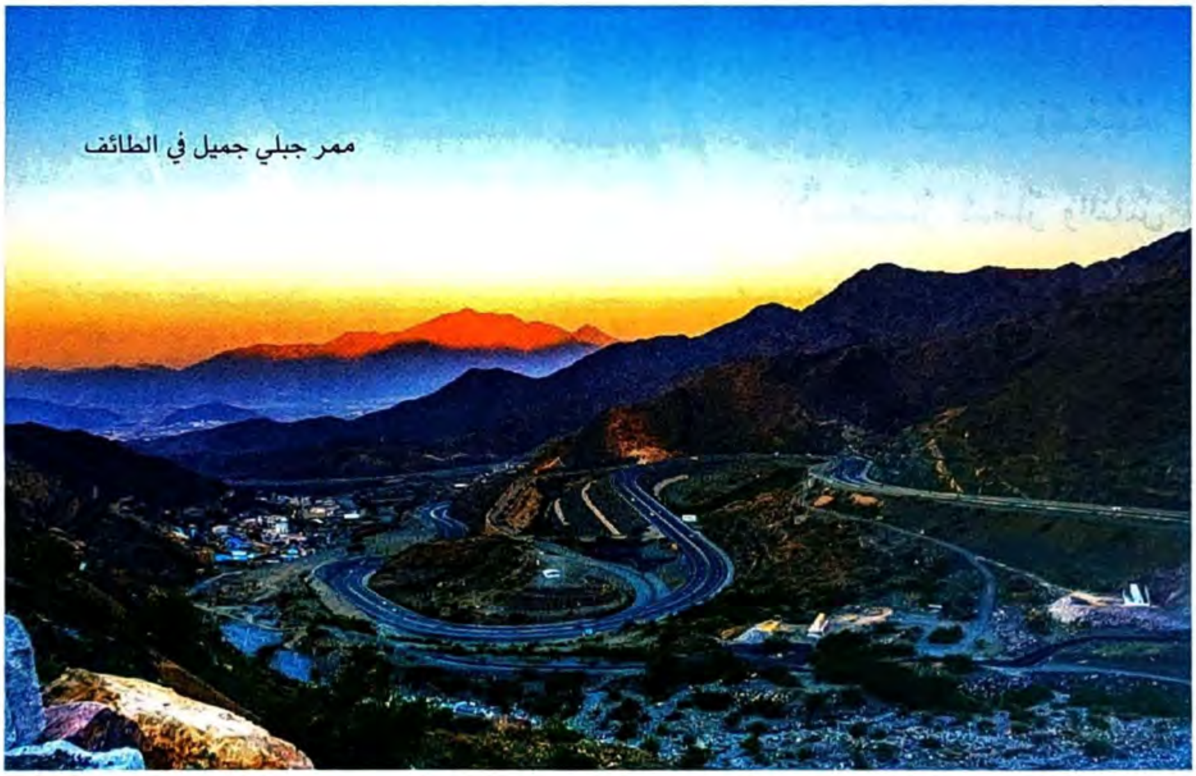
ممر جبلي جميل في الطائف

الرسول ﷺ على من أسلم من القبائل التي حول الطائف، وأصبح يغير بهم على سرح مشركي ثقيف حتى ضيق عليهم،[1] وحينما قسم الرسول ﷺ الغنائم أعطى منها القبائل والمؤلفة قلوبهم من مسلمة الفتح وغيرهم ولم يعط الأنصار منها شيئًا، فوجد بعضهم في نفسه فجمعهم الرسول ﷺ منفردين، وخطبهم وكان مما قال:

((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاّلاً، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللّهُ بِي؟ «، قَالَ: كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُونِي ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، قَالَ: «لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ جِئْتَنَا كَذَا وَكَذَا، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ، الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ)).[2]

فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم وقالوا: (رَضِينَا بِرَسُولِ

١. ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤٩١/٤. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٦٨٣/٣.

٢. من رواية البخاري، (فتح الباري)، ١٦٣/١٦ـ ١٩٦.

اللّٰهِ ﷺ، قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ، وَتَفَرَّقُوا)،[1] ثم أحرم الرسول ﷺ معتمرًا من الجعرانة ودخل مكة وبقي بها عدة أيام غادر بعدها إلى المدينة، وبعد عدة أشهر كثر الإسلام حول الطائف فتضايق أهله ثم قدم وفد منهم على رسول الله ﷺ وفاوض الرسول ﷺ عن قومهم، وانتهت تلك المفاوضة بإسلامهم ودخلوا مدينتهم في الإسلام وقبولهم بتحطيم الأصنام[2] وبإسلام الطائف أصبحت جميع مدن الحجاز خاضعة للحكومة النبوية ويديرها أمراء عينهم رسول الله ﷺ وقد نزلت بعض الآيات تتحدث عن غزوة حنين، من ذلك قول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥ ـ ٢٦).

١. انظر: البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/١٧١. وشرح ابن حجر لما في الحديث. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٢٧٢.

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٥٣٧ ، ٥٤١. وانظر: د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥١٢. د. رزق الله: السيرة النبوية، ص ٦٥٩.

# غزوة تبوك (رجب سنة ٩هـ).[١]

كانت أحداث غزوة مؤتة التي وقعت بين المسلمين والروم وأعوانهم من نصارى العرب سنة (٨ هـ) هي أول احتكاك بين المسلمين والروم وهي ما تزال ماثلة في ذهن الرسول ﷺ حيث استشهد مجموعة من الصحابة. وكان عزم الرسول ﷺ على قتال الروم انطلاقًا من قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾(التوبة: ١٢٣).

ولذا فقد كانت هذه الغزوة موجهة أصلاً وبوضوح تام ضد الروم، ولذلك فإن الرسول ﷺ حينما ندب المسلمين لهذه الغزوة أخبرهم أنها متوجهة إلى نواحي بلاد الروم[٢] فطلب منه الاستعداد حيث إنهم سيبعدون الشقة، وكان الجو حارًا جدًا، والبلاد مجدبة، والناس في عسرة، وثمار المدينة من تمر وعنب وغيرها قد طابت،[٣]

١. لمزيد من التوسع حول أحداث هده الغزوة ورواياتها ودراسة تلك الروايات انظر: عبدالقادر حبيب الله السندي، الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك، مكتبة المعلا، الكويت، ١٤٠٦هـ.

٢. انظر: الحديث الذي رواه البخاري عن كعب بن مالك: البخاري (فتح الباري)، ج١٦/٢٤٢.

٣. عنوان البخاري لهذه الغزوة (باب: غزوة تبوك وهي غزوة العسرة)، فتح الباري، ج١٦/٢٣٧.

والناس ينتظرونها طوال العام، ولذلك فإن الخروج إلى تبوك كان صعبًا.

وبالتالي فإن المنافقين قد سقطوا في مستنقع الكذب حيث كانوا يعتذرون عن الخروج مع النبي ﷺ زورًا وبهتانًا، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (التوبة: ٤٩).[1]

وقد تداعى المنافقون إلى التخلف عن رسول الله ﷺ وعدم الخروج معه في زمن الحر وقال الله عنهم:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (التوبة: ٨١ - ٨٢).

ودعا النبي ﷺ أصحابه للنفقة في هذه الغزوة، فتبادر أغنياء الصحابة في ذلك وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وغيرهم رضي الله عنهم وأنفق عثمان رضي الله عنه نفقة كبيرة كان فيها ثلاث

١. انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٥١٦.

# غزوة تبوك

(غزوة العُسْرة) (رجب ٩هـ)

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ (التوبة٩: ١١٧)

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ (التوبة٩: ١١٨)

﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة٩: ٩٢)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

مئة بعير وألف دينار حتى قال الرسول ﷺ:

((مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ)).

وقال عنه:

((مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ))، [١]

وقد جاء رجال من المسلمين إلى النبي ﷺ وهم أهل حاجة ويرغبون في الخروج مع الرسول ﷺ ولكن الحاجة وعدم وجود الراحلة منعتهم من ذلك، فذكروا حاجتهم للنبي ﷺ فقال لهم:

قوس طبيعي في مدائن صالح

((لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ))

فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع، وجاء مُعذرون من الأعراب ليعتذروا.

وتخلف ثلاثة من الصحابة تكاسلاً، وهم يريدون اللحاق بالرسول ﷺ لكنهم كانوا صادقين في ذكر حالهم فعفى الله عنهم ونزلت فيهم آيات.[٢]

كانت هذه الغزوة بحق امتحانًا للمجتمع المسلم غنيهم وفقيرهم ومؤمنهم وضعاف الإيمان فيهم، كما كان للمنافقين وبقايا اليهود دور في التثبيط حيث كان لكل صف موقف ولكل حادث حديث، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ وكانت قد تقدمت به السن حيث تجاوز الستين من عمره ﷺ ورغم ذلك حرص على أن يقودها بنفسه إذ تعد مقدمة غزوات المسلمين في بلاد الروم.

تجمع من المسلمين ثلاثون ألف مقاتل خرج بهم رسول الله ﷺ كان منهم عشرة آلاف فارس،[٣] وهذا الجيش يعد أكبر جيش للمسلمين تجمع في حياة الرسول ﷺ

١. من حديث البخاري، (فتح الباري)، ج١٤/١٩٥.
٢. انظر حديث كعب بن مالك عند: البخاري، (فتح الباري)، ج١٦/٢٤١.
٣. ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٢٤٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٥٢٠. وانظر: د. رزق الله، السيرة النبوية، ص ٦٢٣. د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج٢/٥٣١.

مدائن صالح

وأخذ المسلمون طريق تبوك، ومروا في طريقهم على مدائن صالح،[1] فأمرهم النبي ﷺ بالعجلة وألَّا يدخلوا بيوت القوم إلا باكين أو متباكين.

واصل الرسول ﷺ مسيره حتى وصل إلى تبوك فأقام بها بضع عشرة ليلة، كان خلالها يبعث سراياه وطلائعه لمعرفة أخبار الروم، كما كان يبعثها إلى المواقع المجاورة، وكان زعماء القبائل وحكام القرى القريبة منه يأتون إليه، وقد أسر خالد ابن الوليد رضي الله عنه في أحد سراياه أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فجاء به إلى الرسول ﷺ فعقد الذمة لنفسه ولقومه وأقر بدفع الجزية فأطلقه ﷺ،[2] كما جاء يحنة بن رؤبة صاحب أيله فدفع الجزية لرسول الله ﷺ وعقد الذمة لقومه، وجاءه أهل أذرح والجرباء، فأمنهم الرسول جميعًا وعقد لهم الذمة وكتب لهم كتبًا.[3]

١. روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال: (لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: (لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين)، ثم قنع رأسه وأسرع حتى أجاز الوادي) (فتح الباري، ج١٦/٢٥٥).

٢. ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/٥٢٦. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٣٠.

٣. انظر: ابن هشام،السيرة النبوية، ج٤/٥٢٥، ٥٢٦. ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٢٩.

ويظهر أن الروم كانوا على علم بتحرك الرسول ﷺ ومن معه ووصولهم إلى تبوك وإظهار قوتهم في أطراف بلاد الروم، بل أن بعضها يعد داخل حدود الروم،[1] ومع كل هذا فإن قواتهم لم تتحرش بالمسلمين أو تحاول مصادمتهم أو عرقلتهم مع قدرتها على ذلك، ولعل مما يؤكد متابعتها للموقف بدقة أن ملك غسان قد أرسل إلى (كعب بن مالك) وهو أحد المخلفين الذين تاب الله عليهم يطلب منه أن يقدم إليهم الشام وكان هذا عقيب غزوة تبوك[2] وقد وصلت معلومات ملك غسان وهو من عمال الروم إلى معرفة تامة بحالة فرد من المسلمين في هذه الغزوة، وموقف الرسول ﷺ منه، فمن باب أولى أن يكون اطلاع بتحرك جيش الرسول ﷺ من المدينة إلى تبوك، والإعداد لهذا الجيش قبل التحرك خصوصًا أن وجهته كانت معلنة وجواسيس الروم يصلون إلى المدينة، ولعل ملك الروم كان على يقين تام بصدق الرسول ﷺ ولذلك آثر عدم التعرض لهذا الجيش خوفًا منه، حيث أن هرقل ما أن تسلم رسالة الرسول ﷺ واستمع أخباره ممن يعرفونه، حتى قال لمحدثه: (والله لئن كنت صدقتني يوشك أن يملك ما تحت موضع قدمي هاتين)،[3] وقد عاش حتى شاهد المسلمين بعد ذلك يملكون ما تحت قدميه.[4]

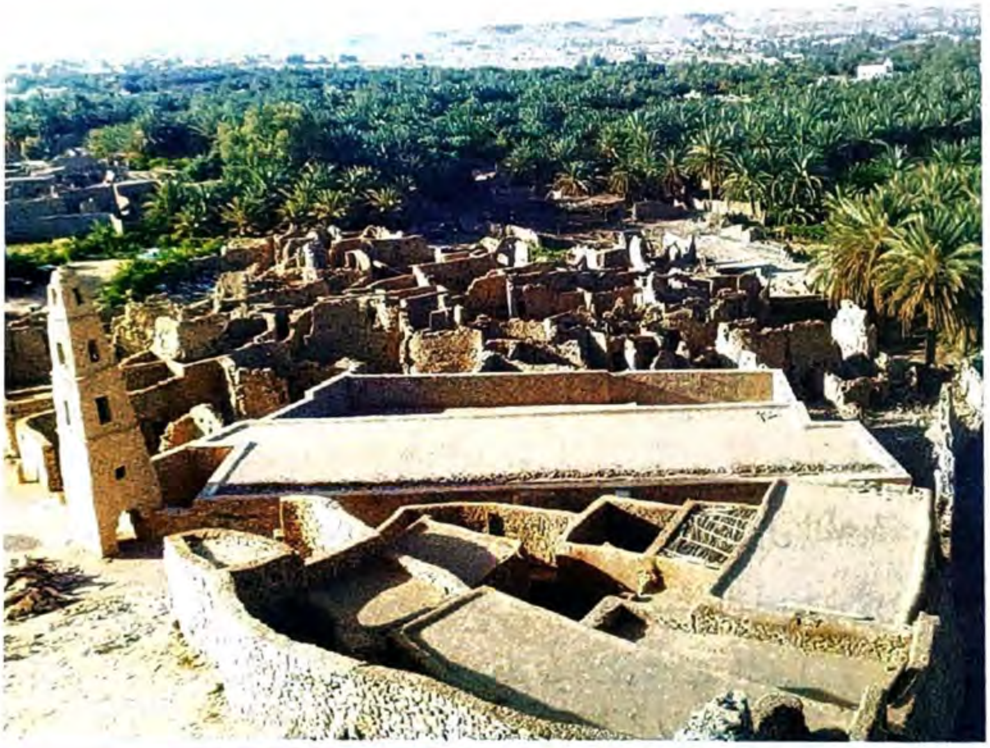

مسجد دومة الجندل الأثري

١. نسب ابن كثير إلى الإمام أحمد رواية عن وصول رسول من ملك الروم هرقل إلى رسول الله ﷺ في تبوك وتبليغه إياه رسالة منه وهي قصة عجيبة قال عن إسنادها لا بأس به (انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٤/٢٧ - ٢٩)، وانظر تلك الرواية عند: أحمد في المسند، ج٣/٤٤٢.

٢. انظر: حديث كعب بن مالك عند البخاري، (فتح الباري)، ج١/٢٤٢.

٣. من لفظ البخاري، (فتح الباري)، ج١٢/٧١.

٤. انظر: ص ١٢٩، من هذا الكتاب.

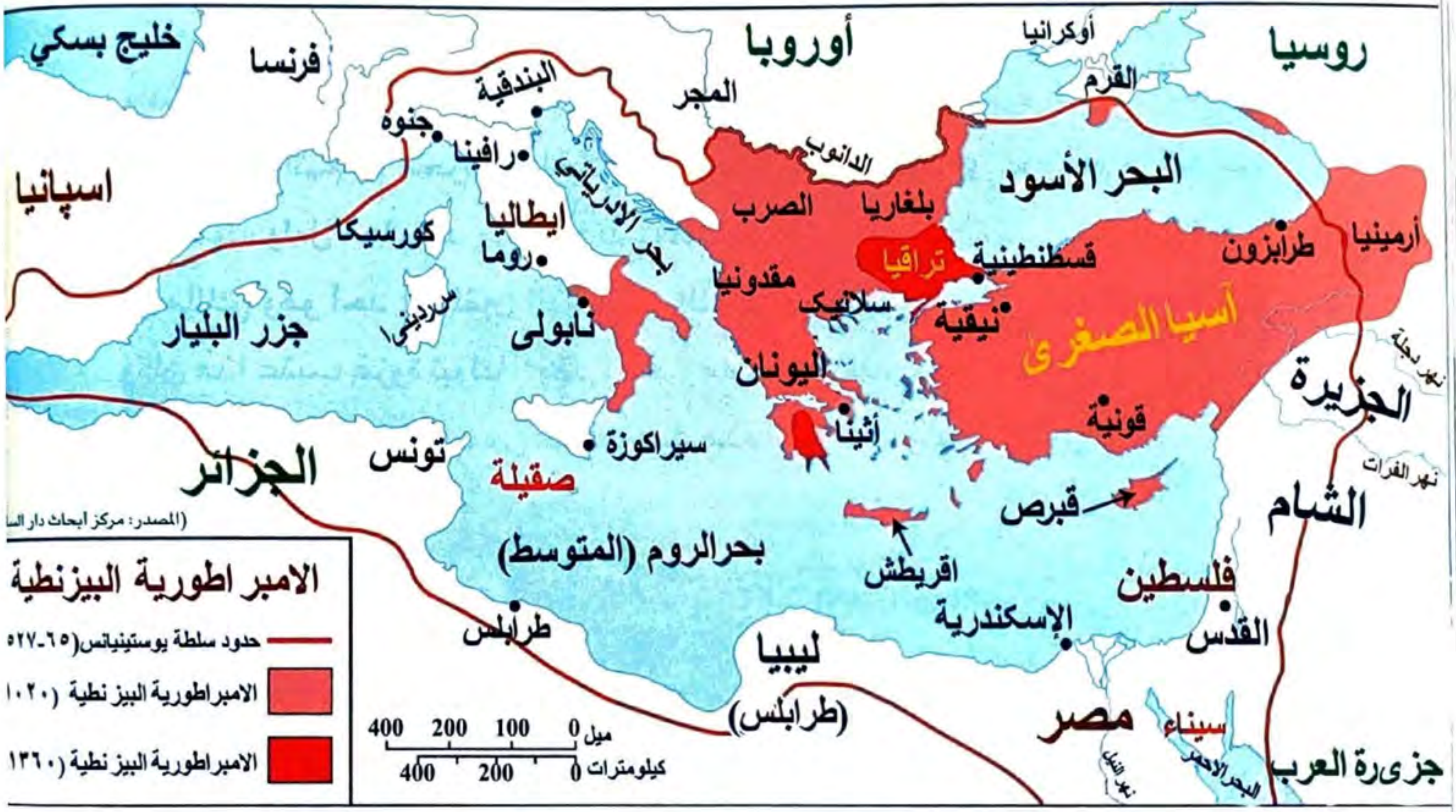


وبعد أن أثبت الرسول ﷺ قوة المسلمين في أطراف جزيرة العرب عاد مرة أخرى إلى المدينة، وفي الطريق لقي الأذى ﷺ من بعض المنافقين حيث حاولت مجموعة منهم قدرت بأربعة عشر رجلاً قتل رسول الله ﷺ، حينما كان الرسول ﷺ يسير في عقبة ليتجاوزها وأمر من ينادي في الناس: إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ـ والعقبة هي طريق ضيق في الجبل لا يكاد يمر منه الراكب ـ. وكان يقود بالرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ويسوق به عمار بن ياسر رضي الله عنه.

فأقبل مجموعة من الرجال ملثمين على رواحلهم حتى غشوا عمارًا رضي الله عنه وهو يضرب وجوه رواحلهم ليبعدهم عن التضييق على رسول الله فقال ﷺ لحذيفة: قد. قد. وحين هبط رسول الله ﷺ قال لعمار رضي الله عنه: هل عرفت القوم ؟ قال عمار: قد عرفت الرواحل والقوم ملثمون: قال له الرسول ﷺ: هل تدري ما أرادوا؟ قال عمار رضي الله عنه: الله ورسوله أعلم، قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه.[1]

وقد عاد الرسول ﷺ إلى المدينة فلما أقبل عليها قال:

١. انظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٥/ ٣٩٠، ٣٩١. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٥/ ٦٦٩.

((هذه طابة وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه))،[1]

وخرج النساء والصبيان لاستقبال المسلمين، وكان الصبيان ينشدون:

طلــع البـدر علينـــا مـن ثنيـــات الـوداع

وجــب الشـــكر مـــا دعـــا للـــه داع[2]

وقد كانت هذه الغزوة تربية للمجتمع المسلم بكافة فئاته للمشاركة في الجهاد بالنفس والمال، كما أنها تربية للأمة كلها على بعد النظر وعلى الطموح العالي، حيث أن الرسول ﷺ قبل أن يودع أمته إلى الرفيق الأعلى لفت نظرها إلى الروم في حركة جهادية عملية لتقوم بالفتوح في نواحيها بعد ذلك لم تنته قضايا تلك الغزوة بوصول الرسول ﷺ بل ارتبطت به قضية مسجد الضرار، وهذا ما لا مجال لذكره الآن، وكذلك قضية المخلفين الذين جاءوا يعتذرون إلى الرسول ﷺ بسبب تخلفهم عنه، فمنهم المنافقون الذين اعتذروا بالكذب وبالباطل ففضحهم الله، ومنهم الذين تخلفوا ولكنهم التزموا الصمت في اعتذارهم لرسول الله ﷺ وهم الثلاثة الذين خلفوا وعلى رأسهم كعب بن مالك فهجرهم الرسول ﷺ فترة من الوقت ثم تاب الله عليهم وفي قرآن يتلى إلى يوم القيامة[3] وقد تحدثت بعض الآيات في القرآن الكريم عن غزوة تبوك في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ

١. البخاري، (فتح الباري)، ج٥/٦٦٩.

٢. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ج١٦/٢٥٩. وانظر: د. رزق الله، السيرة النبوية، ص٦٣١.

٣. انظر: تفاصيل حال المعتذرين في حديث كعب بن مالك السابق ذكره في (فتح الباري)، ج١٦/٢٤٢.

كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ
وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ
وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا
قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ
﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن
يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ
﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ
فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ
إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ
ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ
بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ
مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾
قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ
ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ
بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا
مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (التوبة: ٣٨ ـ ٥٢).

ويقول تعالى أيضًا عن هذه الغزوة في السورة نفسها:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ
ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾
فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ
طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّاۖ
إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم
مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا
تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ
كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى
ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ
إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞
إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا

رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (التوبة: ٨٠ ـ ٩٦).

وقوله تعالى ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ
خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا
أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ
لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا
بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ
نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا
كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَـٰتِلُوا ٱلَّذِينَ
يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾
(التوبة: ١١٧ ـ ١٢٣).

# الفصل ٢

# عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

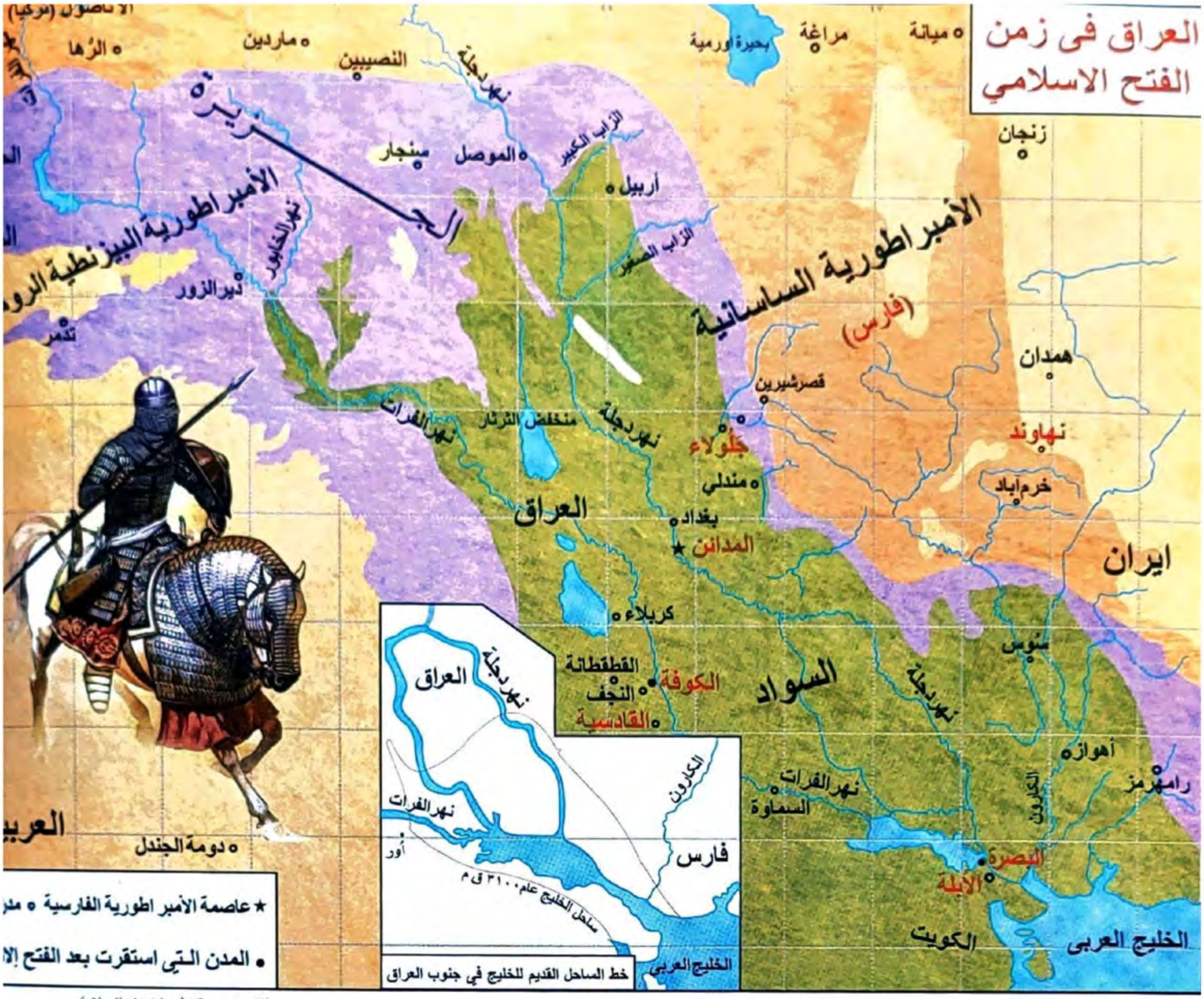


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

# ميادين الفتح في فارس والروم

## الفرس:

كانت في بلاد فارس منذ القدم دولة قوية مرت بمراحل حضارية مختلفة، يهمنا منها السنوات الأخيرة التي سبقت احتكاك هذه الدولة بالإسلام عن طريق الفتوح والجهاد. ولقد كانت الديانة السائدة في دولة فارس والمناطق الخاضعة لها هي الديانة المجوسية،[1] وهي ديانة قائمة على عبادة النار وتقديسها، كما وجدت فيها

١. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٧٠، ولمزيد من الاطلاع على عقائد ومذاهب المجوسية المختلفة، انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٢٣٤.

ديانات أخرى كاليهودية، والنصرانية، انتشرت بين العرب الخاضعين لها في العراق والبحرين وغيرهما.[١]

وكانت هذه الدولة تسيطر على فارس، وخراسان والعراق ولبعض الأجزاء من أطراف الجزيرة العربية شرقها وجنوبها.

وقد قام نظام الحكم الفارسي على تنظيم ملكي استبدادي يقوم على التمييز بين الناس وتقسيمهم إلى طبقات مختلفة لكل منها حدود معينة من الحقوق والامتيازات والواجبات.[٢]

وكان الملك الساساني الفارسي في نظرهم صاحب حق إلهي، يستطيع أن يفرض ما يشاء من نظام، وأن يوقع ما يشاء من عقوبات في حق مخالفيه،[٣] كما كان الملك يشرف بنفسه على التفرقة بين الناس حسب النظام الطبقي المتبع، وكل من يخالف

١. انظر تفصيلات أكثر: رفائيل أبو اسحق، تاريخ نصارى العراق. سهيل فاشا، لمحات من تاريخ نصاري العراق. وانظر: محمد الفيومي، في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام، ص ٦٧.

٢. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج١/٢٨٤.

٣. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج١/٢٧٧. د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص٣٠. ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٢/م٢. الشرق الأدنى، ص ٤١٥.

منظر لقصر في بلاد فارس

ذلك قد يتعرض لعقوبات تصل إلى حد القتل أحيانًا، حتى أن من ينتمي إلى الأسرة الحاكمة نفسها لا يستطيع تجاوز ذلك، فلو تجرأ وحاول أن يتزوج من العامة مثلاً، فإنه يتعرض لعقوبة صارمة قد تودي بحياته لخلطه الدماء المقدسة ـ كما يزعمون ـ بدماء العامة.[١]

وبناء على هذه التفرقة فقد كان كثيرٌ من الظلم يقع على الناس في عموم أنحاء الدولة، وعلى الضعفاء منهم خصوصًا.

وقد كانت الدولة تعتمد على جيش قوي ومنظم يميز أفراده عن بقية الناس في الحقوق، والاحترام، وغير ذلك.[٢]

وكان يدير دفة الحكم الملك بنفسه يساعده حكام الولايات إضافة إلى بعض الأمراء والقواد في مختلف أقاليم الدولة، وهم في الغالب من ملاك الأراضي والقرى الواسعة، ويقومون بجباية الضرائب،[٣] من العمال والفلاحين وعامة الناس إلى خزينة الدولة كي تخدم الجيش والملك وحاشيته، في ترفهم الذي لم يكن له نظير، حيث اشتهر عن ملوك الفرس جمعهم للكنوز والذخائر وإسرافهم الشديد في الملابس والأطعمة حتى ضرب بترفهم المثل[٤] وكان هذا الترف يدفعهم إلى فرض المزيد من الضرائب على المزارعين والعامة،

خوذة رومانية

١. انظر: الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٧٥ ، ٧٦ . د. يحي الخشاب، تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام، ص ٤٠.

٢. د. يحي الخشاب، تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية، ص ٤٠.

٣. د . صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٥. ول ديورانت، قصة الحضارة، م١/ج٢/٤٢١.

٤. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج١/١٩٣ـ ١٩٤، ٣٠٣.

بقايا عمارة من الإمبراطورية الرومانية.

وبالتالي زاد شعور الناس بالظلم نتيجة ما يؤخذ منهم، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه من ضرائب على رؤوسهم تشبه الجزية.[1]

وقد دخلت الدولة الفارسية قبيل الفتح الإسلامي في حرب شديدة مع الروم، أثرت على الدولة دفعتها إلى فرض المزيد من الضرائب على رعاياها مما زاد من سخط الناس وإحساسهم بالظلم،[2] ومهد ذلك للمقارنة مع عدل المسلمين عند الفتح. وكل ما ذكرناه فإن القوة العسكرية للفرس كانت في أشدها نتيجة لاستعداداتها في حربها مع الروم.

## الروم:

من المعروف أن مصر والشام وشمال إفريقيا كانت ولايات تابعة لإمبراطورية الروم البيزنطية وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه الإمبراطورية هو الملك نفسه (الإمبراطور) الذي اتخذ القسطنطينية عاصمة له وكان له الحق في اتخاذ القرارات يساعده في عمله بعض اللجان الفرعية والمستشارون،[3] وكانت الولايات

١. د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٦.

٢. آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص ١١٢.

٣. ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٨٩.

التابعة للدولة تحكم حكمًا عسكريًا في الغالب حيث تتوزع معسكرات الجنود على الولايات المختلفة.

وقد حدثت حروب بين الفرس والروم قبل الإسلام قوت النظام العسكري في هذه الدولة، وبالتالي زادت من الحاجة إليه، وكان هذا بالطبع على حساب العامة من الرعية الذين أصيبوا بأضرار كبيرة في العديد من الولايات في الشام ومصر والجزيرة[1] وغيرها نظرًا للمد والجزر في الحروب الفارسية الرومية التي استمرت فترة طويلة قبيل الإسلام كما أن نظام الضرائب المفروض في الولايات الرومية كان يشعر الناس بالإرهاق، فهناك ضرائب على الأراضي، وضرائب على الحيوانات، وضرائب على الممتلكات المختلفة، إضافة إلى الضرائب الموضوعة على الرؤوس،[2] رغم أن الحكام والمحكومين كانوا من النصارى.

وقد ظهر خلال تلك الفترة نظام الملتزمين الذين يقومون بجباية الضرائب لأنفسهم مقابل التزامهم بمبالغ معينة يدفعونها إلى الدولة وبالتالي زادوا في الضرائب على الناس وزادوا في الظلم حتى يستطيعوا أن يفوا بالتزاماتهم التي ضمنوها للدولة.[3]

كانت الديانة العامة للدولة ورعاياها هي النصرانية، حيث كان لرجال الدين النصارى مكانة خاصة في الدولة وفي المجتمعات العامة لما يتميزون به عن بقية الناس، إذ يعتبرون طبقة عليا لهم حق التصرف في أحوال الناس وفي معاملاتهم، بل وفي عباداتهم أيضًا، كما فرضت ضرائب على الناس لصالح الكنيسة ورجالها، وكان رجال الكنيسة يفرضون أوامرهم على الناس، ويعاقبون بصرامة كل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم.[4]

وقد وجدت مذاهب نصرانية مختلفة في مملكة الروم وكثرت بينهما الخلافات العقائدية، التي أدت إلى المنازعات التي وصلت إلى مراحل قوية من العداء بين الكنائس، وقد تركزت مذاهب نصرانية معينة في بعض المناطق، وبالتالي وجد نوع

١. د. أسد رستم، الروم، ج١/٢٢٣.
٢. د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٢٤، ٢٦. رنسيمان،الحضارة البيزنطية، ص ١١٢.
٣. نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٥. د. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٤٣.
٤. د. أسد رستم، الروم، ج١/١٣٨.

من العداء بين بعض الولايات، وبعض الشعوب داخل دولة الروم، وقد حاول إمبراطور الروم فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية على بعض الولايات،[1] وخصوصًا في مصر، مما أوجد كرهًا شديدًا بين الأقباط والروم، وبالتالي فإن كثيرًا من الناس في الدولة يحسون بالظلم والاضطهاد نتيجة تدخل الدولة في الشؤون الدينية، وتأييدها لبعض المذاهب ضد البعض الآخر، ونتيجة لسيطرة الكنيسة ورجال الدين فيها على الناس وتحكمهم فيهم، إضافة إلى فرض الضرائب الزائدة لصالح الدولة ولصالح الكنيسة في آن واحد مما أوجد، مناخًا خاصًا مهد للفتوح الإسلامية في تلك البلاد.

١. د. عبد القادر اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٨. نورمان بينر، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٢. رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٢٨.

أولاً:

# خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

حينما بُويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة كانت الدولة الإسلامية مضطربة في معظم أجزائها، قد أصابها التفكك نتيجة ظهور الردة على يد الكذابين المتنبئين، قبيل وفاة الرسول ﷺ ومنهم مسيلمة الكذاب، الذي سيطر على بني حنيفة في اليمامة وما جاورها، حيث كون منهم قوة تهدد المسلمين في المدينة ومنهم «الأسود العنسي الكذاب» في اليمن وقد زادت خطورة هذه المشكلة بعد وفاة الرسول ﷺ حيث ظهر متنبئون آخرون أمثال «طلحة بن خويلد الأسدي» في قبائل نجد «وسجاج بنت الحارث التميمية» ويضاف إلى أولئك بعض القبائل التي رفضت دفع الزكاة، وبذلك عطلت أحد أركان الإسلام.[1]

وقد انشغل «أبو بكر الصديق رضي الله عنه» في بداية خلافته بأمر أولئك المرتدين، حتى تمكن من القضاء على ردتهم، وتأديب مانعي الزكاة وأعاد توحيد بلاد العرب تحت راية الإسلام مرة أخرى.

ثم أطلق الجيوش للفتح في أعظم دولتين في زمانه، وهما فارس والروم والأغرب أنه رضي الله عنه بدأ الجهاد ضد هاتين الدولتين في وقت واحد رغم أن الجيوش الإسلامية خرجت للتو من حروبها مع المرتدين، ومع ذلك فقد انطلقت في موجة عظيمة من الفتوح لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلاً.

١. لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع راجع: الكلاعي الأندلسي، حروب الردة، من ص٤٠ إلى ١٦٠ . الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص ٢٧ .

## حروب الردة

### حملة أسامة بن زيد رضي الله عنه:

هي أول جيوش الفتح خارج جزيرة العرب حيث كان الرسول ﷺ قد أعد جيشًا قبيل وفاته بقيادة «أسامة بن زيد رضي الله عنه» ليوجهه إلى الروم في نواحي بلاد الشام، فطعن الناس في إمارته فرد الرسول ﷺ:

# جيش أسامة رضي الله عنه
## (آخر جيشٍ أرسله النبي ﷺ)

((إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعَنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلْإِمَارَةِ وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ)). (١)

١. رواه البخاري، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج١٦/٢٨٧. وانظر: الطبري، تاريخه، ج٣/١٨٨.

ثم مرض ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى قبل تسييره لذلك الجيش.

ولما بُويع أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة،[1] عزم على بعث جيش أسامة رضي الله عنه إلى الروم، فحاول بعض الصحابة رضي الله عنهم أن يثنيه عن هذا الأمر أو يؤخره لبعض الوقت نظرًا لوجود أخطار مختلفة ومتوقعة على المسلمين من الروم ومن نصارى العرب في الشام، ومن المرتدين الذين كانوا ما يزالون أقوياء في تلك الفترة إلا أن الصديق رضي الله عنه أصر على بعث ذلك الجيش قائلاً: (والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله ﷺ)، وفي رواية: (والذي نفسي بيده لأن تميل علي العرب أحب إلي من أن أحبس جيشًا بعثهم رسول الله ﷺ).[2]

واستعد الجيش للخروج ورافقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وبعض الصحابة بداية الطريق مودعين ومشيعين، وقبل أن يودع أبو بكر رضي الله عنه جيش أسامة رضي الله عنه أوصاهم ببعض الوصايا مما تعلمه الصديق رضي الله عنه من قواعد الحرب والجهاد في الإسلام قائلاً لهم: (أيها الناس لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له....).[3]

وقد سار هذا الجيش يحمل تلك التعليمات ووصل إلى أطراف الشام، وأغار على بعض قبائل نصارى العرب التي ساعدت الروم في غزوة مؤتة، وأدبها، ثم عاد إلى المدينة بعد شهرين، وكان لخروج هذا الجيش أثر عظيم في دفع المرتدين عن المدينة، وفي بدء الجهاد ضد الروم وأتباعهم من نصارى العرب، حتى أن هرقل نفسه ملك الروم قال: ما بالى هؤلاء بموت صاحبهم أن غاروا على أرضنا.[4]

---

١. انظر: تفاصيل بيعة أبو بكر في: الطبري، تاريخه، ج٣/٢٠٧. المحب الطبري، الرياض النظرة في مناقب العشرة، ج١/٢٣١ ـ ٢٥٢.
٢. الطبري، تاريخه، ج٣/٢١٢. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص٢٠.
٣. صبحي الصالح، النظم الإسلامية، ص ٣٠٩.
٤. ابن سعد، الطبقات، ج٤/٦٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/٥٠٣.

# موقعة اليمامة (سنة ١١هـ):

خاض المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ العديد من المعارك ضد الكفرة من المرتدين في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، حيث بلغت الجيوش التي تحركت لهذه المهمة أحد عشر جيشًا جابت الجزيرة العربية طولاً وعرضًا، وقامت بالجهاد وتنفيذ ما أوكل إليها من مهام دون تقصير .

وكان بنو حنيفة في اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب هم أخطر المرتدين على المسلمين في المدينة، حيث كان لديهم جيش يزيد على أربعين ألف مقاتل،[1] كما كان لديهم عصبية قوية دفعتهم للتجمع حوله وإظهار الاستعداد لقتال المسلمين، بل وحتى مهاجمة المدينة نفسها، ولذلك كان من أوائل الجيوش المرسلة إليهم جيش يقوده «عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه»، فلم يلق نجاحًا في مواجهته الأولى مع «مسيلمة» ولذلك صرفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى منطقة أخرى، وكان قد وجه «شرحبيل بن حسنة» مددًا لعكرمة فأمره بالتريث في طريقه إلى اليمامة ووجه «أبوبكر رضي الله عنه» «خالد بن الوليد رضي الله عنه»، وأمر «شرحبيل» بالانضمام إلى «خالد بن الوليد»،[2] واقترب الجيش من اليمامة، وعماده المهاجرون وعليهم «أبو حذيفة» و «زيد بن الخطاب رضي الله عنهما»، ويحمل رايتهم «سالم» مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما، والأنصار عليهم «ثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه»، ولما قرب جند المسلمين علم بهم: مسيلمة» فخرج بجنده إلى: عقرباء» وعسكر بهم، وتمكن المسلمون من الوقيعة بإحدى سرايا «مسيلمة» وتقدر من بين الأربعين إلى الستين رجلاً[3] ثم وقع اللقاء مع مسيلمة وقواته، وكان من أوائل القتلى رجلاً يسمى «الرجال بن عنفوان»، كان قد أظهر الإسلام والتقى بالنبي ﷺ ثم ارتد وتبع

١. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٤٤.

٢. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٤٣.

٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٠٦. الذهبي، تاريخ الإسلام (عصر الراشدين)، ص٤٠. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٣٦٢.

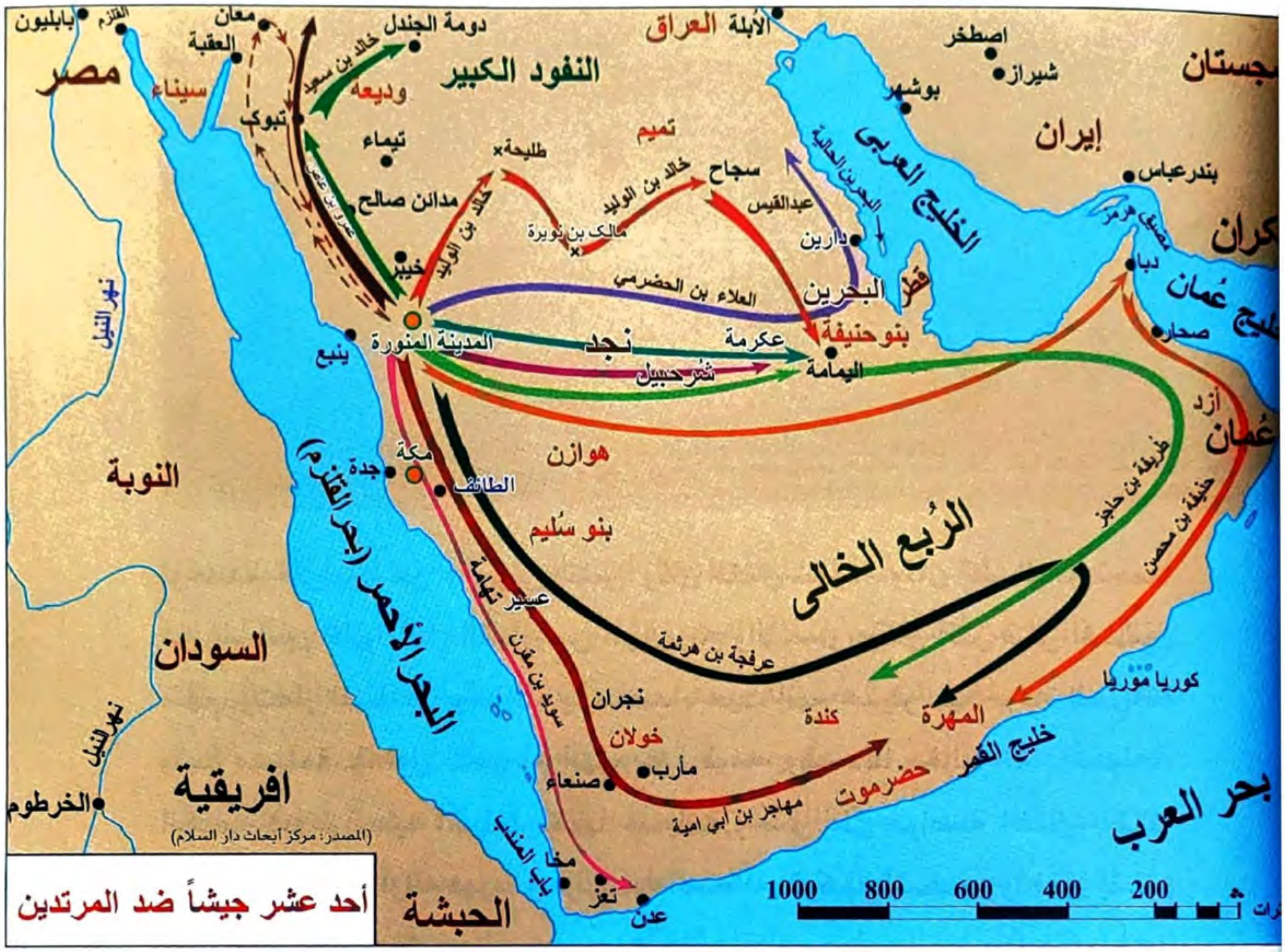


أحد عشر جيشاً ضد المرتدين

مسيلمة وزعم أن مسيلمة قد أشرك مع النبي ﷺ في الرسالة، فكان أشد فتنة لبني حنيفة مع مسيلمة نفسه،[1] واشتد القتال واجتهد فيه بنو حنيفة، وتمكنوا من فك بعض أسراهم في السرية الأولى، واهتزت صفوف المسلمين، وكادت أن تقع بهم الهزيمة، ثم تداعى المسلمون للثبات، وقاتلوا ببسالة وكان من هؤلاء ثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه حامل لواء الأنصار الذي قال: بئس ما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني أهل اليمامة، واعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قتل، وقال أبوحذيفة رضي الله عنه: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال،[2] واشتد القتال وكان في أوله في صالح بني حنيفة، ثم أصبح سجالاً ثم أمر خالد بن الوليد رضي الله عنه الناس بأن يمتازوا وتكون كل فئة وقوم

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٠٧. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٤٤.

٢. الطبري، تاريخه، ج ٣/٢٤٨. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص٢٠. ابن الأثير، الكامل، ج ٢/٣٦٣.

لوحدهم حتى يرى من أين يؤتى الناس، وكان القتال شديدًا، وكان أكثر الناس تحملاً من المسلمين كانوا أهل القرآن من المهاجرين والأنصار، وكان أكثر قتلى المسلمين منهم، وشعار المسلمين يومذاك: يا محمداه حيث إنهم حديثو عهد بوفاة النبيﷺ، وثبت مسيلمة في أول الأمر ثم أنهزم عنه قومه، وقد دعا «خالد ﷺ» «مسيلمة» الكذاب فعرض عليه أشياء رفضها مسيلمة وأصر على مواصلة القتال، فقاتله خالد بنفسه حتى أزاله فهرب وهرب معه أصحابه، فركبهم المسلمون وأخذوا يقتلون

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

فيهم، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، فقال أصحاب مسيلمة له: أين ما كنت تعدنا؟ فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وتنادوا الحديقة! الحديقة!، ليلجأوا إلى حديقة لمسيلمة مسورة ومحصنة، والتجأ مسيلمة ومعه سبعة آلاف من قوات بني حنيفة إلى تلك الحديقة، وأغلقوا على أنفسهم وتحصنوا فلحق بهم شجعان المسلمين ومعهم (البراء ابن مالك) أخو خادم رسول الله أنس بن مالك رضي الله عنهما، وكان كالأسد في شجاعته، فلما رأى المسلمين حائرين في الأسوار، أقسم عليهم البراء أن يحملوه ويلقوه على السور ليحاول فتح الأبواب للمسلمين، وامتنع المجاهدون عن ذلك خوفًا عليه من أن يقتحم عليهم وحيدًا، فلما رأوا إصراره ألقوه على السور، فقاتل حتى تمكن من فتح الأبواب للمسلمين، ودخل عليهم المسلمون الحديقة واشتد القتل في الفريقين، حتى تمكن المسلمين من قتل مسيلمة الكذاب، وقد اشترك في قتله أحد الأنصار مع وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ولما علم بنو حنيفة بمقتله انهزموا وأخذتهم سيوف المسلمين.[1] ثم أن أحد أسرى «خالد رضي الله عنه» من زعماء بني حنيفة طلب أن يصالح خالدًا عن بني حنيفة، وخدعه بأن بقية الحصون ملأى بالرجال، وأن لهم كرة على المسلمين، وكانت نساء بني حنيفة قد لبسن السلاح وأخذن يظهرن أنفسهن من على الحصون فظن المسلمون أن لجيوش بني حنيفة بقية، فصالح ذلك الزعيم خالدًا عن قومه بوقف الحرب بشروط أخرى، ثم أكتشف المسلمون أنه ليس في

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٠٩. الطبري، تاريخه، ج٢/٢٤٨. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص ٣٩.

الحصون إلا النساء والضعفاء، فوفوا لهم، وجاء أمر من أبي بكر الصديق ﷺ بقتل كل محتلم من القوم، ولكنه بعد أن علم بهذا الصلح أمضاه، وقد انتهت بذلك ردة بني حنيفة وقتل كذابهم، ثم عادوا بعد ذلك إلى الإسلام.[١] وأبلى بعض منهم بلاءً حسنًا أيام الفتوح.

وقد استشهد جمع كبير من أصحاب النبي ﷺ في هذه المعركة كان فيهم جماعة ممن شهدوا بدرًا وأحدًا والمشاهد مع النبي ﷺ، وقد بلغ عدة الشهداء ثلاث مئة وستين من الأنصار وثلاث مئة من المهاجرين إضافة إلى بعض الأعراب،[٢] كما بلغت عدة من قتل من بني حنيفة عشرين ألفًا،[٣] وكان معظم قتلى المسلمين في اليمامة من حملة القرآن، فذكر المسلمون ذلك وخشوا على ضياع القرآن بكثرة القتلى من حملته، وبالتالي عملوا بعد ذلك على جمعه في المصحف الجمع الأول في عهد أبي بكر ﷺ.[٤]

---

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٠ - ١١١. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٥٣. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، ص ٤٠.

٢. لمعرفة من استشهد من المسلمين في اليمامة راجع خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١١ - ١١٥. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الخلفاء الراشدين)، من ص ٥٣ -٧٣.

٣. الطبري، تاريخه، ج ٣/٢٥٢. ابن كثير، الكامل، ج٢/٣٦٤.

٤. انظر: الحديث الذي أخرجه البخاري في ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، في باب جمع القرآن، ج٩/٨. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٧٩. المحب الطبري، الرياض النضرة، ج١/١٦٢.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

# فتح فارس والعراق:

قد كانت دولة الفرس قوية مترامية الأطراف تمتد حدودها غربًا من الأطراف الشرقية لبلاد الشام إلى بلاد الأفغان في الشرق، ومن بحر الخزر (قزوين) في الشمال إلى بلاد السند في الجنوب، وتشمل العراق وفارس وخراسان وطبرستان وأذربيجان وغيرها من المناطق.

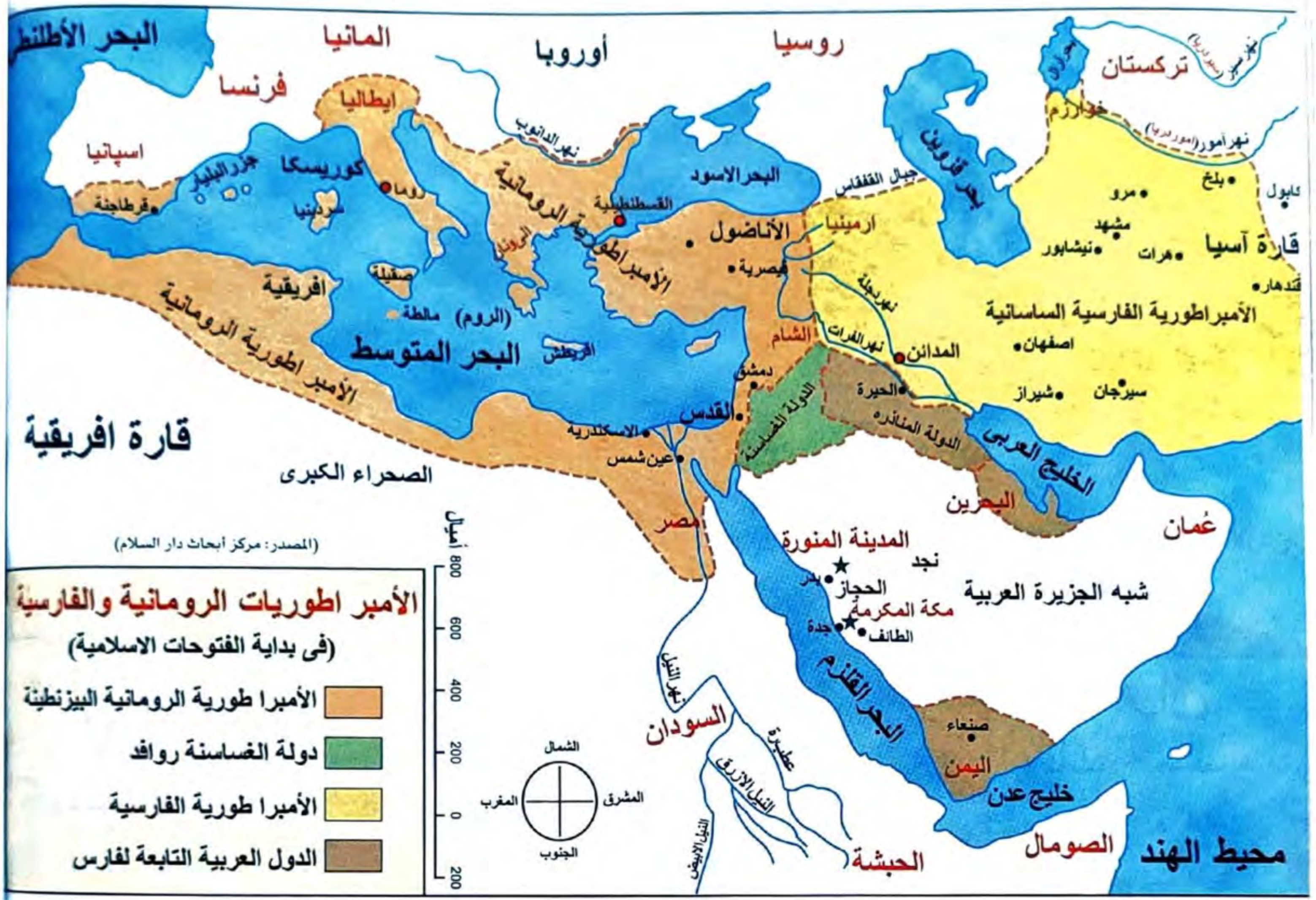


وقد كانت هذه الدولة تتمتع بقوات عسكرية كبيرة ومنظمة، يصعب التحرش بها أو معاندتها، وكانت تخوض بها المعارك الكبرى ضد الروم، وتنتصر عليها في كثيرٍ من الأحيان،[1] مما أكسبها خبرة عسكرية قوية ومع ذلك فقد استهان بها المسلمون أمام موعود الله لهم بالنصر أو الشهادة:

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢).

وقد بدأت حركة الفتح الجهادية في فارس على يد القائد المسلم «المثنى بن حارثة الشيباني ﷺ» الذي طلب من أبي بكر الصديق ﷺ أن يأذن له بمحاربة الفرس،

١. انظر: ص ٩١ وما بعدها من هذا الكتاب .

والإغارة عليهم بمن معه من مسلمي بني قومه لقربهم منهم، وبالفعل بدأ المثني ﷺ يغير على أطراف العراق الجنوبية، وتمكن من إحراز الانتصارات العديدة على الفرس وأتباعهم من نصارى العرب، رغم قلة جيشه من المسلمين، وكثرة جيش الأعداء،[1] وأمام الظروف العسكرية المتغيرة كتب المثنى إلى أبي بكر الصديق ﷺ يطلب منه المدد، وكان خالد بن الوليد ﷺ قد انتهى للتو من حرب مسيلمة الكذاب في اليمامة، فكتب إليه أبو بكر الصديق ﷺ آمرًا إياه بالتوجه بمن معه من الجند إلى العراق لدعم المثنى بن حارثة ومساندته، فتوجه إلى العراق سنة ١٢هـ[2] كما حرك أبوبكر الصديق ﷺ جيشًا آخر بقيادة «عياض بن غنم الفهري ﷺ»، وأمره أن يدخل العراق من أعلاه وأمر كلاً من «خالد وعياض ﷺ» أن يتجها إلى الحيرة عاصمة مملكة العرب المناذرة ومن سبق إليها منهما كانت له الإمرة على صاحبه.[3]

وقد دخل خالد ﷺ العراق من الجنوب وبدأ يخضع القرى المجاورة للفرات، فاستسلمت له (أليس) و(بارسوما) و(بانقيا)، وغيرها من القرى، وقد كان خالد ﷺ يخطط لفتح (الأبلة) وهي أقوى المراكز الفارسية في جنوب العراق وميناؤه المؤدي إلى الهند،[4] حتى أنها كانت تسمى باسمه (ثغر الهند) وقبل أن يتقدم خالد ﷺ إلى الأبلة كتب إلى قائدها، يدعوه إلى الإسلام أو دفع الجزية وهدده إن أعرض عن ذلك قائلاً: (وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة).[5] وأستعد المسلمون للقاء الفرس واستعد الفرس بالمقابل فيما عرف بـ:

## موقعة ذات السلاسل (سنة ١٢هـ):

وهي إحدى أهم المعارك التي دارت بين المسلمين والفرس في بداية الفتوح في فارس، وموقعها بالقرب من مدينة الأبلة، وقاد المسلمين فيها خالد بن الوليد ﷺ وقاد

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ٥٣ ، ٥٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٢.
٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٧. الأزدي، فتوح الشام، ص ٥٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٢. الطبري، تاريخه، ج٤/٢.
٣. الطبري، تاريخه، ج٣/٥.
٤. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٧ ، ١١٨. الأزدي، فتوح الشام، ص ٥٧. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٧٧، ٧٨.
٥. الطبري، تاريخه، ج٣/٥.

## هجوم جيشا خالد بن الوليد و عياض بن غنم رضي الله عنهما على العراق

الفرس هرمز صاحب (الأبلة) وسميت بهذا الاسم لأن الفرس قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا،[1] وليثبتوا لقائدهم أنهم صامدون حتى الموت، وفي بداية المعركة وقعت مبارزة فردية بين خالد بن الوليد رضي الله عنه وبين قائد الفرس حاول خلالها مجموعة من جنود الفرس مباغتة خالد بن الوليد رضي الله عنه على إنفراد، لكن المسلمين تنبهوا للأمر، وتعاونوا في الدفاع عن خالد، وتمكن خالد بنفسه رضي الله عنه من قتل قائد الفرس وحمل المسلمون على الفرس حتى هزموهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفر جيش الفرس، وغنم المسلمون في تلك المعركة غنائم عظيمة.[2]

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ٥٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٢. الطبري، تاريخه، ج٣/٥.
٢. الطبري، تاريخه، ج٣/٦.

وقد أرسل ملك الفرس جيشًا آخر مددًا لقواته في السلاسل وصلت بعد المعركة، فعسكرت في المذار وانضمت إليها فلول المنهزمين، فتوجه إليهم خالد بن الوليد ﷺ والتحم معهم فيما عرف بمعركة المذار وقتل منهم مقتلة عظيمة.[1]

## موقعة الولجة، موقعة أليس (سنة ١٢هـ):

بدأ ملك الفرس يخطط لمقاومة المسلمين فاستعان بنصارى العرب في بلاد العراق لحرب المسلمين فاستجابوا له، وأعد جيشًا كبيرًا قوامه نصارى العرب وجنود الفرس، ولما علم خالد ﷺ بتجمعهم بادر وهاجمهم في (الولجة) وانتصر عليهم، وقتل جموعًا كبيرة منهم، جلهم من نصارى العرب، وأعطى المسلمون الأمان للفلاحين وغير المقاتلين وعاملوهم برفق وأحسنوا إليهم.[2]

غضب نصارى العرب في العراق لمقتل جموع منهم في هذه المعركة فاجتمعوا في مكان يقال له (أليس)، وكتبوا إلى ملك الفرس يطلبون معونته، فوجه إليهم بقوات عظيمة لمساعدتهم، وقد اشتبك المسلمون مع هذه القوات ومعها نصارى العرب في معركة قوية قاد المسلمين فيها خالد بن الوليد ﷺ، ورغم صمود الأعداء فترة طويلة إلا أن المسلمين انتصروا عليهم بفضل الله، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حتى تغير لون النهر المجاور من الدم لكثرة القتلى، فسميت معركة (نهر الدم).[3]

## فتح الحيرة والأنبار (سنة ١٢هـ):

كانت الحيرة عاصمة ملوك العرب المناذرة، وكانت مملكتهم من أكبر الممالك العربية وأشهرها، وتضم قبائل عربية متنصرة مختلفة، وهي خاضعة للفرس،[4] وبعد اشتباك خالد ﷺ مع نصارى العرب في العراق عدة مرات، توجه إلى الحيرة، وقد حاولت قوات الحيرة من العرب والفرس عرقلة مسير المسلمين إلى مدينتهم، حيث كان المسلمين قد ركبوا السفن بأثقالهم في نهر الفرات متوجهين إلى (الحيرة)

١. الطبري، تاريخه، ج٣/٧.
٢. انظر: إلى مزيد من التفاصيل حول هذه الوقعة في الطبري، تاريخه، ج٣/٩.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٨. الطبري، تاريخه، ج٣/٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٤. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٧٨.
٤. لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه المملكة، انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج٢/٩٠-١٠٥.

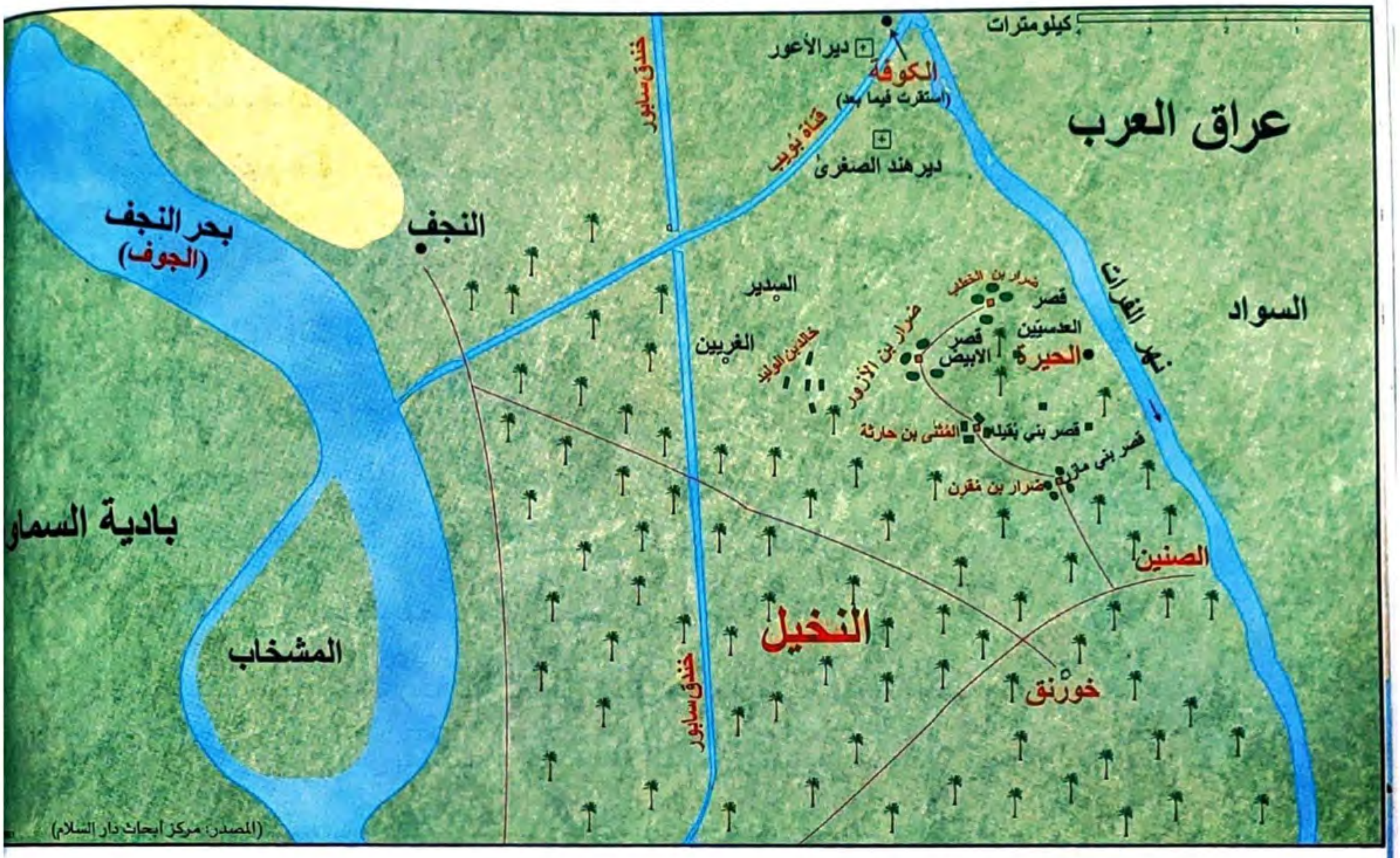


فقامت قوات الحيرة بتحويل مجرى النهر ليعرقلوا السفن فركب المسلمين خيولهم وقضوا على من حولوا النهر، ثم واصلوا مسيرهم إلى الحيرة، وقد وصلت أخبار مقتل قوات أهل الحيرة إلى أهلها ففت في عضدهم، ثم جاءت الأنباء بوفاة كسرى فزاد خوف مرزبانها الفارسي، فترك الحيرة لأهلها من نصارى العرب الذين واصلوا تحصين بلدهم ومقاومة المسلمين، فحاصرهم المسلمون، فاضطروا إلى التسليم ومصالحة المسلمين عل دفع الجزية، وفتح مدينتهم أمام قوات المسلمين،[1] وتبعًا لذلك قام الأمراء التابعون للحيرة في المناطق المجاورة لها بتقديم الولاء والطاعة للمسلمين.

ثم تقدم خالد ﷺ ومن معه إلى الأنبار، فلما وصلها المسلمون وجد أهلها قد تحصنوا وأحاطوها بخندق يحميها، فحاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم، ووقعت

---

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٨. الأزدي، فتوح الشام، ص ٦٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٤. الطبري، تاريخه، ج٣/١٣. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٧٨.

فتح الأنبار (٤رجب١٢هـ/١٤سبتمبر ٦٣٣م)

المصدر: مركز أبحاث دار السلام

مسجد مدينة الفلوجة في محافظة الانبار

بينهم وبين المسلمين عدة معارك، مما أضطر أهلها إلى طلب الصلح والإقرار بدفع الجزية للمسلمين،[1] وقد توجه خالدﷺ بعد ذلك إلى (عين التمر) وهي بلدة قريبة من الأنبار، وكان بها جموع من الفرس ونصارى العرب، فقاتلهم المسلمون، واستمات نصارى العرب في قتال المسلمين أكثر من الفرس، وقد تمكن خالد بن الوليد ﷺ من أسر قائدهم، فانهزموا واستولى المسلمون على عين التمر.[2]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٨. الأزدي، فتوح الشام، ص ٦٧. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٦. الطبري، تاريخه، ج١٧/٣. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٧٨.

٢. الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١٢، الطبري، تاريخه، ج٢١/٣. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢٤١/١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣٤٩/٦.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام) فتح دومة الجندل ٢١ هـ

## فتح دومة الجندل (سنة ١٢هـ):

كان أبو بكر الصديق ﷺ قد بعث (عياض بن غنم ﷺ) على رأس جيش من المسلمين للمشاركة في فتوح العراق وحدد له طريقًا يسلكه، فكان مروره على (دومة الجندل)، فحاصروه، فلما فرغ خالد بن الوليد ﷺ من (الحيرة) و(عين التمر)، كتب رسالة إلى عياض وهى من أوجز الرسائل قال فيها: (من خالد إلى عياض إياك أريد)، ثم سار بجيشه إلى دومة الجندل واشترك مع عياض في حصار حصنها، ودارت بينهم وبين أهلها مجموعة من المعارك، وتمكن خالد من أسر زعيمها أكيدر بن عبدالملك فقتله، ثم تمكن المسلمون من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه

مسجد عمر الأثري ، دومة الجندل

بالقـوة، بعـد معـارك حاميـة بينهم وبـين أهلهـا ومن عاونهـم من نصـارى العرب في شـمال الجزيـرة العربية.[1] وبعـد فتح دومة الجنـدل عاد خالد بـن الوليد رضي الله عنه إلـى العـراق، وبدأ يثبـت أقدام المسـلمين في المناطق المفتوحة سـابقًا والتي حاول أهلهـا الانتفـاض بعد مغادرة خالد إلـى دومة الجندل، كما تمكـن خالد ومن معه مـن المسـلمين رضي الله عنهم من فتـح العديد مـن المواقع الجديـدة. وانتصر المسـلمون على جيـش موحـد في غرب العراق اشـتركت فيـه قوات الروم مع الفـرس، في مواجهة المسـلمين في موقعـة عرفت باسـم (الفُـراض) بين تخوم الشـام والعـراق،[2] وقد توقفـت الفتـوح في العـراق بقية أيام أبـي بكر الصديق رضي الله عنه بعد هـذه المعركة نظرًا لأن خالـد بـن الوليـد ومعظم من معـه من جيوش المسـلمين جاءتهـم الأوامر من أبـي بكـر الصديـق رضي الله عنه بالتوجه من العـراق إلى الشـام للاشـتراك في فتحها.[3]

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧٤. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٢. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٣٩٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٦/٣٥٠.

٢. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٦.

٣. الأزدي، فتوح الشام، ص ٦٨. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥١. الطبري، تاريخه، ج٣/٣٢.

قلعة مارد الأثرية ، دومة الجندل

أطلال الرصافة

## فتح الشام (الروم):

كان أول احتكاك بين المسلمين والروم في معركة مؤتة في السنة الثامنة على عهد رسول الله ﷺ وتلا ذلك بعث جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما في أول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولم تكن مهمة تلك الجيوش الفتح ولكن التمهيد له.[1]

وبعد أن أوشكت حرب الردة على النهاية في أواخر السنة الثانية عشرة من الهجرة بدأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحشد الجيوش في المدينة من اليمن والحجاز ونجد وغيرها ليوجههم للفتوح في الشام.[2]

بعث أبو بكر رضي الله عنه في أول الأمر «خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه» في أول الجيوش الموجهة إلى الشام[3] فتحرك إلى الأطراف الجنوبية لبلاد الشام، وبدأ يواجه نصارى العرب وبعض الروم، وتمكن من إحراز النصر في عدة مواقع، ثم طلب من أبي بكر رضي الله عنه أن يرسل بأجناد أخرى إلى الشام فبعث (أبو بكر الصديق)

---

١. انظر: ص ٨٩ من هذا الكتاب.

٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٩. الأزدي، فتوح الشام، ص ٥، ١١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٥. الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٨.

٣. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٦. الطبري، تاريخه، ج٣/ ٢٩.

ﷺ (عكرمة بن أبي جهل) بجيش آخر اشترك مع (خالد بن سعيد) في مناوشاته للأعداء، إلا أن الروم حشدوا جموعًا كبيرة لمواجهة المسلمين مما اضطر خالدًا وعكرمة إلى الانسحاب جنوب بلاد الشام وانتظار توجيهات الصديق الذي كان في هذه الأثناء يواصل حشد الجيوش الموجهة إلى الشام،[1] وقد رأى أبو بكر ﷺ أن يعيد تنظيم الجيوش الموجهة إلى الشام، لبدء مرحلة قوية وجادة من الجهاد فكون أربعة جيوش، وعين عليها أربعة أمراء على النحو التالي:

١. أبو عبيدة بن الجراح ﷺ: ووجهته حمص وحدد له طريق تبوك الجابية، دمشق.

٢. يزيد بن أبي سفيان ﷺ: ووجهته دمشق وحدد له طريق تبوك البلقاء دمشق.

٣. عمرو بن العاص ﷺ: ووجهته فلسطين وحدد له طريق أيلة فلسطين.

٤. شرحبيل بن حسنة ﷺ: ووجهته الأردن وحدد له طريق تبوك الأردن.[2]

---

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ١١، ١٢، ١٣. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٨.

٢. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٩. الأزدي، فتوح الشام، ص ١١، ١٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٥، ١١٦. الطبري، تاريخه، ج٣/٢٨.

عقد أبو بكر الألوية لهؤلاء الأمراء وسيرهم في أوقات متقاربة ونصحهم بنصائح عدة، وكانت لكل أمير نصيحة خاصة حسب وجهته وهذه النصائح في مجملها تحث على التقوى ومشاورة الجند والرفق بهم، والتعاون فيما بينهم، وعدم قتل الشيوخ والصبيان والأطفال وعدم قتل الحيوانات أو قطع الأشجار لغير حاجة وإقامة الصلاة وإكرام الرسل، والصدق، والحذر، والشجاعة، ومسالمة المسالمين.(١)

وقد توجه كل قائد من أولئك القواد الوجهة التي حددها أبو بكر الصديق ﷺ، وقد أعد الروم جيشًا كثيفًا لمواجهة المسلمين، وقسموه أربعة أقسام كل قسم يواجه جيشًا من جيوش المسلمين، ودارت المراسلات بين جيوش المسلمين بعضها مع بعض وبينهم وبين أبي بكر الصديق ﷺ للتنسيق فيما بين الجيش، فصدرت أوامر أبو بكر الصديق ﷺ إلى القواد الأربعة بالتجمع وتوحيد جيوشهم لمواجهة الروم، وفي الوقت نفسه كتب أبو بكر ﷺ أمرًا إلى خالد بن الوليد ﷺ في العراق بالتوجه بنصف جيش العراق إلى الشام وبتولي جيوش الشام عند وصوله وأن يتعاون مع القواد الآخرين في ذلك.(٢)

وقد توجه خالد بن الوليد ﷺ ملبيًا أمر أبي بكر الصديق ﷺ واجتاز بالجيوش الإسلامية أخطر الطرق وأسرعها وأوعرها وتعرض هو وجنوده للأخطار والمصاعب، إلا أنه وصل إلى الشام في وقت قياسي لم يتوقعه الأعداء ومن مكان لم يتوقعوه أيضًا، وتمكن من فتح المواقع في الطريق، ومنها (تدمر) و(حوران) و(بصرى)، وقد التقى خالد بن الوليد مع بقية جيوش المسلمين في الشام بالقرب من اليرموك.(٣)

---

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ٣٢ ، ٥٠. الطبري، تاريخه، ج٣/٣١.
٢. الأزدي، فتوح الشام، ص ٣٢ ، ٥٠. الطبري، تاريخه، ج٣/٣١.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١١٩. الأزدي، فتوح الشام، ص ٧٣، ٨١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١١٨. الطبري، تاريخه، ج٣/٣٢.

## معركة اليرموك (سنة ١٣هـ):[١]

أعد الروم جيوشًا عظيمة لمواجهة جيوش الفتح الإسلامي في الشام، وتوالت إمداداتهم بقيادة (باهان)،[٢] وفي الوقت الذي وصل فيه خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الشام قادمًا من العراق وقد تجمعت جيوش الفريقين في وادي اليرموك شمالي نهر الأردن بالقرب من جبال الجولان، وقد كان المسلمون قبل وصول خالد رضي الله عنه يتساندون في القتال، إلا أن كل جيش كانت له قيادته الخاصة فرأى خالد ضرورة توحيد قيادة الجيوش الأربعة، وأن تلاقي الروم كتلة واحدة، وصفًا واحدًا، وقد امتنع القواد بذلك الرأي وخططوا لأن يتولى القيادة في كل يوم أحد القواد الأربعة وأن يتولى خالد قيادة الجيوش الموحدة في اليوم الأول.[٣]

وقد حاول الروم التجسس على المسلمين لمعرفة أحوالهم المختلفة فأرسل قائدهم رجلاً من نصارى العرب أندس في صفوف المسلمين لينقل الأخبار للروم، فأقام فيهم سرًا يومًا وليلة، ثم رجع إلى قائد الروم فقال له القائد ما وراءك؟ فقال يصف المسلمين: (هم قوم يقومون الليل كله يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أسد بالنهار، لو يسرق ملكهم قطعوا يده ولو زنى لرجموه لإيثارهم الحق، وإتباعهم إياه على الهوى فقال: لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي).[٤]

واستعد كل من الروم والمسلمين لهذه المعركة، واختار الروم موقعًا ضيقًا، حشرهم الله فيه بأيديهم حيث حرضوا أن تحيط بهم الوديان والجبال من اليمين واليسار، وحافة أحد الجبال من الخلف ليتفرغوا من الأمام لقتال المسلمين بزعمهم، فكان

١. لمزيد من التفاصيل حول موقع المعركة راجع: محمود شاكر، ميدان موقعة اليرموك، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ.
٢. انظر إلى بعض أخبار باهان في: الأزدي، فتوح الشام، ص ١٧٥. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج١/١٧٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٩١.
٣. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٨٨.
٤. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢١١.

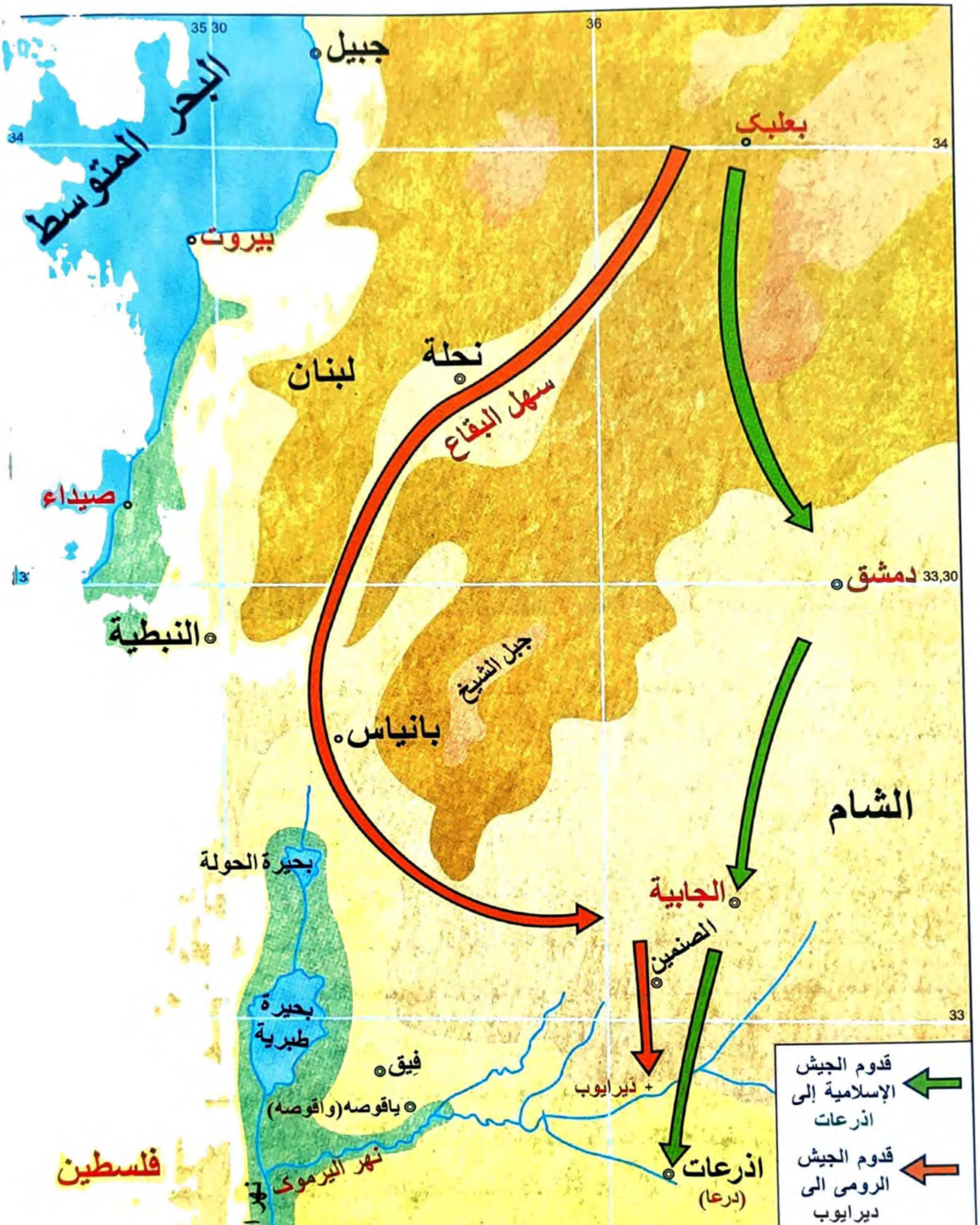


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

صورة لليرموك

اختيارهم لهذا الموقع تيسيرًا للمسلمين، الذين تفاءلوا قائلين لبعضهم: ابشروا حصرت الروم،[1] وأحس المسلمون بتفاؤلهم أن هذا بداية النصر لهم، وقد اختار المسلمون موقعًا لهم أمام الروم مفتوحًا ييسر لهم الحركة، رغم أن الروم تصوروا أن توزيع مواقع القوات كان في صالحهم.

خرج الروم في اليوم الأول للمعركة في تعبئة عظيمة، وخرج المسلمون في تعبئة أخرى تولى تنظيمها خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث قسم الجيش إلى ستة وثلاثين كردوسًا، وهي تعبئة جديدة للمسلمين، كان لها دور في إرهاب الأعداء وتقوية عزيمة المسلمين.

وقد توزع القراء بين المسلمين قبل المعركة، وأخذوا يقرأون سورة الأنفال، ويردد المجاهدون وراءهم، كما انتشر القراء والوعاظ والمذكرون الذين يحثون المسلمين على الصبر والثبات أمام الأعداء،[2] وفي الوقت نفسه كان القسس والرهبان في مقدمة جيوش الروم يحثونهم على الثبات والدفاع عن النصرانية، وقد بدأ القتال بحملة

---

١. انظر: تفصيلات الموقع عند: محمود شاكر، ميدان معركة اليرموك، ص ٢٢، ٢٤.

٢. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢١٨. الطبري، تاريخه، ج٣/٣٤.

قوية وشجاعة من الروم على صفوف المسلمين كادت أن تزلزلهم لولا ثبات المسلمين وصبرهم.[1]

وقد تبايعت كتيبة من المسلمين على الشهادة قواهما أربع مئة رجل كان على رأسها عكرمة بن أبي جهل،[2] و الحارث بن هشام ، و ضرار بن الأزور ﷺ فألقوا دروعهم، وقاتلوا ببسالة منقطعة النظير، حتى قتلوا أو جرحوا جميعًا، وتمكن المسلمين من إعادة الكرة على الروم في هجوم معاكس حتى ضيقوا عليهم، فحاول فرسان الروم الفرار من المعركة مذعورين، فترك لهم المسلمون فرجة ليفروا منها، ففر فرسان الروم منهزمين طالبين النجاة لأنفسهم، وتركوا راجلة جيشهم لمصيرهم، فضيق عليهم المسلمون وشدوا عليهم بالسيوف،[3] فتراجعوا إلى الوراء، ووقعت ألوف منهم في الواقوصة ـ حافة الوادي من الجبل ـ فهلكوا، وكانوا قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل مجتمعين حتى يثبتوا ولا يفروا، فكانوا إذا وقع بعضهم في الواقوصة سحبوا معهم بقية من في السلسلة، فهلك كثيرٌ منهم دون قتال، وانتصر المسلمون عليهم بعد معركة دامت يومًا وبعض اليوم.[4]

وقد شاركت نساء المسلمين اللاتي صحبن محارمهن في المعركة، وكان لهن دور كبير فيها.[5]

وكان نتيجة المعركة استشهاد ثلاثة آلاف من المسلمين فيهم جمع من أصحاب رسول الله ﷺ كما قتل من الروم قرابة مئة ألف مقاتل، وحينما سمع هرقل ملك الروم بنتيجة المعركة وكان في حمص ارتحل منها متجهًا إلى الشمال يائسًا من بلاد الشام، وقال قولته المشهورة:

((سلام عليك يا سورية سلام مودع لا يرى أنه يرجع إليك أبدًا)).[6]

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٢٢، ٢٢٣.
٢. انظر: الطبري، تاريخه، ج٤/٣٦ .
٣. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٣٠.
٤. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٣١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤١. وانظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٠. الطبري، تاريخه، ج٣/٣٣.
٥. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٢٥٠. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤١. الطبري، تاريخه، ج٣/٣٣.
٦. الأزدي، فتوح الشام، ص ٢٣٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٣٨.

صورة لليرموك

وفي أثناء معركة اليرموك جاء نعي أبي بكر الصديق وتولية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما،[1] ومعه أمر من عمر رضي الله عنه بعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن قيادة الجيش، وتولية أبي عبيدة رضي الله عنه مكانه، فأستلم الرسالة أبو عبيدة رضي الله عنه ولم يخبر خالدًا رضي الله عنه بعزله فلما علم خالد بذلك عتب على أبي عبيدة رضي الله عنه، حيث أن كل واحد منهما لم يكن يرغب الإمارة لنفسه، وكان سبب عزل عمر لخالد رضي الله عنهما خشيته من اتكال الناس عليه حيث قال عمر رضي الله عنه: إني لم أعزل خالدًا رضي الله عنه عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة، وفي رواية أنه قال: أردت أن يعلم الناس أن الله إنما ينصر دينه وليس خالدًا ولا المثنى.[2]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٢. الطبري، تاريخه، ج٤/٥٥، ٥٩. اليعقوبي، تاريخه، ج٢/١٣٩.

٢. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٠٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/٣٧٨.

ثانيًا

# خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

## (أ) فتوح فارس:

في أواخر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كانت قيادة جيوش الفتح في العراق بعد مغادرة خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الشام للمثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه،[1] وقد حاول الفرس في هذه الفترة طرد المسلمين من المناطق التي فتوحها في العراق، فعملوا على بث الفتنة وإيقاد الثورات ضد المسلمين، وقد استجاب الفرس وكثيرٌ من نصارى العرب لهذا الأمر، مما أضطر بقايا المسلمين آخر الأمر بقيادة المثنى رضي الله عنه إلى الانسحاب من معظم المواقع المفتوحة، والتجمع قرب الحيرة،[2] ثم قدم «المثنى رضي الله عنه» إلى المدينة يطلب من «أبي بكر رضي الله عنه» أن يرسل مزيدًا من القوات لمواصلة الفتوح فيها، وقد كان «أبو بكر» في مرضه الذي مات فيه إلا أنه أوصى الخليفة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يرسل المدد إلى العراق، وأن يبادر إلى ذلك، وأن لا تشغله وفاة أبي بكر رضي الله عنه عن ذلك.

وبعد وفاة أبي بكر بادر عمر رضي الله عنهما بإرسال جيش، كان على رأسه «أبو عبيد بن مسعود الثقفي»،[3] وقد وصل أبو عبيد إلى العراق واشتبك مع الفرس ونصارى في العديد من المواقع وكانت نتائج تلك الاشتباكات في صالح المسلمين.[4]

---

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ٦٨.

٢. الطبري، تاريخه، ج٤/٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤١٥.

٣. انظر: ترجمته في ابن حجر، الإصابة، ج٤/١٣١. الذهبي، تاريخ الإسلام(عهد الراشدين)، ص ١٣٧.

٤. الطبري، تاريخه، ج٤/٦١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٥١. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤١٦.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

## موقعة الجسر (شعبان سنة ١٣هـ):

بعد أن هزم الفرس على يد «أبي عبيد والمثنى بن حارثة» في العديد من المواقع، أعدوا جيشًا عظيمًا واختاروا له أفضل قوادهم ووجهوه للقاء المسلمين في منطقة (قس الناطق).[١] وتقابل جيش الفرس مع جيش المسلمين قرب نهر الفرات، وكان النهر يفصل بينهما، فقال الفرس للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا أو أن نعبر إليكم، فأشار المسلمون على «أبي عبيد» أن يبقى في مكانه، وأن يترك الفرس ليعبروا إليهم، ولكن أبا عبيد رضي الله عنه قال: ما هم بأجرأ منا على الموت بل نحن نعبر إليهم[٢] واقتحم المسلمون الجسر، ودارت بينهم وبين الفرس معركة عنيفة، لعبت فيها الفيلة دورًا

١. يسمي البلاذري هذه المعركة باسم قس الناطق. انظر: فتوح البلدان، ص ٢٥٢.
٢. الطبري، تاريخه، ج٤/٦٧. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٣٨.

كبيرًا في جانب الفرس وآذت المسلمين كثيرًا، واستشهد قائدهم أبو عبيدة وجماعة من المسلمين تحت أقدامها،[1] فحاول المسلمون الانسحاب من خلال الجسر، ولكنهم

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٢، ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٣٩ .

هجوم أبى عبيد بن مسعود الثقفى

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

حشروا فيه، وقام بعض المسلمين دون إذن القيادة بقطع الجسر ليمنع انسحابهم فغرق جمع كثير من المسلمين في هذه العملية، واستطاع المثنى بن حارثة ﷺ في مجموعة من شجعان المسلمين حماية الجسر حتى أعيد ربطه مرة أخرى، وعبر الناجون من المسلمين إلى الضفة الأخرى للنهر، وكانت هذه المعركة أول هزيمة تقع للمسلمين أمام الفرس في نظر الطرفين، مع أن قتلى الفرس كانوا أكثر من قتلى المسلمين حيث استشهد من المسلمين أربعة آلاف شهيد وقتل من الفرس ما يزيد على خمسة آلاف.(١)

وبعد معركة الجسر أخذ المثنى بن حارثة ﷺ يقوم بمهاجمة الفرس في عدة مواقع لاستعادة هيبة المسلمين ومكانتهم، بعد أن اهتزت في موقعة الجسر، وفي الوقت نفسه كتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يطلب منه إرسال مزيد من القوات إلى العراق(٢)

## معركة القادسية (سنة ١٤هـ):

بعد أن وصلت أخبار معركة الجسر إلى المدينة حث عمر بن الخطاب ﷺ المسلمين على الخروج للجهاد في العراق، وفارس، وعسكر بنفسه خارج المدينة حتى يكتمل تجمع المسلمين المتوجهين للجهاد، وقد أراد عمر ﷺ أن يخرج بنفسه لقيادة الجهاد هناك، إلا أن بعض الصحابة أقنعوه بالبقاء وأن يبعث «سعد بن أبي وقاص ﷺ» وأن يبقى هو في المدينة حتى يتمكن من إرسال الإمدادات إلي العراق وغيرها عند الحاجة.(٣)

وبالفعل تم تكليف «سعد بن أبي وقاص ﷺ» بقيادة الدفعة الجديدة من المجاهدين إلى العراق، وأصدر عمر ﷺ أمرًا لبقايا قوات المسلمين في العراق وعلى رأسها المثنى ابن حارثة ﷺ بالانضمام تحت قيادة سعد ﷺ.(٤)

وصل سعد إلى العراق يقود أربعة آلاف مجاهد، فانضم إليه جرير بن عبد الله البجلي في قوات المسلمين، أما المثنى بن حارثة ﷺ فقد استشهد متأثرًا بجراحه قبل وصول سعد، ولكنه ترك لسعد وصية رائعة في كيفية مقاتلة الفرس وأفضل السبل

---

١. الطبري، تاريخه، ج٤/٦٨، ٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٣٩. وانظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣.
٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣. الطبري، تاريخه، ج٤/٧١،٧٠. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٤١.
٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٥. الطبري، تاريخه، ج ٤/٨٣. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٥٠.
٤. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٥. الطبري، تاريخه، ج٤/٨٣. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج١/٧٣. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٥١.

الطريق الى القادسية (المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

لذلك.[1]

وعسكر سعد بالمسلمين في القادسية قرابة شهر حتى تكامل عددهم وأصبح قرابة ثلاثين ألف مجاهد، واستعد الفرس لملاقاة المسلمين بجيش قوامه قرابة (١٢٠) ألف مقاتل، وقد أمر ملك الفرس أشهر قواده (رستم) بالتوجه لملاقاة المسلمين، فحاول «رستم» مع الملك أن يعفيه من هذا الأمر ولكن (يزدجرد) أصر على قيادته للجيش،

١. الطبري، تاريخه، ج٤/٨٨. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٨٦. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج١/١٣٩.

حشود شبة الجزيرة لجيش القادسية

وعند ذلك سار (رستم) حتى نزل قرب المسلمين في القادسية،[1] ثم جرت عدة اتصالات ومفاوضات بين المسلمين والفرس، قبل المعركة حيث طلب «رستم» وفودًا من المسلمين ليستمع إليهم ويحاورهم، ويسمع منهم بنفسه مباشرة، وكان من هؤلاء ربعي بن عامر الذي اشتهر كمبعوث للمسلمين في أحد اللقاءات، حيث استعد «رستم» للقائه وأعد مجلسه الفخم لهذا الأمر وزينه بالنمارق المذهبة، والحرير، وأظهر اللآلئ والمجوهرات، ووضع الزينات المختلفة وفرشت البسط المزركشة بالذهب والفضة، وجلس «رستم» للمقابلة في وسطها على سرير من الذهب وأقبل ربعي بن عامر على مجلس «رستم» عليه ثياب بالية مرقعة، ويحمل سلاحًا متواضعًا ويركب فرسًا صغيرة، فلما وصل إلى مجلس «رستم»، دخل بفرسه إلى المجلس وداس بها على

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٨١.

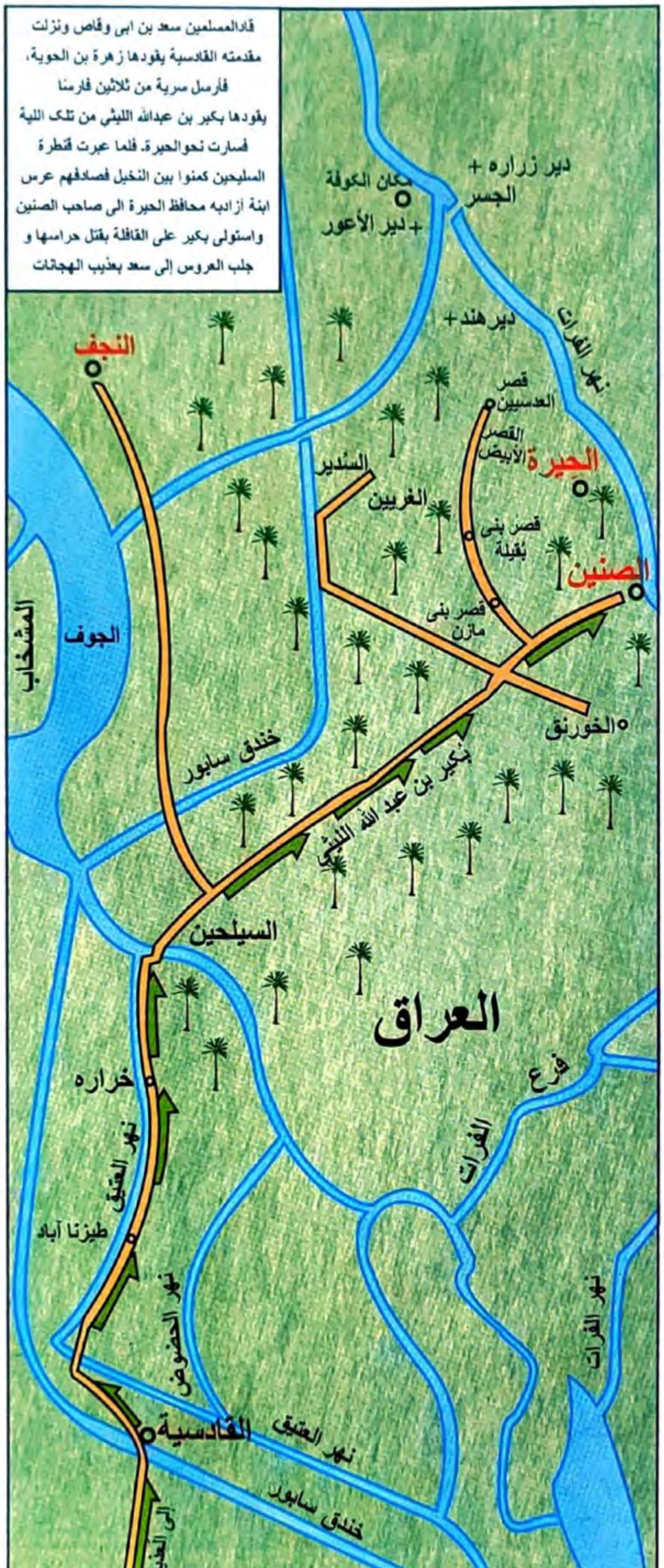


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الديباج والحرير، ثم انتزع شيئًا من الحرير الذي في البسط وربط به فرسه وأقبل على «رستم» ومعه سلاحه، فقال له الفرس: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما أنتم دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت فأمرهم «رستم» أن يتركوه، فأقبل على «رستم» وهو يتوكأ على رمحه فوق البسط والنمارق حتى خرق بعضها، فقال له «رستم»: ما جاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله. قال «رستم»: وما موعود الله؟ قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال من

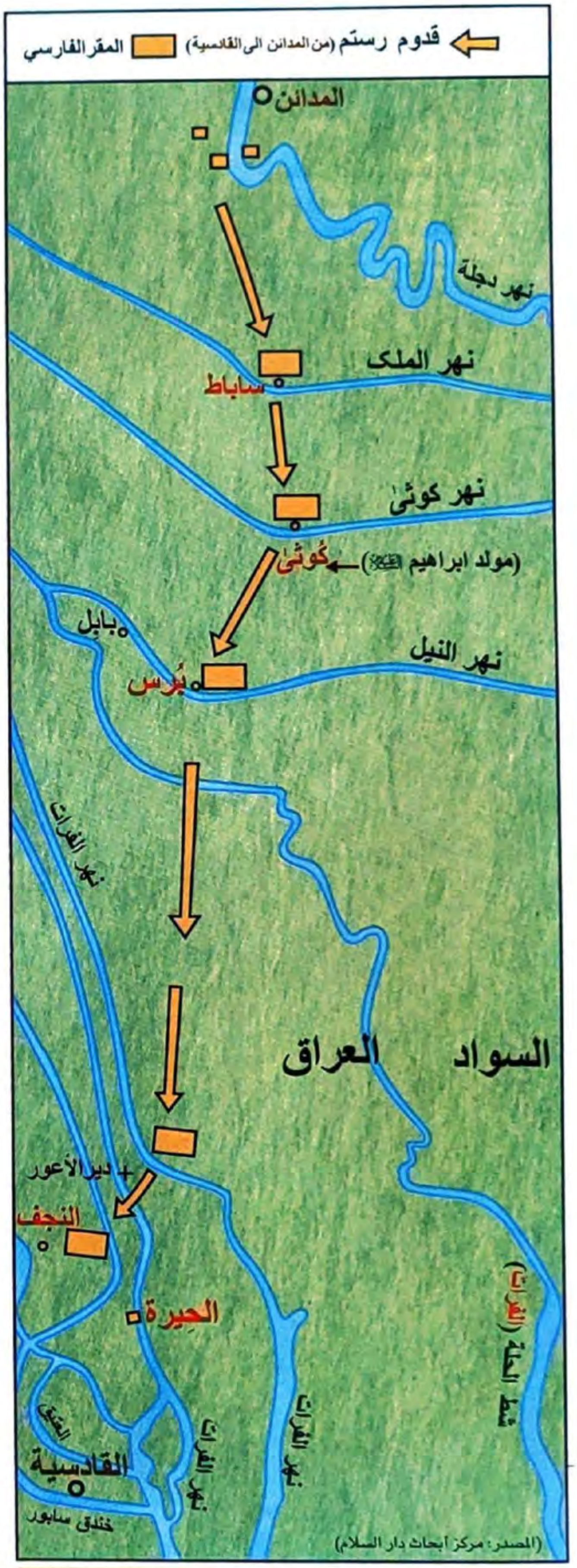


تحريك رستم نحو القادسية

أبى والظفر لمن بقي. فقال «رستم»: هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال ربعي نعم ننظركم ثلاثة أيام، فطلب «رستم» الزيادة فقال ربعي: ما سن لنا رسول الله أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث. فقال له «رستم» أسيدهم أنت ؟ فقال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. واجتمع «رستم» بقواده بعد ذلك، وتدارس الأمر معهم وقرروا قتال المسلمين، وعدم قبول عرضهم الإسلام أو الجزية واستعد الفريقان للقاء.[1]

وقد اشتبك المسلمون والفرس في قتال مرير، وكان سعد بن أبي وقاص ﷺ به دمامل تمنعه من ركوب الخيل، وبالتالي فإنه أدار المعركة من على ظهر أحد البيوت.[2]

وقد كان الفرس أعدوا معهم مجموعة من الفيلة لهذه المعركة بعد أن نجحوا في استخدامها يوم الجسر، وقد أثرت في صفوف المسلمين، حيث خافت خيول المسلمين منها،

١. انظر إلي التفصيلات قصة ربعي بن عامر مع رستم في: الطبري، تاريخه، ج٤/١٠٦. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٦٣.
٢. الطبري، تاريخه، ج٤/١١٣.

جيش سعد و جيوش الفرس قبل المواجهة

وأحجمت عن التقدم.

فتقدم شجعان المسلمين راجلين، وتمكنوا رغم المخاطر من الإيقاع براكبي الفيلة، وقوادها وبالتالي تشردت الفيلة وخف أثرها على المسلمين وقد استشهد في اليوم الأول ما يزيد على خمس مئة من المسلمين، وسمي يوم (أرماث).[1]

وفي صبيحة اليوم الثاني للمعركة وصلت الإمدادات إلى الجيش الإسلامي قادمة من الشام بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويقودها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه، وقد نظم القعقاع جيشه أعشارًا، بحيث يصل في كل فترة معينة عشرة منهم إلى أرض المعركة، وكانوا يثيرون الغبار، مما يخيّل للأعداء أنهم كثر، واستمر وصول الإمدادات فترة طويلة مما أوقع الرعب في نفوس الفرس، وقوى عزائم المسلمين، وقد تمكن القعقاع ومن معه من الوصول إلى قلب المعركة، وقتل بعض كبار قواد الفرس، كما أنهم ربطوا حول إبلهم قربًا منفوخة بالهواء وجللوها ببعض الخرق والبسط وساقوها على خيول الفرس، ففرت من المعركة، وقد لاحت في هذا اليوم علامات النصر في صالح المسلمين وقد سمي يوم (أغوث) بسبب وصول المدد والغوث للمسلمين.[2]

وفي صبيحة اليوم الثالث للمعركة وهو يوم (عُماس) بدأ القتال مرة أخرى بين المسلمين والفرس، وعاد الفرس فيه إلى استخدام الفيلة مرة أخرى فأضرت

---

١. الطبري، تاريخه، ج٤/١١٩. المسعودي، مروج الذهب، ج٢/٣٢١. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٦٩.
٢. الطبر ي، تاريخه، ج٤/١٢٠. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٧٣. ابن أعثم، الفتوح، ج١/١٦١.

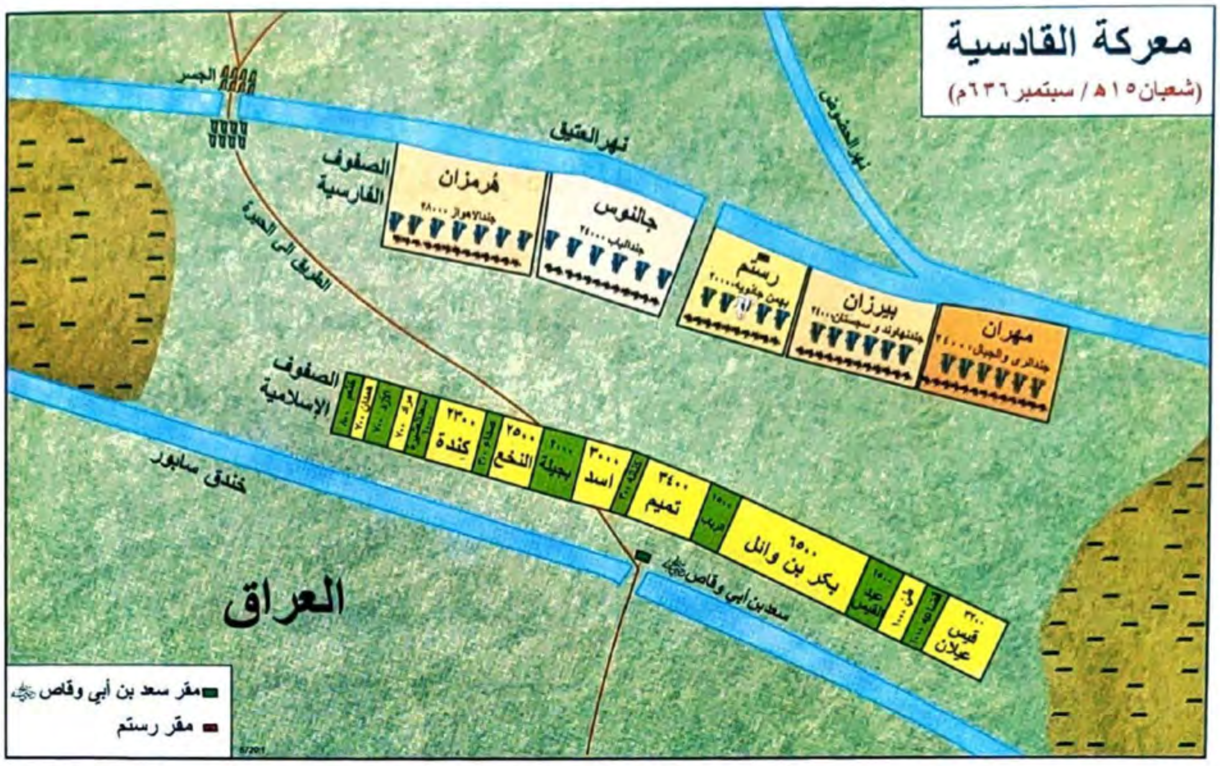


المسلمون والفرس فى ساحة القادسية (المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

اليوم الاول (ارماث) ...هجوم الفرس على بجيلة

بالمسلمين كثيرًا ولكن شجعان المسلمين صمدوا لها، وقاوموها ببسالة فأصابوها في عيونها وخراطيمها، ففرت من المعركة، وفي هذا اليوم أخذت كفة المسلمين ترجح بعد أن أبلوا بلاءً حسنًا، وأقبل الليل والقتال على أشده واستمر القتال في ظلام الليل،

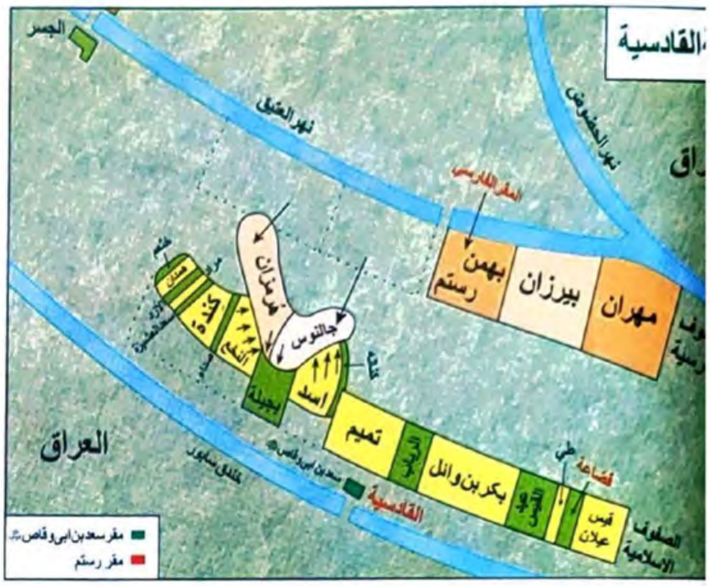


اليوم الاول (ارماث) ...اسد تدافع عن بجيلة

اليوم الثاني (اغواث) ...تشديد المسلمين على قلب الفرس

اليوم الاول (ارماث) ...بهمن جاذوية يدخل المعركة

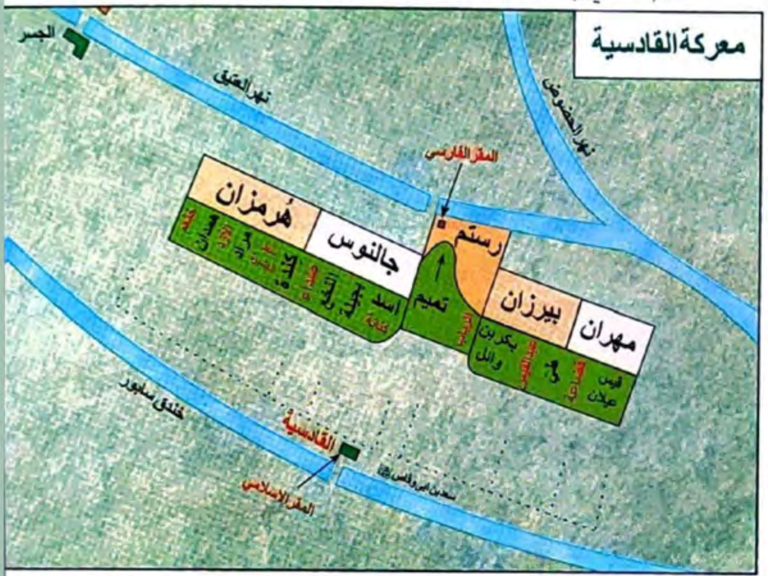


اليوم الثالث (عماس) ليلة الهرير.. حملة تميم عبر اخراج أفيال الفرس من لمعركة مرة أخري

اليوم الاول (ارماث) ...القادسية (١٣ شعبان ١٥ هـ)

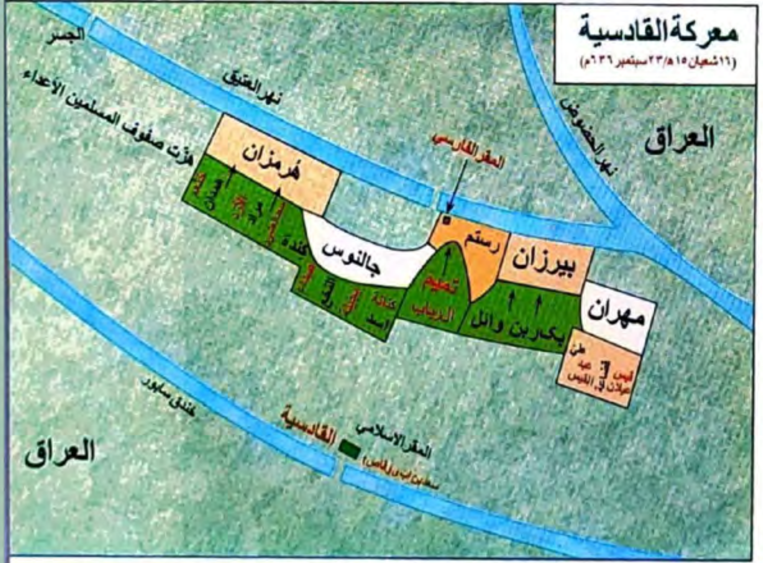


اليوم الرابع (يوم القادسية) توغل قعقاع بن عمرو التميمي نحو رستم فى صفوف الفرس

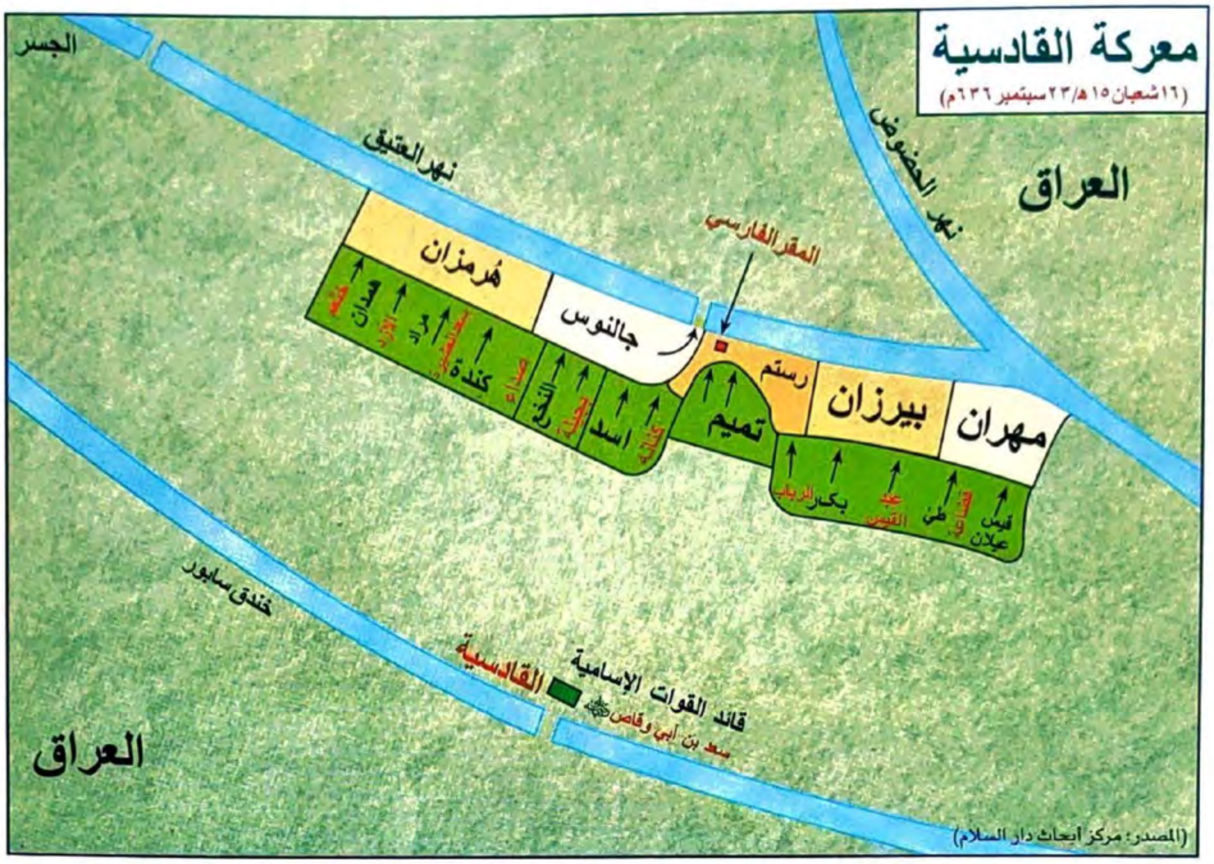


يوم القادسية... تراجع قطاع هرمزان حتى العتيق و كذالك بيرزان

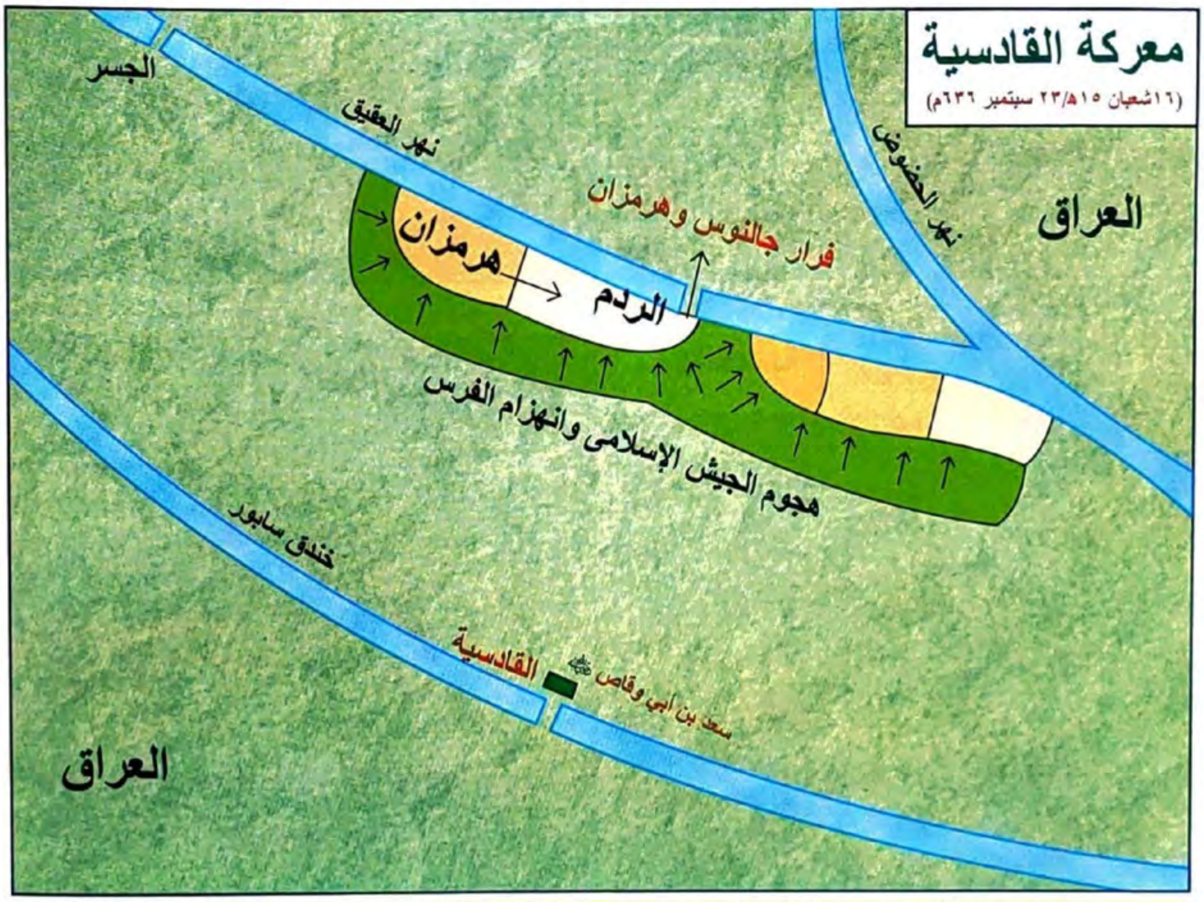


المرحلة الآخيرة من يوم القادسية ... قتل رستم و انسحاب جالنوس و هرمزان عبر الردم

وصمد المسلمون صمود الأبطال،[1] ولم يكن يسمع في تلك الليلة المظلمة إلا صليل السيوف فسميت ليلة (الهرير).[2] وأبلى المسلمون بلاءً حسنًا وظهر الصباح واستمر القتال حتى الظهر حيث بدأ الفرس ينهزمون من المعركة، وحاول «رستم» قائد الفرس الفرار والنجاة بنفسه، إلا أن أحد شجعان المسلمين لحق به فقتله، وتتابعت هزائم الفرس، وكان النصر حليف المسلمين في نهاية المعركة.[3]

وقد كانت هذه المعركة من أهم المعارك الفاصلة بين الفرس والمسلمين، حيث اشترك فيها أفضل فصائل الجيش الفارسي في تلك الفترة، وكان لهزيمته دور كبير في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرس، وتمكن المسلمون بعدها من إعادة فتح معظم المناطق التي أخذها الفرس، من فتوح المسلمين السابقة، وتمهيد الطريق لفتح المدائن، كما امتلأت أيدي المسلمين بالغنائم والأسلحة التي ساعدتهم في الفتوح المقبلة.

مطاردة العدو بعد معركة القادسية

١. الطبري، تاريخه، ج٤/١٢٤. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٧٧.
٢. الطبري، تاريخه، ج٤/١٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٧٩.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٩.

بقايا ايوان كسرى في المدائن

## فتح المدائن (سنة ١٤هـ):

المدائن هي عاصمة الفرس، وقد بشر الرسول ﷺ في حياته بفتحها،[١] وكان المسلمون ينتظرون هذا اليوم الموعود، وبعد معركة القادسية أقام سعد بن أبي وقاص ﷺ بمن معه من المسلمين مدة شهرين في القادسية، لمداواة الجرحى، وانتظار أمر الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ثم بدأ سعد يمد نفوذ المسلمين، ما بين دجلة والفرات، حتى جاءه أمر من عمر بالتوجه إلى المدائن.

وصل المسلمون إلى المدائن، وكان يفصلهم عنها نهر دجلة، بعد أن حطم الفرس ما عليه من جسور، ومع هذا فقد حاصرها المسلمون لعدة أشهر كانوا خلالها يفتحون في المناطق الغربية منها،[٢] كما كان الفرس خلالها يعملون على تفريغ المدائن من كنوزها وخزائنها، كما فر خلال الحصار (يزدجرد) ملك الفرس، ومع ذلك فقد كان الدفاع عن المدائن منظمًا وقويًا، وقد عبر المسلمون النهر تحت قيادة سعد بن أبي

١. انظر: ص ١٥، ١٦ من هذا الكتاب.

٢. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦٢.

وقاص رضي الله عنه وهم على خيولهم مما أفزع الفرس، ودفع بعضًا منهم إلى الفرار، ثم تمكن المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من دخول المدائن، وتوجه إلى القصر الأبيض وبه إيوان كسرى المشهور ودخل سعد القصر متواضعًا متذللاً لله وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٩)

وقد رفع سعد رضي الله عنه الآذان معلنًا كلمة التوحيد في ذلك القصر وأخمد نيران المجوسية وأقام صلاة الجمعة فيه،[1] وقد حصل المسلمون على غنائم كثيرة

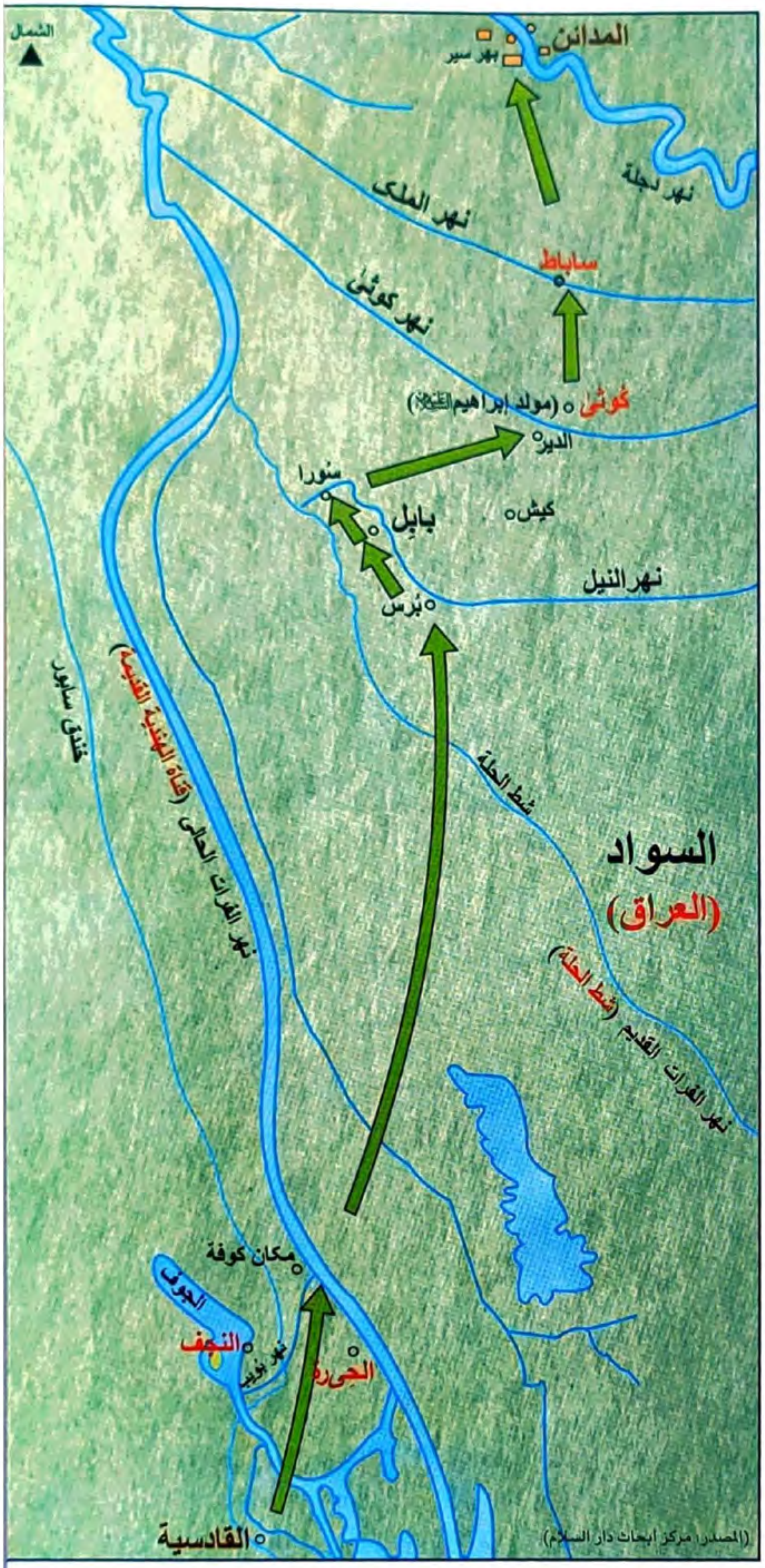


تقدم الجيش الإسلامي إلى المدائن

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٣. الطبري، تاريخه، ج٤/١٧٣، ١٧٤. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص ١٦٦. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥١٤.

بعثوا خمسها إلى المدينة فلمَّا رآها عمر بن الخطاب ﷺ قال: إن قومًا أدوا هذا لأمناء. فقال علي ﷺ: (إنك قد عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت).[1]

وقد أقام المسلمون في المدائن بضعة أشهر كانوا ينطلقون منها لفتح بعض المواقع حتى تمكنوا من فتح جلولاء والموصل وتكريت وغيرها.[2]

وقد اختار المسلمون بعد المدائن موقعين رئيسيين للإقامة بهما في العراق، حيث مصّروا الكوفة والبصرة،[3] وبدأت الجيوش الإسلامية تنطلق منهما لاستكمال الفتوح في بلاد فارس، وقد عين المسلمون على المدائن سلمان الفارسي ﷺ أميرًا وداعية لأبناء قومه.[4]

***

١. الطبري، تاريخه، ج٤/١٧٧. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥١٨.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٦٤. الطبري، تاريخه، ص ١٧٩.

٣. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٨، ١٣٨. الطبري، تاريخه، ج٤/١٩١. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢/٣٢٨، ٣٢٩. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٢٨.

٤. الطبري، تاريخه، ج٤/١٧٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/٥٤٦.

تخيل صورة قديمة لقلعة نهاوند

## نهاوند «فتح الفتوح» (سنة ٢١هـ):

في السنة التاسعة عشرة من الهجرة كان المسلمون قد استقروا في البصرة والكوفة وأخذوا ينطلقون منهما لاستكمال الفتوح، وقد امتلأت المدينتان بالسكان من المسلمين القادمين من مختلف المناطق سواء كانوا عربًا أم عجمًا دخلوا في الإسلام وكان كسرى فارس «يزدجرد» يتجول في شرقي بلاد فارس ويحاول حشد الحشود لطرد المسلمين.[١]

وقد استطاع «يزدجرد» أن يجمع جيشًا يزيد تعداده عن مئة ألف مقاتل للهجوم على المسلمين، وقد علم عمر ﷺ بالأمر، وبدأ يعد المسلمين لهذه المعركة، التي أراد أن يقودها بنفسه، لولا أن أهل الشورى من الصحابة أقنعوه بالبقاء في المدينة، لأن ذلك أقوى للمسلمين، فأختار عمر ﷺ لقيادة جيش المسلمين «النعمان بن مقرن المزني ﷺ».[٢]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٤٧. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٣١.
٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٨. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٣٢.

قدوم الجيش الإسلامى إلى نهاوند وهمدان

ولم ينتظر المسلمون الهجوم الفارسي المرتقب، بل بادروا إلى الفرس قبل أن يهاجموهم، فاتجهوا إلى (نهاوند) يقودهم النعمان بن مقرن ﷺ مما دفع الفرس إلى البقاء في حصون (نهاوند)، واستمر المسلمون يحاصرونهم شهرين دون قتال يحسم المعركة وأعد المسلمون خطة ينهون بها الوضع، وهي مناوشة الفرس ثم التظاهر بالهزيمة أمامهم حتى يخرجوهم من حصونهم، وتم ذلك ولحق الفرس بالمسلمين، الذين استمروا يتظاهرون بالفرار، حتى اكتمل خروج الفرس من خنادقهم وحصونهم، فالتف حولهم المسلمون، ووقعت معركة كبرى استشهد في بدايتها قائد المسلمين النعمان بن مقرن ﷺ ومع هذا انتصر المسلمون وقد اضطر من في الحصن من الفرس إلى مصالحة المسلمين، وفر «يزدجرد» ملك الفرس إلى (مرو) في الشرق.

وتعد معركة (نهاوند) خاتمة المعارك الكبرى الفاصلة في فتوح فارس ولذلك سميت «فتح الفتوح»،[١] حيث أخذ المسلمون بعدها ينساحون فاتحين في بلاد فارس، فاستولوا على العديد من المواقع حتى وصلوا إلى حدود السند، ومع أن ملك الفرس (يزدجرد) كان حيًا وتعتبر مملكته باقية في بعض المواقع إلا أنه كان يعيش متشردًا تمنعه جيوش المسلمين من الاستقرار وإعداد الجيوش.[٢]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٤٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٠٠. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٤٠. ابن الأثير، الكامل، ج٣/١١.

٢. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٥٠، ١٥١. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٤٧، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٢.

احدى القلاع القديمة في نهاوند- إيران

## (ب) فتوح الشام:

انتهت معركة اليرموك في أول خلافة عمر رضي الله عنه بانتصار المسلمين، وقد وقف المسلمون بعدها يتشاورون، هل يتجهون إلى دمشق قاعدة بلاد الشام، أم يتجهون إلى فِحل حيث حشد الروم قوات كبيرة فاستشار المسلمون الخليفة فكتب إليهم: (أما بعد فأبدأوا بدمشق فانهدوا إليها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم، واشغلوا أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم).[1] واستجاب أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قائد المسلمين لأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتوجه بمن معه من المسلمين لحصار دمشق، وترك فرقة من الجيش في اليرموك وبعث بفرقة أخرى لتشغل الروم في فحل وعندما وصل أبو عبيدة رضي الله عنه إلى دمشق بدأ يحاصرها، وفي الوقت نفسه بعث قسمًا من جيش المسلمين إلى شمال دمشق لكي تشغل قوات الروم في شمال الشام وتمنعهم من إمداد

---

١. الطبري، تاريخه، ج٤/٥٧.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

اتساع الفتوحات الاسلامية حتى ٢٢ هـ (فارس و الشام)

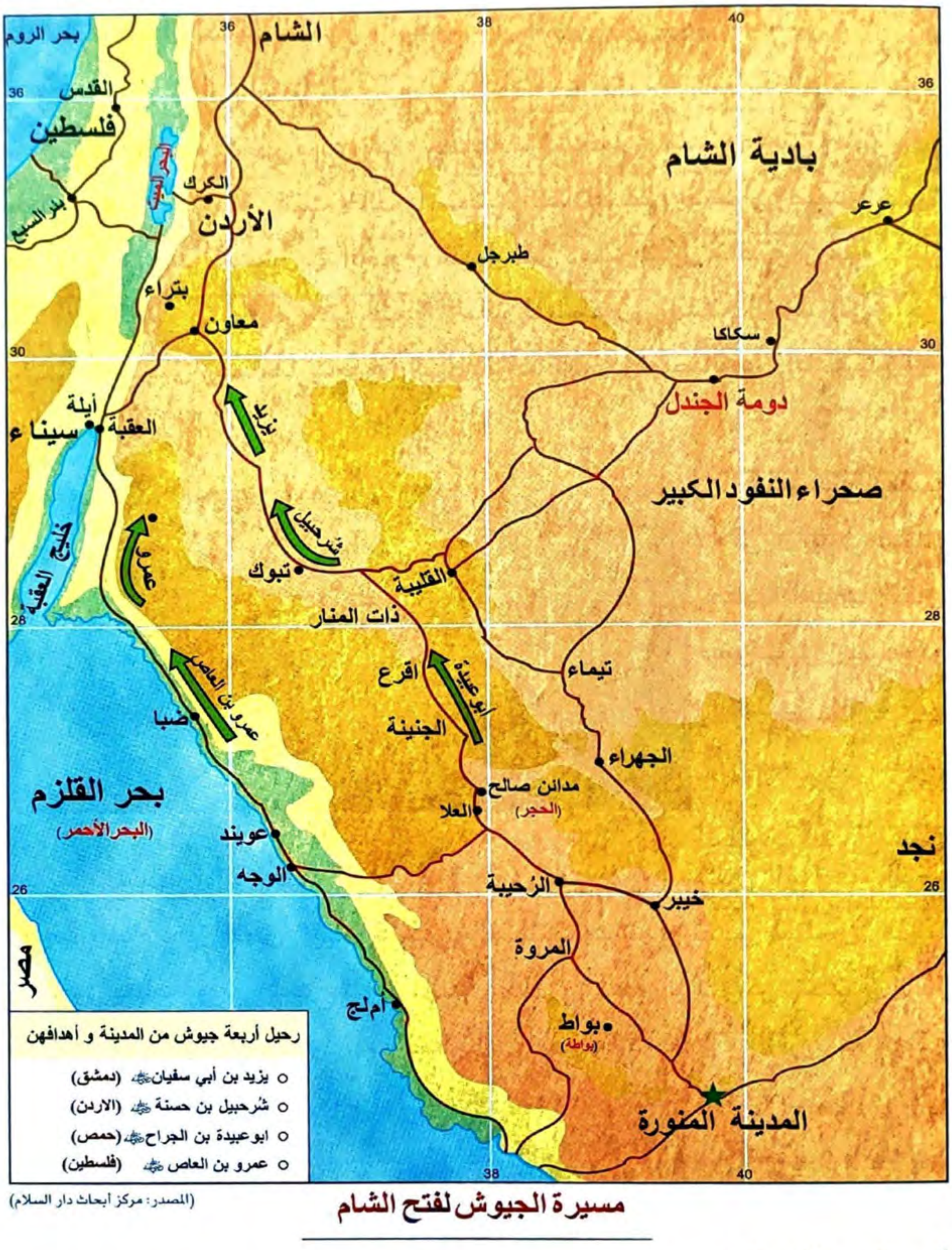


مسيرة الجيوش لفتح الشام

أصحابهم في دمشق.

وكانت دمشق محصنة بالأسوار والمياه من جوانبها المختلفة، وقد قسم أبو عبيدة ﷺ قوات المسلمين حول دمشق، وأخذوا يحاصرونها بكل إصرار لمدة سبعين يومًا، عانى فيها المسلمون أشد المعاناة لشدة البرد، وبقائهم في العراء، وقد أعد المسلمون

السلالم والحبال لتسلق الأسوار والهجوم على المدينة في الوقت المناسب.[1]

وفي إحدى الليالي انشغل أهل دمشق بأحد احتفالاتهم فاستغل خالد بن الوليد رضي الله عنه الفرصة فسبح في نهر بردى ومعه جماعة من شجعان المسلمين، حتى وصلوا إلى منطقة قليلة الحراسة، فثبت خالد وأصحابه السلالم على الأسوار وصعدوا عليها فكبروا وكبر جند المسلمين في الخارج، فذهل أهل دمشق ونزل خالد ومن معه داخل الأسوار وقاتلوا بسيوفهم حتى فتحوا الباب للمسلمين، واندفع الجند إلى داخل دمشق مما جعل زعماءها يتجهون إلى الأبواب الأخرى ويصالحون أبا عبيدة رضي الله عنه على التسليم.[2]

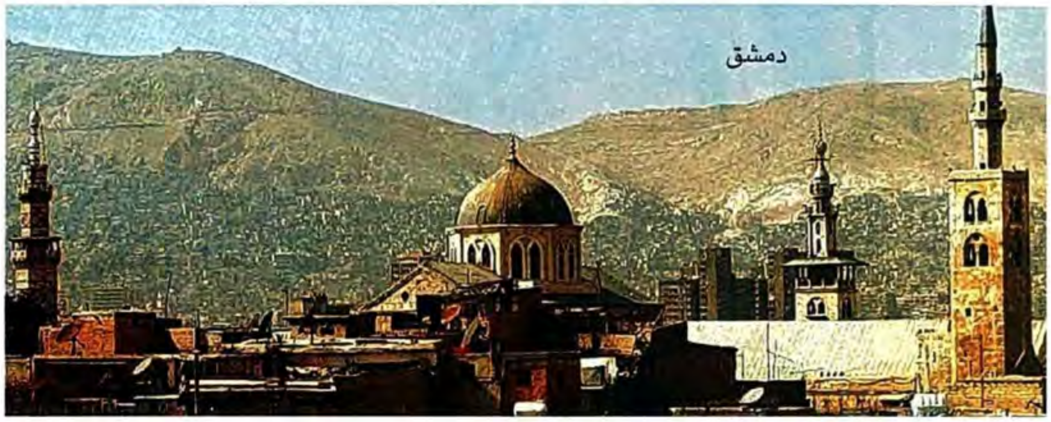


وبعد فتح دمشق ولى أبو عبيدة عليها أميرها المعين من قبل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم سار بمن معه من المسلمين إلى جنود الروم في فحل، وكانوا قرابة ثمانين ألفًا وقام الروم بتفجير المياه حول فحل، حيث كانت بها مستنقعات تمنع تقدم المسلمين، فأخذ المسلمون يحاصرونهم، فخرج الروم للإغارة على المسلمين ليلاً ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، حيث استعدوا لهذه المفاجأة، واشتبك المسلمون مع الروم في موقعة كبيرة، وأخذ الروم ينهزمون وحاولوا العودة إلى فحل ولكنهم أخطأوا الطريق فوقعوا في المستنقعات التي أعدوها للمسلمين، وأصبح الوحل الذي كرهه المسلمون معينًا لهم على النصر، فلم يفلت من الروم إلا الشريد، وكانت تلك المعركة من أكبر الانتصارات الهامة على الروم في الشام.[3]

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ٧٧. وقد جعل فتح دمشق قبل اليرموك، والأرجح ما ذهب إليه الطبري من أن فتحها قد وقع بعد معركة اليرموك، انظر: الطبري، تاريخه، ج٤/٥٦. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٢٧.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٨. فتوح الشام، ص ٧٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٥٨. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٢٨. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ١٢٥.

٣. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٥٩. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٢٩.

## فتح حمص وقِنسرين (١٥ هـ):

بعد أن فتح المسلمون دمشق ونظموا أمورها اتجهت جموع منهم يقودهم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى حمص لفتحها[١] فأعد هرقل ملك الروم جيشًا لإعاقة المسلمين عن هدفهم، فانتصر المسلمون على ذلك الجيش، وواصلوا زحفهم حتى وصلوا إلى حمص فحاصروها،[٢] وكان الجو شديد البرودة، لذلك توقع الروم أن ينسحب المسلمون سريعًا بسبب البرد، ولكنهم صمدوا وظلوا محاصرين المدينة رغم قسوة الشتاء وكان الروم يحتمون بأسوار وحصون المدينة، فلجأ المسلمون إلى حيلة يستدرجون بها عدوهم خارج تحصيناته ففي أثناء إحدى المناوشات تظاهر المسلمون

توجيه جيوش المسلمين الى قطاعات الشام

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٢٧. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٦. الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٣. تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ١٢٨.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٧. الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٣.

بالانسحاب والهزيمة أمام الروم، وتركوا متاعهم وإبلهم فخرج الروم وراءهم حتى ابتعدوا عن أسوار حصونهم، فالتف عليهم المسلمون وانقضوا عليهم وأنزلوا بهم ضربة قاصمة، وقتل معظم جند حمص، وقتل قائدهم وهزم البقية، فأضطر قساوسة حمص وكبار أهلها إلى طلب الصلح من المسلمين، وأعلنوا استسلامهم وفق شروط متفق عليها، وأقروا بدفع الجزية.[١]

وبعد أن استقر الأمر في حمص بعث أبو عبيدة ﷺ جيشًا يقوده خالد بن الوليد ﷺ إلى (قنسرين) فلجأ أهلها إلى حصونهم ليحتموا بها فخاطبهم قائد المسلمين خالد بن الوليد ﷺ قائلاً لهم إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلناكم إلينا، وأحس أهل (قنسرين) بتصميم المسلمين على فتح المدينة فأصابهم الله بالرعب فوافقوا على الاستسلام ودفع الجزية ووقع الصلح بينهم وبين المسلمين.[٢]

واستمر المسلمون بعد ذلك في فتح المناطق الساحلية والشمالية من بلاد الشام.[٣]

---

١. الأزدي، فتوح الشام، ص ١٤٦. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٧. ابن أعثم، الفتوح، ص ١٧٠. الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٤. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٩١.

٢. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٠. الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٥. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٩٣.

٣. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٠. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥١. الذهبي، تاريخ الإسلام، (عهد الراشدين)، ص ١٢٨.

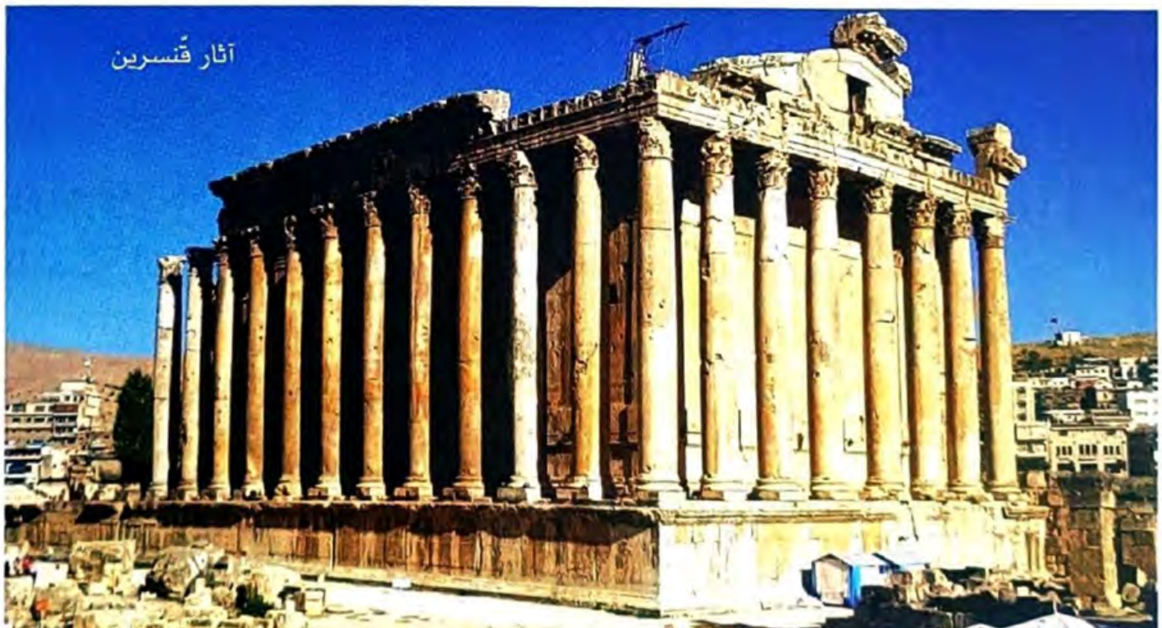

آثار قنسرين

## فتح فلسطين وبيت المقدس (١٦هـ):

بعد فتح دمشق انعزل عمرو بن العاص ﷺ بجيشه وأخذ يفتح في نواحي فلسطين، ووقعت معركة (أجنادين) بين عمرو بن العاص ﷺ وجنود الروم بقيادة «أرطبون» وهي معركة قوية انتصر فيها المسلمون واستولى عمرو بن العاص ﷺ بعدها على مدن فلسطين الشمالية،[١] ثم توجه إلى بيت المقدس التي تميزت بمكانة خاصة لدى أهل الديانات السماوية جميعًا ولدى المسلمين خصوصًا، حيث كانت أولى القبلتين وثالث المسجدين، ومسرى رسول الله ﷺ وبدأ عمرو بن العاص ﷺ يحاصر بيت المقدس، ودافع عنها الروم بقيادة «رطبون» دفاعًا مستميتًا، واستعملوا المنجنيق لضرب المسلمين، من ذلك فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ﷺ يطلب منه المدد، فأصدر عمر بن الخطاب ﷺ أمرًا إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ ليكون مددًا لعمرو ﷺ في حصاره لبيت المقدس، فخرج أبو عبيدة في جيشه

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٤. الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٧. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٤٩٨.

متوجهًا إلى بيت المقدس، فساعد وصوله في تقوية عزائم المسلمين، وفت في عضد الروم، فأخذوا يفكرون في الصلح والاستسلام، خصوصًا بعد ما شاهدوا من وفاء المسلمين وعدلهم في المدن المفتوحة وبدأ بطريرك القدس بنفسه مفاوضة المسلمين في الصلح، مما أغضب قائد الروم (أرطبون)، فترك القدس واتجه إلى مصر، واستمرت المفاوضات بين المسلمين وبطاركة وقساوسة بيت المقدس، حتى وافق أهلها وزعماؤها على التسليم والمصالحة واشترطوا أن يتولى الصلح عمر بن الخطاب ؓ بنفسه، وأن يسلموا مدينتهم له شخصيًا، فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص لعمر بن الخطاب ؓ بذلك، فاستخلف عمر ؓ على المدينة وكتب إلى أجناد الشام بالتجمع في الجابية ليلتقي بهم.[1]

وصل عمر ؓ إلى بلاد الشام وقابله الأمراء وعليهم الديباج فبدأ يأخذ من الحجارة ويحصبهم قبل أن يسلموا عليه قائلاً لهم: (سرعان ما ندت بكم البطنة إياي تستقبلون بمثل هذا الزي، وإنما شبعتم منذ سنتين وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم). فقالوا: يا أمير المؤمنين إنها يلامقة - ملابس محشوة - وإن علينا السلاح - يقصدون أنهم يخفون السلاح تحت ملابسهم حتى لا يغدر بهم الأعداء لأنهم كانوا في هدنة معهم وليس ما يرى سمنة أو ملابس فخمة - قال: (فنعم إذن).[2]

وفي الجابية التقى عمر ؓ بالمسلمين وتفقد أحوالهم وأذن بهم مؤذن رسول الله ﷺ بلال بن رباح ؓ وكان لم يؤذن بهم بعد وفاة الرسول فتذكر المسلمون رسول الله ﷺ فبكوا جميعًا.[3]

---

١. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤. الطبري، تاريخه، ج٤/١٢٨. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٠٠.
٢. الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٨.
٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/٣٥٧.

ثم التقى عمر ﷺ بمندوبي بيت المقدس، وكتب لهم عهدًا أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وأن لا يُجبروا على ترك دينهم، وأنهم بالخيار من شاء منهم البقاء في ذمة المسلمين، ومن شاء لحق بالروم، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، واشترط أهل بيت المقدس أن لا يسكن معهم أحد من اليهود[1] وهذا العهد يدل على حسن معاملة المسلمين لأهل الديانات الأخرى وحفظهم لحقوقهم.

وقد توجه عمر ﷺ بعد ذلك إلى بيت المقدس واستقبله أهلها وبطارقتها، ودخل بيت المقدس واختط بها مسجدًا وأقام فيها بضعة أيام، ثم غادرها إلى الجابية، حيث بقي بعض الوقت مع المسلمين وقوادهم ناقش خلالها أمورهم المختلفة، ثم عاد إلى المدينة.[2] وبفتح بيت المقدس صار المسلمون قد فتحوا معظم بلاد الشام وأصبحت لهم السيطرة الفعلية عليه دون منازع بعد أن واجهوا العديد من المصائب والمعارك.

ثم حدث بعد ذلك وباء عام في بلاد الشام سنة (١٨هـ) سمي بـ(طاعون عمواس) نسبة إلى قرية من قرى فلسطين، وقد مات من هذا الوباء قرابة عشرين ألفًا من جند المسلمين بالشام، كان فيهم من كبار الصحابة أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم ﷺ ومع ذلك فقد تمكن المسلمون من الاحتفاظ ببلاد الشام وبدأوا يفكرون بفتوح أخرى.[3]

---

١. البلاذري : فتوح البلدان، ص ١٤٥. وانظر نص العهد معهم في: الطبري، تاريخه، ج٤/١٥٩.

٢. انظر خليفة بن خياط: تاريخه، ص ١٣٥. ابن أعثم: الفتوح، ج١/٢٢٩. الطبري: تاريخه، ج٤/١٦١. ابن الأثير: الكامل، ج٢/٥٠١.

٣. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٨. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٢٢. ابن أعثم، الفتوح، ج١/٢٣٨. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٥٨. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين، ص ١٧١).

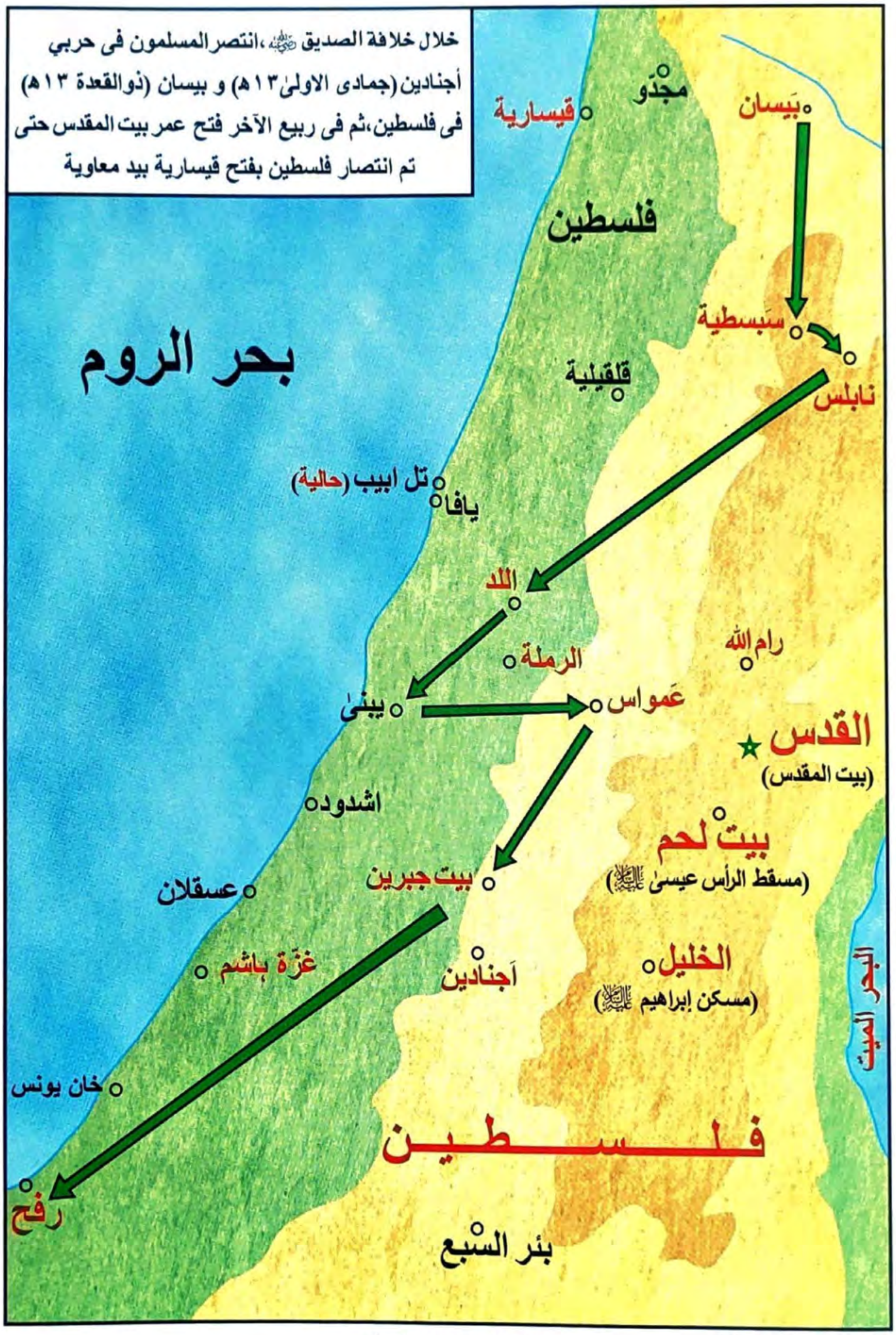


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

إبادة الرومان من فلسطين

## (جـ) فتوح الجزيرة (سنة ١٨هـ):

الجزيرة إقليم واسع يقع في شمال شرق بلاد الشام وشمال غرب العراق، وجنوب تركيا حاليًا، وسميت بهذا الاسم لأنها تقع بين دجلة والفرات، وتشتمل على العديد من المدن المهمة منها (الرها) و(الرقة) و(نصيبين) و(حران) و(ماردين)، غيرها وكانت بعض مدنها تابعة للفرس، وبعضها تابعة للروم، ومعظم سكانها من النصارى.[١]

وقد وجه عمر ﷺ في السنة الثامنة عشرة (عياض بن غنم) من بلاد الشام لفتح الجزيرة، فتمكن من فتح معظم مدنها بعضها عنوة وبعضها صلحًا،[٢] وقد حاول أهل الجزيرة الانتفاض والخروج عن طاعة الدولة الإسلامية أواخر خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، إلا أن عمر ﷺ تمكن من إخضاعهم بجيوش مختلفة كان على رأسها عمير بن سعد الأنصاري، وخالد بن الوليد، وأبو موسى الأشعري وغيرهم ﷺ أجمعين.[٣]

## (د) فتح مصر (سنة ٢٠هـ): [٤]

بستان نخيل في العريش

أصيب المسلمون في طاعون عمواس سنة (١٨هـ) ومات معظم جيشهم في بلاد الشام حيث استشهد بسبب هذا المرض ما يقرب من (٢٠ ألف) رجل يشكلون قرابة ثلثي الجيش الإسلامي في بلاد الشام،[٤] ومع هذا فإن المسلمين لم يتوقفوا عن الفتوح، ففي سنة عشرين من الهجرة على أرجح الآراء استأذن عمرو بن العاص ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ في فتح مصر، وبين له أهمية فتحها للمسلمين، وخطورة بقائها في أيدي الروم على المسلمين عمومًا وعلى من في بلاد الشام منهم خصوصًا، فأذن عمر للمسلمين بقيادة

١. انظر إلى تحديدها في: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/١٣٤. الدكتور صلاح الدين المنجد، معجم أماكن الفتوح، ص ٣٢.

٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٩. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٧٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٢٥. ابن عبد البر، الاستيعاب (حاشية على الإصابة، ج٣/١٣٨). ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٣٤، ٥٦٩.

٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨١ ـ ١٨٦. ابن سلام، الأموال، ص ٩٨.

٤. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٣٨. ابن أعثم، الفتوح، ج١/١٣٨.

عمرو بن العاص ﷺ بالتوجه لفتح مصر، وبعد أن تحرك الجيش أحس عمر ﷺ بالخوف على المسلمين، فكتب إلى عمرو بن العاص ﷺ: (إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فأرجع إلى موضعك، وإن كنت دخلت مصر فأمض لوجهك) فلحق الكتاب بعمرو ﷺ بعد أن دخل أرض مصر، فما قرأ الكتاب قال لمن معه: ألستم تعلمون أن هذه القرية من أرض مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني أن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه إلا بعد أن دخلت أرض مصر ... فسيروا على بركة الله.[1]

دخل المسلمون مصر عن طريق الساحل مرورًا بـ (العريش) ومنها إلى (الفرما) وهي أحد أهم المواقع العسكرية للروم شرقي مصر، وقد قاتل المسلمون الروم فيها لمدة شهر تقريبًا إلى أن تمكنوا من فتحها، ثم توجه المسلمون إلى (بلبيس) وبعد حوالي شهر من القتال تمكن المسلمون من فتحها، ثم فتح عمرو بن العاص ﷺ ومن معه العديد من المواقع والتحصينات الرومية، إلى أن وصل إلى حصن (بابليون)، وكان حصنًا منيعًا ومحاطًا بخنادق المياه، فحاصره المسلمون عدة أشهر، واستعصى عليهم، فكتب عمرو بن العاص ﷺ يطلب المدد من عمر بن الخطاب ﷺ، فأمده

١. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٤. المقريزي، المواعظ، ج١/٢٨٨.

بعشرة آلاف رجل عليهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مُخلد ﷺ.[1]

١. انظر: الطبري، تاريخه، ج٤/٢٢٧. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٦٤. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢٩٠.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

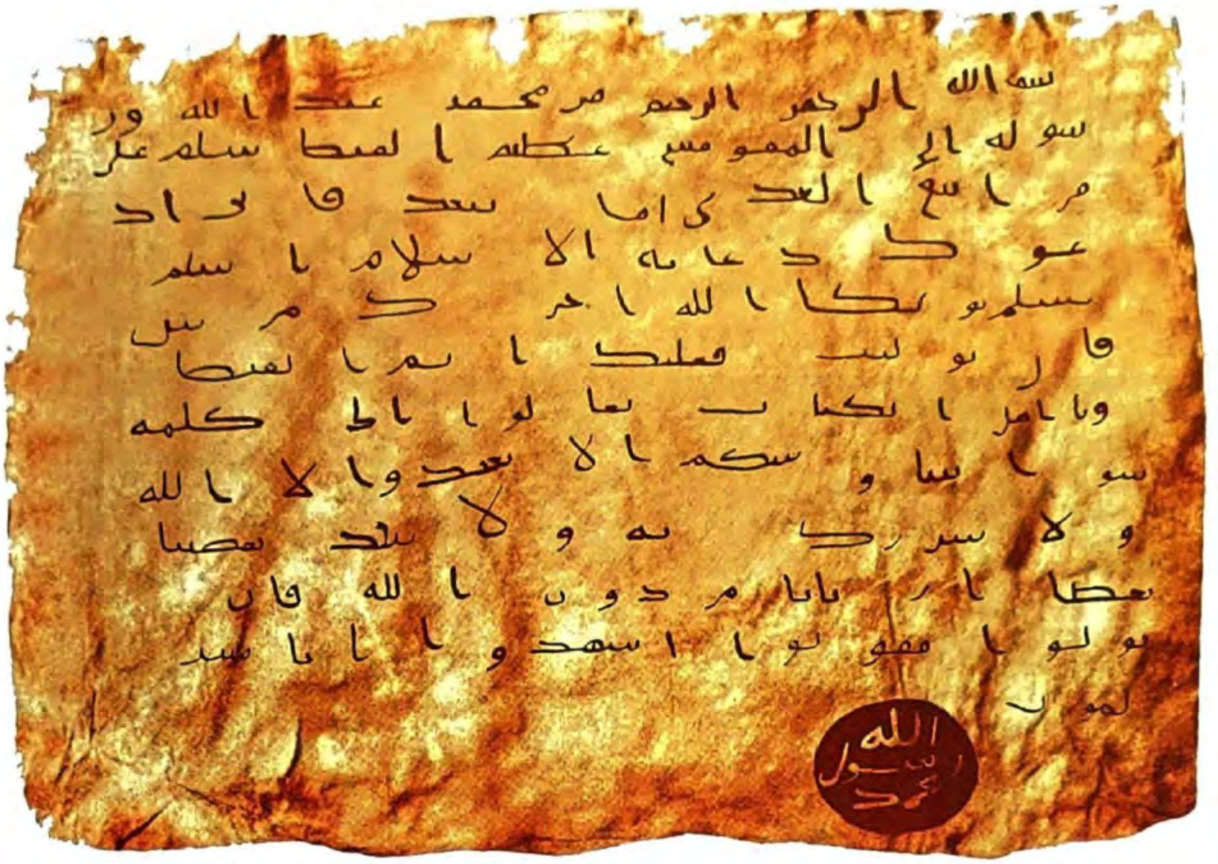


كتاب النبي صلى الله عليه وسلم للمقوقس ، المصدر : محمد حميدالله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبي والخلافة الراشدة ، ط ٤-بيروت : دارالنفائس ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م (عن متحف توب قابي باستنبول)

وقد استمر المسلمون في حصار الحصن ودارت المراسلات بينهم وبين الروم، كما حاول المقوقس ملك القبط في مصر من قبل الروم معرفة أحوال المسلمين، من خلال رسله الذين أقاموا في جيش المسلمين عدة أيام، حيث سألهم المقوقس كيف رأيتم المسلمين؟!. فأجابوا: رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يفرق رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، فإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم، فقال المقوقس: لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها.[1]

وقد طلب المقوقس من المسلمين أن يبعثوا إليه وفدًا ليفاوضهم، فبعث المسلمون وفدًا على رأسه (عبادة بن الصامت) ، فقابل المقوقس ودار بينهما حديث هدد

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١/١٢، ١١. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢٩٠.

فيه المقوقس بقوات الروم وشدتها، وضعف المسلمين وقلة عددهم وسلاحهم، فقال له عبادة بن الصامت: (يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك، وأما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وإنا لا نقوى عليهم فلعمرى ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقًا فذلك والله ما أرغب ما يكون في قتالكم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا كلنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين بعد الاجتهاد منا، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٤٩).

وما منا إلا ويدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هَمٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده وإنما همنا ما أمامنا).[1]

وقد أُعجب المقوقس بكلام عبادة بن الصامت ﷺ، وأحس بقوة المسلمين ونصر الله لهم فعزم على مصالحتهم ودفع الجزية لهم، إلا أن الروم رفضوا ذلك،[2] فاستمر حصار الحصن ثم تمكن الزبير بن العوام ﷺ مع بعض شجعان المسلمين من تسلق أسوار الحصن بالسلالم، فلما أصبحوا أعلاه كبروا وكبر المسلمون خارج الحصن معهم فارتج الأعداء، ثم نزل الزبير بن العوام ﷺ داخل الحصن، وتمكن من فتح بابه للمسلمين، فأسرع من فيه من الروم بمصالحة المسلمين، وأعلنوا استسلامهم وخضوعهم وأقروا بدفع الجزية، وكان نتيجة الاستيلاء على الحصن أن أصبح المسلمون يسيطرون على معظم مصر ويتحكمون في وسطها وجنوبها.[3]

١. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢٩١.
٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٧، ٢٢٠. الطبري: تاريخه، ج٤/٢٢٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢٩٢.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٤٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٦. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٣٠.

## فتح الإسكندرية «سنة ٢١هـ»:

كانت الإسكندرية وهي أكبر المدن المصرية محصنة بالأسوار من الجنوب، ويحميها البحر من الشمال، وكانت تقيم بها مجموعة من الروم، يبلغ المقاتلة منهم ما يزيد على الخمسين ألفًا،[١] وقد أصبح الطريق مفتوحًا أمام المسلمين بعد سقوط حصن بابليون، حيث أخذ المسلمون بالتقدم نحو الشمال باتجاهها، و قد واجهوا أثناء زحفهم جموعًا كبيرة من الروم، حاولت عرقلة المسلمين، ومنع وصولهم إلى الإسكندرية، إلا أن الله نصرهم على تلك الجموع في عدة مواقع، وواصلوا المسير حتى وصلوا إلى أسوار الإسكندرية، فحاصروها أربعة أشهر، وقعت خلاله العديد من المعارك بين الطرفين، وكانت سفن الروم تمد أهل الإسكندرية بالسلاح وبالرجال من البحر طوال فترة الحصار.[٢]

وقد أستبطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفتح فكتب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: (عجبت لإبطائكم عن الفتح، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم فإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك بأربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيَّرهم ما غيَّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فأخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعًا أن يكونوا لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها

١. انظر: وصف هذه المدينة عند فتحها في: المقريزي،المواعظ والاعتبار، ج١/١٦٦.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٨، ٢٢٢. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/ ١٦٦. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٦٧.

ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليتضرع الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم)، فما أتى الكتاب إلى عمرو بن العاص ﷺ قرأه على الناس، ودعا الأربعة نفر وقدمهم عليهم، وأمر الناس بالتطهر والصلاة والادعاء، ثم عقد اللواء لعبادة بن الصامت ﷺ، وخاض المسلمون معركة قوية ضد جيش الروم، تمكنوا بعدها من فتح الإسكندرية عنوة. الفتح الأول بعد حصار زاد على ستة أشهر، وفرضوا الجزية على أهلها وأحكموا سيطرتهم عليها.[١]

وبعد فتح الإسكندرية أتم المسلمون فتح مصر وخصوصًا بعض المواقع في الصعيد والدلتا وغيرها، إلى أن أصبحت للمسلمين السيطرة التامة على مصر حيث رضيت مدنها بالتسليم، وأقر أهلها بدفع الجزية.[٢]

وقد تقدم المسلمون بعد ذلك إلى كل من (طرابلس) و(برقة) وتمكنوا من فتحها صلحًا وأقر أهلها بدفع الجزية، وبعد ذلك صدرت الأوامر من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنهما بعدم مواصلة الفتح غربي مصر خوفًا على المسلمين، ورغبة في تثبيت أقدامهم في مناطق مصر المفتوحة أولاً.[٣]

---

١. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/١٦٥. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٦٧.

٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٥٠. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٢٢. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/١٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٦٧.

٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢١٩. الطبري، تاريخه، ج٤/٢٣٠، ٢٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٦٧. الذهبي. تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٢٢٤.

الفتح الإسلامي للاسكندرية (٢٠هـ/٦٤١م)

الإسكندرية فى عصر الفتح الإسلامي
(٢١هـ/٦٤٢م)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

ثالثًا

# خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

قبيل وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان المسلمون قد تمكنوا من السيطرة على العراق ومعظم بلاد الشام ومصر وجزء من شمال إفريقيا، وكانت دولتا الفرس والروم ما تزالان قائمتين وتطمعان في استرداد البلاد المفتوحة من أيدي المسلمين، لذلك كان على المسلمين أن يبذلوا جهودًا عظيمة للمحافظة على تلك الفتوح، وفي الوقت نفسه محاولة فتح بلاد جديدة.

## (أ) فتوح أفريقيا سنة (٢٧) هـ:

كانت مصر وشمال أفريقيا تابعة لمملكة الروم، وقد تمكن المسلمون من فتح مصر كما بدأوا التقدم في شمال إفريقيا أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.[١]

وفي بداية خلافة عثمان رضي الله عنه حاول الروم طرد المسلمين من مصر، فهاجموا الإسكندرية من البحر سنة (٢٥) من الهجرة، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، وقتل من فيها من المسلمين، وأعادوا تحصينها وتجهيزها بالقوات ليواصلوا منها الزحف على المسلمين جنوبًا، إلا أن المسلمين لم يمهلوهم، فقاد عمرو بن العاص رضي الله عنه جيوش المسلمين نحو الإسكندرية، قبل استعدادهم، وخاض في الطريق إليهم العديد من المعارك، ثم تمكن من محاصرة الإسكندرية، واقتحمها المسلمون عنوة

١. انظر: ص ١٣٦ وما بعدها من هذا الكتاب.

بالقوة وأعادوا تنظيمها والسيطرة عليها مرة أخرى فصارت قاعدة ينطلقون منها في الفتوح شمال أفريقيا.[1]

وقد تولى مصر سنة (٢٧هـ) عبد الله بن سعد بن أبي السرح ﷺ فأستأذن عثمان ﷺ في الفتوح في أفريقيا، فأذن له وأرسل له مددًا فيهم الحسن والحسين

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٥٨. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص١٧٥. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص ٢٩٩.

ابنا علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير وغيرهم ﷺ، وقد سار عبد الله بن سعد بالجيوش الإسلامية حتى وصل إلى (برقة) ومنها إلى (طرابلس)،[1] حيث تحصن أهلها، فتركهم المسلمون ليلتقوا بجيش أعده الروم بقيادة «جريجوري»، يصل عدده إلى مئة ألف مقاتل، حيث خاض المسلمون معهم عدة معارك، كانت تنتهي دون حسم لأحد الفريقين، فأشار عبد الله بن الزبير على عبد الله بن سعد أن يقسم الجيش إلى نصفين، يقاتل بالأول طوال النهار فإذا أرهق الروم جميعهم ونصف المسلمون وذهبوا للراحة فاجأ النصف الثاني من المسلمون الروم وهم مرهقون وعلى غير أهبة للحرب وقاتلوهم، ونجحت تلك الخطة، وتمكن عبد الله بن الزبير ﷺ من قتل «جريجوري» قائد الروم، فانهزموا، ولما شاهد زعماء المدن المجاورة انتصار المسلمين رضوا بأن يدفعوا الجزية للمسلمين على أن يكفوا عنهم، وتمت بذلك سيطرة المسلمين على جزء كبير من شمال أفريقيا وخصوصًا ما عرف بـ (ليبيا) حاليًا.[2]

١. انظر إلى هذه المواقع في الخارطة المرفقة.

٢. خليفة بن خياط : تاريخه، ص ١٥٩، اليعقوبي : تاريخه، ج١٦٥/٢. الطبري، تاريخه، ج٤٨/٥. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٣٥٩/١. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٣١٢.

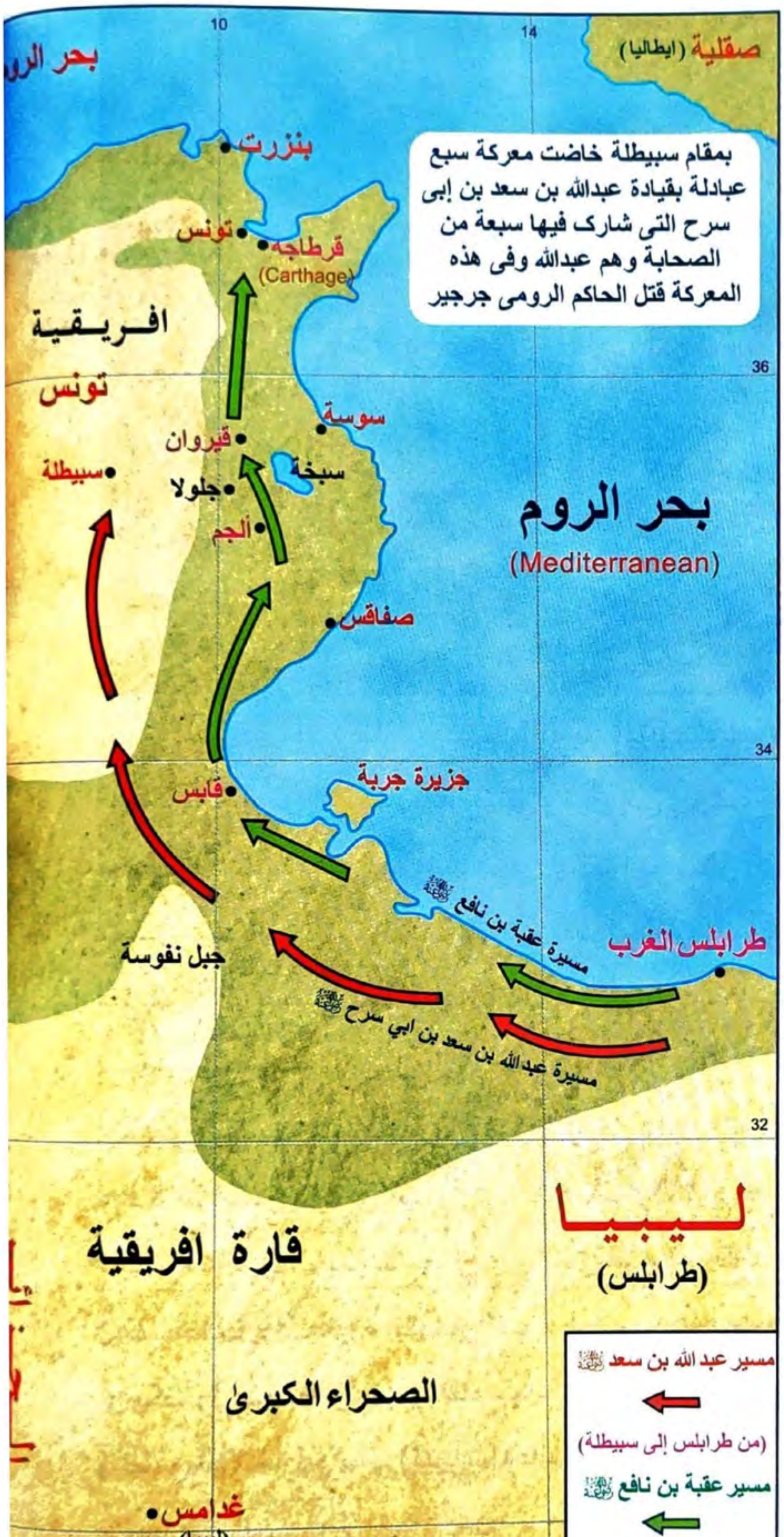


فتح تونس (٢٩ هـ -٤٧هـ)

(المصدر: مركز أبحاث دار الس

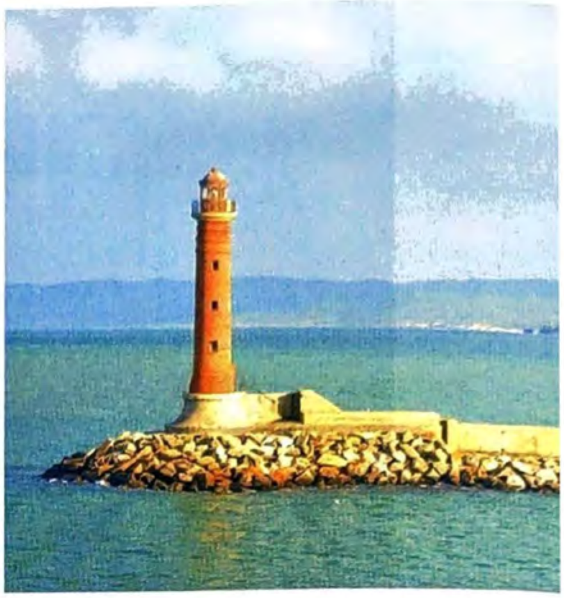

منارة بيزرتا

أنقاض قرطاج

مدينة الجربة الساحلية بتونس

معبد توت عنخ آمون المصري القديم في النوبة

## بلاد النوبة (سنة ٣٣هـ):

حاول المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الامتداد جنوبًا في بلاد النوبة، تحت قيادة «عمرو بن العاص» ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فتركوا فتحها، إلى أن تولى الإمارة في مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح فسار إلى بلاد النوبة سنة (٣٣هـ) وقاتل أهلها عدة مرات، مما دفعهم إلى توقيع اتفاقية مع المسلمين سميت معاهدة (البقط) يدفع أهل النوبة بموجبها جزية سنوية للمسلمين،[1] وقد استمرت هذه الاتفاقية تحدد العلاقة بين الدولة الإسلامية وبلاد النوبة مدة تقرب من ستة قرون إلى أن أسلم أهل تلك البلاد ورفعت عنهم الجزية.[2]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٦٨. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٨. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥/٣٠٩.

٢. انظر: د. مصطفي مسعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

## (ب) فتح أرمينية (٢٩هـ):

أصدر عثمان بن عفان ﷺ أمرًا إلى عامله على الشام «معاوية بن أبي سفيان ﷺ»، بأن يوجه «حبيب بن مسلمة الفهري ﷺ» مع جيش المسلمين لفتح أرمينية، وقد توجه حبيب ﷺ ومعه ثمانية آلاف مسلم من أهل الشام، واستطاع أن يفتح بهم بعض المواقع في أرمينية،[1] ثم قام الأرمن وبطارقتهم بالاستعداد من جديد لمواجهة المسلمين، ووصلتهم إمدادات من الروم ومن بلاد الخرز، فاضطر حبيب إلى طلب المدد من معاوية بن أبي سفيان ﷺ في الشام ومن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فأرسل معاوية ﷺ جيشًا من الشام قوامه ألفاً رجل لنجدة حبيب، كما أصدر عثمان ﷺ أمرًا إلى والي الكوفة «سعيد ابن العاص ﷺ»، يأمره بإمداد حبيب بجيش عليه (سلمان بن ربيعة الباهلي ﷺ)، وهو أحد قواد المسلمين ذوي الخبرة بهذه المنطقة وقتال أهلها، وقد سار سلمان لمساعدة حبيب ومن معه من المسلمين، إلا أن حبيبًا استطاع أن يباغت جموع الأرمن والروم

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠٢. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٢/١٠٨.

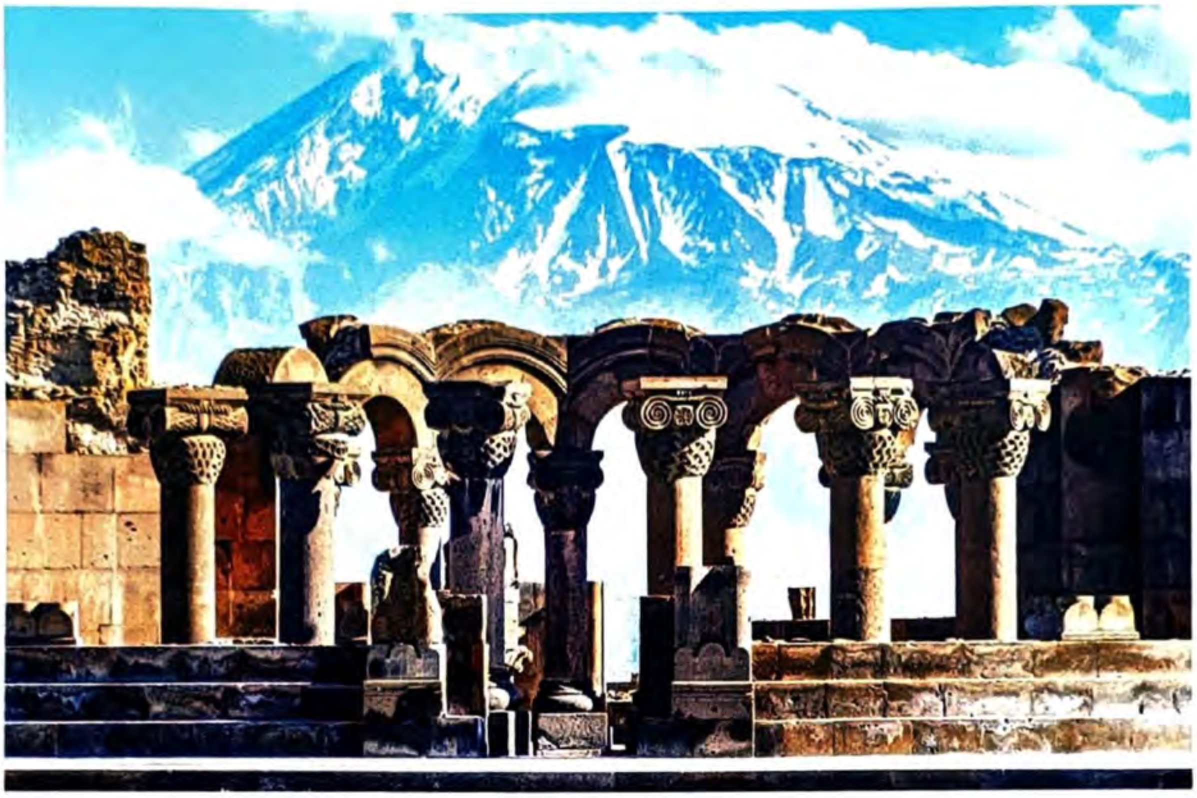

أطلال معبد زفارتنوس في يريفان، أرمينيا، مع جبل أرارات في الخلفية

وأن يقتل قائدهم وينتصر عليهم قبل وصول المدد، وبعد وصول سلمان الباهلي ومن معه تقاسم مع حبيب جبهات القتال، فكان أهل الكوفة مع سلمان يفتحون في شرق أرمينية، وأهل الشام مع حبيب يفتحون في غربها، حتى تمكن المسلمون من استكمال فتح أرمينية، ووصلوا إلى شواطئ البحر الأسود وبلاد القوقاز. وتمكنوا من ضم تلك البلاد إلى الدولة الإسلامية.[1]

## (جـ) الفتوحات البحرية:

لم يكن العرب وهم عماد الجيش الإسلامي في فتوحه الأولى أهل خبرة في البحر وركوبه، مقارنة بغيرهم من الأمم المجاورة لهم كالفرس والروم، وقد حاول معاوية بن أبي سفيان ﷺ أن يستأذن من عمر بن الخطاب ﷺ في ركوب البحر بالمسلمين وغزو الروم عن طريقه، فاستوصف عمر ﷺ من معاوية عن البحر وراكبه، فوصفه معاوية ﷺ وصفًا دقيقًا تخوف منه عمر ﷺ وبالتالي لم يأذن لمعاوية ﷺ ولا لغيره في الغزو البحري،[2] وقد حاول الروم استغلال البحر لإيقاع ضربات متكررة بالمسلمين في كل

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٦٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٠١. ابن سعد، الطبقات، ج٦/١٣١. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٢/١١١.

٢. انظر: إلى هذا الوصف في ابن الأثير، الكامل، ج٣/٩٥.

من الشام ومصر وخصوصًا المناطق الساحلية، حيث أخذوا يغيرون على المسلمين من سفنهم البحرية ويعودون إلى البحر مرة أخرى[١] فأحس المسلمون أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه بضرورة وجود أسطول إسلامي قوي يعمل على المحافظة على الثغور الساحلية الإسلامية ضد هجمات الروم بل ويقوم بالفتوح في أماكن جديدة في جزر بحر الروم (الأبيض المتوسط).[٢]

وبعد دراسة متأنية من قبل عثمان رضي الله عنه وأمرائه في الشام ومصر، عمل المسلمون في المنطقتين على بناء السفن، واستعانوا بخبرة أفراد الروم في الشام والقبط في مصر، مقابل أموال يدفعونها لهم وبدأت نواة الأسطول الإسلامي تتكون. وقد حاول الروم عرقلة المسلمين عن بناء أسطولهم، فدسوا بعض المخربين الذين تسللوا إلى دار صناعة السفن في طرابلس وفي الإسكندرية وتمكنوا من إحراقها، وما في داخلها من سفن، ولكن هذا لم يثن عزم المسلمين عن إكمال مشروعهم، حتى أصبحت سفن

١. انظر: ص ١٦٧ من هذا الكتاب.

٢. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٧، ١٥٨. ابن الأثير، الكامل، ج٣/٩٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧/١٦٤.

المسلمين جاهزة في سواحل الشام، وفي الإسكندرية، وكونت مجتمعة أسطولاً إسلاميًا لم يكن في حجم أسطول الروم البحري إلا أنه كان كافيًا للقيام بمهمة الدفاع عن السواحل الإسلامية في وجه سفن الروم، وللقيام بفتوح جديدة في البحر.[١]

## فتح قبرص سنة (٢٧) هـ:

بعد أن اكتمل استعداد الأسطول البحري الإسلامي في الشام استأذن أمير الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه الخليفة عثمان رضي الله عنه في فتح قبرص فوافقه عثمان رضي الله عنه واشترط أن يكون معاوية رضي الله عنه في الغزو شخصيًا، وأن يحمل معه أهله، وأن لا يجبر أحدًا من المسلمين على ركوب البحر، وأن يكون المجاهدون في هذه الغزوة بطوعهم واختيارهم،[٢] وكانت كل هذه الاحتياطات التي عملها عثمان رضي الله عنه، نتيجة لقرب عهد المسلمين من خوض البحار، وخوف المسلمين عمومًا من هذه التجربة الجديدة عليهم،

١. انظر: السيد عبد العزيز السالم و د. أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، الجزء الأول، البحرية الإسلامية في مصر والشام.

٢. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٧، ١٥٩. ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص ٣٤٨. الطبري، تاريخه، ج٥/٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج٣/٩٦.

وخوف عثمان ﷺ خصوصًا على المسلمين، وقد تطوعت جموع كثيرة من المسلمين لهذه الغزوة فيهم جمع من الصحابة، وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري، وأبو الدرداء،

وشداد بن أوس وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان وغيرهم ﷺ.[١]

وقد خرج معاوية بهذا الأسطول من سواحل الشام سنة (٢٧هـ)،[٢] ووصل بالمسلمين إلى قبرص، فطلب أهلها الصلح، وأقروا بدفع الجزية، فوافقهم المسلمون واشترطوا أن يكونوا عونًا للمسلمين وأن لا يعينوا الروم ضد المسلمين أبدًا،[٣] ولكن أهلها أعانوا الروم وكشفوا لهم عورات المسلمين، فغزاهم معاوية مرة أخرى بأسطول كبير سنة (٣٣هـ) وفتحها عنوة.[٤]

١. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٩. وانظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٦٠. الطبري، تاريخه، ج٥/٥١.
٢. الطبري، تاريخه، ج٥/٥١. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٣١٧.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، وقد جعلها سنة ٢٨هـ، ص ١٦٠. البلاذري. فتوح البلدان، ص ١٥٨، ١٥٩. الطبري، تاريخه، ج٥/٥١. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٣١٧.
٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٥٨. الطبري، تاريخه، ج٥/٥٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، (عهد الراشدين)، ص ٤١٥.

قلعة كيرينيا في شمال قبرص

غزوات البحر المتوسط (المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

## معركة ذات الصواري سنة (٣١) هـ:

حاول الروم التعويض عن خسائرهم وهزائمهم المتكررة أمام المسلمين،[١] فجمعوا قوات بحرية كبيرة زادت على خمس مئة سفينة وخططوا لغزو الإسكندرية، وخرجوا بأسطولهم الكبير يقودهم «قسطنطين بن هرقل» وهو إمبراطور الروم وملكهم، وقد وصلت الأخبار إلى المسلمين بتحرك هذا الأسطول، وكانت أساطيل المسلمين على أهبة الاستعداد لمثل هذا اللقاء فتحركت في وقت واحد أساطيل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأساطيل مصر يقودها عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه والتقت أساطيل المسلمين والروم وسط البحر الأبيض المتوسط في منطقة تقع إلى الشمال من الإسكندرية وإلى الغرب من بلاد الشام، وكان عدد سفن المسلمين قرابة (٢٠٠) سفينة، وهو عدد قليل مقارنة بقوات الروم التي زادت عن خمس مئة سفينة، وكان يقود المعركة من جانب الروم ملكهم «قسطنطين» ومن جانب المسلمين أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه، وقد بدأت المعركة بتبادل الرمي

١. انظر: الطبري، تاريخه، ج٤/٢٦١. ابن الأثير، الكامل، ج٣/٩٧.

بالنبال ثم استخدمت الحجارة، وبعد ذلك عمل المسلمون على ربط سفنهم بسفن الأعداء، فتمكنوا من قتال الروم وجهًا لوجه بالسيوف والخناجر، واشتد القتال ووقع آلاف القتلى من الطرفين، واختلط الحابل بالنابل، وحاول الروم اختطاف سفينة قائد المسلمين (عبد الله بن سعد) بالخطاطيف والسلاسل، إلا أن أحد شجعان المسلمين تمكن من قطع السلسلة ونجا عبد الله من يد الأعداء، واستمرت المعركة على أشدها إلى أن نصر الله المسلمين،[1] وجرح «قسطنطين» ملك الروم وقائدهم في المعركة والتجأ إلى جزيرة صقلية مع بقية الفارين من جنوده، وقتل بعد ذلك هناك على يد جنده من الروم الذين اعتبروه مسؤولاً عن الهزيمة،[2] وكان من نتيجة هذه المعركة أن أصبحت السيطرة البحرية للمسلمين كما كانت لهم السيطرة البرية، وغدا بحر الروم بحيرة إسلامية، وساعدت السفن التي غنمها المسلمون في تلك المعركة في تقوية الأسطول الإسلامي، وقلت بعد ذلك غزوات الروم البحرية التي يهددون بها السواحل الإسلامية في مصر والشام وغيرها.

١. الطبري، تاريخه، ج ٥/ ٧٠. ابن الأثير، الكامل، ج٣/ ١٥٣ - ١٥٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧/ ٢٥٨.
٢. ابن الأثير، الكامل، ج٣/ ١١٩.

## (د) فتوح الشرق والقضاء على مملكة الفرس:

كانت الفتوحات الإسلامية في الشرق خلال خلافة عثمان ﷺ تنطلق من الكوفة والبصرة، ولكل ولاية منهما جيوشها وقيادتها الخاصة، وقد انطلقت الجيوش من الكوفة إلى الشمال وإلى الشرق، إما لتثبيت الفتوح السابقة وتأديب العصاة ومن ينقضون الصلح والمعاهدات من أهل البلاد المفتوحة أو لفتح بلدان جديدة، فقد غزا (الوليد بن عقبة بن أبي معيط) كلاً من (أزربيجان) و(الديلم) حتى وصل إلى بحر قزوين.[١]

وبعد عزل الوليد بن عقبة ﷺ عن الكوفة وتعيين (سعيد بن العاص ﷺ) مكانه غزا أهل الكوفة (خراسان) يقودهم سعيد بن العاص ﷺ، وصاحبه في هذه الغزوة مجموع من الصحابة فيهم الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب و عبد الله بن

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٥٨، ١٦٠. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣١٨. الذهبي، تاريخ الإسلام، (عهد الراشدين)، ص ٣٢٤.

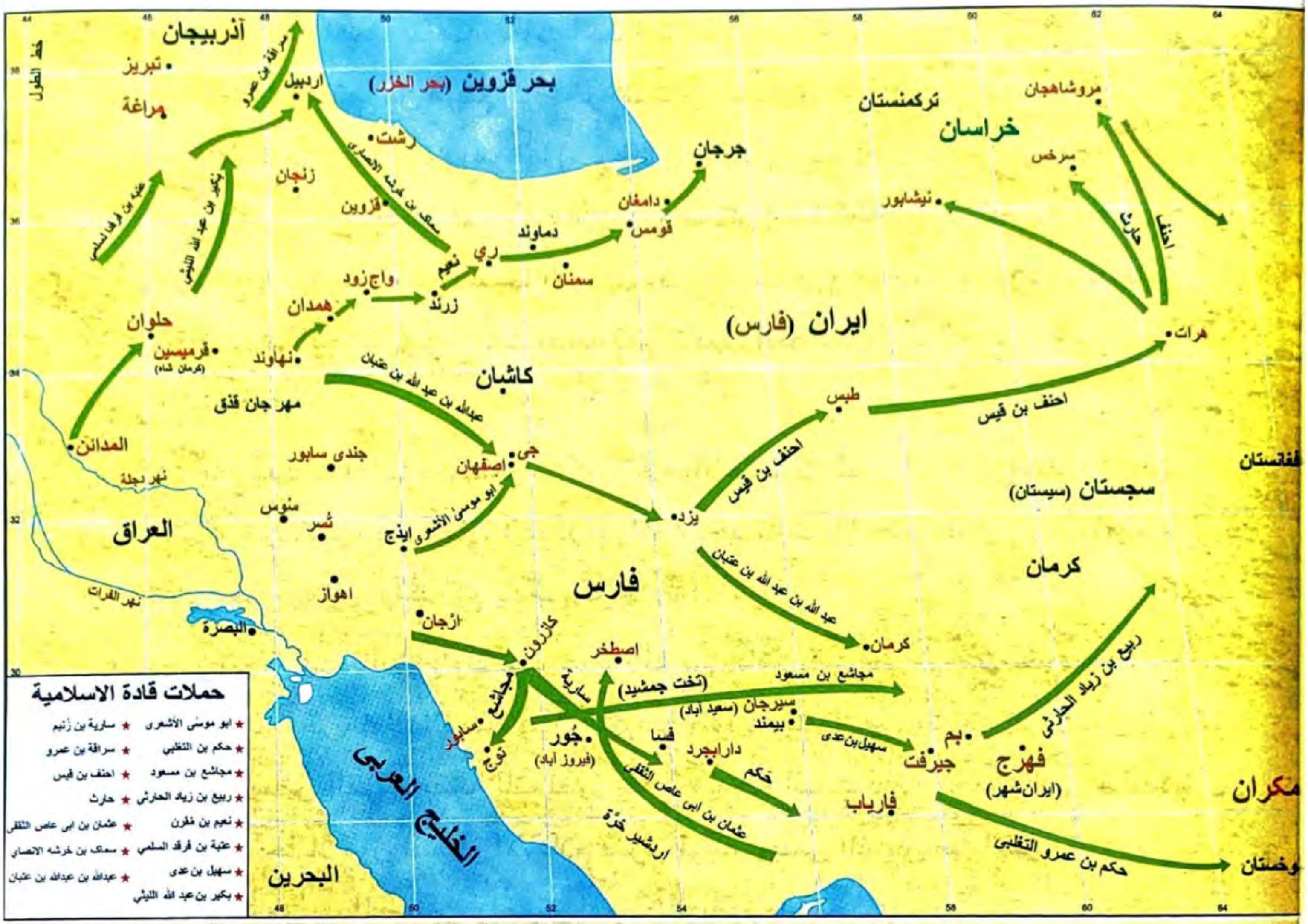


فتوحات فارس و كرمان و سجستان و مكران و خراستان (المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

عباس و عبد الله بن الزبير و عبد الله بن عمر رضي الله عنهم ومن خراسان توجه جند الكوفة إلى (جرجان) وفرضوا عليهم الجزية، كما وصلت طلائعهم إلى (طبرستان) وفرضوا الجزية على أهلها وأدبوهم بعد انتقاضهم، كما انطلقت جيوش المسلمين من البصرة إلى الشرق يقودهم (أبو موسى الأشعري) رضي الله عنه ففتحوا (همذان) وبلاد (الري) بعد أن نقضت العهد واستمروا في إخضاع البلاد التي انتقضت حتى وصلوا إلى (سابور).[1]

وفي سنة (٢٩ هـ) ، ولى عثمان رضي الله عنه على البصرة الأمير الشاب «عبد الله بن عامر بن كريز»، في وقت كانت فيه معظم بلاد فارس قد ثارت ونقضت عهودها مع المسلمين، بتأثير من يزدجرد ملك الفرس الذي كان يدور في شرق في بلاد فارس يحرضها على الخروج، فسير عبد الله بن عامر رضي الله عنه الجيوش المختلفة من

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٦١، ١٦٥. الذهبي، تاريخ الإسلام (عهد الراشدين)، ص ٣٢٦. وانظر: مواقع تلك المدن في الخارطة المرفقة.

البصرة قاد بعضها بنفسه، حيث أخذ المسلمون يعيدون ما انتقض من بلاد فارس، ويطاردون ملكهم، من موقع إلى آخر، فتمكن المسلمون بقيادة عبد الله بن عامر ﷺ من الاستيلاء على مدن (مرو) و(سرخس) و(كابل) سنة (٣١هـ) كما أن بعض قواد عبدالله ﷺ قام بإعادة فتح (كرمان) و(سجستان) كما تمكن عبد الله بن عامر ﷺ من فتح (خراسان) وعين عليها الأمراء، وفتح (نيسابور) بعد قتال مرير، حيث رضي أهلها بدفع الجزية، وفي الوقت نفسه قام بتأديب العصاة، وإعادتهم إلى صف الدولة الإسلامية.[١]

وقد بعث عبد الله بن عامر بن كريز ﷺ بالأحنف بن قيس إلى (بلخ) سنة (٣١هـ)، فتمكن من فتحها بعد معارك عديدة، واتجه بجيشه شرقًا حتى وصل إلى (خوارزم)، على نهر جيحون، ولكنه لم يتمكن من فتحها.[٢]

ونتيجة لهذه الفتوح ولقضاء عبد الله بن عامر ﷺ على ثورات فارس أصبح «يزدجرد» آخر ملوك الفرس يعيش شريدًا طريدًا، يتنقل من منطقة إلى أخرى إلى أن قام بعض الفرس بقتله للتخلص منه[٣] وبموته انتهت دولة الفرس التي حاولت أن تقف حائلاً دون انتشار الإسلام فترة طويلة، ويئس الفرس من استعادة الأماكن المفتوحة من يد المسلمين، ولم يبق لهم نظام يقوم بذلك.

وهكذا نرى أن الفتوحات في خلافة عثمان ﷺ تركزت بالدرجة الأولى على المحافظة على المناطق سابقًا وهي مهمة صعبة، حيث بذل المسلمون، وخاضوا عدة معارك حربية خصوصًا في فارس، إضافة إلى معاركهم مع الروم، في مصر وفي سواحل الشام، وفي البحر من أجل المحافظة على ما سبق فتحه، كما فتحت العديد من المناطق الجديدة وخصوصًا في خراسان وبلاد الأفغان وأرمينية، وقبرص وشمال إفريقيا وبلاد النوبة.

---

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٦٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٩٥.
٢. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ١٦٦. اليعقوبي، تاريخه، ص ١٦٦، ١٦٧.
٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣١١، ٣١٣. الطبري، تاريخه، ج٥/٧١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧/١٥٨.

رابعًا:

# خلافة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة بعد استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه،[1] ودامت خلافته أربع سنوات وبضعة أشهر، إلا أن الفتوحات في أيامه كانت شبه منقطعة، نظرًا للفتن التي كانت قائمة في مختلف أنحاء الدول الإسلامية، ومع ذلك فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد بذل جهودًا عظيمة في المحافظة على المناطق المفتوحة، وخصوصًا في إقليم فارس الذي حاول أهله الخروج على الطاعة أكثر من مرة فقام علي وأمراؤه بتأديب الثوار والمحافظة على تلك المناطق وتبعيتها للدولة الإسلامية. كما توجهت في أيامه جموع من المجاهدين المتطوعين إلى نواحي بلاد السند، وتمكنوا من فتح بعض المناطق، إلا أن كثرة الأعداء فيها جعلتهم لا يتمكنون من ضمها إلى الدولة الإسلامية.

---

١. انظر: الطبري، تاريخه، ج٥/١٥٧، ج٦/٨٣.

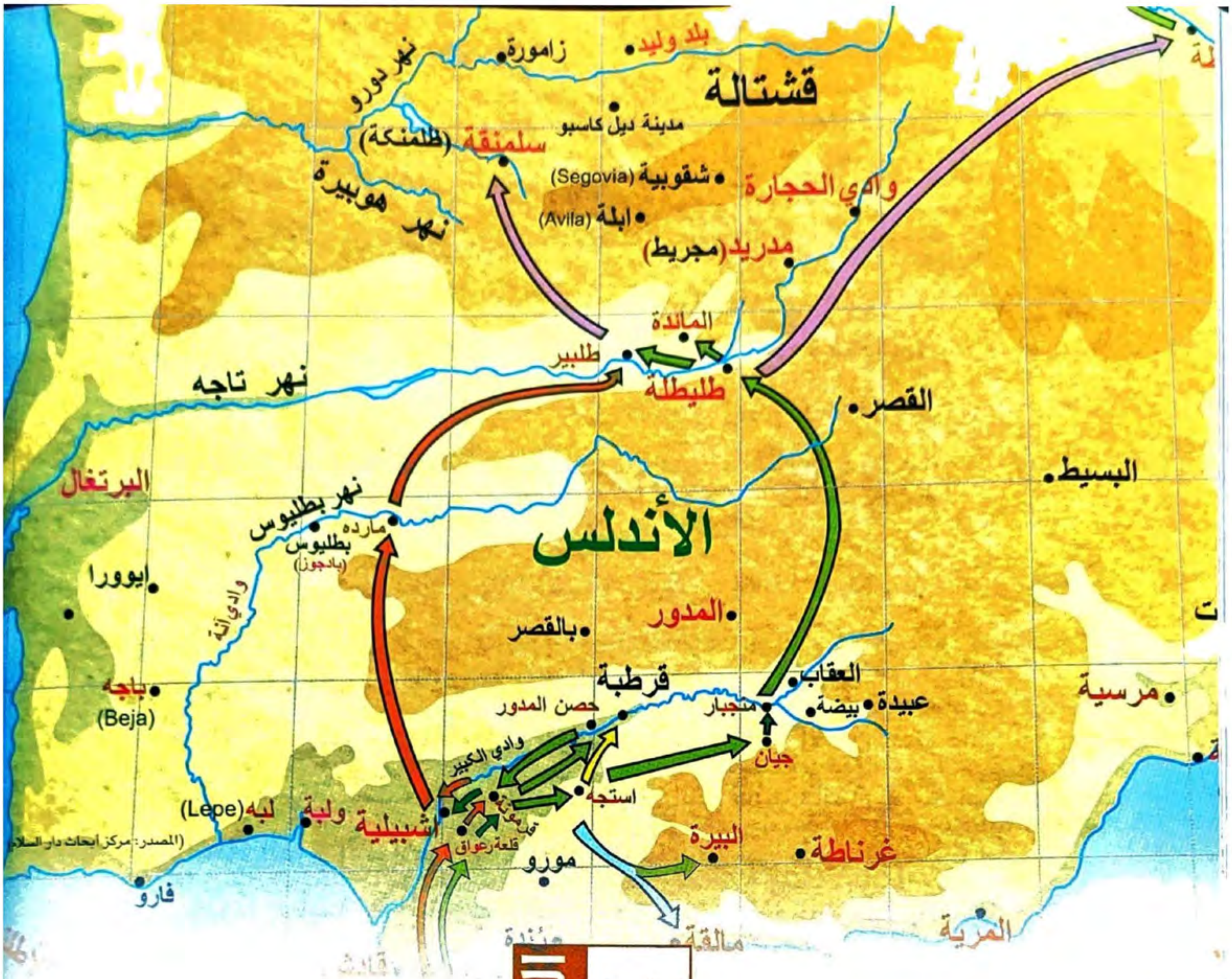


# الفصل ٣

# عصر الدولة الأموية

# الفتوحات في العصر الأُموي (٤١ ـ ١٣٢هـ)

مرت الدولة الأموية ابتداءً من مبايعة معاوية بن أبي سفيان ﷺ بالخلافة إلى أن سقطت سنة (١٣٢هـ) بمراحل مختلفة من القوة والضعف، وقد تخلل ذلك قيام فتوح عظيمة لمناطق واسعة خلال مراحل القوة في هذه الدولة تعد أهم الفتوح في عبر التاريخ الإسلامي حيث انتشر الإسلام لأول مرة في العديد من المناطق، ومن أهم تلك الفتوح:

## (أ) الفتوح في بلاد الروم:

كان معاوية بن أبي سفيان ﷺ صاحب خبرة في قتال الروم منذ أن أشترك في الفتوح الأولى، أيام أبي بكر الصديق ﷺ، وحين آلت إليه الخلافة استمرت في ضرب الحدود الرومية فكان يرسل الصوائف والشواتي، وهي جيوش تخرج كل عام في الصيف أو الشتاء تغير على الروم وتغزو بلادهم،[1] وقد نجحت هذه الحملات في إرباك الروم وإضعافهم باستمرار، كما أنها تعد المسلمين لمحاولة غزو القسطنطينية وفتحها وإسقاط دولة الروم. وفي سنة (٤٨هـ) جهز معاوية بن أبي سفيان ﷺ جيشًا كثيفًا بريًا وبحريًا لفتح القسطنطينية، وقد كان في هذا الجيش مجموعة من الصحابة، منهم «عبد الله بن عباس» و«عبد الله بن عمر» و«عبد الله ابن الزبير» و«أبو أيوب الأنصاري ﷺ» وكان قائد هذا الجيش «يزيد بن أبي سفيان»، وقد تمكن

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٠٨. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٨٩. الطبري، تاريخه، ج٥/ ١٣٠. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣/ ١٥١. انظر حول هذا المفهوم: كوركيس عواد، مصادر التراث العسكري عند العرب، الذي ذكر أن هناك كتابًا ألف في الصوائف للهيثم بن عدي، المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

الجيش من اختراق جبال (طوروس) عبر آسيا الصغرى ولاقى الصعاب والمشاق حتى وصل إلى أسوار القسطنطينية حيث وقعت عندها العديد من المعارك بين المسلمين والروم الذين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، ولم ينجح المسلمون في اقتحام القسطنطينية لعدة أسباب منها شدة البرد وطول فترة الحصار، إضافة إلى قوة أسوار القسطنطينية وحصونها، واستخدام الروم لسلاح النار الإغريقية التي عملت على إحراق سفن المسلمين فاضطر المسلمين إلى الانسحاب، وقد استشهد أثناء الحصار (أبو أيوب الأنصاري) ﵁ ودفن بالقرب من القسطنطينية[1] وكانت هذه الغزوة هي المحاولة الإسلامية الأولى لفتح القسطنطينية وقد لحقتها محاولة أخرى في خلافة معاوية سنة (٥٤هـ) حيث خرجت جيوش برية وبحرية من بلاد الشام وتمكنت من الاستيلاء على بعض المدن والجزر المجاورة للقسطنطينية واتخذتها قواعد عسكرية أخذت تشن منها الحملات على القسطنطينية وتمكنت من حصارها إلا أن هذا الحصار لم يكن كاملاً نظرًا لموقع القسطنطينية الجغرافي الذي أعطاها حصانة طبيعية تمنع محاصرتها بالكامل، حيث كان البحر يمنع ذلك في جوانب مختلفة من المدينة وقد استمر الجيش الإسلامي مرابطًا بالقرب منها من سنة (٥٤هـ) حتى سنة (٦٠هـ)، إلا أنه لم ينجح في فتحها فعاد هذا الجيش بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان ﵁ بأمر من ابنه يزيد.[2]

١. الطبري، تاريخه، ج٥/ ١٣٠. ابن الأثير، ج٣/ ٤٥٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨/ ٣٢ (وقد جعلها بعضهم سنة ٤٩هـ).
٢. الطبر ي، تاريخه، ج٥/ ١٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج٣/ ٤٩٧.

خريطة شاملة للفتوح الإسلامية (ماوراء النهر الى فرنسا)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

وقد تمكن المسلمون في خلافة معاوية ﷺ من فتح جزيرة (رودس) سنة (٥٢هـ) ونزلها جماعة من المسلمين أخذوا يعترضون سفن الروم ويمنعونها من الإغارة على المسلمين وبلادهم.

وقد اضطربت الأحوال في الدولة الأموية بعد وفاة معاوية ﷺ اختلفت العلاقة مع الروم وخفت الهجمات الإسلامية عليهم، وعندما استقرت الأحوال في خلافة

تصوير قديم للقسطنطنية

عبدالملك بن مروان سنة (٧٣هـ) بعث الصوائف والشواتي إلى آسيا الصغرى وأكثر من غزو الروم حتى أرهق قواهم، وتمكن المسلمون بقيادة محمد بن مروان ومسلمة ابن عبد الملك من تخريب قلاع الروم وتحصيناتهم بالقرب من بلاد الشام حتى يسهل على المسلمين اجتياح آسيا الصغرى.

وبعد وفاة عبد الملك بن مروان قام من بعده ابنه الوليد بن عبد الملك بمواصلة غزو أراضي الروم، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على (طرطوس) و(هرقلة) و(عمورية) وتمهد الطريق إلى (القسطنطينية).

وفي هذه الأثناء كان الوليد يعد الجيوش والأساطيل الإسلامية لغزو القسطنطينية عاصمة الروم، وقد توفي قبل إتمام المشروع، فعمل من بعده الخليفة (سليمان بن عبد الملك) على إتمامه، وسير الجيوش والأساطيل الإسلامية سنة (٩٨هـ) لغزو (القسطنطينية)، وكان يقود هذه الحملات (مسلمة بن عبدالملك)، وقد وصلت الجيوش إلى أسوار القسطنطينية، وعملت على حصارها ولقيت المشاق العظيمة في ذلك نظرًا لشدة البرد في ذلك العام،[1] ونقص التموينات نتيجة لذلك، وفي أثناء

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣١٥. الطبري، تاريخه، ج٨/١١٧. ابن الأثير، الكامل، ج٥/٢٧. ابن كثير ، البداية والنهاية، ج٩/١٧٤.

الحصار توفي سليمان بن عبد الملك، وتولى من بعده «عمر بن عبد العزيز» الذي غير سياسة الدولة، حيث أمر جيوش المسلمين حول القسطنطينية بالعودة، وآثر أن يركز جهوده على نشر الإسلام في المناطق المفتوحة والخاضعة للدولة الإسلامية بدلاً من فتح أراضٍ جديدة،[1] ولا شك أن الحملات الأموية على القسطنطينية، وإن لم تنجح في فتحها، فقد نجحت في إثبات قوة المسلمين أيام الأمويين، وقدرتهم على اختراق دفاعات الروم في آسيا الوسطى وغيرها.

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٢٠. الطبري، تاريخه، ج٨/ ١٣٠. ابن الأثير، الكامل، ج٥/ ٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩/ ١٨٤.

أكروبوليس ليندوس. العمارة القديمة لليونانيين. وجهة السفر لجزيرة رودس

الآثار المعمارية المتبقية لقلعة فورغ ، فورج ، جنوب خراسان ، إيران.

## (ب) فتوح الشرق:

قام الأمويون ابتداءً من عصر معاوية بن أبي سفيان ﷺ بفتوحات عظيمة في بلاد المشرق، إضافة إلى الجهود المبذولة في تثبيت الإسلام في المناطق المفتوحة سابقًا أو التي حاول أهلها الخروج عن طاعة الدولة الإسلامية، ومن أهم تلك الفتوح ما قام به ولاة العراق من فتوح في (فارس) و(خراسان) و(سجستان) والتي حاول أهلها الانتفاض على المسلمين والامتناع عن دفع الجزية، وأولى تلك الحملات هي التي قام بإرسالها عبد الله بن عامر بن كريز والي معاوية على البصرة سنة (٤١هـ)، وتمكن من خلالها من فتح أو إعادة فتح العديد من المناطق، ومن أشهرها: (هِرات) و(كابل) و(غزنة) و(بلخ) و(قندهار) من مدن أفغانستان حاليًا، كما قام بنقل آلاف الأسر المسلمة من بلاد العراق إلى تلك المدن تمهيدًا لانطلاق الفتح في بلاد ما وراء النهر.[١]

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٨٨، ٣٩٨.

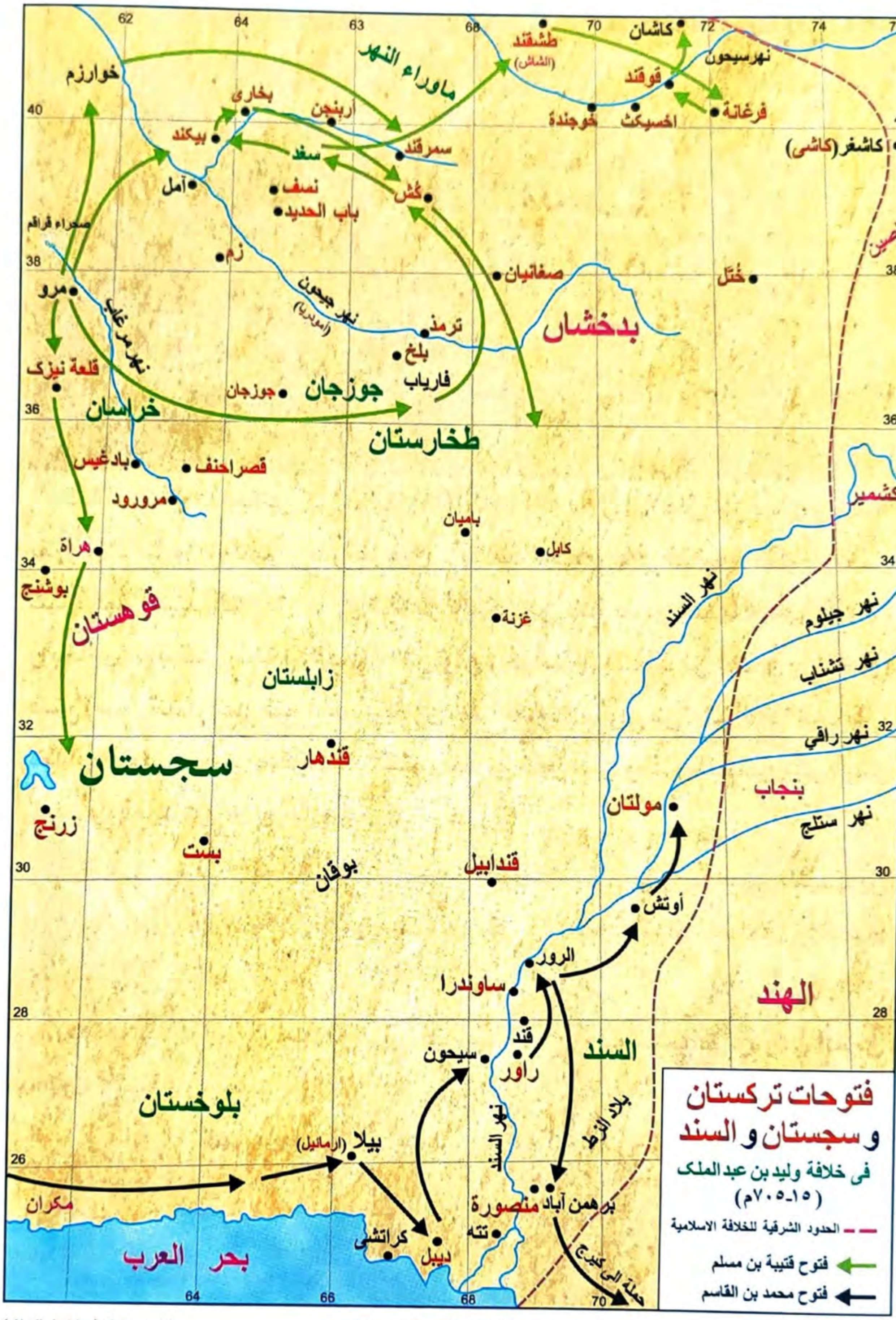


فتح السند و آسيا الوسطى

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

قلعة هرات القديمة في أفغانستان

كما استعمل معاوية بن أبي سفيان ﷺ (عبيد الله بن زياد) على خراسان، وأوصاه بغزو بلاد ما وراء النهر - نهر جيحون - وكانت تحتوي على أقاليم وأسلحة ومدن كثيرة فعبر عبيد الله إلى ما وراء النهر وتمكن من فتح بعض مدنها ومنها (ترمذ) و(بخارى) و(بيكند) سنة (٥٤هـ)، [١] ثم تولى (خراسان) (سعيد بن عثمان بن عفان) ففتح (سمرقند) وأعاد فتح ترمذ وبخارى بعد انتفاضهما وفرض على أهلها الجزية[٢] كما أن (المهلب بن أبي صفرة) قاد الفتوح جنوبي كابل حتى وصل بالمسلمين إلى أرض الهند وأوقع بالمشركين وغنم منهم غنائم كثيرة.[٣]

وفي خلافة «عبد الملك بن مروان» قاد الفتوح في بلاد ما وراء النهر «المهلب بن أبي صفرة» إلا أن جزءًا من جهوده كانت تتركز في تثبيت أقدام المسلمين والقضاء على الخوارج في تلك المناطق.[٤]

وفي خلافة الوليد بن عبد الملك أيضًا قام الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق بتعيين «قتيبة بن مسلم الباهلي» على (خراسان) سنة (٨٦هـ)،[٥] فبدأت الفتوح في بلاد ما وراء النهر تأخذ طابعًا جديدًا يدفعها الحماس لنشر الإسلام والجهاد

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٠١. الطبري، تاريخه، ج٥/١٦٧. ابن الأثير ، الكامل، ج٣/٤٩٩.
٢. انظر: إلى مواقع هذه المدن حسب الخارطة المرفقة.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٠٦.
٤. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٧٩، ٢٨٨، ٢٩٥. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٤٥٣.
٥. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٩١. الطبري، تاريخه، ج٨/٥٩. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٢٣.

الصادق من قتيبة وجنده لتثبيت أركان الدولة الإسلامية في تلك البقاع، وقد بدأ قتيبة وجنده بفتح مدينة (بلخ) التي تقع على مفترق الطرق المؤدية إلى (الصفد) و(الصين) ومنها تقدم حتى عبر نهر جيحون، وخضعت له معظم القبائل الموجودة في المنطقة وتمكن من الاستيلاء على (بيكند) سنة (٨٧هـ) وهي من المدن المهمة في طريق (بخارى) واستولى على بعض المدن الأخرى،[١] ورغم محاولة القبائل التركمانية القضاء على جيش المسلمين فقد تمكن قتيبة سنة (٩٠هـ) من فتح مدينة (بخارى) وفر منها ملكها.[٢]

وفي سنة (٩٣هـ) قام قتيبة بغزو مناطق (خوارزم) على مصب نهر جيحون بالقرب من بحيرة خوارزم، وأدخل المنطقة في طاعة الأمويين، ثم غزا قتيبة (سمرقند)، وكانت قد خلعت الطاعة، فحاول أهلها المصالحة ودفع الجزية فرفض قتيبة إلا أن يقبل أهلها ببناء مسجد في بلدتهم، وأن يضمنوا حمايته، ويؤمنوا من يدخل في الإسلام، ودخل قتيبة (سمرقند) ونقل إليها كثير من الأسر المسلمة التي ساعدت في نشر الإسلام بها.[٣]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٠. الطبري، تاريخه، ج٨/ ٦١. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٢٧.
٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٢، ٣٠٣ . الطبري، تاريخه، ج٨/٦٨. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٤٢.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ٣٠٥. الطبري، تاريخه، ج٨/٨٣. ابن الأثير، الكامل، ج٤/ ٥٧٠ - ٥٧٥.

مئذنة كالان في بخارى ، أوزبكستان

وفي سنة (٩٤هـ) غزا قتيبة بلاد (الشاس) و(فرغانة) وفتح العديد من المدن،[١] حتى وصل سنة (٩٦هـ) إلى حدود الصين، ودارت بينه وبين ملكها المراسلات، حيث قال ملك الصين لرسل قتيبة: انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهلكه، فقال رسل قتيبة: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله عندكم وأخرها عند منابت الزيتون .. وأن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه، فقال الملك: فما يرضيكم؟ قال رسول قتيبة إن القائد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ الجزية منكم، فقال: فإنا نخرجه من قسمه فنبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم بعث ملك الصين إلى قتيبة بالهدايا والجزية وبعث بأواني من ذهب فيها من تراب الصين وأربعة غلمان من أبناء الملوك فقبل قتيبة الجزية والهدايا ووطئ التراب وختم الغلمان ثم عاد إلى (خراسان).[٢]

سمرقند ، أوزبكستان ساحة للمدينة التاريخية

ويتضح من خلال ما سبق أن قتيبة بن مسلم (رحمه الله) كان الفاتح الحقيقي لبلاد ما وراء النهر، وقد تمكن أن يمد فيها نفوذ الدولة الأموية إلى حدود الصين، وكان له دور كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد حيث شجع الناس على اعتناقه واعتنى بنشر المساجد وتوزيع العلماء في الشرق حتى غدا أهل تلك المنطقة جلهم مسلمين، وبرز منهم علماء فطاحل.

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٦. الطبري، تاريخه، ج٨/٩١.
٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٩١، ٣٩٢. الطبري، تاريخه، ج٨/١٠٠. ابن الأثير، الكامل، ج٥/٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩/١٤٠.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

## (جـ) فتوح السند:[1]

كانت بداية الفتوح الأولى في بلاد السند أثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ، حيث قامت بعض جيوش البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة سنة (٤٤هـ) بغزو أطراف السند، وتمكن من فتح (مكران)، كما غزا المسلمون حوض نهر السند من (سجستان)، وتمكنوا من فتح بعض المواقع مثل (كش) و(قصدار)[2] وغيرها على أن هذه المناطق المفتوحة لم تُضم إداريًا إلى الدولة الأموية في تلك الفترة، بل بقيت السيطرة فيها لغير المسلمين إلى وقت فتوح (محمد بن القاسم الثقفي).

وقد اقترن اسم «محمد بن القاسم» ببلاد السند، فهو الفاتح الحقيقي الأول لها حيث كانت ملجأ للخارجين على الدولة الإسلامية، وكان أهلها كثيرًا ما يعتدون على سفن المسلمين في البحر، مما دعا الحجاج بن يوسف والي العراق للوليد بن عبدالملك أن يُلح على الوليد بفتح تلك البلاد، فأذن له الوليد بذلك فجهز جيشًا كبيرًا قوامه عشرون ألف مقاتل، وعين «محمد بن القاسم» قائدًا لذلك الجيش، وكان عمره سبع عشرة سنة.[3]

وفي عام (٩١هـ) تحركت الجيوش من بلاد فارس عن طريق الساحل وفي الوقت

---

١. هي البلاد الممتدة من إيران غربًا إلى جبال الهملايا في الشمال الشرقي، وهي حاليًا تشمل جزءً كبيرًا من دولة باكستان.
٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٠٦. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢١. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٤٤٦.
٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٤. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٤. الطبري، تاريخه، ج٨/٦٨. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٣٦.

نفسه تحركت السفن من البصرة تحمل العتاد والرجال وقد تتام وصول الجيوش البرية والبحرية إلى (الديبل) وعسكر محمد بن القاسم على أسوارها وحاصرها، وضربها بالمنجنيقات، واتلف أسوارها وهدم المعبد البوذي فيها وتمكن من دخولها عنوة فهرب أميرها فبنى المسلمون بها مسجدًا وأقام جماعة منهم بها ثم تقدم ابن القاسم شمالاً في بلاد السند وتمكن من فتح العديد من المواقع ثم دارت معركة شديدة بين ملك السند «داهر» وبين «محمد بن القاسم» ومن معه بالقرب من نهر السند قتل فيها «داهر» وقُضي على قواته،[1] وسار المسلمون يفتحون في بلاد السند حتى وصلوا إلى (ملتان)، وتمكنوا من فتحها عنوة وكان بها معبد للبوذية يحج إليه أهل السند فهدمه المسلمون وحطموا أصنامه واستقر ابن القاسم في (ملتان) وصارت مركزًا رئيسًا للمسلمين، وأخذ ينظم الحاميات الإسلامية ويبني المساجد

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٦. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٣٦.

تضاريس جبلية على طريق في السند

بمختلف أنحائها، كما نظم أمورها الإدارية والمالية والحربية، وتمكن من تأمين سفر المسلمين في البحر، وبدأ الإسلام ينتشر في تلك المناطق.[١]

وحينما بويع «سليمان بن عبد الملك» بالخلافة سنة (٩٦هـ) قام بعزل «محمد بن القاسم» عن ولاية السند.[٢] فاضطربت أحوالها إلى أن أسلم معظم أهلها وأمرائها عن طريق الدعوة في أيام عمر بن عبد العزيز (رحمه الله) ولم تخل السند من بعض المشاكل، ومع ذلك فقد انطلق المسلمون منها لغزو بلاد الهند عدة مرات أيام الأمويين.[٣]

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٢٧. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٣٩، ٥٨٨.
٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٨. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٨٨.
٣. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٣.

أنقاض أول مسجد محمد بن القاسم في السند

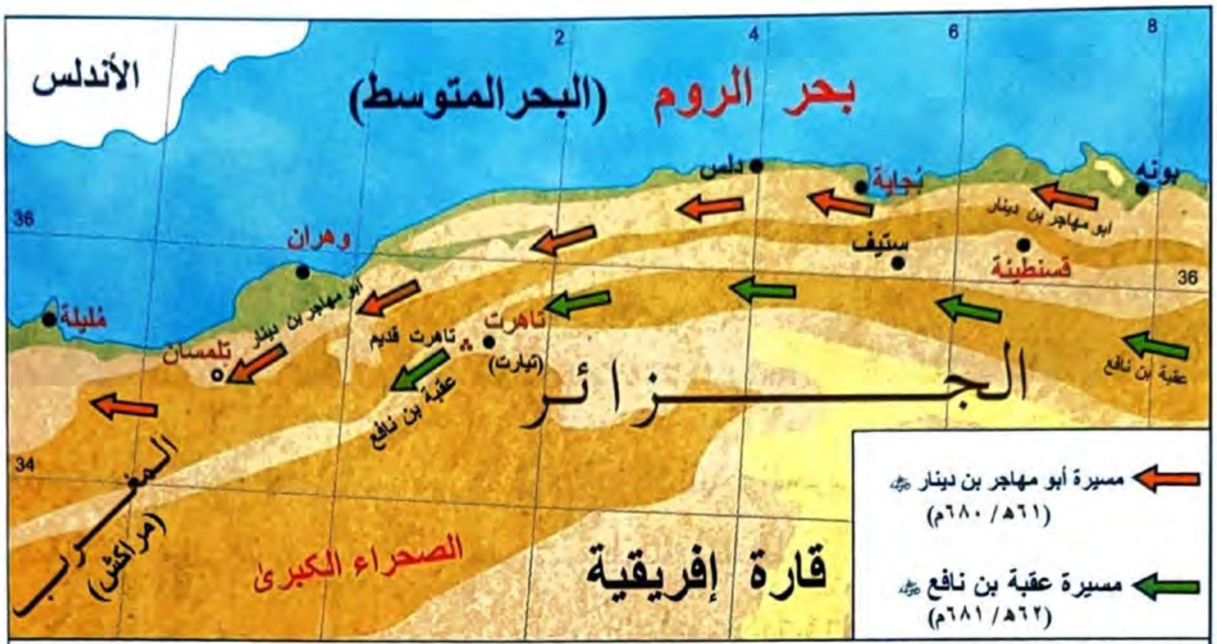


1 عاصمة دولة الإباضية الخارجية تاهرت قد أصبحت الآن في حالة خراب، استقرها إمام خارجى إباضي عبدالرحمٰن بن رستم في سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م وقليلاً بعد ذلك أصبحت هذه المدينة قلعة قوية لخارجيين - و خلف بعد عبد الرحمٰن الإمام عبد الوهاب الذي نسب إليه اصطلاح الوهابية - في العصور الوسطى كانت الوهابية تعرف بعقائدها الخارجية - ولكن في العصر الماضي القريب الإمبرا طورية البريطانية انتسبت هذا الإصطلاح إلى إمام عقيدة التوحيد محمد بن عبدالوهاب إساءةً، لكى تبطل بهذا حركة الجهاد التي كانت بقيادة شاه إسماعيل و سيد أحمد البريلوي بين مسلمي شبه القارة الهندية-"تا برت" اليوم يسمى "تيارت"- و أخربة تابرت القديم تقع على بعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي 2 احتلت إسبانيا المسيحية مدينة مليلة المغربية منذ عام ١٤٩٧ م بعد سقوط غرناطة (١٤٩٢ م) (المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

## (د) فتح شمال إفريقيا:

بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ كتب إلى واليه على مصر عمرو ابن العاص ﷺ أن يرسل الجيوش لاستكمال فتح شمال إفريقيا، فانطلقت أولى الجيوش سنة (٤١هـ) بقيادة عقبة بن نافع،[1] حيث تمكن من فتح العديد من المواقع، وقد استمرت حملات عقبة الأولى حتى سنة (٤٥هـ)، ثم قاد الفتوح في تلك المناطق (معاوية بن خديج السكوني) حيث أتخذ من (برقة) قاعدة لانطلاق الجيوش الإسلامية، وامتدت فتوحه إلى منطقة (القرن) بالقرب من القيروان و(بنزرت)، وقد اشترك في تلك الفتوح عبد الله بن الزبير ﷺ وعبد الملك بن مروان (رحمه الله)، وقد اشتركت الأساطيل الإسلامية المتحركة من مصر في فتوح سواحل إفريقيا.

وفي سنة (٥٠هـ) تم تعيين (عقبة بن نافع) لأول مرة واليًا على الشمال الإفريقي بأمر من معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وكان عقبة من المجاهدين في الشمال الإفريقي منذ أن بدأ المسلمون في فتحها، وقد شرع عقبة في بداية ولايته بتأسيس مدينة

١. لمزيد من التفاصيل عن جهود هذا القائد راجع: محمود شيت خطاب، قادة الفتح الإسلامي (عقبة بن نافع الفهري)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٧هـ.

إسلامية تكون قاعدة ثابتة لجند المسلمين، فأنشأ مدينة (القيروان)،[١] بعيدًا عن البحر حتى تكون في مأمن من أساطيل الروم، فكانت هذه المدينة حلقة اتصال بين المسلمين والبربر الذين أقبلوا على تلك المدينة وخالطوا المسلمين وكثر فيهم الإسلام.

مئذنة الجامع الكبير بالقيروان

وقد عزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية سنة (٥٥هـ)، وعين بدلاً عنه «أبو المهاجر ابن دينار» الذي أخذ يحارب البربر بقيادة «كسيلة» وتمكن المسلمون من أسر (كسيلة) فاستبقاه أبو المهاجر ثم لم يلبث أن أعلن إسلامه واشترك مع أبي المهاجر في حرب البيزنطيين في (قرطاج) وما جاورها، حيث تمكن المسلمون من فتح العديد من المواقع والمدن في سواحل إفريقيا في منطقة تونس حاليًا،[٢] وقد ظل أبو المهاجر واليًا على شمال أفريقيا حتى سنة (٦٢هـ) حيث قام (يزيد ابن معاوية) بعزله، وأعاد (عقبة بن نافع) مرة أخرى لولاية شمال أفريقيا.[٣]

وصل عقبة إلى (القيروان) وأعاد ترتيبها واستخلف عليها، ثم قال إني بعت نفسي لله عز وجل فلا أزال مجاهدًا حتى أخلص إفريقيا من الكفر وأدخلها في دار الإسلام أو أقضي دون ذلك[٤] وخرج في جيش المسلمين فاتحًا في إفريقيا فتمكن من فتح (بجاية) و(قسنطينة) و(تلمسان) و(تاهرت) ثم توجه إلى المغرب الأقصى حيث فتح مدنه الواحدة تلو الأخرى، رغم المقاومة الشديدة التي جوبه بها من قبل قوى البربر والروم المتحدة حتى وصل عقبة

---

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٠. الطبري، تاريخه، ج٦/١٣٤ . ابن الأثير، الكامل، ج٣/٤٦٤.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٠.

٣. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٤١. ابن الأثير، الكامل، ج٤/ ١٠٥.

٤. انظر: الرقيق القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب، ص٤١. ابن الأثير، الكامل، ج٤/١٠٥.

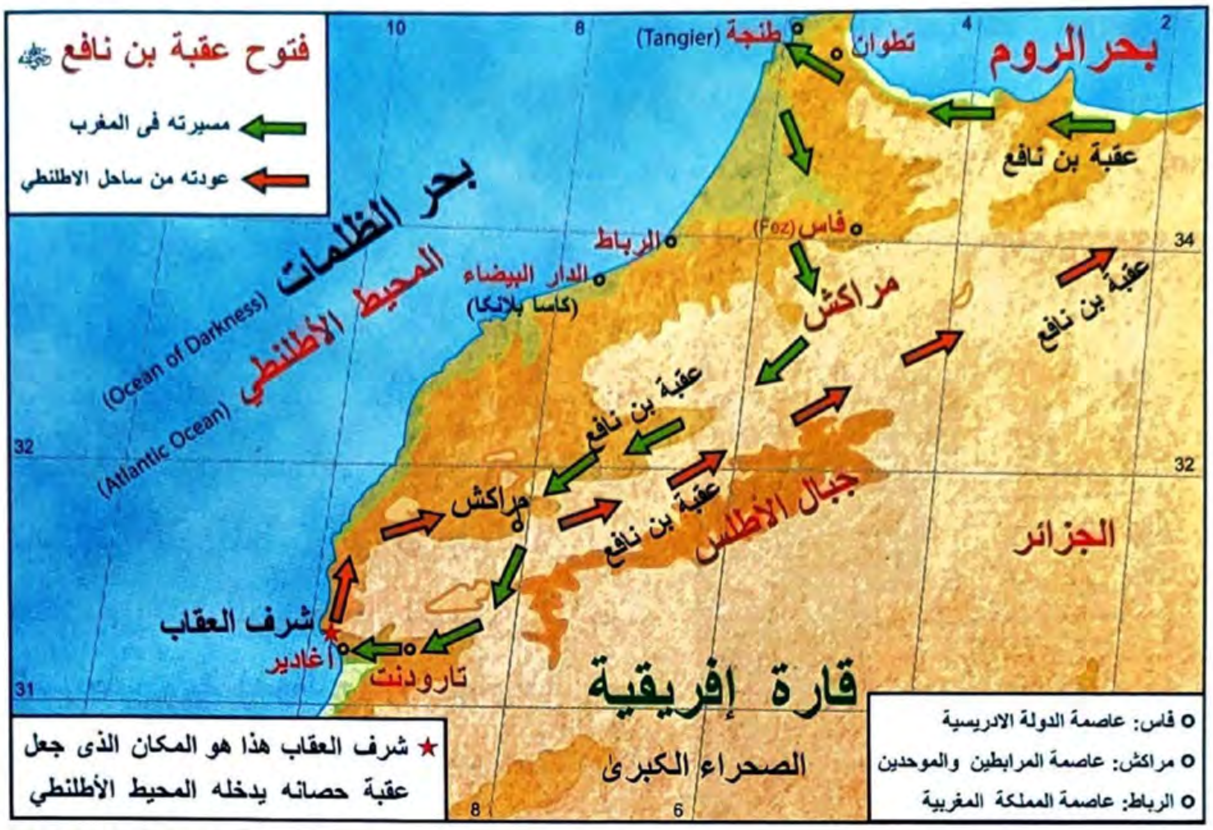


فتح المغرب (مراكش ٦٢ هـ)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

في مسيرة إلى ساحل بحر الظلمات ـ المحيط الأطلسي ـ في بلاد المغرب فأقحم فرسه فيه، وأخذ يناجي الله في دعاء، مما قال فيه: «اللهم أني لا أريد أن يعبد على وجه الأرض أحد سواك، ولو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لوطئتها أذكر فيها اسمك العلي العظيم اشهد أني قد بلغت عذرًا».(١)

واستطاع عقبة أن يبعث سراياه في بلاد (السوس) ريف المغرب، وفكر في العبور شمالاً إلى الأندلس لكنه قرر العودة إلى القيروان مؤقتًا، وفي الطريق كان معه (كسيلة) أحد قواد البربر وكان يظهر منه الإسلام، ولكن خلافًا وقع بينه وبين عقبة فاستغل انفصال عقبة عن أصحابه فقتله حيث استشهد (رحمه الله) سنة (٦٣هـ)(٢)

أدى مقتل عقبة إلى ارتداد كثير من البربر عن الإسلام وثورتهم على المسلمين حتى ساءت أوضاعهم فاضطروا إلى مغادرة شمال إفريقيا فتركوا (القيروان) متجهين إلى (برقة) في الشرق، وأصبحت السيطرة في (القيروان) وغيرها لـ«كسيلة».

وحينما استقرت الخلافة لـ «عبد الملك بن مروان» ولى «زهيرًا بن قيس البلوي» على

١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٤/١٠٦.

٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٥١. ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣/٤٢١.

إفريقيا، فتوجه بجيش كبير من المسلمين قاصدًا القيروان سنة (٦٦هـ) ووقعت بينه وبين «كسيلة» ومن معه من جيوش الروم والبربر معركة كبيرة انتهت بقتل «كسيلة» والقضاء على قواته،[١] وتمكن زهير من تثبيت الأمن في معظم شمال إفريقية إلا أن الروم هاجموا (برقة) في الشرق عن طريق البحر، وأسروا جموعًا من المسلمين فيها فتوجه إليهم زهير في قلة من أصحابه فتمكن الروم من قتله رحمه الله سنة (٦٩هـ).[٢]

ثم التف البربر حول امرأة منهم تسمى «الكاهنة» تمكنت من الاستيلاء على معظم شمال إفريقيا، في حين كان المسلمون مشغولين بالفتن التي حدثت في تلك الفترة من خلافة عبد الملك بن مروان.

وبعد أن هدأت الأمور في الشرق بعث «عبد الملك بن مروان «بـ» حسان بن النعمان» فاتحًا وقائدًا لشمال إفريقيا، فتوجه إليها سنة (٧٤هـ)، في قوة كبيرة بلغت قرابة أربعين ألف مقاتل، وقد ركز حسان جهوده الأولى لفتح (قرطاجنة) أكبر مدن الروم

١. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٥١. ابن الأثير، الكامل، ج/١٠٨.
٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣١. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية، والمغرب، ٥٣.

مسجد الحسن الثاني أكبر مسجد في المغرب.

في شمال إفريقيا، وبعد معارك طويلة تمكن من فتحها سنة (٧٤هـ)،[١] وحاول أهلها الثورة بعد أشهر إلا أن حسانًا تمكن من القضاء على ثورتهم وتأديبهم، كما تمكن من الاستيلاء على المواقع الرومية في تونس وشمال إفريقيا وغيرها على بناء المساجد في تلك الأقاليم[٢] وفي خلال هذه الفترة وقعت معركة كبرى بين حسان وجموع البربر بقيادة «الكاهنة» بالقرب من جبال (أوراس) فانهزم المسلمون في المعركة، ووقع بعضهم أسرى في يد البربر، وتراجع بقية المسلمين إلى الشرق، واستطاعت الكاهنة الاستيلاء على البلاد مرة أخرى.

وقد حكمت الكاهنة شمال إفريقيا أربع سنوات، وفي هذه الأثناء أخذ المسلمون في الشرق يعدون العدة لفتح جديد لشمال إفريقيا فوصلت الأنباء إلى الكاهنة، وكانت تتصور أن محاولات الفتح الإسلامية هي مجرد غزوات للنهب والسلب، فأصدرت

---

١. ابن الأثير، الكامل،ج٤/٣٦٩.

٢. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٥٦. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٣٧٠.

أوامرها لجنودها لتخريب البلاد تخريبًا تامًا حتى لا يطمع فيها المسلمون فخربوا المدن وهدموا الحصون وقطعوا الأشجار وأتلفوا المزارع، حتى أصبحت البلاد خرابًا، فخرج أكثر الأفارقة إلى أسبانيا (الأندلس) وغيرها، وأما من بقي منهم فكانوا يتطلعون لقدوم المسلمين لإنقاذهم من هذا الخراب الظالم.[١]

وتحرك حسان بن النعمان في غزوته الثانية سنة (٨٠ هـ) فاستقبله الأفارقة والروم في المنطقة بالفرح والسرور، وكانوا يريدون تخليصهم من تسلط «الكاهنة»، واستمر حسان يزحف على البلاد حتى أدرك «الكاهنة» وجندها فوقعت بينهم معركة عظيمة في (برقة) انتهت بمقتل «الكاهنة» وتفرق جنودها سنة (٨٢ هـ)،[٢] فخلصت إفريقيا بقيادة «حسان» وأسلمت جموع كبيرة من البربر وكان فيهم ولدا «الكاهنة»، وأخذوا يغزون مع المسلمين حتى وصلوا إلى نواحي (موريتانيا) ـ حاليًا ـ واستمر المسلمون في تعليم البربر الإسلام وفتحوا لهم المساجد، فأقبلوا لي الإسلام بصدق وحماس وبدأ حسان ينظم إفريقيا، فدون الدواوين ونظم الخراج ومهد الطرق ووزع الحاميات، وعمل على إيجاد أسطول يمنع غارات الروم البحرية، وبعد استقرار الأمور في إفريقيا عُزل حسان بن النعمان سنة (٨٩ هـ) وعين بدلاً عنه (موسى بن نصير) بأمر الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك،[٣] وفي أيام موسى حاولت جماعات من البربر الخروج عن الطاعة، فتمكن موسى من تأديبهم وأعاد تنظيم البلاد،[٤] وزاد دخول البربر عن ذي قبل في الإسلام، فاستفاد منهم في الإدارة وعين بعضهم أمراء على قومهم، وأسكن جماعة من العرب في الغرب الأقصى، وعين مولاه (طارق بن زياد) على (طنجة) وأوكل إليه إدارة ما جاورها من الغرب،[٥] وأصبحت الأوضاع في أيام موسى مستقرة، وأصبح المسلمون في المنطقة من العرب أو البربر يتطلعون إلى فتوح جديدة.

---

١. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٥٧ ـ ٦١. ابن الأثير، الكامل، ج٤/ ٣٧٠، ٣٧١.

٢. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٦٤، وقد جعل موتها سنة ٧٤هـ على ما يبدو. ابن الأثير، الكامل، ج٤/ ٣٧١. وألمح إلى أنها قتلت بعد أربع سنوات من هزيمتها للمسلمين سنة ٧٤هـ.

٣. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٢. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج٤/ ٥٣٩.

٤. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج٤/ ٥٤٠.

٥. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٢. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٦٩.

## (هـ) فتح الأندلس «سنة ٩٢هـ»:

يعتبر فتح الأندلس امتدادًا لحركة الفتوح العامة التي كان باعثها الأول نشر الإسلام وتبليغه للناس، وقد كانت الظروف في عهد الوليد بن عبد الملك مواتية لنشاط الفتوح، حيث كانت الأحوال العامة للدولة الإسلامية مستقرة، مما أدى

إلى التوجه العام للجهود رسميًا وشعبيًا كما أن الأحوال في إفريقية كانت مستقرة ويتطلع من فيها من المسلمين إلى الجهاد، وكانت بلاد الأندلس ظلمًا شديدًا من ذلك الحكم، وسمعوا بما قام به المسلمون من تنظيم لإفريقية وحسن معاملة وعدل بين الناس، ولذلك تطلعوا إلى الدخول تحت حكم الإسلام وأحسوا أن في ذلك إنقاذًا لهم من الظلم الذي كانوا يعيشونه،[١] كما أن المسلمين كانوا يفكرون في فتح الأندلس منذ أيام عثمان بن عفان ﷺ، حيث وصلت إليها أساطيل المسلمين في تلك الفترة،[٢] يضاف لذلك أن كثير من البربر قد دخلوا في الإسلام عن اقتناع وتولى بعض منهم مهمات إدارية وعسكرية في شمال إفريقية فتحمسوا لنشر الإسلام ولفتح مناطق جديدة، فكانت الأندلس هي أقرب ما يمكن فتحه من البلدان بالنسبة لهم.

وقد بدأ موسى بن نصير والي إفريقية التفكير عمليًا بفتح الأندلس فأرسل سنة (٩١هـ) حلمة صغيرة قوامها (٥٠٠) رجل بقيادة (طريف بن مالك) عبرت إلى الأندلس ونجحت في ضرب بعض المواقع جنوبيها وتمكنت من العودة بسلام محملة بالغنائم، كان ذلك حافزًا لموسى لإعداد حملة كبرى لمباشرة الفتح.[٣]

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

١. انظر: ابن الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٧٣. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦٠، ٥٦١.

٢. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٣/٩٣.

٣. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٢٢٩، ٢٣٠.

## حملة طارق بن زياد:

كان «طارق بن زياد» أحد قواد البربر الذين يعتمد عليهم «موسى بن نصير» في إدارة شؤون شمال إفريقيا، وكان معروفًا بالشجاعة والديانة وحسن الإسلام،[1] فأسند إليه موسى بن نصير قيادة حلمة عسكرية مكونة من اثني عشر ألف مقاتل لمباشرة الفتح في الأندلس وقد عبر طارق بمن معه من الجند إلى الأندلس بمساعدة (يوليان) حاكم (سبتة) فنزل هو ومن معه من الجند أرض الأندلس، وغادرت السفن،[2] فخطب طارق في جنوده حاثًا لهم على الجهاد وابتغاء ما عند الله،[3] ثم باشروا فتح المواقع، والتقوا بجنود القوط في عدة معارك وفي هذا الوقت تحرك ملك الأسبان (لذريق) متجهًا إلى الجنوب على رأس جيش قوامه مائة ألف جندي والتقى مع المسلمين يقودهم «طارق بن زياد».

---

١. انظر ترجمته في: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤/٥٠٠.

٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٤. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ص ٧٤. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦٢. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٢٣١.

٣. تحدث كثير من المؤرخين عن إحراق طارق بن زياد للسفن وهي قضية غير ثابتة ولمزيد من التفاصيل راجع: د. عبد الحليم عويس: قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ، دار الصحوة القاهرة، ١٤٠٧هـ.

جبل طارق

حرب وادي بكه (٩٢هـ) و فتح المدينة شذونة

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

صخرة جبل طارق والمسجد من يوروبا بوينت في جبل طارق

## معركة وادي لكة (شذونة) (٢٨ رمضان ٩٢هـ):

كان معظم جيش طارق بن زياد من البربر ومعه ثلاث مئة فقط من العرب، وقد بعث «لذريق» ملك الأسبان أحد جواسيسه ليتوغل في صفوف المسلمين ويأتيه بالأخبار، وبعد فترة عاد إليه وقدم تقريرًا قال فيه: «لقد جاءك من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك حطوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ليس لهم في أرضنا مهرب ولا سفن يتعلقون بها».

وقد انزعج «لذريق» من التقرير وعبأ قواته لمقاومة المسلمين وكان قوام جيشه أربعين ألف مقاتل، مما اضطر طارق بن زياد لطلب النجدة من موسى بن نصير والي إفريقية فأمده بخمسة آلاف مقاتل فأصبح جيش المسلمين اثني عشر ألفًا[1] مقابل أربعين ألفًا من الأسبان الذين غرتهم أنفسهم واستعدادهم، وكانوا متأكدين من تغلبهم لدرجة أنهم قد اعدوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين حيث كان مع (لذريق) عربات تحمل الأموال وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت، وعلى جسمه حلة لؤلؤ،[2] ومعهم عدد من الدواب لا تحمل غير الحبال لكتاف الأسرى المسلمين، إذ لم يشكوا في انتصارهم على المسلمين وأسرهم

١. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦٢.

٢. الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقيه والمغرب، ص ٧٥. المقري التلمسانى، نفح الطيب، ج١/٢٢٣، ٢٤٠.

أو قتلهم،حيث كان جيش الأسبان أقوى تنظيمًا وأكثر عدة واستعدادًا، وأعلم منهم بالأرض ومسلكها، وأقرب إلى مصادر التموين وكانت كل العوامل المادية في صالحه.

وقد تجمع الجيشان في وادي لكة قرب شذونة جنوب غرب الأندلس وبدأت المعركة في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة ٩٥هـ واستمرت ثمانية أيام وأبلى المسلمون فيها بلاءً حسنًا، وقدموا ثلاثة آلاف شهيد أي قرابة ربع الجيش وصبروا وصابروا.

ولله در طارق بن زياد وهو يمثل تلك الجموع من المجاهدين قائلاً:

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

كان الجيش الإسلامي في هذه المعركة يتفوق بقوة العقيدة،[١] وحب الموت وطلب الشهادة والتماسك والثبات وإعداد ما استطاعوا من قوة مادية، وهذه الصفات تغلب على كل القوى المادية التي كانت في ظاهرها في صالح الأسبان، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ومقتل «لذريق» ملك الأسبان،[٢] وأسر الألوف منهم في الحبال التي أعدوها للمسلمين.

وكان من نتيجة المعركة أن أصبح الطريق سالكًا للمسلمين لفتح بقية الأندلس

١. انظر: عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٤.

٢. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦٣. المقري التلمسانى، نفح الطيب، ج١/٢٤٢.

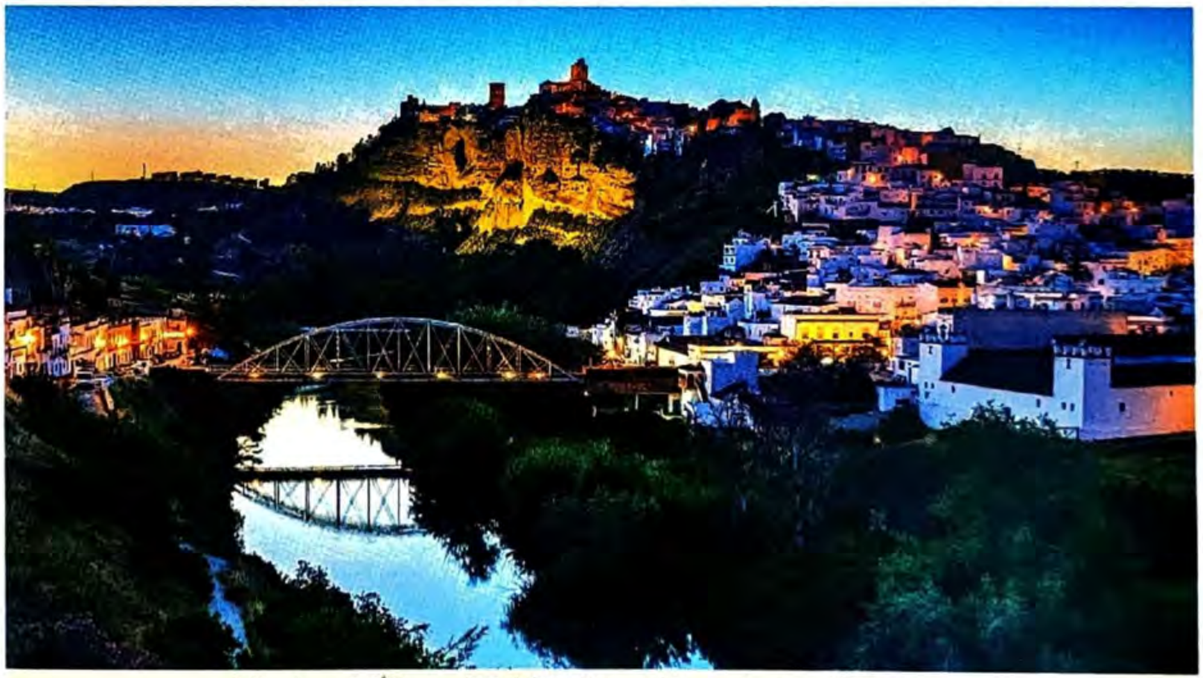

مشهد خلاب عند غروب الشمس في مقاطعة قادس، الأندلس، إسبانيا.

عمارة الأندلس في مسجد قرطبة (متاخرة)

ونشر الإسلام فيه، والملاحظ أن المسلمين كانوا يجدون التعاون والتشجيع من أهل البلاد الأصليين من الأسبان ضد حكامهم الأصليين، لما يعلمونه من عدل الإسلام وسماحة المسلمين.

ولم يكتف طارق بهذا النصر، بل سارع إلى فتح المدن الإسبانية رغم مقاومتها الشديدة للمسلمين، فتمكن من فتح (إشبيلية) و(قرطبة)، وانقسم جيش طارق إلى فريقين اتجه كل واحد منهما لفتح بعض المناطق والتقى الفريقان عند (طليطلة)، حيث تمكن المسلمون من فتحها.[1]

وفي هذه الأثناء كان طارق يكتب إلى موسى بن نصير بأخبار الفتح، فرأى موسى أن يشارك في ذلك الفتح بنفسه لينال الأجر والثواب ويساعد طارق في مهمته، وخصوصًا أن بلاد الأندلس كانت واسعة وتحتاج إلى قوات أكبر لفتح المواقع المتعددة والمنتشرة في أنحائها ولتثبيت فتوح طارق في المواقع التي حاول أهلها الانتفاض.

## حملة موسى بن نصير:

استخلف موسى أحد الأمراء على إفريقيا، وعبر إلى بلاد الأندلس ومعه عشرة

١. انظر: المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٢٦٥.

آلاف مقاتل، وكان ذلك في رجب سنة (٩٣هـ)،[١] وبعث الرسل يطلب من طارق التريث في الفتح وعدم العجلة فيه نظرًا لانتفاض بعض البلاد المفتوحة، وعمد موسى إلى سلوك طرق أخرى لم يسلكها طارق، حتى يتشرف بفتح مواقع جديدة، وقد عمل موسى على إعادة فتح (اشبيلية) بعد أن انتفضت ثم سار إلى (ماردة) حيث تمكن من فتحها بعد حصار دام عدة أشهر، ذهب فيه كثير من شهداء المسلمين، ثم نكث أهل (اشبيلية) العهد، فاضطر موسى إلى فتحها للمرة الثالثة ، ثم اتجه إلى (طليطلة)،[٢] حيث التقى مع (طارق بن زياد) بالقرب منها، ودار نقاش بين القائدين حول تفاصيل الفتوح القادمة، واتفقا على خطة معينة، ثم تابع القائدين فتوحهما في شمال إسبانيا، وأخذت المدن تتساقط تباعًا ومنها (سرقسطة) و (شقة) و (لاردة) في الشمال حتى وصل المسلمون (جبال البرانس) في شمال الأندلس عند الطرف الجنوبي لفرنسا،[٣] وهكذا تمكن المسلمون من فتح معظم إسبانيا. وقد أضطر (طارق بن زياد) و(موسى ابن نصير) سنة (٩٥هـ) لمغادرة الأندلس إلى بلاد الشام بناء على طلب الخليفة

١. انظر: الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والأندلس، ص ١٤٤، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٤٤. ابن الأثير ، الكامل، ج٤/٥٦٤. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٢٦٩.
٢. انظر: ابن الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والأندلس، ص ٧٨. ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص ١٤٧، ١٤٨، ١٥٥.
٣. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٢٦٩، ٢٧٣.

حديقة رسمية جميلة داخل قصر إشبيلية الملكي في فصل الصيف في الأندلس

القناة الرومانية القديمة ، إسبانيا

(الوليد بن عبد الملك)، وقد خلف موسى بن نصير ابنه (عبدالعزيز) على ولاية الأندلس،[١] فقام باستكمال الفتح في بعض المواقع شرق (الأندلس)،[٢] وقد بقيت بعض المواقع الجبلية في الركن الشمالي الغربي لبلاد الأندلس لم يفتحها المسلمون، مما جعل النصارى الأسبان يتجمعون فيها، ويكونون مع مرور الزمن قوة نصرانية أخذت تحارب المسلمين، وتعمل على طردهم من الأندلس.[٣]

وقد حاول المسلمون بعد فتح إسبانيا التقدم في فرنسا وغرب أوروبا من بلاد الأندلس. [٤]

---

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣٠٦. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٢. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦٦. ابن خلدون، العبر، ج٤/١١٨. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/ ٢٨٠.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج٤/٥٦٦. المقري، نفح الطيب، ج١/ ٢٨١.

٣. انظر: د. عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٢٥.

٤. لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع انظر: الأمير شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط.

## بلاط الشهداء (سنة ١١٤هـ):

استمر المسلمون في تنظيم شؤون الأندلس المختلفة، وتعاقب عليها ولاة مختلفون كان هَمّ معظمهم مواصلة الجهاد والفتح في مناطق جديدة وكان من أشهر هؤلاء الولاة (السمح بن مالك الخولاني) الذي أعد سنة (١٠٢هـ) جموعًا كبيرة من المجاهدين وعبر بهم جبال البرتات (البرانس) فاتحًا في جنوب غرب فرنسا أو ما عرف بـ (بلاد الفرنجة) أو (الغال)، وقد تمكن من فتح العديد من المدن والمواقع في تلك المنطقة ووصل إلى مدينة (تولوز)، وكان يرافقه في تلك الغزوة «عبد الرحمن الغافقي»، وقد دارت بين جيوش المسلمين وبين أمير إكتانيا «الدوق ديو» معركة شرسة استشهد فيها جموع كبيرة من المسلمين على رأسهم قائدهم «السمح بن مالك الخولاني» فقام «عبد الرحمن الغافقي» بتنظيم من تبقي من الجيش المسلم والانسحاب بهم جنوب جبال البرانس بعد أن أصيب عدد كبير منهم.[1]

وأصبح الوالي لبلاد الأندلس من بعده (عنبسة بن سحيم الكلبي) الذي واصل طريقة سلفه في الجهاد في تلك النواحي حتى أستشهد وهو غاز فيها سنة (١٠٧هـ)[2]

وبقيت الأندلس دون ولاة محددين حتى سنة (١١٢هـ)، حيث أصبح «عبدالرحمن الغافقي» واليًا على الأندلس وكان يرنو ببصره لإعادة الفتح في بلاد الفرنجة جنوب فرنسا، خصوصًا أنه كما ذكرنا سبق أن جاهد فيها زمن «السمح بن مالك الخولاني»

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١٥/٣ . شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص٧١. عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٨٥.

٢. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١٦/٣.

منظر لمدينة طليطلة، إسبانيا

كوليور مع القلعة القديمة وأبراج القلعة الملكية. (فرنسا)

فكسب خبرة ودراية في مجاهدة أهلها.

واشتهر عن الغافقي ورعه وتقواه وصلاحه وإيمانه القوي وكان يقول: لو كانت السموات والأرض رتقًا لجعل الله للمتقين منها مخرجًا.[1]

وأعد الغافقي جيشًا كثيفًا للجهاد وراء جبال البرانس في جنوب فرنسا وجهزه بما يحتاجه من سلاح وعتاد وتحرك به سنة (١١٢هـ)، وبدأ يخوض العديد من المعارك في المنطقة لمدة زادت على العام انتصر في العديد منها.[2]

كان الفرنجة خلال هذه الفترة بقيادة (شارل مارتيل) يعدون جيشًا قويًا لمواجهة المسلمين، حتى إذا أقبل الشتاء تصدوا للمسلمين في موقعة اشتهرت عند المسلمين باسم بلاط الشهداء وعند الفرنسيين باسم (تير بواتييه) نسبة إلى مدينتين فرنسيتين (بواتييه وتير) وقعت المعركة بالقرب منهما.

وكان جيش الفرنجة أقوى وأكثر عددًا وعدة من المسلمين وأعرف بطبيعة الأرض وأكثر استعدادًا لتحمل الجو البارد، ومع هذا فقد قاتل المسلمون ببسالة نادرة لعدة أيام وقد ظهرت بوادر انتصار للفرنجة على المسلمين فحاولوا الالتفاف على الأعداء واستشهد «عبد الرحمن الغافقي» قائد المسلمين ولما يكمل المسلمون استعدادهم في الالتفاف، مما هز جيش المسلمين ومع ذلك فقد حاولوا إعادة الكرة على الفرنجة ولكن الهزيمة حلت بهم فاستشهدت جماعة كبيرة منهم،[3] وقيل إنه لم ينج من المسلمين أحد.[4]

١. ابن الأثير، الكامل، ج٥/١٧٤.

٢. انظر: المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٣/١٦.

٣. انظر: د. عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٩٨.

٤. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٣/١٥.

شارل مارتل

وقد عولت المصادر الفرنسية كثيرًا على هذه المعركة واعتبرت أن الانتصار فيها على المسلمين قد أوقف تقدمهم في أوروبا الغربية.(١)

مع العلم أن المسلمين حاولوا العودة إلى جنوب فرنسا بعد الغافقي بل ونجحوا في إقامة بعض الإمارات في جنوب فرنسا.(٢)

ومن الجدير بالملاحظة أن الفتوحات في العصر الأموي كانت تنشط عندما تقل المشاكل داخل الدولة الإسلامية، والعكس صحيح، فحينما ينشغل المسلمون بالجهاد والفتوح تقل المشاكل الداخلية وحينما يتوقفون عن الجهاد تظهر الفتن والقلاقل، ويعد عصر معاوية رضي الله عنه عصرًا زاهرًا بالفتوح، كما يعد عصر (الوليد بن عبد الملك) العصر الذهبي للفتوح أيام الأمويين حيث فتحت مناطق جديدة في السند والأندلس وما وراء النهر، ومن خلال مقارنة العصر الأموي بما سبقه أو لحقه من العصور نجد أنه لا مثيل له في سعة الفتوح سوى ما حدث في عصر الراشدين قبله، أو في العصر العثماني في أزمان لاحقة فهذه العصور الثلاثة هي عصور الفتوح والمد الإسلامي الرئيسة.

١. انظر: إلى ما أورده شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص ٩٨، ١٠٢. و د. عبدالرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٩٩.

٢. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٤/١٨١.

تير بواتييه

٤ الفصل

# عصر الدولة العباسية

# الفتوحات في العصر العباسي (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ)

امتد العصر العباسي من سنة ١٣٢هـ حتى سنة ٦٥٦هـ، وقد تخلل ذلك العصر فترات قوة وفترات ضعف، كما أن السمة الغالبة لعصر الدولة العباسية كانت ظهور دول إسلامية مختلفة في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي، بعضها يدين بالولاء للخلافة الإسلامية وبعضها مستقل عنها تمامًا، بل ومعاد لها أحيانًا، ولكثير من هذه الدول فتوحها وحركاتها الجهادية الخاصة، وتعتبر الفتوح التي باشرها الخلفاء العباسيون أو أمراؤهم محدودة جدًا مقارنة بالعصور السابقة لهم أو اللاحقة، إلا أن العباسيين نجحوا في المحافظة على الدولة الإسلامية، وحدودها في غالب الأحيان، وهذا بالطبع استلزم منهم حروبًا وقائية ضد الروم بالدرجة الأولى، وضد غيرها من الدول المجاورة.

## (أ) الحروب مع الروم:

عاشت الدولة العباسية حروبًا مختلفة مع الروم، وخصوصًا في العصر العباسي الأول، ومن أهم الحروب التي دارت بين المسلمين والروم ما جرى في أيام هارون الرشيد (١٧٠هـ ـ ١٩٣هـ)، حيث عمل على تقوية الثغور الإسلامية مع الروم وعزلها وأسكنها الجنود،[١] وجعلها ولاية واحدة تمتد من الشرق إلى الغرب بمحاذاة الروم سميت (العواصم) وأكثر فيها الحصون،[٢] وكان المسلمون يغزون الروم صيفًا وشتاء

١. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٧١، ١٧٥.

٢. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩٤. الطبري، تاريخه، ج١٠/٩٨.

فيما عرف بالصوائف والشواتي منذ أيام الأمويين،[1] واستمر العباسيون على ذلك في عصورهم الأولى، وقد خرج الرشيد بنفسه سنة ١٨١هـ لغزو الروم،[2] مما جعل ملكتهم (إيرين) تدفع الجزية للمسلمين مقابل الصلح، ورضي الرشيد بذلك.

وفي سنة ١٨٧هـ أزيحت الملكة «إيرين» عن الحكم وعين مكانها (نقفور) ملكًا جديدًا على الروم، فنقض الصلح مع المسلمين، وكتب إلى هارون الرشيد يهدد ويتوعد قائلاً: من «نقفور» ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام (الرخ) ـ طائر ضخم يفترس الطيور ـ وأقامت نفسها مكان (البيدق) فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثاله إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فأردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

فلما قرأ الرشيد كتابه استشاط غضبًا حتى خشي من ذلك جلساؤه، ثم دعا بدواة كتب على ظهر كتاب «نقفور»: «بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير

١. البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٧.
٢. الطبري، تاريخه، ج١٠/٦٩.

المؤمنين إلى (نقفور) كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الفاجرة والجواب ما تراه دون ما تسمعه»[1]....!!!، ثم خرج الرشيد بالأجناد لقتال الروم في اليوم الذي وصل فيه الكتاب. وقصد (هرقلة) وهي من أكبر مدن الروم ففتحها، وغنم منها الغنائم وأخذ يصول ويجول في بلاد الروم حتى أضطر «نقفور» صاغرًا أن يوادع الرشيد ويعقد معه معاهدة جديدة، فرجع الرشيد من غزوته، إلا أن (نقفور) نقض المعاهدة وكان الرشيد ما يزال في الطريق والوقت شتاء، فخشي جلساء الرشيد من إبلاغه بنقض «نقفور» للعهد فطلبوا من أحد الشعراء إبلاغه بذلك من خلال قصيدة لعلها تخفف من غضبه وكان منها:

| | |
|---|---|
| نقض الذي أعطيته "نقفور" | وعليه دائرة البوار تدور |
| أبشر أمير المؤمنين فإنه | غنم أتاك به الإله كبير |
| فتح يزيد على الفتوح يؤمنا | بالنصر فيه لواؤك المنصور |

إلى آخر القصيدة التي ما أن سمعها حتى عاد أدراجه مرة أخرى للإيقاع بـ «نقفور» وجنده الروم فغزا وفتح العديد من المواقع مما دفع (نقفور) إلى طلب الصلح مرة أخرى، واستمرت جيوش المسلمين في الغزو في نواحي بلاد الروم حتى عاد الرشيد بنفسه لغزو بلاد الروم مرة أخرى سنة ١٩٠هـ وتمكن من فتح (هرقلة)

١. الطبري، تاريخه، ج١٠/٩٢. وانظر: الكامل، ج٦/١٨٤.

مباني بزنطية قديمة

مدرجات بزنطية

وهي من أعز مدن الروم عليهم ومسقط رأس (نقفور)، مما دفع «نقفور» إلى التذلل والخضوع للمسلمين وأقر بدفع الجزية عن نفسه وأهل بيته.

ومن أبرز الفتوح في عهد العباسيين ما قام به المأمون حيث خرج بنفسه لغزو الروم سنة ٢١٥هـ، وفتح ما يزيد على عشرين حصنًا من حصونهم،[١] مما دفع ملك الروم «تيوفلس» إلى طلب الهدنة مع المسلمين، وتأمين التجارة، ورد الأسرى من الجانبين. وفي سنة ٢١٨هـ قام المأمون بنفسه بغزو الروم بعد أن تلقى رسالة من ملكهم أغضبته، فرد المأمون على رسالته وعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، وكان مما قال المأمون في تلك الرسالة: «إني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية، والشريعة الحنيفة، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة بنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى».[٢]

فرفض ملك الروم الاستجابة مما دفع المأمون للاستمرار في الفتوح في بلادهم.[٣] وقد عزم المأمون على غزو القسطنطينية عاصمة الروم إلا أنه توفي في الغزو في

١. ابن الأثير، الكامل، ج٦/٤١٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠/٢٦٩.
٢. الطبري، تاريخه، ج١٠/٢٨٤.
٣. الطبري، تاريخه، ج١٠/٢٨٤.

رجب سنة ٢١٨هـ قبل أن يتم مشروعه.[١]

ثم بُويع المعتصم بالخلافة من بعده، وكانت الحرب دائرة بين المسلمين والروم، وفي الوقت نفسه قامت فتنة داخل الدولة العباسية تزعمها «بابك الخُرمي» أخذت تبث الفساد في نواحي (همذان) وما جاورها، وقتلت من المسلمين ما يزيد على مئة ألف، فانشغلت قوات الدولة العباسية في القضاء عليها[٢] وبالتالي استغل الروم الفرصة فهاجموا شمال الشام والجزيرة واستولوا على بعض مدنها وسبوا من نسائها، فصاحت امرأة ممن وقعن في الأسر: وا معتصماه .... وا معتصماه ...

فلما بلغ المعتصم هذا النبأ استعظمه، وصاح من فوره قائلاً: لبيك ....، ونهض من ساعته ونادى في جنده بالنفير وغادر بعد أيام بصحبته ما يزيد على مئة ألف جندي، قادهم بنفسه لغزو بلاد الروم، حيث أوقع الهزائم في جيوشهم، وتمكن من فتح العديد من المواقع، على رأسها (عمورية) مسقط رأس ملك الروم، حيث تمكن المعتصم من فتحها في رمضان سنة ٢٢٣هـ بعد حصار دام ستة أشهر.[٣]

وفي ذلك يقول الشاعر أبوتمام:[٤]

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسودالصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب
بيض الصفائح لاسودالصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصًا وأحاديثًا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
يايوم وقعت عمورية انصرفت ... منك المنى حفلاً معسولة الحلب
أبقيت جدبني الإسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب

١. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٤٧٦. الطبري، تاريخه، ج١٠/٢٨٤، ٢٩٥. ابن الأثير، الكامل، ج٦/٤٢٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠/٢٧١، ٢٧٤.

٢. انظر تفصيلات هذه الفتنة في: الطبري، تاريخه، ج١٠/٣١٤. ابن الأثير، الكامل، ج٦/٤٤٧، ٤٥١.

٣. انظر: الطبري، تاريخه، ج١٠/٣٣٤، ٣٤٣. ابن الأثير، الكامل، ج ٦/٤٨٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠/٢٨٦ (وانظر: د. عبد العزيز اللميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسة وأثره في قيام مدينة سامراء، ج١/٢٣٠ ـ ٢٤٤.

٤. انظر ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٣٠. و د. عبد العزيز اللميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية، ج١/٢٤١.

وبعد عصر المعتصم لم تنقطع المناوشات بين المسلمين والروم، بل استمرت الحروب، واستمر ضغط المسلمين على حدود الروم في الصوائف والشواتي، واستمر المجاهدون في المرابطة في الثغور لمدافعة الروم، غير أن هذه الحروب والغزوات لم تكن ذات تأثير كبير على أراضي الروم غير أنه كان لها قيمة كبيرة في المحافظة على الأراضي الإسلامية.

وفي منتصف القرن الرابع الهجري أيام (حكم بن حمدان) لبلاد الشام قام الروم بالإغارة على بلاد الشام والتخريب فيها عدة مرات فيما بين ٣٤٩ ـ ٣٥٨هـ،[1] إلى

١. انظر: الأزدي، أخبار الدولة الحمدانية، ص ٢٤. أحمد إسماعيل علي، بلاد الشام في العصر العباسي، ص١١٠.

أن ظهر السلاجقة،[1] على مسرح الأحداث في القرن الخامس الهجري بعد دخولهم بغداد في رمضان سنة ٤٤٧هـ،[2] فتمكنوا من تطهير بلاد الشام من الروم، وأخذوا يفتحون في بلاد الروم ويستوطنون بها.

## موقعة ملاذ كرد (سنة ٤٦٣هـ):

قام السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» في سنة ٤٦٣هـ بالجهاد في نواحي بلاد الروم وما جاورها إلى الشرق، فتمكن من فتح العديد من المناطق في أرمينية وجورجيا ومهد للإسلام في تلك المنطقة، مما أغضب الإمبراطور البيزنطي «رومانوس» فخرج في جمع كبير من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية، حتى قدر ذلك الجمع بثلاث مئة ألف جندي[3] أعدهم الإمبراطور لملاقاة السلطان السلجوقي الذي ما إن علم باقتراب الروم ومن معهم حتى استعد للأمر واحتسب نفسه ومن معه، وكان في قلة من أصحابه لا تقارن بعدد الروم وأتباعهم قيل إنهم قرابة خمسة عشر ألف.[4] ولم يكن لديه وقت لاستدعاء مدد من المناطق التابعة له وقال قولته المشهورة: «أنا احتسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطير الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي، ويومي خير من أمسي»[5] وهجم بمن معه على مقدمة الأعداء وكان فيها عشرون ألفًا معظمهم من الروس، فأحرز المسلمون عليهم انتصارًا عظيمًا وتمكنوا من أسر معظم قوادهم.[6]

---

١. يعود السلاجقة في أصلهم إلى قبائل الغز التي هاجرت من تركستان، وسموا بهذا الاسم نسبة إلى (سلجوق بن دقاق)، تكونت لديهم قوة كبيرة وأصبح لديهم سلاطينهم الخاصون، ولقوا قبولاً من الخلافة العباسية لاعتناقهم المذهب السني واحترامهم الظاهر للخلفاء، تمكنوا من السيطرة على خراسان سنة ٤٢٩هـ بعد نزاع مع الغزنويين، أخذت دولتهم تقوى واعترفت بهم الدولة العباسية، واخذوا يمدون سلطانهم على منطقة إيران ثم امتدوا إلى العراق إلى أن سيطروا عليها واستولوا على بغداد زمن السلطان السلجوقي «طغرل بن ميكائيل» سنة ٤٤٧هـ وأصبح اسم سلطان السلاجقة يذكر مقرونًا مع الخليفة العباسي وتحملوا مسؤولية مقارعة العدو الأول للمسلمين وهم الروم ومن جاورهم من نصارى أرمينيا وجورجيا وما حول تلك المناطق (انظـر: البنداري الأصفهـاني، مختصر تاريـخ دولـة آل سلجـوق، من ص ٧ ـ ٢٦، ود. عبدالمنعم حسنين، دولة السلاجقة، من ص ٢٢ ـ ٣٦).

٢. البنداري الأصفهاني، مختصر تاريخ آل سلجوق، ص ١٢.

٣. انظر: البنداري الأصبهاني، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٠.

٤. البنداري الأصبهاني، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٠.

٥. البنداري الأصبهاني، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٠.

٦. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٥. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/٢٦١. البنداري الأصبهاني، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٢.

رسم تخيلي جيش السلجوقي يقتحم البيزنطيين وحلفائهم في معركة ميريوكيفالون

ثم أرسل السلطان «ألب أرسلان» من قبله وفدًا إلى إمبراطور الروم وعرض عليه المصالحة ولكنه تكبر وطغى ولم يقبل ذلك العرض، وقال هيهات !! لا هدنة ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فُعل ببلاد الروم،[1] فأعد المسلمون العدة للقائه واجتمع الجيشان يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ، «فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع وقال لهم: نحن مع القوم تحت الناقص،[2] وأريد أن اطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر، فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيدًا إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحبًا عني فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم وغاز معكم، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة والغنيمة ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة، فقالوا: مهما فعلت تبعناك

١. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/٣٦١.

٢. هذه العبارة التي قالها ويقصد بها قلة العدد.

فيه وأعناك عليه».[1]

فبادر ولبس البياض وتحنط استعدادًا للموت وقال: أن قتلت فهذا كفني.[2]

ثم وقع الزحف بين الطرفين ونزل السلطان «ألب أرسلان» عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وأظهر الخضوع والبكاء لله تعالى وأكثر من الدعاء ثم ركب وحمل على الأعداء وصدق المسلمون القتال وصبروا وصابروا حتى زلزل الله الأعداء وقذف الرعب في قلوبهم، ونصر الله المسلمين عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم جموعًا كبيرة كان على رأسهم ملك الروم نفسه الذي أسره أحد غلمان المسلمين[3] فأُحضر ذليلاً إلى السلطان، فقرعه وذكره بما كان عرضه عليه من صلح وبرده القبيح على المسلمين، ثم إن السلطان أطلقه مقابل فكاك جميع أسرى المسلمين لدى الروم ودفع مقدار من الأموال جزية عن إطلاق الملك ومبلغ سنوي ثابت للمسلمين على الروم، وأن يرد الروم بعض ما أخذوه من أراضي المسلمين في الشام،[4] وكان هذا الانتصار الإسلامي من أهم الانتصارات على الروم وكسرت فيه شوكتهم وفرق قوتهم وحطم كبرياءهم ودفعهم إلى أن يأخذوا الحساب للمسلمين.

## (ب) فتوحات المشرق:

انشغل الخلفاء العباسيون الأوائل بقمع الفتن التي ظهرت في بلاد (السند) على يد الهنادكة والزط وغيرهم، وكانت تلك البلاد تعيش فترات من الاضطراب، ومع ذلك استمر مد الإسلام فيها. أما بلاد (سجستان) و(هِرات) وما جاورها فقد قامت فيها ثورة «المقنع» سنة ١٦١هـ فاستغل ملوك المناطق المجاورة تلك الثورات فقطعوا علاقتهم بالدولة العباسية،[5] وما إن انتهت ثورة المقنع حتى سارع ملوك (كابل) و(الصفد) و (طخارستان) و(فرغانة) و(خراسان) إلى إعلان الولاء للدولة العباسية سنة ١٦٣هـ.[6]

١. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/٢٦٢. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٦.
٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٦.
٣. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٦. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/٢٦٢.
٤. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/ ٦٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٠٠. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٥/ ٨٧.
٥. انظر: الطبري، تاريخه، ج٩/٣٣٨.
٦. انظر: الطبري، تاريخه، ج٩/٣٤٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠/١٤٥.

قلعة رانيكوت في السند

وفي عهد الرشيد قامت عدة ثورات في تلك المناطق، وخصوصًا من الأتراك تطلبت من المسلمين جهودًا عظيمة لإخمادها، أما في أيام المأمون فقد أكد على ولاته في (خراسان) بإكرام من أسلم من الأتراك، وغزو من لم يسلم منهم مما دفع ملوك الترك إلى الخضوع والطاعة، حتى أسلم كثير منهم في تلك الفترة،[١] فكان لهم مكانة خاصة في الدولة بعد ذلك خصوصًا أيام المعتصم.[٢]

وفي نهاية العصر العباسي وما بعده ظهرت دويلات إسلامية مختلفة في المشرق، استقلت عن الخلافة العباسية، مع اعتراف بعضها في أغلب الأحيان بالخلافة العباسية، مع أن هـذا الاعتراف الشكلي في كثيرٍ من الأحيان لم يمنع استقلال هذه الدولة شبة التام علن الخلافة العباسية، وقد تنازعت هذه الدول المشرق الإسلامي في فترات مختلفة، وأهمها: الدولة الطاهرية في خراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ)، والـدولة الصفارية في سجستان والهند (٢٥٤ ـ ٢٩٨هـ) ، والدولة السامانية في إيران (٢٦١-٣٨٩هـ)، والدولة الغزنوية في سجستان والهند (٣٥١ -٥٨٢هـ)، وكان لهذه الدول وحكامها المختلفين جهودهم الخاصة في الفتوح والجهاد.[٣]

١. انظر: د. عبد العزيز اللميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء، ج١/٢١٠.

٢. انظر: د. عبد العزيز اللميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء، ج١/٢٤١.

٣. لمزيد من التوسع في معرفة أحوال هذه الدول انظر: د. عصام عبدالرؤوف الفقي، الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.

## الغزنويون:

تعد فتوح (الغزنويين) من أهم الأحداث الجهادية في زمانهم، والتي نشروا من خلالها الإسلام في مناطق جديدة لأول مرة، ورغم أن (الغزنويين) كانوا مستقلين تمامًا عن الخلافة العباسية إلا أنهم كانوا يستمدون سلطتهم الاسمية من الخليفة العباسي حيث كانوا يعترفون بالخليفة ويدعون له، وفي الوقت نفسه ترسل مراسيم تعيين أمراء (الغرنويين) من بغداد.

المئذنتان القديمتان في غزنة في أفغانستان.

وقد كان (الغزنويون) في مبدأ أمرهم عمالاً للسمانيين[1] في إقليم (غزنة) في أفغانستان - حاليًا - ثم خلفوا الدولة (السامانية) بعد سقوطها، واتجهوا إلى الفتح في بلاد الهند، وكان «سبكتكين» (ت: ٣٨٧هـ)،[2] أول الملوك (الغزنويين)، وتمكن من فتح العديد من المناطق في بلاد السند، وخصوصًا في (البنجاب) ثم جاء من بعده ابنه محمود (ت: ٤٢١هـ)،[3] الذي غزا بلاد السند والهند ما يزيد على سبع عشرة غزوة، خلال سبعة وعشرين عامًا تمكن فيها من فتح (كشمير) و(لاهور) و(ملتان) و(كجرات)، كما حطم أعظم معبد للهنادكة في (سومنات) وبه صنم مشهور عندهم، وحينما فاوضه الهندوس على أن يدفعوا له ما يريد من الأموال مقابل تركه لهم سليمًا قال: أفضل أن أكون محطم أصنام بدلاً من أكون بائعًا،[4] وقد اهتم السلطان (محمود الغزنوي) بنشر

١. د. عصام الفقي، الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص ١٩، ٧٦، ٧٧.

٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧/٤٨٥.

٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧/٤٨٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/٥٢.

٤. ابن الأثير، الكامل، ج٩/١٣٠، ١٣٩، ١٤٧، ١٦٩، ٢٤٤. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨/٥٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٧/٤٨٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٤/٦٦٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥/١٧٦.

جامع في هرات ، أفغانستان

الإسلام والعلوم وإقامة العدل بين السكان حتى اعتبر بحق فاتح الهند واستحق ثناء المؤرخين بالدرجة الأولى كما أثنى عليه بعض مؤرخي الهنود رغم تحطيمه لمعتقداتهم الوثنية حيث وصفوه بالعدل والعلم ونشر الثقافة.[١]

## (جـ) الفتوح البحرية:

اعتنى العباسيون الأوائل بالثغور البحرية، في مصر والشام فحصنوها ضد هجمات الروم، وليستفاد منها في الغزو في بحر الروم ـ الأبيض المتوسط ـ، وبالفعل هاجم المسلمون بأساطيلهم العديد من جزر بحر الروم، كما هاجموا (القسطنطينية) أكثر من مرة عن طريق البحر إلا أن جهودهم الخاصة في هذا المجال كانت أقل بكثيرٍ من الدولة الأموية أو الدول المستقلة في شمال إفريقيا.[٢]

وقد نشأت دول إسلامية مختلفة في إفريقيا كانت تدين بالولاء للدولة العباسية قامت ببعض الفتوح في بحر الروم، من أهمها دولة (الأغالبة) في المغرب الأوسط تونس (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ) الذين اعتنوا بالأساطيل عناية كبيرة، ومن أهم عملياتهم

١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٤٩١/١. وانظر: إلى د. عبد الله الطرزي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب، ج٣٠٢/١، ٤٠٠، ٤١٩، ٤٢٣. د. عصام الفقي، الدول الإسلامية المستقلة بالشرق، ص ١٣٣.

٢. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: مجموعة من الباحثين، تاريخ البحرية المصرية، ص ٢٩٧. أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج٨٨/١. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٨.

البحرية فتح (صقلية) سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م وقاده قاضي (القيروان) وعالمها (أسد ابن الفرات) ومعه جماعة من المسلمين المتطوعة، حيث نزل بهم على سواحل صقلية وخطبهم ووعظهم مذكرًا إياهم بفضل الجهاد والعلم به والعمل له: وكان مما قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والله يا معشر المسلمين ما ولي لي أب ولا جد ولا رأى أحد الناس من سلفي مثل هذا، ولا بلغت ما ترون إلا بالأقلام فاجتهدوا أنفسكم فيها وثابروا على تدوين العلم تنالوا به الدنيا والآخرة ... وكان في يده اللواء وهو يزمزم، وأقبل على قراءة سورة «يس» ثم حرض الناس، وحمل وحملوا معه فهزم الله جموع النصارى، ورأيت أسدًا وقد سالت الدماء على قناة اللواء صار تحت أبطه...»[١] وقد استمر أسد بن الفرات غازيًا مع المجاهدين في قبرص متنقلاً من مكان إلى مكان حتى استشهد رحمه الله في الجزيرة سنة ٢١٣هـ،[٢] وقد واصل المسلمون من بعده تكرار فتحها بعد انتقاض عدة مرات حتى دانت لهم سنة ٢٦٤هـ[٣] كما استولى المسلمون

١. انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، م ١ ج٢/٤٧٧.
٢. انظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، م١ ج٢/٤٨٠.
٣. انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٣٧. ابن الأثير، الكامل، ج٧/٣٢٠. تركي العتيبي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية، ص ٢١.

على (مالطة) في ٢٥٥هـ،[1] وتمكنوا من الاستيلاء على بعض جزر المضائق المجاورة لإيطاليا، ونزلوا في البر الإيطالي[2] وبذلك فرضوا سيطرتهم على البحار المحيطة بإيطاليا الواقعة إلى الشمال من المغرب الأوسط، وهي ما يعرف بمضائق (مسينا Massina)، ثم تمكن المسلمون من النزول إلى السواحل الإيطالية الجنوبية مرات متكررة منها سنة ٣٢٩هـ،حيث فرضوا الجزية على أهلها[3] بالإضافة إلى العديد من المواقع الأخرى، وصار للمسلمين وجود في جنوب إيطاليا فيما عرف بـ (قلورية). وقد

١. الحميري، الروض المعطار، ص ٥٢٠.
٢. ابن الأثير، الكامل، ج٦/٢٣٧.
٣. الحميري، الروض المعطار، ص ١٠٢. وانظر: تركي العتيبي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية، ص ١٨.

فتح صقلية (٢١٢ هـ) ، مالطه (٢٥٦هـ)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

تبع الاستيلاء على المناطق البحرية انتشار الإسلام بين أهلها، حيث استمر المسلمون يحكمون تلك المناطق حتى منتصف القرن الخامس الهجري وكان منها بعض العلماء المسلمين المشهورين[1] وبقيت الجاليات الإسلامية في تلك المناطق لعدة قرون تالية. وما يزال تأثيرهم في عادات أهالي تلك المنطقة وأطعمتهم واضحًا.

## (د) موقعة الزّلاّقة (رمضان ٤٧٩هـ):

عاشت الأندلس فترة طويلة تحت حكم بني أمية منذ أيام عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨هـ حتى سقطت دولة بني أمية سنة ٤٠٠هـ،[2] نتيجة للضعف الداخلي والضغط الخارجي وخصوصًا من الدولة الفاطمية وحلفائها ومن تعاونت معهم من قوى نصارى الأندلس وأصحاب العصبية فيها.

كان حال الأندلس بعد سقوط دولة بني أمية في أواخر القرن الرابع الهجري كما وصفها المقّري التلمساني في كتابه: «نفح الطيب» (وانقطعت الدولة الأمويّة من الأرض، وانتثر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خُطّتها، وتغلّب

١. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/٣٩٢. ابن الأثير، الكامل، ج٨/٧٢. انظر تفصيلات أكثر عند: تركي العتيبي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية.

٢. عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ١٣١، ٣٢١.

بَعْضهم على بعض، واستقل أخيرًا بأمرائها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزي للطاغية - ملك النصارى - أن يظاهر عليهم أو يبتزهم ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان).[1]

وأصبحت أرض الأندلس مقسمة بين ملوك الطوائف المتناحرين الذين كان يقدمون العصبية على غيرها ومصالحهم الشخصية والقبلية على مصالح الأمة حتى أن بعضهم استعان بالأعداء من نصارى الأندلس لضرب المسلمين في الإمارات الأخرى المجاورة والمتناحرة، وأصبح كل منهم يهتم بألقابه وبالقشور والمظاهر على حساب القوة الحقيقية، وغاصوا في الشهوات والملذات والترف والنعيم وكان شعار كثير منهم:

دوزن العـود وهـات القدحـا
راقـت الخمـرة والـورد صحـا

وكان وضع أمراء وملوك الطوائف ينذر بعاقبة وخيمة كما قال الشاعر:

أمـور يضحـك السـفهاء فيهـا
ويبكـي مـن عواقبهـا الحليـم[2]

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٤٣٨.

٢. مصطفى عبد الواحد، كيف ضاعت الأندلس، ص ٨.

وزاد بعضهم في التكبر والغطرسة حيث قال فيه أحد الشعراء:

انظرونا نقتبس من نور لهم
أنه من نور رب العالمين

وبدلاً من عقابه أجزل له العطايا والهبات.[1]

وزادت الفرقة والعدواة بين تلك الوصال الممزقة حتى قال الشاعر:

ما بال شمل المسلمين مبدد
فيها وشمل الضد غير مبدد

كما قال الآخر:

وتفرقوا شعبًا فكل محله
فيها أمير المؤمنين ومنبر

وفي الوقت نفسه كانت صفوف نصارى الأندلس تتوحد وكان أمرائهم يستعدون ويتعاونون للقضاء على المسلمين وطردهم من الأندلس، وأصبحت المقارنة بن الفريقين صعبة وإن حدثت فهي كما قال الشاعر:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم
حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنهم بها
لو لم يكن ببطرنة ما كانا[2]

حتى أصبح الخطر يهدد جميع المسلمين في الأندلس حيث كانت القوة عندهم شعارات ومظاهر، كما قال الشاعر أبورشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس
أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب ممالك في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخًا صورة الأسد[3]

في هذا الوقت كانت دولة المرابطين في المغرب قد ظهرت بزعامة «عبدالله بن ياسين» وقيادة: أبي بكر بن عمر اللمتوني».

---

١. أحمد مختار العبّادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٨٠.

٢. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٤/٣٥٩.

٣. العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٤٦٩.

واستكملت قوتها ومكانتها بقيادة «يوسف بن تاشفين» الذي أدرك الخطر على الإسلام في الأندلس حيث تصله أخبارها ويقابل علمائها ويسمع عن سقوط مدنها الواحدة تلو الأخرى على يد نصارى الأندلس وفي الوقت نفسه يخشى أن يصطدم بأمرائها المسلمين.

وفي الوقت نفسه سقطت طليطلة في يد نصارى الأندلس بقيادة «الفونسو السادس» سنة٤٧٥هـ، وهي من أهم مدنها فأجرموا بحق أهلها وأنشد ابن عسال قصيدته المشهورة منها:

يا أهل أندلس شدوا رواحلكم
فما المقام فيها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيات في سفط

كان هذا في وقت أنشغل حاكمها المسلم ببناء القصور.[1]

رغم انتقاد أحد الشعراء له بقوله:

أتبني بناء الخالدين وإنما
بقاؤك فيها لو عقلت قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية
لمن كل يوم يقتفيه رحيل

وفي هذه الأثناء عزم صاحب قرطبة (المعتمد بن عباد) مع قلة من مشجعيه من أمراء الأندلس الكتابة إلى (يوسف بن تاشفين) في المغرب وطلب النجدة منه، وقد حاول بعض ملوك الطوائف منعه من ذلك خشية على ضياع ملكهم، إلا أنه أصر على طلب المساعدة قائلاً لأن أرعى الجمال «ليوسف بن تاشفين» أحب إليَّ من أرع الخنازير في (قَشتاله) للنصارى[2] كما قال أن استندت إلى «ابن تاشفين» أرضيت الله

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٤/٣٥٣.
٢. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٤/٣٥٩.

مدينة قشتالة في إسبانيا

ولو زال مكلي وإن استندت إلى «الأذفونش» اسخطت الله،[1] وكان لعلماء الأندلس دور في إقناعه بالاستنجاد «بيوسف بن تاشفين».[2]

فلما وصل طلب النجدة إلى (يوسف بن تاشفين) عزم على إنقاذ مسلمي الأندلس، وأعد العدة لذلك.

فلما بلغ الأمر (الفونسو السادس) ملك النصارى، حاول ثني (ابن تاشفين) بتخويفه وتهديده فرد عليه بقصيدة المتنبي:

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٤/٣٥٩.
٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠/١٥٢.

ولا كتـب إلا المشـرفية والقنـا
ولا رسـل إلا بالخميـس العرمـرم

فأعد «الفونسو السادس» جيوشه استعدادًا للمرابطين الذين عبروا إلى الأندلس بقيادة «ابن تاشفين» وبمعاونة المعتمد بن عباد وأمنوا مواقعهم وأكملوا أسلحتهم ورجالهم وانضم إليهم المتطوعون من مقاتلي الأندلس المسلمين، وفي الوقت نفسه جمع (الفونسو السادس) قواته وفك الحصار عند مدن الأندلس وتقدموا حتى أتوا أرضًا يقال لها الزَّلّاقة وتسمى بالاسبانية (Sagravas)[1] وعسكر بالقرب منها جيش نصارى الأندلس الذي قدر عدده بـ (٥٠,٠٠٠) ألف مقاتل.

وفي يوم الجمعة العشر الأوّل من شهر رمضان سنة ٤٧٩هـ وقعت معركة شرسة كانت بدايتها ضربة مفاجئة للمسلمين الذين صمدوا واستبسلوا وكان من أشجعهم (المعتمد ابن عباد) الذي أصابته جراح كثيرة، فأعاد المسلمون تنظيم صفوفهم واستبسلوا في القتال، وقتل في المعركة جمع كبير من نصارى الأندلس وانتهت بالنصر عليهم واضطر (الفونسو السادس) إلى الانسحاب مع قلة من فرسانه إلى أحد الجبال المجاورة حتى أمن قليلاً فعاد أدراجه مهزومًا مخذولاً بعد أن قضي على معظم جيشه، وبدأ المسلمون يستعيدون سيطرتهم على بعض المناطق من جديد وعادت هيبتهم وأعتبر الكثيرون أن هذه المعركة بمثابة فتح جديد للأندلس وقد عاد بعدها (يوسف بن تاشفين) إلى المغرب مرة أخرى.[2]

❁❁❁

١. أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص٥٢٠، (والزّلّاقة من بلد بطليُوس وهي اليوم (Badajoz).
٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠/١٥٣.

الفصل ٥

# عصر الحروب الصليبية

# عصر الحروب الصليبية

يعتبر عصر الحروب الصليبية ضمنيًا داخلاً في عصور إسلامية مختلفة فأوله داخل ضمن العصر العباسي (العصر السلجوقي) وآخره داخل ضمن العصر المملوكي، ويتخلل ذلك العصر الأيوبي، ولكن نظرًا لأن هناك جامعًا مشتركًا لذلك العصر هو الصراع الإسلامي الصليبي، والذي خاضه المسلمون في بلاد الشام ومصر مع قوى الفرنجة ونصارى المنطقة، وهذا الصراع طغى على أحداث ذلك العصر، فتركزت حركات الفتح والجهاد بالدرجة الأولى ضد الصليبين، وتوقفت الفتوح الجديدة وأصبح المسلمون إما في حال دفاع عن بلادهم ضد الغزو الصليبي، أو على أحسن حال يحاولون استرداد ما أخذه الصليبيون من بلاد المسلمين.

رغم أن أول حملة صليبية قدمت إلى الديار الإسلامية كانت أثناء وجود الخلافة العباسية في بغداد إلا أن هذا الوجود كان وجود شكليًا بالدرجة الأولى، فقد كانت هناك العديد من الإمارات والدويلات الصغيرة والمتناثرة والمتصارعة في بعض الأحيان في بلاد الشام بل وفي شمال العراق نفسه وهو مقر الخلافة العباسية، وكانت الخلافة تضفي شيء من الشرعية على تلك الدويلات وذلك الانقسام.

فقد كان في كل من (الموصل) و(حران) و(ميافارقين) و(طرابل) و(صوص) و(شيزر)

وغيرها،[١] إمارات صغيرة مستقلة. ولكنها ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها.

وقد كان السلاجقة يسيطرون على الخلافة العباسية في بغداد، وفي الوقت نفسه تسيطر أقسام منهم بجيوشهم التركمانية على منطقة شمال الشام تركيا حاليًا بعد أن استولوا على أجزاء كبيرة من الأراضي الرومية (البيزنطية).

١. لمزيد من التوسع حول معرفة أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي راجع: د. حامد أبوسعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، الجزء الأول، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧١م. وكذلك د. سهيل زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، بيروت، ١٤١٠هـ. انظر: الخارطة المرفقة في هذا الكتاب.

## الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس:

تحرك الصليبيون لأول مرة من أوروبا بعد الدعوة التي وجهها البابا (أوربان الثاني Urban II)،[1] والتي حملها إلى مختلف أنحاء أوروبا (بطرس الناسك) فسارت وراءه جموع من الأوروبيين قدرت الدفعة الأولى منهم بخمسة عشر ألفًا، ثم تزايد عددهم حتى وصل إلى خمسة وعشرين ألفًا كانوا يشقون الأراضي الأوروبية من الشرق للغرب، ورغم أنهم كانوا يسيرون في أراضي نصرانية فإنهم كانوا يخربون ما يمرون به من أماكن ويقتلون الناس ويسيئون معاملتهم، فقتل منهم ألوف على أيدي الأوروبيين قبل أن يصلوا إلى القسطنطينية،[2] وهي معبرهم إلى الشرق

١. لمزيد من التوسع عن هذه الدعوة وكيف جرت، وما حملته من نتائج انظر: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة الصليبية الأولى إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، دار الشرق، عمان، الأردن، ١٩٩٠م، ص ٣٢ وما بعدها. وكذلك وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/١٦ وما بعدها.

٢. انظر، وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/١٨١.

قصة حرب تحرر من الصليبيين تواصلت قرنين فبدأها الزنكيون ورسخها الأيوبيون وحسمها المماليك .. (الجزيرة نت)

الإسلامي، وقد وصلت جموعهم الأولى إلى القسطنطينية فيما عرف بحملة العامة في شهر رجب من سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، وقد أحسن نصارى القسطنطينية على رأسهم الإمبراطور البيزنطي استقبالهم وقدموا لهم المساعدات ونصحوهم بعدم التعجل في العبور، وبمزيد من الاستعداد، ولكن زعماء تلك الحملة، لم يستجيبوا للنصح، وأكثروا من الإفساد في نواحي القسطنطينية، فقام البيزنطيين بمساعدة الصليبيين على العبور إلى الجانب الشرقي للبسفور، في طريقهم إلى بلاد الشام، وعاثوا فسادًا في الأناضول وآذوا المسلمين والنصارى في تلك المنطقة واقتربوا من مناطق السلاجقة وحاولوا الهجوم على قونية أحد مدنهم، ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد، حيث هاجموا تلك الجموع الغوغائية وأبادوهم ولم يبق من مجموعهم سوى ثلاثة آلاف شريد من بين خمسة وعشرين ألفًا وبذلك فشلت هذه الحملة الغوغائية التي قادها بطرس الناسك وعرفت بحملة العامة، وقد نجا بطرس نفسه من القتل.

الموجه الثانية في الحملة الصليبية الأولى عرفت باسم حملة الأمراء وكانت أكثر تنظيمًا واستعدادًا من سابقتها، وضمت عددًا من الأمراء الأوروبيين، الذين قدموا في أوقات متفرقة من أوروبا ومعهم أعداد كبيرة من الفرسان والجنود المدربين، كما كانوا بحكم عملهم السياسي أكثر تنظيمًا واستعدادًا للتعاون مع الإمبراطور البيزنطي، مما أكسبهم دعمه المتواصل وقد استطاع أولئك الأمراء عبور البسفور متوجهين إلى الأناضول وخاضوا عدة معارك مع الأمراء السلاجقة انتصروا في معظمها واستطاعوا الاستيلاء على عدد من مدن الأناضول وعلى رأسها (نيقية).[1]

ثم بعد ذلك انقسموا إلى قسمين رئيسين أحدهما اتجه شرقًا يقوده «بلدوين»، وكان هدفه مدينة الرها التي كان للأرمن وجود كبير فيها وبالتالي فقد ضمن الصليبيون ولاءهم ومساعدتهم، وتمكنوا من الاستيلاء على الرها وتأسيس أول

١. فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٤٦. فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ج١/٢٢٩. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٢٧٤.

# أول أرب حملا

الدول المسيحية (١٠٩٦م الى ١٢٠٤م)
الدول الإسلامية (١١٤٧م الى ١٢٠٤م)
الحملة الصليبية الأولىٰ (١٠٩٦م الى ١٠٩٩م)
الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧م الى ١١٤٩م)
الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩م الى ١١٩٢م)
الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢م الى١٢٠٤م)
روسيا
أوروبا
پولند
الأمبرا
أوكرانيا
المجر
رومانيا
القرم
بحر قزوين
جبل القفقاس
بلغراد
نهر الدانوب
بلغارية
الصرب
أذربيجان
القسطنطينية
بلقان
الأناضول
ايران
(فارس)
السلاجقة
الامبرا
اطورية
البيزنطية
انطاكية
قبرص
دمشق
الخلافة العباسية
اقريطش
بحرالروم
(الأبيض المتو
بيت المقدس
العرب
طرابلس
الخلافة الفاطمية
20°E
40°E

## صليبية (١٠٩٦م - ١٢٠٤م)

أمارة صليبية فيها وذلك سنة ٤٩٠هـ والتي أخذت بالتوسع التدريجي على حساب المناطق الإسلامية المجاورة حتى أصبح لها شأن يذكر.

أما القسم الآخر فقد اتجه غربًا يقوده (بوهمند) وكانت وجهته أنطاكية، وقد كانت تحت حكم الأمير (ياغي السلجوقي) الذي استمات في الدفاع عن المدينة، وقد حاصره الصليبيون ما يزيد على تسعة أشهر وهو صامد في وجوههم، وقد حاول عبثًا الاستنجاد بالمسلمين في دمشق وحلب وبغداد وغيرها ولكن الأوضاع الإسلامية كانت ضعيفة والخلافات كانت قوية وبالتالي لم تصله مساعدات ذات شأن، كما ذكر المؤرخون أنه جرى اتصال بين الصليبيين والفاطميين على منع المساعدات عن أنطاكية حتى تسقط بأيدي الصليبيين في الوقت الذي يسمح فيه الصليبيون للفاطميين بالاستيلاء على بيت المقدس من أيدي الموالين للعباسيين،[١] وبعد عدة معارك وحصار طويل قام أحد الأرمن بخيانة الأمير السلجوقي، وفتح أبواب أنطاكية للصليبيين فدخلوها، وأعملوا فيها القتل والنهب، ولم ينج من المسلمين إلا القلة مما أرعب المسلمين في المناطق المجاورة،[٢] ودفع كثير منهم إلى الرحيل وترك المنطقة مما يسر على الصليبيين التحرك إلى الجنوب أكثر من ذي قبل، وبذلك تأسست الإمارة الصليبية الثانية في أنطاكية تحت زعامة (بوهمند)، وأصبح لدي الصليبيين قاعدتين رئيسيتين في الشمال الشرقي والشمال الغربي من بلاد الشام.

أقام الصليبيون في أنطاكية تسعة أشهر ثبتوا فيها أقدامهم وجاءتهم مزيد من الإمدادات، ثم قرروا التوجه جنوبًا نحو هدفهم المنشود بيت المقدس، وفي الطريق إليها استولوا على العديد من المواقع ومنها معرة النعمان التي قتلوا جميع سكانها في مذبحة همجية،[٣] ثم واصلوا مسيرتهم ومروا على طرابلس وبيروت وصور وغيرها من المواقع، وقد كان نصارى الشام وخصوصًا نصارى لبنان يستقبلون الصليبيين مرحبين بهم ومهنئين لهم ومثنين عليهم، كما كانوا هم أدلاءهم ومرشديهم في

١. ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة ٤٩١هـ، ج١٠/٢٧٣. وانظر: د. حامد غنيم أبوسعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج١/١٤٦. الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص١١٩. د. المعاضيدي وآخرون، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٣٩. وليم أسقف صور، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج١/٣٩٤.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج ١٠/٢٧٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٥٥. وانظر: فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٥٧. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج ١/٢٩٩.

٣. د. سهيل زكار، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٥٠.

طريقهم إلى بيت المقدس وكان الصليبيون يسمونهم المؤمنون من أهل المنطقة،[1] حتى أوصلوهم إلى القدس، وكان الفاطميون قد انتزعوها من السلاجقة معاندة للعباسيين قبل الهجوم الصليبي بعدة أشهر، وحاولوا نشر مذهبهم الباطني فيها، وقد حاولت عبثًا حاميتها المقاومة، وطلبت المدد من القاهرة ولكنها لم تستجيب، وفي الوقت نفسه كانت الإمدادات تصل باستمرار إلى الصليبيين وهم يحاصرونها مما زاد من قوة الصليبيين وأضعف من مقاومة حامية بيت المقدس، وقام الصليبيون بعمل أبراج خشبية تمكنوا بها من اقتحام أسوار القدس، ودخلوا المدينة واحتلوها وقتلوا من فيها من المسلمين حتى قيل أنهم قتلوا في ساحة المسجد الأقصى أكثر من سبعين ألف،[2] يقول أحد مؤرخي الصليبيين: «اندفعوا هنا وهناك خلال شوارع ومساحات المدينة مستلين سيوفهم، وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودون تمييز ، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان، وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذر الانتقال على الفور من مكان لآخر إلا على جثث المقتولين، وكان القادة قد شقوا في وقت سابق طريقًا لهم بواسطة مسالك متنوعة إلى مركز المدينة تقريبًا وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لا يوصف، وتبع موكبهم حشد من الناس متعطش لدماء الأعداء ومصمم تصميمًا كاملاً على إبادتهم».[3] ويقول في موضع آخر من كتابه: «ولقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جدًا وكان سفك الدماء رهيبًا جدًا لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز»،[4] ويقول في موضع آخر مصورًا فيه بشاعة الصليبيين وجرائمهم في بيت المقدس: «كان القسم الأكبر من الناس قد التجأ إلى ساحة الهيكل لأنها واقعة في قسم منعزل من المدينة، وكانت محمية حماية قوية بسور وأبراج وبوابات إلا أن هروبهم لم ينقذهم حيث تبعهم «تانكرد» على الفور بالجزء الأكبر من الجيش، وشق طريقه إلى داخل الهيكل، ونقل معه حسب إحدى الروايات بعد مذبحة مخيفة كمية ضخمة من الذهب

١. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/٣٩٨، وص ٤١٧.
٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٢٨٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٥٦.
٣. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/٤٣٥.
٤. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/٤٣٦.

والفضة والجواهر، هذا ومن المعتقد أنه أعاد هذه الكنوز سالمة بعد أن كان الصخب قد هدأ.

وعلم القادة الآخرون، بعد أن كانوا قد قتلوا من واجهوا في الأجزاء المختلفة من المدينة أن كثيرًا منهم قد هربوا للالتجاء في الأروقة المقدسة للهيكل، ولذلك اندفعوا بالإجماع إلى هناك ودخلت مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة قتلت جميع الذين كانوا قد التجأوا إلى هناك. ولم تظهر أي شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بدم الضحايا، لقد كان بالفعل حكم الله القويم الذي قضي على الذين دنسوا حرم المسيح بطقوسهم الخرافية، وجعلوه مكانًا غريبًا بالنسبة لأهله المؤمنين أن يكفروا عن خطاياهم بالموت وأن يطهروا الأروقة المقدسة بسفك دمائهم.

وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الاتجاهات هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم. إنه منظر مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجههم، ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط قرابة عشرة آلاف من الكفرة بالإضافة إلى المطروحين في كل مكان من المدينة والشوارع والساحات حيث قدر عددهم أنه كان مساويًا لعدد القتلى داخل حرم الهيكل.

وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثًا عن التعساء الباقين على قيد الحياة والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسحب هؤلاء على مرأى الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل، حتى قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم، وجميع أسرهم وقتلت هذه الضحايا، أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي، وادعى واحد من المغيرين ملكية دائمة للمنزل الذي كان قد اقتحمه، وذلك بالإضافة إلى تملك كل ما كان موجودًا فيه، لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة أن كل رجل يحصل على شيء بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يكون حقًا له وملكًا إلى

قبة المسجد الأقصى المبارك محاطة بالأسوار في مدينة بيت المقدس القديمة

الأبد دون إزعاج، ونتيجة لهذا فتش الحجاج المدينة بدقة قصوى وقتلوا سكانها بجرأة وتغلغلوا في أكثر الأماكن عزلة وبعدًا واقتحموا غرف الأعداء الخاصة جدًا، وعلق كل منتصر درعه وأسلحته عند مدخل البيت الذي استولى عليه كإشارة لكل من يقترب منه حتى لا يتوقف عنده بل ليتجاوز ذلك المكان لأنه أصبح ملكية لشخص آخر»،[1] قد ذكر مؤرخ آخر يصف شيئًا من فظائع النصارى في بيت المقدس ويقول: «وبعد فوزهم بالنصر العظيم وبعد الحرارة والخوف وسفك الدماء في اليومين أو الثلاثة الأخيرة في حالة شعور مفرط هستيري تقريبًا، وبعد ذلك لم يشكوا لحظة في أن المسلمين المدافعين عن القدس كانوا كارهين للرب ومدنسين للأماكن المقدسة وعاملين لدى أعداء المسيح وعابدين لشيء بغيض في مكان مهجور ذكر في الإنجيل، ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامين، وهم يرون أنهم كانوا ينفذون إرادة الرب، ودامت المذبحة طوال الليل، وقسمًا من الليلة التالية. وعندما ذهب الراهب «ريموند أوف أغليرز» لزيارة منطقة الهيكل في صباح اليوم التالي وجدها قفراء مليئة بالجثث، بحيث أن المسجد الأقصى وعلى لوائه يرفرف علم «تانكرد» وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين، الذين وصلت

١. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/٤٣٦ ـ ٤٣٧.

دماءهم لمستوى الركب، أما الناجون وحدهم من المدينة فكانوا الحاكم وطائفة من حرسه الذين سمح لهم «ريموند» بمغادرتها بعد دفع فدية ضخمة وتسليم خزائن هائلة، وذبح الباقون بما فيهم اليهود الذين حشدوا في معبدهم الرئيس ثم أضرمت النار في المبنى وهم أحياء، وعندما لم يبق من يقتلونه سار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي ما تزال مفروشة بالجثث وتفوح منها رائحة الموت، إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر للرب لرحمته العظيمة المتنوعة، ومن أجل انتصار الصليب الذي فازوا بها باسمه».[١]

هذا كلام المصادر الصليبية وقد حرصت على أن أنقل هذا الكلام من مصادر النصارى التاريخية، وهم بلا شك يحاولون تخفيف ما حدث وإلا ففي المصادر الإسلامية أعظم مما ذكر بكثير ولكني آثرت أن أكتفي بذكر ما أوردوه عن أنفسهم من هذا العمل[٢] وعلينا أن نتذكرها هنا كيف دخل عمر بن الخطاب ﷺ بيت المقدس ولم يرق قطرة دم واحدة ولم يعتد على كنائسهم، ولا على حقوقهم بل ضمنها لهم واستمر المسلمون يراعون معاهدة عمر بن الخطاب ﷺ حتى لحظة استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وذلك في يوم جمعة من سنة٤٩٢هـ[٣] الموافق ١٥ حزيران ١٠٩٩م.[٤]

أما المسجد الأقصى نفسه فقد اقتطعوا محرابه وجعلوه مكانًا للقمامة والخنازير،

---

١. أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

٢. للاطلاع على بعض ما كتبته المصادر الإسلامية عن هذه الحادثة انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٢٣٤ . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥/١٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٥٦. وانظر: د. فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١١٣. سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ١٦٨. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٧.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٥٦.

٤. انظر: سعيد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ١٦٨.

وهدموا في مبنى المسجد وجعلوا بعضها مساكن لهم، وبنوا فيه أبنية أخرى تخدم قسسهم ورهبانهم ومنع المسلمون من الصلاة فيه، هذا إن كان بقي مسلمون.(1)

وباستيلاء الصليبيين على بيت المقدس أسسوا المملكة الصليبية اللاتينية الثالثة فيها، وبدأوا يمدون سلطانهم خلال السنوات الأولى من حكمهم لبيت المقدس على بعض المناطق المجاورة في فلسطين والساحل الشامي فاستولوا على نابلس وعكا وقنسرين مما ساعد على تثبيت أقدامهم، كما حاولوا لعدة سنوات الاستيلاء على طرابلس، ولم ينجحوا في ذلك إلا سنة ١١٠٩م. ثم استولوا على بيروت وبانياس وصيدا، ولم تأت سنة ٥٠٤هـ إلا وكان الصليبيون يسيطرون على معظم الساحل الشامي، وفشل أهل المناطق في الاستنجاد بالفاطميين وهم

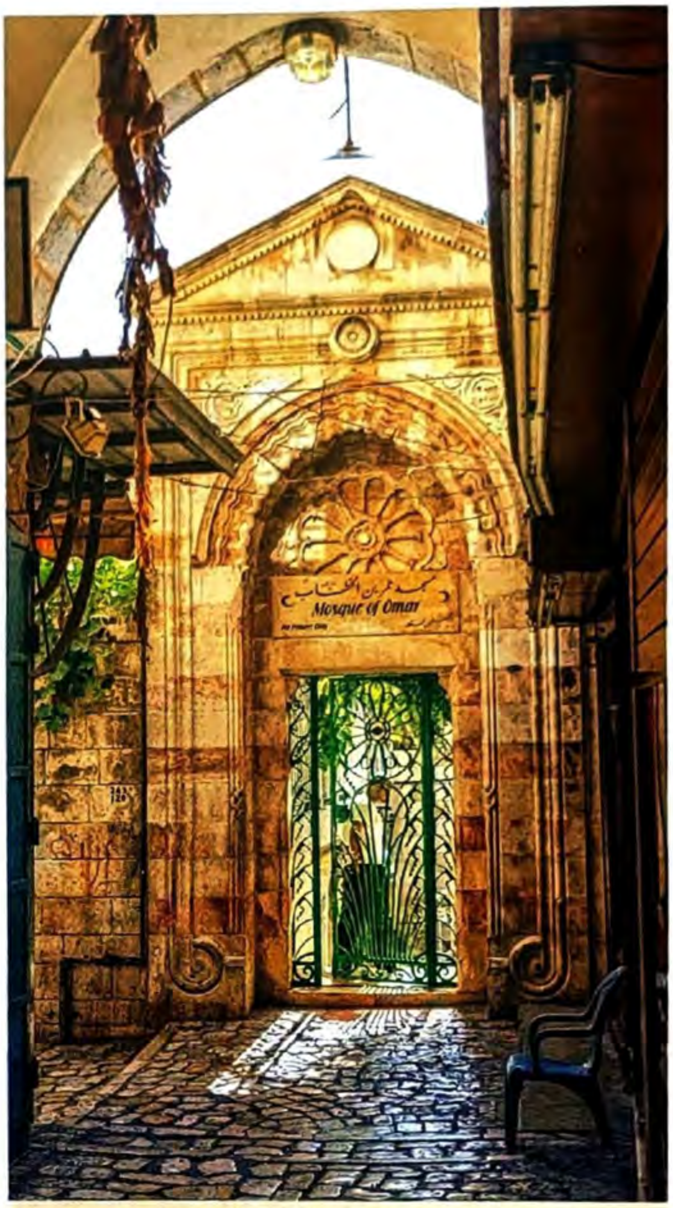

بوابة خضراء على مدخل للصلاة فقط، مسجد عومر في البلدة القديمة في القدس

١. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ٢/٢١٧.

منظر لمدينة بيت المقدس القديمة من جبل الزيتون.

الأقـرب إليهـم والأقـدر علـى نجدتهـم، كمـا أن العباسـيين في بغـداد وأمراءهـم السـلاجقة لـم يقدمـوا مسـاعدة تذكـر لإنقـاذ المسـلمين في تلـك المناطـق.

واستطاع الصليبيون أن يؤسسوا مملكة صليبية لاتينية رابعة جعلوا من طرابلس مركزًا لها بعد استيلائهم على صيدا.[1]

وقد يتساءل البعض: أين المسلمون بجموعهم الكثيرة عن هذا الغزو وأين روح الجهاد؟ والحقيقة أن هذا السؤال في محله، ولكن المطلع على أحوال العالم الإسلامي في تلك الفترة وما سبقها لا يستغرب الضعف الناشئ فيهم، إذ أن المذاهب الباطنية والشيعية قد انتشرت بين الناس وفرضت عليهم بالقوة على يد الإسماعيليين والفاطميين والقرامطة، كما أن القوى الفاطمية كانت موجهة لضرب أهل السنة، والاستيلاء على مواقعهم العسكرية قبل وأثناء وصول الصليبيين إلى المنطقة، ومع ذلك فقد عجزوا أن يقاوموا الصليبيين، كما كانت الدولة العباسية قد هرمت ولم يكن للخلفاء سوى المظاهر والشكل، أما القوات العسكرية فقد كانت في يد السلاجقة الذين أخذ الضعف يدب في أوصالهم في تلك الفترة وبدأ كثير منهم يؤثرون الدنيا ويكرهون الموت،[2] ومع أن بعض أمرائهم قد قام ببعض المحاولات لمقاومة الصليبيين، ولكن هذه المحاولات لم تكن ناجحة لأنها كانت تفتقد بالدرجة الأولى إلى التعاون فيما بينهم.

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٤٧٩.

٢. لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع انظر: محمد عبده، أيعيد التاريخ نفسه، (دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين).

# بداية الجهاد ضد الصليبيين:

لا شك أن المسلمين عمومًا قد تأثروا باحتلال القدس من قبل الصليبيين كما أن قيام الممالك الصليبية في بلاد الشام قد أثر على جميع بلاد الشام دون استثناء، حيث اضطر بعض الأمراء إلى مصانعتهم بل وتقديم الجزية لهم أحيانًا، كما أصبح الصليبيون يسيطرون على أهم الطرق في بلاد الشام وبالتالي لم يكن الناس يأمنون في تنقلاتهم، وكانت البلاد التي لم تخضع للنصارى مهددة في أي وقت من قبلهم، وقد كانت هناك جهود جهادية منذ أن وصل الصليبيون إلى البلاد الإسلامية، على رأسها جهود المقاومة في أنطاكية وغيرها من المواقع التي احتلها الصليبيون، كذلك محاولات الأمير «قوام الدولة كربوقا» أمير الموصل استعادة أنطاكية بعد أن استولوا عليها بعدة أسابيع.[1]

وتعتبر البدايات الرئيسية لمقاومة الصليبيين بعد استقرار إمارتهم بشكل مؤثر وفعال على يد «كمشتكين بن داشمند» أمير تركماني كان أبوه أحد الأمراء الموالين للسلطان السلجوقي «ألب أرسلان»،[2] وقد اتخذ من بلاد الأناضول إلى الشمال من

١. انظر: د. مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، ص ١٣٨.

٢. للتوسع في الدراسة عن هذا الأمير اقرأ ما كتبه الدكتور علي محمد عوده الغامدي بعنوان: «المجاهد المسلم «كمشتكين بن دانشمند» بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين»، الطبعة الأولى، مكتبة الصديق بالطائف.

ملطية مقرًا له حتى تمكن من توسع دولته على حساب البيزنطيين وصل بها إلى البحر الأسود.

كان الصليبيون في إمارتي الرها وأنطاكية قد طمعوا في التوسع في بلاد الأناضول شمالاً وفي بلاد الشام جنوبًا، ولذلك فقد حاولوا عدة مرات الاستيلاء على حلب، فلم ينجحوا في ذلك عملوا على إقامة حصون في الأراضي التابعة لها حتى يمنعوا المحصولات من الوصول إلى حلب، وقد أضطر أمراؤها في كثير من الأحيان إلى مسالمة الصليبيين، لكنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على حلب، ولذلك فقد طمعوا في الاستيلاء على ملطية إلى الشمال، وهي مدينة لها أهميتها بالنسبة لبلاد الشام وللأناضول على حد سواء. وقد كانت الظروف مواتية للصليبيين حيث كانت المدينة خاضعة لأحد الأمراء الأرمن ويسمى «جبريل»، وقد أحس بعزم «كمشتكين بن دانشمد» بالسيطرة على مدينته، وبالتالي، فإنه اتصل بإمارة أنطاكية، وعرض على أميرها (بوهمند النور ماندي) استلام المدينة وفق شروط معينة، وقد وافق (بوهمند) على ذلك، واصطحب معه مجموعة من الفرسان متوجهًا إلى ملطية حسب موعد محدد مع حاكمها جبريل الأرمني، ولكن الأمير «كمشتكين»، كان يراقب الموقف عن كثب ويتتبع الأخبار، ولذلك فقد كمن «لبوهمند النور ماندي» ومن معه من جند وتمكن (كمشتكين) من القضاء على قوات «بوهمند» وأسره وبعض الأمراء الصليبيين

منظر جوي لقلعة الكرك في الكرك ، الأردن

منظر للمسجد الجديد في ملاطية.

المرافقين له، وذلك في رمضان سنة ٤٩٣هـ،[1] وكان أسر «بوهمند» ضربة موجعة للصليبيين فهو أحد قادتهم الرئيسيين في الحملة الصليبية الأولى، وهو المؤسس لإمارة أنطاكية النصرانية وبالتالي فقد تحرك «بلدوين» حاكم إمارة الرها الصليبية لمطاردة (كمشتكين) الذي كان يحاصر ملطية بجنوده، فرأى من المصلحة أن يفك الحصار راحلاً بأسيره «بوهمند» متوغلاً داخل الأناضول، ورغم أن حركة «كمشتكين» لم تتمكن من احتلال ملطية، فإنها تعد من أوائل المحاولات الجهادية الإسلامية خصوصًا أنها حدث قبل مرور ثلاث سنوات على تأسيس أول إمارة صليبية في المنطقة كما أن هذا الانتصار على (بوهمند) أضعف من محاولات الصليبيين الاستيلاء على حلب، وبالتالي سلمت منهم، كما شجع بعض الأمراء المسلمين في مهاجمة بعض

١. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/٤٧٤. ابن الوردي، تاريخه، ج٢/١٦.

المواقع والمحطات العسكرية الصليبية فيما بين حلب وأنطاكية.[1]

وقد استمر بعض الأمراء المحليين في مقاومة الصليبيين، ولكن جهودهم كانت مبعثرة وضعيفة ولم تؤثر في تغيير الوضع بشكل جذري.

ومن أشهر من قاموا بمجاهدة الصليبيين أمير الموصل الأتابك «مودود بن التونتكن»، حيث كلف بذلك من قبل العباسيين وسلاطينهم السلاجقة، وقد خاض مع الصليبيين معارك عديدة في نواحي الرها وأنطاكية خلال الفترة من ٥٠٢هـ حتى مقتله سنة ٥٠٧هـ،[2] وقد كان «مودود» محل احترام المسلمين وتقديرهم لما كان يقوم به من جهاد ضد الصليبيين، كما كان الصليبيون يحترمونه ويقدرون فيه إخلاصه لأمته، وقد استشهد رحمه الله في مؤامرة وقعت له في دمشق على يد الباطنية الإسماعيلية، وهو صائم في يوم جمعة وقد كتب أحد ملوك الفرنج إلى حاكم دمشق شامتًا في مقتل «مودود» وكان مما قال: «إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها حقيق على الله أن يبيدها»،[3] كما أن من الأمراء الذين كان لهم دور في مقاومة الصليبيين الأتابك «ظهير الدين» صاحب دمشق حيث قاتل جموعًا منهم سنة ٥٠٩هـ، ٥١٢هـ، ٥١٣هـ، كما قام بالتعاون مع أمراء الموصل وحلب في عدة مواقع، كما أن أمير الموصل «سيف الدين أق سنقر البرسقي» تمكن من فك الحصار الذي ضربه الصليبيون على حلب سنة ٥١٨هـ الموافق ١١٢٤م، ومنذ ذلك التاريخ وحلب والموصل تشكلان محورًا واحدًا في مقاومة الصليبيين وجهادهم حتى جاء الزنكيون ودفعوا حركة الجهاد في المنطقة.

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٤٨٥، ٤٩٢، ٤٩٥. ود. على الغامدي، كمشتكين، ص٢٠.

٢. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٨٠.

٣. ابن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ١٩. وانظر: الكامل، ج١٠/٤٩٧.

## (أ) جهاد عماد الدين زنكي:

كان عماد الدين زنكي أحد قواد الموصل المشهورين أثناء حكم (مودود بن التونتكين) الذي كان أتابكًا على الموصل من قبل السلاجقة، كما اشترك عماد الدين مع بقية أمراء الموصل الآخرين في جهاد الصليبيين، وكانت إمارة الموصل مهددة من قبل الصليبيين في الرها كما أن تهديدها يعني تهديد بغداد نفسها وهي عاصمة الخلافة، ولذلك ما أن شغرت إمارة الموصل سنة ٥٢١هـ حتى تم تعيين عماد الدين أميرًا عليها، [1] فأصبح هو المسؤول مباشرة عن الموصل وجهادها القادم ضد الصليبيين.

كانت همة عماد الدين مذ تولى على الموصل هي مجاهدة الصليبيين، وقد تطلب منه هذا الأمر أن يبدأ بالموصل نفسها ليرتب أمورها ويعد قواتها ويوحد صفوف أهلها قبل أي معركة مع الأعداء، فتفقد القلاع وعين لها الأمراء ورتب لها الأجناد في مختلف أنحاء إمارته،[2] كما عمل زنكي فيما بين عامي ٥٢١ - ٥٢٢هـ على مد

١. ابن الأثير، الباهر، ٣٥، ج١٠/٦٤١ ، ٦٤٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٩٨.
٢. انظر: ابن الأثير، الباهر، ص ٣٥.

رسم تخيلي من أساليب عماد الدين زنكي في محاربة الصليبيين: مهارات استراتيجية فائقة

نفوذه على بعض المناطق المجاورة وخصوصًا في الغرب حيث بلاد الشام والمجابهة المتوقعة مع الصليبيين، وكان لحسن تعامله وتدبيره للأمور موفقًا في استقطاب كثير من القوى المجاورة وضمها إلى صفه، واستطاع تكوين جبهة إسلامية قوية في شمالي العراق وبلاد الشام تمتد من الموصل إلى حلب، وتشمل معظم بلاد الجزيرة وحلب نفسها وما جاورها،[1] ومع هذا ظل يعاني في بعض الأحيان من بعض زعماء الشام وقوادهم الذين كانت تغلب عليهم مصالحهم الشخصية، خصوصًا أمراء دمشق

---

١. انظر: ابن الأثير، الباهر، ص ٣٥ ـ ٣٧. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ص٣١. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/١٩٨. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢/٣٢٨.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الذين رفضوا الانضمام إلى الجبهة الإسلامية الجديدة واستمروا في مجابهة دائمة مع عماد الدين زنكي. كانت بلاد الجزيرة ونصيبين والمناطق المجاورة للصليبيين تعيش في ذل وصغار لضعفهم أمام الصليبيين الأقوياء،[1] وقد فرض الصليبيون الجزية والخراج على المناطق الإسلامية المجاورة لهم.

كان زنكي أثناء إعداده لقوى الإسلامية في المناطق الخاضعة له يسعى إلى عدم مصادمة الصليبيين قبل أن يكون مستعدًا لذلك، وعلى هذا فقد عقد معاهدة مدتها سنتان مع أمير الرها «الكونت جوسلين الثاني» بحيث لا يتعرض أحد منهما للآخر طيلة مدة المعاهدة.[2]

وما أن انتهت فترة المعاهدة حتى بدأ زنكي حركة جهادية ضد الصليبيين بعد أن كون القوة اللازمة لذلك، كانت أول محاولة له لفرض السيطرة على إحدى الإمارات الصليبية موجهة إلى إمارة أنطاكية في الشمال الغربي لبلاد الشام وهي من أقدم الإمارات الصليبية وأهمها، وهي مفتاح الشام لقوى الفرنجة القادمة من أوروبا عن طريق البر، حاول عماد الدين استغلال الظروف الواقعة في أنطاكية نتيجة مقتل ملكها وتولى زوجته مكانه، وكانت امرأة ضعيفة،[3] ولها معارضون كثر في الإمارة فجرى بين عماد الدين وبينها بعض الاتصالات حيث حاولت الاستنجاد به ضد خصومها، لكن هذا الأمر لم يتم حيث وصلت إمدادات من الفرنجة في بيت المقدس واضطرت التسليم لتلك القوات.

كان لإمارة أنطاكية الصليبية حصن قوى إلى الغرب من حلب وهو مجمع لفرسان الصليبيين، ويسبب أذى كثيرًا للمسلمين وكانوا من خلاله يفرضون الإتاوات على المناطق الزراعية القريبة من حلب، بل تمكنوا بقوات ذلك الحصن من أخذ كثير من أراضي حلب المجاورة لها من الغرب، وكان يمثل تهديدًا دائمًا لحلب نفسها، فاستعد عماد الدين للاستيلاء عليه بالقوة، وحاصره سنة ٥٢٤هـ، فلما سمع الصليبيين، في النواحي الأخرى من بلاد الشام بحصاره توجهوا بقوات كبيرة للدفاع عنه، فجمع

---

١. انظر: ابن الأثير، الباهر، ص ٣٢ ـ ٣٣.

٢. ابن الأثير، الباهر، ص ٣٨. وانظر: رنسيمان، الحروب الصليبية، ص ٢١٩.

٣. رنسيمان، الحروب الصليبية، ص ٢٩٤.

قلعة حلب الأثرية في سوريا

زنكي قواته وأخبرهم بالإمدادات القادمة للصليبيين المحاصرين واستشارهم في الأمر، فأشار كثير منهم بالانسحاب وترك الحصن إذ لا طاقة لهم بقتال تلك الجمع الكثيرة من الصليبيين، والذين سيستميتون في الدفاع عن حصنهم، وعندما سمع زنكي رأي أصحابه قال: «هذه خطة خسف تجرئهم علينا وتطمعهم فيما لدينا لكن الرأي أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم فإما لنا وإما علينا»،[1] ثم تأهب رحمه الله ومن معه من جند سار إلى جيوش الفرنجة القادمة حيث نشبت بينه وبينهم معركة حامية انتصر فيها المسلمون وقتلوا وأسروا عددًا كبيرًا من النصارى، ثم رجع جند المسلمين مرة أخرى لمهاجمة حصن الأثارب، وتمكنوا من الاستيلاء عليه بالقوة وقتل المدافعين عنه، ثم قاموا بتخريب الحصن حتى أصبح ليس له قيمة عسكرية تذكر، وذلك خوفًا ألاَّ يستطيع المسلمون المحافظة عليه فيعود الصليبيون لاحتلاله[2] وبتحطيم هذا الحصن استراح أهل حلب وما جاورها من شره وتوسعوا في الأراضي المجاورة.

ما أن فرغ زنكي رحمه الله من فتح الأثارب حتى توجه بجيشه إلى حصن حارم

١. ابن الأثير، الباهر، ص ٤٠. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٦٣. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٠٠.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٦٢. ابن الأثير، الباهر، ص ٣٩. وانظر: د. حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج ٢٥٩/١.

المجاور لحلب فحاصره طمعًا في فتحه ثم دارت المراسلات بينه وبين من بداخله من الصليبيين حيث طلبوا الصلح وبذلوا له نصف خراج حارم إن تركهم، فعقد عماد الدين معهم هدنة ثم ترك حصارهم ورحل عنهم.[١]

وقد انشغل عماد الدين شخصيًا ببعض الأمور في بلاد العراق، ولكنه رتب له نوابًا في بلاد الشام على قدرة كبيرة في مجاهدة الصليبيين، وكان من هؤلاء الأمير «أسوار» نائبه على حلب الذي تمكن سنة ٥٢٧هـ من صد هجومين للصليبيين على حلب حيث انتصر عليهم وقتل جموعًا كبيرة منهم.[٢] ولم يتوقف «أسوار» عند الدفاع عن بلاده ضد الصليبيين بل أنه بادر إلى الهجوم بجند حلب على بعض المواقع الصليبية، وهذا يعد تقدمًا كبيرًا في جهاد المسلمين للصليبيين حيث أصبح الأمراء النواب دون أن يكون أمراؤهم الكبار موجودين، فقد قام «أسوار» نائب زنكي على حلب بهجوم على تل باشر وهو أحد الحصون الصليبية القريبة

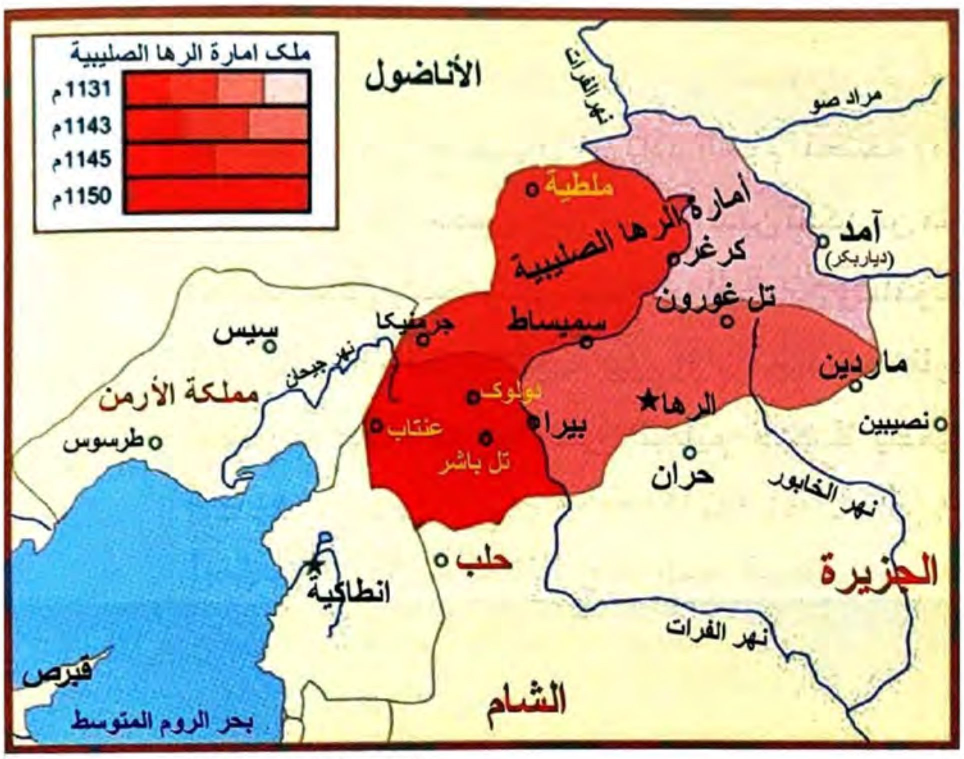

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

من إمارة حلب، وجرت بينه وبين الفرنجة معركة حامية انتصر فيها المسلمون وقتل من النصارى قريبًا من ألف رجل ما بين فارس وراجل، وقد قامت قوات زنكي بقيادة نائبه على حلب الأمير (أسوار) ومعه جيوش من حلب وحماة بهجوم على اللاذقية وأعمالها سنة ٥٣٠هـ حيث حصلوا على كثيرٍ من الغنائم وأربكوا الفرنج وقتلوا وأسروا كثيرًا منهم حتى بلغ الأسرى قرابة سبعة آلاف أسير وبلغت الغنائم قرابة مئة

١. ابن الأثير، الباهر، ص ٤٢. الكامل، ج١٠/٦٦٣. د. حامد غنيم، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ص ٢٦٠.
٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٠/٦٨٥. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٠٤.

فولك ملك القدس

ألف رأس من الماشية «وفرح المسلمون بذلك ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزًا ووهنًا».[١]

ومن أهم أعمال زنكي حملته على حصن (بعرين) حيث هاجمه بعد صدام مع الصليبيين حول حمص، وقد توجهت جيوش صليبية يتزعمها ملك بيت المقدس (فولك وريموند) كونت طرابلس في محاولة لصد عماد الدين عن الحصن ولكن عماد الدين أصر على الاستمرار في الحصار، وفي الوقت نفسه توجهت قوات كبيرة من الصليبيين من بلاد الشام المختلفة ومن الروم في محاولة منهم لإنقاذ المحاصرين في الحصن، ولكن عماد الدين تمكن من منع الأخبار عن المحاصرين داخل الحصن حتى يئسوا واستسلموا لعماد الدين وسلموه الحصن قبل وصول الإمدادات التي كانت في الطريق إليهم بيوم أو يومين، فلما فارقوا الحصن «بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم، فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم، وكان لا يصلهم شيء

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٠.

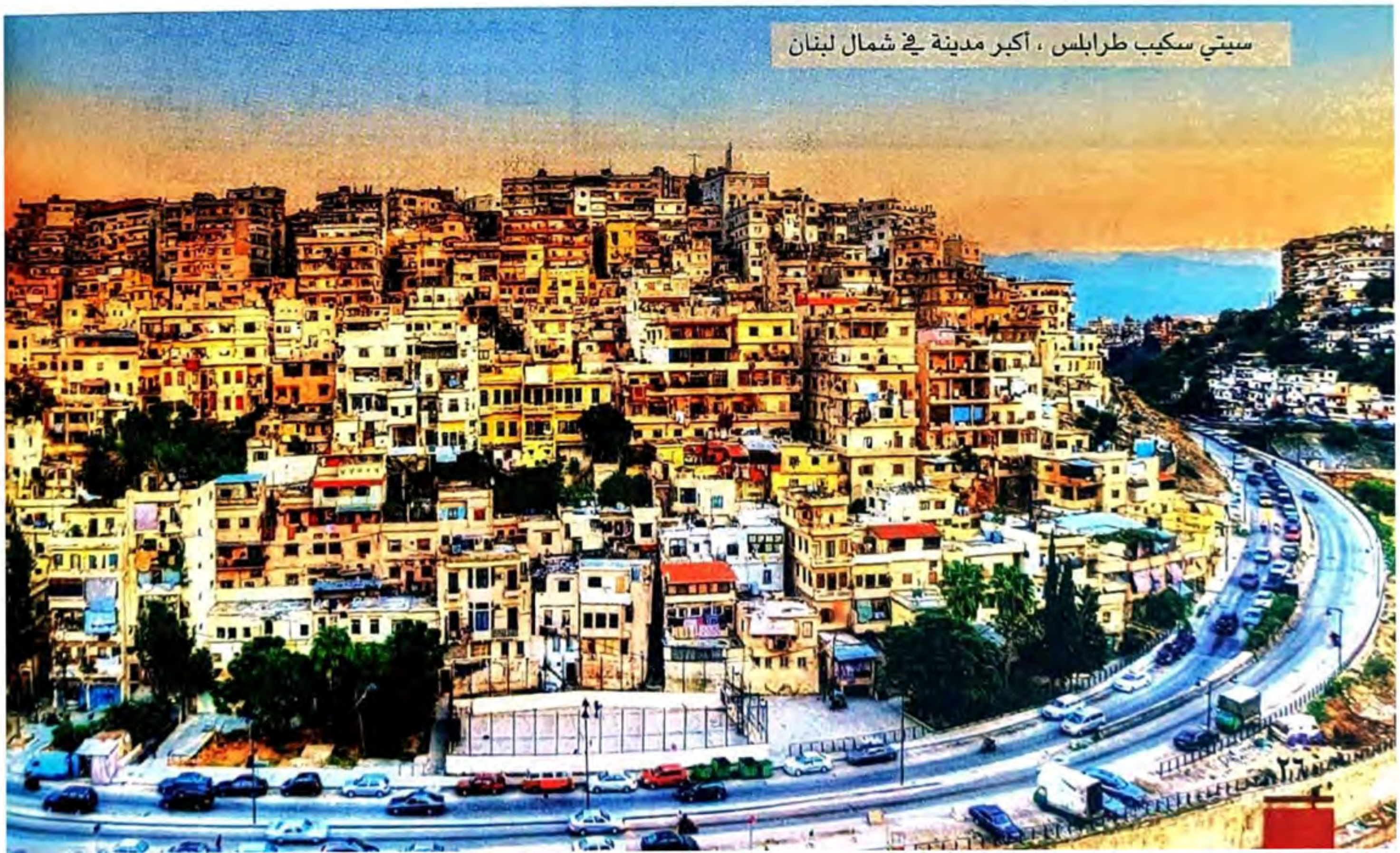

سيتي سكيب طرابلس ، أكبر مدينة في شمال لبنان

حلب المدينة القديمة

من الأخبار البتة ولهذا سلموا».[1]

كما تصدى عماد الدين زنكي لحملة الدولة البيزنطية على بلاد الشام بقيادة الإمبراطور البيزنطي (حنا كومنين) الذي زحف على بلاد الشام، بعد طلب نصارى الشام نجدته، فوصل إلى الشام سنة ٥٣١هـ وكانت أولى محطاته بها أنطاكية حيث تجمعت قواته القادمة عن طريق البر والبحر، ثم زحف بها شرقًا حيث احتل العديد من المواقع الإسلامية ومنها (نيقية) و(عين زربة)، و(تل بحمدون) وغيرها، ثم توجه إلى (بزاعة) وهي من أقرب الحصون إلى حلب، وتمكن الروم يقودهم الإمبراطور من الاستيلاء عليها فعملوا بها مذبحة رهيبة حيث قتلوا الآلاف من أهلها وجرحوا ما يزيد على خمسة آلاف وأجبروا بعض أهلها على التنصر،[2] وقد أراد الإمبراطور البيزنطي أن يصل إلى حلب، حيث كانت (بزاعة) في نظره محطة على الطريق، إلا أن أهل (بزاعة) تمكنوا من إنذار أهل حلب، فقام الحلبيون ومعهم جنود عماد الدين زنكي بتجهيز التحصينات الدفاعية في حلب،

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٢. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٦٨٨.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٦. رنسيمان، الحروب الصليبية، ص ٣٤٤. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٠/٧٣.

قلعة شيزر، في شمال سوريا، شمال غرب حماة.

وكتبوا إلى زنكي وكان غائبًا عن حلب يخبرونه بالخطر المتوقع، فأمدهم ببعض الفرسان ليشاركوا في الدفاع عن حلب وليرفع من معنويات أهلها، ثم وصل الروم ومن حالفهم من فرنجة الشام وفرضوا الحصار على حلب حيث صمد أهلها صمود الأبطال، وأخذ شجعان أهل حلب من الشباب والشيوخ والأحداث يقومون بهجمات مباغتة على الصليبيين فيقتلون من ينفرد منهم ويغيرون عليهم ويفرون دون أن يصاب منهم أحد، ويتسللون داخل معسكراتهم، مما أوقع الرعب في قلوب الأعداء، كما أن تحصن أهل حلب منهم جعلهم ييأسون من الاستيلاء عليها وبالتالي آثر الروم وأعوانهم من صليبيي بلاد الشام رفع الحصار عن حلب بعد ثلاثة أيام من حصارها، وتوجهوا إلى حصن الأثارب الذين سبق أن استعاده زنكي من الصليبيين، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها بعد أن أحرقوا قلعتها وتحصيناتها حتى لا يستفيد منها الأعداء، فتمكن الروم من احتلالها، ثم غادروا بعد أن جمعوا فيها

عددًا كبيرًا من أسرى المسلمين ومعهم حامية من الروم تحرسهم، وكان (أسوار) أمير حلب من قبل عماد الدين يتابع الموقف عن بعد، فقام بهجوم مباغت على الأثارب بعد رحيل الروم عنها وتمكن من قتل حامية الروم وخلص من فيها من أسرى المسلمين وعاد إلى حلب سالمًا غانمًا.[1]

وقد قام الروم بعد ذلك بالهجوم على (شيزر) وهي إمارة مستقلة لآل منقذ فقام أمراؤها بالاستنجاد بعماد الدين زنكي فأعد جيشًا أخذ يناوش به الروم، وفي الوقت نفسه عمل على إيقاع الخلاف بين الروم وحلفائهم من نصارى الشام، ولم تقع مواجهة مباشرة بين المسلمين والروم حيث آثر إمبراطور الروم الانسحاب وعدم الاحتكاك بعماد الدين زنكي،[2] وقد كان وقوف عماد الدين زنكي وتصديه حتى ولو لم يكن مباشرة لحملة الإمبراطور البيزنطي دور كبير في فشل تلك الحملة الرومية الصليبية التي استهدفت تحطيم الجهاد الذي قاده عماد الدين في تلك المرحلة كما أن عماد الدين عمل على إيقاد العداوة بين الروم وصليبي الشام من الأسباب الرئيسة في فشل الحملة.

وقد قام عماد الدين سنة ٥٣٣هـ باستعادة ما أخذ الروم من حصون المسلمين في بلاد الشام كما نجح في فتح مواقع أخرى كانت بأيدي الصليبيين. وقد اضطر عماد الدين لمواجهة حلف القوى الإسلامية في دمشق مع الصليبيين وذلك في الفترة من ٥٣٤ ـ ٥٣٦هـ، وكان عماد الدين يخفف من هجومه على القوى الإسلامية المعارضة له في هذه المرحلة لكي لا يدعم أواصر التعاون بينها وبين الصليبيين.

وقد قام قواد عماد الدين بعدة غارات ناجحة على أنطاكية وما حولها سنة ٥٣٦هـ وتمكنت من الإيقاع بالصليبيين في العديد من المواقع القريبة من أنطاكية، وقتلت في أحد المرات ما يزيد على سبع مئة صليبي وعادت محملة بالغنائم والأسلاب.[3]

---

١. ابن كثير، الكامل، ج١١/٥٧.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٨. رنسميان، الحروب الصليبية، ص ٤٦. وانظر: عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ص ١٤٧. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٦٩٧.

٣. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٩٠. وانظر: عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ص١٦٢.

## فتح الرها (جمادى الاخرة ٥٣٩هـ):

تعد الرها من أهم وأقدم المراكز الصليبية في بلاد الشام، كما أنها تعد من أخطر المراكز العادية للمسلمين، ويمتد خطرها إلى المسلمين في الشام والجزيرة وفي العراق مركز الخلافة الإسلامية تصل إلى مختلف المناطق المجاورة لها، وتوقع بالمسلمين، وقد تمكنت من الاستيلاء على العديد من المواقع والحصون ومدت أراضيها حتى كانت تتبعها حصون كثيرة تمنع المسلمين من الوصول إلى الرها نفسها، كان عماد الدين يفكر باستمرار في مجاهدة هذه القاعدة الصليبية منذ أن استقرت له الأمور في الموصل، ويدرك أن الاستيلاء عليها يتطلب استعدادًا قويًا كما يتطلب معرفة دقيقة بأحوال العدو فيها، ولذلك ركزت استخباراته على متابعة أحوالها ورفع التقارير عنها باستمرار لكي يرى عماد الدين الوقت المناسب للهجوم عليها، وفي جمادى الآخر سنة ٥٣٩هـ وصلت تقارير الاستخبارات الزنكية من الرها تفيد بمغادرة «جوسلين الثاني» حاكم الرها إلى بعض المواقع الصليبية في الشام،[١] فأعلن عماد الدين التعبئة العامة في مختلف المناطق التابعة وزحف مسرعًا بأجناد المسلمين إلى الرها مستغلين خلوها من قائدها، واستطاع عماد الدين بمن معه من المسلمين محاصرتها حصارًا شديدًا ومباغتًا، وتمكن المسلمون من منع الإمدادات عنها تمامًا حيث نجحوا في إكمال حصارها من جميع الجهات، وأخذت منجنيقات المسلمين ترميها من كل ناحية دون توقف أو فتور في محاولة لتدمير أسوارها وحصونها، وقد أوقعت آلات المسلمين الضخمة الرعب في قلوب الصليبيين في الرها في الوقت الذي نجح المسلمين في قطعهم عن كل من حاول مساعدتهم من صليبيي الشام أو من قوات الرها نفسها التي خرجت مع ملكها قبل الحصار، وتمكن المسلمون من منعها من العودة إليها مرة أخرى، في الوقت الذي استمرت فيه الإمدادات في الوصول إلى الجيش الإسلامي وخصوصًا من قبائل التركمان الذين كانوا متحمسين للجهاد، وبدأ النقابون محاولات جادة لفتح بعض الثغرات في مناطق الضعف في الأسوار والتحصينات، وفي الوقت نفسه كان عماد الدين يفاوض أهل الرها ويكاتبهم طمعًا في استسلامهم وفتح المدينة

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٩٠. وانظر: عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ص١٦٢.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

قلعة جعبر على ضفة البحيرة في محافظة الرقة ، سوريا

سلمًا، ولكن أهلها أبو ذلك رغم الوعود التي بذلها لهم،[1] وحينذاك اشتد زنكي في التضييق على المدينة أكثر من ذي قبل محاولاً فتح المدينة في أقصر وقت ليمنع بقية صليبيي الشام من التدخل، ونجح عماد الدين في التصدي للنجدات الصليبية التي قادها ملك الرها «جوسلين» الذي كان خارجها، حيث تمكن المسلمون من منعه من الوصول إليها، وقد استمر حصار المدينة ثمانية وعشرين يومًا تمكن المسلمون في نهايتها من تحطيم الأسوار عن طريق النقب تحتها وإشعال النار، وكان عماد الدين زنكي رحمه الله يشرف شخصيًا على أعمال النقابين ويشاركهم العمل، وتمكن المسلمون من اقتحام الرها عنوة في وضح النهار في السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ،[2] وقتلت جموع كبيرة من الصليبيين في ذلك الاقتحام حيث استماتوا في الدفاع عن المدينة كما استشهدت جموع كبيرة من المسلمين في ذلك الفتح المبين وقد صمدت قلعة المدينة في وجه المسلمين مدة يومين كاملين رغم سقوط المدينة ولكن المتحصنين بها اضطروا للاستسلام بعد ذلك، واصدر زنكي أوامره إلى الأجناد

---

١. ابن الأثير، الباهر، ص ٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٩٨.

٢. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٠. ابن الأثير، الباهر، ص ٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٩٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠/١١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢١٩. وانظر: عماد الدين، خليل عماد الدين زنكي، ص ١٥٢. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٣٩.

بالكف عن القتل والإحسان إلى الأسرى فأمتثل المسلمون للأوامر كما وعدوا أهلها من النصارى بالعدل وحسن المعاملة والتدبير،[1] وشرع المسلمون في عمارة ما تهدم من تحصينات المدينة، كما عمل عماد الدين على إثارة النعرات والعداء بين النصارى الشرقيين والنصارى الفرنجة للتفريق بينهم قدر الاستطاعة.[2]

ويعتبر فتح الرها بداية مرحلة جديدة في الجهاد ضد الصليبيين، إذ تمكن المسلمون لأول مرة من إسقاط إمارة كبرى ورئيسة من إمارات الصليبيين في الشام، ولذلك فقد تحولت موازين القوى ـ المعنوية على الأقل ـ لصالح المسلمين حيث أخذوا يهاجمون المواقع الكبرى للصليبيين بشجاعة أكبر من ذي قبل، حيث أصبح للمسلمين هيبة أكبر عند الصليبيين.[3]

ولم يتوقف عماد الدين زنكي عند فتح الرها، بل تابع الهجوم على الحصون التابعة لها والتي كانت مشحونة بقوات مستقلة، وتمكن من فتح العديد منها بعد الرها حيث فتح حصن البيرة في أوائل سنة ٥٣٩هـ.[4]

لم يعش عماد الدين كثيرًا بعد فتح الرها فقد حاول الاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية المحكومة من بعض الأمراء المستقلين، وكان من آخرها قلعة جعبر التابعة لأبناء العقيلي، وفي أثناء حصار عماد الدين لتلك القلعة قام بعض غلمانه وخدمه بالدخول عليه وهو نائم وتمكنوا من اغتياله، واستشهد رحمه الله في الخامس من ربيع الآخر ٥٤١هـ بعد سنوات حافلة بالجهاد والتضحية،[5] وبعد أن فتح صفحات جديدة في تاريخ الجهاد الإسلامي مع الصليبيين، وبعد أن وضع بداية النهاية للوجود الصليبي على أرض الإسلام في بلاد الشام، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

---

١. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩.

٢. عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، ص ١٥٣.

٣. نظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ ٢٤٠.

٤. ابن الأثير،الباهر، ص ٧٣.

٥. انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢/ ٣٢٧. ابن الأثير، الكامل، ج١١/ ١١٠. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠/ ١١٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ٣٢١. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/ ١٩١. وانظر: إلى فرح الصليبيين في وفاة المجاهد عند: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/ ٧٤٢.

## (ب) جهاد نور الدين محمود:

قام أخوه الأكبر سيف الدين نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل، كان أحد أبناء أبيه الذين يعتمد عليهم في حياته في تسيير أموره، وكان مرافقًا له أثناء حصاره لقلعة (جعبر) حين قتل أبوه غيلة سنة ٥٤١هـ فأخذ خاتمه وبعد تجهيز أبيه ودفنه توجه إلى حلب فملكها،[١] وكانت تابعة لأبيه، كما قام أخوه الأكبر سيف الدين زنكي بالاستيلاء على الموصل وهي مركز مملكة أبيه، ورغم منافسة أخيه له في الموصل، ومحاولة الوشاة للإيقاع بينهما فقد أحس كل منهما بأهمية الاتفاق وعدم الفرقة والبعد عن حب الذات نظرًا لما كان المسلمون عليه من خطر من قبل الصليبيين وأن أي اختلاف بينهما سيستغله الصليبيون الأفرنج، ولذلك فقد تواضع نور الدين لأخيه الأكبر سيف الدين والتقيا في الشام أثناء زيارة لسيف الدين حاكم الموصل فقال: «إنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يريد السوء بنا يكف عنا»،[٢] وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتمثل قول الله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)

ولم يلبث سيف الدين أن توفي سنة ٥٤٤هـ فأصبح نور الدين صاحب الكلمة العليا في مملكة حلب وما يتبعها دون أن يكون خاضعًا لأحد.[٣]

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١ /١١٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٠٩. وابن الوردي، تاريخه، ج٢/٦٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٢.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١١٢.

٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/١٩٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٢٧.

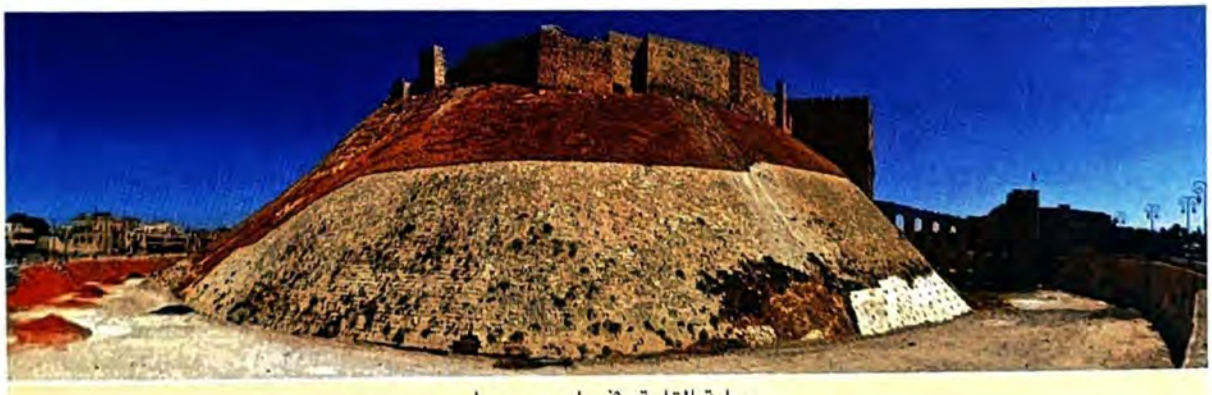

بوابة القلعة في حلب ، سوريا.

رسم تخيلي للحرب بين ريموند دي بواتييه وزنكي

كان نور الدين رحمه الله قد تربى منذ صغره على القرآن الكريم والفروسية، حيث كان والده قد أوكله إلى أحد العلماء لتولى تربيته، فلما شب كان مرافقًا لأبيه في جهاده مما أكسبه خبرة في هذا المجال، فكان رجلاً صالحًا ومجاهدًا في الوقت نفسه، ومنذ أن تولى على حلب، وضع نصب عينيه قضية الإصلاح الداخلي وجهاد أعداء الإسلام من الصليبيين وأعوانهم، بعد أن أصبح في مواجهة مباشرة مع الصليبيين، وكان من أوائل أعماله صده هجومًا للصليبيين على الرها سنة ٥٤١هـ حين حاولوا إعادة احتلالها بعد أن استعادها عماد الدين زنكي من الصليبيين، وبعد أن علموا بوفاته ظنوا أنه لا مدافع عنها ولكن نور الدين كان لهم بالمرصاد فاضطروا إلى الهرب وكان رحمه الله حازمًا فأدب من فيها من الأرمن الذين مالؤوا للصليبيين،[١] وقطع بذلك أمل الصليبيين في استعادة الرها مرة أخرى، كما قام رحمه الله باحتلال العديد من الحصون والمواقع العسكرية الصليبية المجاورة لحلب وقد ركز جهوده إلى الغرب من حلب، حيث أخذ يهاجم المواقع العسكرية التابعة لإمارة أنطاكية فتمكن سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م من فتح (أرتاح) وتجريد أنطاكية من معظم قلاعها الشرقية بعد معارك عديدة مع (ريمون دي بواتييه) صاحبها.[٢]

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/١١٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١١١. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٥٤. د. فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢٠٩.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٢٢. وانظر: د. مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٤٧. د. فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢١١.

كان لاستعادة المسلمين الرها في الفتح المشهور على يد عماد الدين زنكي دور رئيس في تحرك الحملة الصليبية الثانية، حيث أن ذلك السقوط الصليبي الذي جاء بعد أقل من خمسين سنة من إقامة تلك الإمارة إيذاناً بسقوط بقية الإمارات الصليبية الأخرى في بلاد الشام خصوصًا أن الرها هي أول الإمارات الصليبية تأسيسًا في البلاد الإسلامية، وكانت الحملة الصليبية الثانية بزعامة إمبراطور ألمانيا (كونراد الثاني) وملك فرنسا (لويس السابع)، وقد تعرضت هذه الحملة لهجمات سلاجقة الروم عند عبورها الأناضول،[1] وخسرت كثيرًا من رجالها واستنزفت ثم وصلت أنطاكية حيث حاول حكامها استغلال هذه الحملة لاستعادة ما أخذ منهم من حصون ومواقع عسكرية على يد نور الدين ولكن الحملة واصلت مسيرتها إلى بيت المقدس، وهناك بحثوا الوضع والأولويات، فقرروا الهجوم على دمشق.

كانت دمشق محكومة من قبل «معين الدين أنر» وهو مسالم للصليبيين وبينه وبين مملكة بيت المقدس معاهدة، إذ إنه يخشى استيلاء نور الدين على دمشق وضمها إلى

---

١. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٦٤.

مملكته، وحين تناسى الصليبيون المعاهدة وهجموا على دمشق في ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ ضغط العلماء والعامة في دمشق على حاكمها، فاضطر «معين الدين أنر» أن يستنجد بنور الدين محمود في حلب وأخيه سيف الدين في الموصل، ومع هذا فقد بذل أهل دمشق جهودًا كبيرة في الإيقاع بالصليبيين، ولم تصل نجدات نور الدين محمود، ومع ذلك فقد خشي الصليبيون من وصولها وانسحبوا من مواقعهم بالقرب من دمشق تاركين وراءهم مئات القتلى،[1] وقد أتاح ذلك لنور الدين محمود التفكير بجدية لضم دمشق إلى مملكة حلب، ولكن حاكمها «معين الدين أنر» كان عقبة في سبيل ذلك، وكان نور الدين على استعداد تام للتعاون معه ولو لم يضم بلده لكي يبعده عن الصليبيين الذين تحالف معهم سابقًا وكان على استعداد للتعاون معهم من أجل استمراره في حكم البلد،[2] ولكن نور الدين محمود كان سياسيًا ومرنًا في التعامل مع «معين الدين أنر»، حيث استطاع طمأنته واستماله وتعاون معه في ضرب الصليبيين في العديد من المواقع سنة ٥٤٤هـ.[3] كما أن خلافًا بدأ يظهر بين صليبيي بلاد الشام وبعض زعماء الحملة الصليبية الثانية دفع بعضهم إلى الاستعانة

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٣٠. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١/١٣٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٢٤. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٨٥.

٢. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٢٢. وانظر: مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٥٣. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٤٣.

٣. د. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١١٧.

بنور الدين محمود فقد طلب «ريموند الثاني» صاحب طرابلس مساعدة نور الدين ضد «برتراند بن الفونسو» صاحب طليطلة وهو من ملوك الإسبان الذين قدموا مع الحملة الصليبية الثانية، واستولى بالقوة على (حصن العزيمة) رغمًا عن صاحب طرابلس، فتوجه نورالدين محمود و «معين الدين أنر» بالإضافة إلى بعض القوات التي قدمت للمساعدة من الموصل وحاصروا حصن العزيمة وتمكنوا من فتحه بالقوة وأسر (ابن الفونسو) ووالدته وهما من أهم زعماء الحملة الصليبية الثانية من ملوك اسبانيا، وتم ترحيلهما أسرى إلى حلب،[1] وبذلك فإن جهود الحملة الصليبية الثانية ضاعت وتبعثرت نتيجة مواقف نور الدين محمود وإصراره على مجابهتها في كل مكان كما تمكن نور الدين من هزيمة الروم في عدد من المواقع بالقرب من حلب ومنها (بيغري) سنة ٥٤٣هـ، حيث قتل جماعة كبيرة منهم وأسر جموعًا أخرى ولأهمية هذا الفتح فقد أرسل نور الدين شيئًا من غنائمه إلى الخليفة العباسي «المتقي لأمر الله» وإلى السلطان السلجوقي (مسعود بن محمد ملكشاه) وإلى أخيه (سيف الدين

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٣٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١١٤. وانظر: د. مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٥٥.

منظر لبوابة العامود ومدينة القدس القديمة

غازي)،[1] ومنذ ذلك الوقت أصبح المسلمون في بلاد الشام يسخرون من قوة الصليبيين «وسمت قوتهم وشجاعتهم إلى قوة عالية حيث لم يعودوا يخافون من القوة المسيحية ولم يترددوا في مهاجمتهم بشكل منقطع النظير».[2]

رسم تخيلي يمثل معركة عسقلان

وفي السنوات اللاحقة بذل نور الدين جهودًا كبيرة في تنقية الصف الإسلامي، حيث وجه جهده لأهل التشيع والإسماعيلية في البلاد الخاضعة له، ومنعهم من سب الصحابة رضي الله عنهم وأبطل الزيادات في الأذان، وضيق عليهم فحاولوا التحالف مع الصليبيين ضده كما قام نور الدين بدعم السنة دون تعصب لمذهب فقهي معين، فقد كان على مذهب أبي حنيفة، من غير تحيز، ومع ذلك ساعد في بناء مدارس للمذاهب الأخرى[3]

كما سعى رحمه الله لإزالة المظالم فقد بنى دارًا للعدل كما كان يجلس فيها يومين في الأسبوع للنظر في مظالم الرعية، فخشيه الأمراء والقواد وأصبحوا لا يظلمون الناس شيئًا مما زاد في ترابط المسلمين.[4]

وقد كان متواضعًا يعطف على العلماء والفقراء والمحتاجين وينفق عليهم فقيل له في وقت حاجة لو قللت من تلك النفقات واستعنت بها على الجهاد فقال: «والله إني لأرجو النصر بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١١٤.
٢. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٨٩.
٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٢. د. مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٤٣.
٤. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١/٨. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٦.

يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطى وأصرفها إلى من لا يقاتل إلا إذا رآني بسهام قد تخطى وقد تصيب ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم»،[١] وقد عمد في كثير من الأحيان إلى تعويض ما يفقده المجاهدون من سلاحهم ومتاعهم في القتال ضد الأعداء في الوقت الذي كان يترك لهم نصيبهم من الغنائم[٢] وكان ورعًا يأكل من عمل يده ولا يسرف في النفقة من بيت المال ويحرص على الإنفاق من غنائمه في الجهاد،[٣] ونظرًا لحسن سيرته فقد أحبه الناس وكانوا يسمونه الشهيد في حياته نظرًا لحبه للجهاد والشهادة. [٤]

كما أحبه الأمراء الواقعون تحت إمرته بالإضافة إلى الذين يحكمون من قبل أمراء آخرين، ولذلك حرص بعض الأمراء على مسايرته، خصوصًا ما يتعلق بمجاهدة الفرنج، وقد كان رحمه الله مسايسًا لحكام دمشق من بيت «طغتكين»، يتعاون معهم ضد الصليبيين، ولكنهم وقفوا متفرجين من هجوم الروم على عسقلان سنة ٥٤٧هـ، وكانوا يحولون بين نور الدين والدفاع عن عسقلان، وفي الوقت نفسه ذل

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٣٦. وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٦- ٥٣٧.
٢. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٦- ٥٣٧.
٣. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٦.
٤. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٥٣٧.

حكام دمشق للصليبيين حتى أصبحوا يدفعون لهم جزية سنوية، واستذل حاكم دمشق مجير الدين للصليبيين حتى أنه سمح لهم بدخول دمشق، وأخذ الإتاوة من أهل البلد، وسمح لهم باستعراض الرقيق من النصارى الذين أسرهم المسلمون في حروبهم معهم وإطلاق من شاءوا منهم، فضاق أهل الشام بحاكمهم ذرعًا وحاصروه وبعض أعوانه في القلعة، فتحايل نور الدين في استمالة حاكم دمشق حتى لا يستعين بالفرنجة، وحاول ملاطفته وكان يخطط في الوقت نفسه للاستيلاء على المدينة كما استطاع نور الدين استمالة كثير من القواد والأمراء حتى قل أعوان حاكم دمشق، وفي هذه الأثناء، كتب مجير الدين إلى الفرنجة ليدافعوا عنه، وبذل لهم الأموال، فأسرع نور الدين بدخول دمشق قبل وصول الفرنجة، وفرح

أنقاض أفاميا في سوريا.

بعلبك المدينة القديمة في لبنان، بالقرب من الحدود مع سوريا

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

أهلها فرحًا عظيمًا، وكان مجير الدين ما يزال في قلعة دمشق ثم استسلم لنور الدين على شرط أن يجعله في إمارة حمص، فوفى له نور الدين، ولكنه أحس بخيانته بعد ذلك فعزله، وبتولي نور الدين على دمشق سنة ٥٤٩هـ أصبحت بلاد الشام شبه موحدة في يده لا ينازعه عليها أحد،[١] كما دخلت بعلبك تحت سيادة نور الدين سنة ٥٥٢هـ بعد تسليمها من قبل أميرها العربي، كما استولى على العديد من المدن والمواقع الأخرى منها بصرى وتوابعها سنة ٥٥٥هـ.[٢]

وأثناء تلك الأعمال وبعدها تيسر لنور الدين توجيه ضربات موجعة إلى الصليبيين في شمال الشام أو جنوبه دون الدخول في مشاكل مع القوى الإسلامية الأخرى، كما أصبحت أجناد الشام موحدة في وجه الأعداء بعد تفرقها بين الأمراء المختلفين سابقًا، وقد أضطر نور الدين إلى الدخول مع الصليبيين في بيت المقدس في هدنة مؤقتة يستمر فيها في دفع الأموال التي كان يدفعها أمير دمشق سابقًا حتى يتمكن من ترتيب أمورها، وقد تجرأ الصليبيون على نقض هدنتهم مع نور الدين سنة ٥٥٢هـ، دون أية مقدمات،[٣] فعمل نور الدين في موجة جديدة من الجهاد.

وخـلال هـذه الفترة المذكورة عمـل نور الدين علـى توحيد الصـف الإسلامي فإنه لم يتوقف عن الجهاد فقد حارب سنة ٥٤٤هـ إمارة أنطاكية الصليبية، وخرب

١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٩٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٣١.
٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٤٧، ١٤٩، ١٦٣، ١٨٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٢٨ ـ ١٢٩.
٣. انظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٨٤٣.

قلعة حارم ورحل منها إلى (إنَب) فحاصرها فتجمعت حشود يقودها «البرنس» صاحب أنطاكية وهو أحد عتاة الفرنجة، ووقعت بينهم وبين نور الدين وجنده معركة حامية انهزم فيها الفرنجة وقتل فيها «البرنس» ملك أنطاكية، ثم حاول أهل أنطاكية الجمع لنور الدين وكروا عليه ولكنه هزمهم مرة أخرى[1] كما فتح حصن أفامية سنة ٥٤٥هـ.

وفي سنة ٥٤٦هـ وقعت معركة كبري بين نور الدين و«جوسلين» أحد أمراء الصليبيين وصاحب تل باشر وغيرها من القلاع الصليبية حول حلب فهُزم نور الدين، وقتل جماعة كبيرة من أتباعه وأسر حامل سلاح نور الدين وأصبح «جوسلين» يتهكم بنور الدين، حيث بعث سلاح نور الدين إلى أحد أمراء السلاجقة وهو صهر لنور الدين وقال له: هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه، فتأثر نور الدين وأخذ يتصيد «لجوسلين» وواعد فرسان التركمان من يأتيه «بجوسلين» حيًّا أو ميتًا فله جائزة عظيمة فتمكن بعضهم من أسره وقد خرج إلى الصيد، فأحضر إلى

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٤٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٢١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٢٨. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج١/٧٨٩.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

منظر لقلعة مرغات أو مرقاب بالقرب من بانياس سوريا

نور الدين فأجاز آسريه، ثم أخذه معه أسيرًا إلى حلب وقتل هناك سنة ٥٤٦هـ،[١] وكان أسر «جوسلين» وقتله من أهم أعمال نور الدين التي ذاعت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما أنه بعد ذلك تمكن بالتدرج من احتلال المواقع التابعة له مثل تل باشر وغيرها.

وقد خاض نور الدين معارك مختلفة مع مملكة أنطاكية ومملكة طرابلس، وفي إحدى تلك المعارك التي وقعت سنة ٥٥٨هـ بالقرب من طرابلس هزم نور الدين وكاد يقع أسيرًا أو قتيلاً في يد الصليبيين لولا شجاعة أحد الأكراد المسلمين الذي ساعد في نجاة نور الدين من بين أيديهم،[٢] وقد أصر نور الدين على قتال الصليبيين مرة أخرى والانتقام لما أصابه والمسلمين معه في تلك المعركة، فجمع الأجناد، من مختلف البلاد الشامية، وصمم على التوجه إلى حارم وفتحها فأعد الصليبيون قوات من مختلف إماراتهم للتصدي لنور الدين، حيث اجتمعوا سنة ٥٥٩هـ تحت قيادة «بوهمند الثالث» صاحب أنطاكية و«ريموند الثالث» صاحب طرابلس وعامل الروم

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٢٣. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٧٩٣. وانظر: د. مسفر الغامدي، الجهاد ضد الصليبيين، ص ٢٥٩.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٢٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٢٩٤.

على قلقيلية، فاضطر نور الدين إلى الانسحاب من حارم لاستدراجهم فتبعوه إلى مكان بين أنطاكية وحلب فهجم عليهم نور الدين بمن معه من مجاهدي المسلمين، وأوقعوا بالروم هزيمة نكراء قتلوا فيها ما يزيد على عشرة آلاف من جندهم ووقع فيها أمراؤهم أسرى في أيدي المسلمين، وتمكن نور الدين بعدها مباشرة من الاستيلاء على حارم وقد كان بإمكانه الهجوم على أنطاكية، ولكنه آثر التريث في ذلك خشية الدخول في معركة مع البيزنطيين في وقت لم يكن فيه على استعداد لمواجهتهم.[1]

وفي السنة نفسها ٥٥٩هـ - ١١٦٣م قام نور الدين بالهجوم على بانياس وحاصرها وضيق على أهلها حتى تمكن من أخذها بالقوة رغم محاولة الصليبيين إنقاذها[2] وقد قام نور الدين سنة ٥٦١هـ بالهجوم على حصن (المنيطرة) بالقرب من طرابلس،

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٠١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٤٤. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٨٨٩. د. مسفر الغامدي، الجهاد الإسلامي، ص ٢٧٠.

٢. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٨٩١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٠٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/ ١٤٧. د. مسفر الغامدي، الجهاد الإسلامي، ص٢٧١.

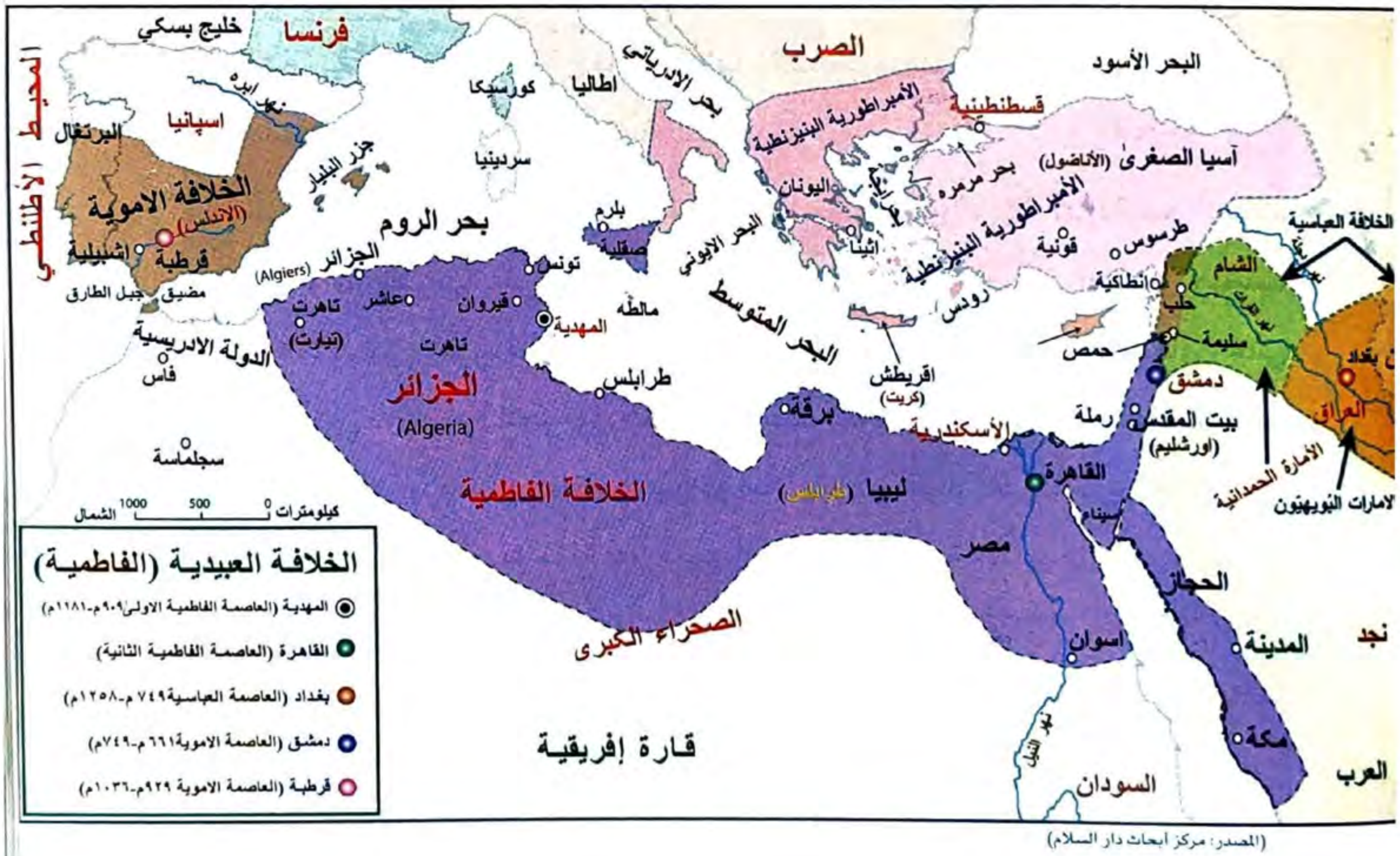

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

وتمكن من احتلاله بالقوة وقتل وسبى من فيه من الصليبيين وغنم من ذلك مغانم كثيرة.[1]

وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة أخرى في جهاد نور الدين تمثلت في الصراع مع الصليبيين في مصر ومحاولة إبعادهم عنها والسيطرة على مصر تمهيدًا لضمها مع الشام لتصبح قوة واحدة في مواجهة الصليبيين.

فقد كانت الدولة الفاطمية تمر بمرحلة ضعف والوزراء في الدولة هم الحكام الفعليون والمسيطرون على الأوضاع في مصر، والصراع بين القواد على منصب الوزارة قائم على أشده، وسفكت في ذلك دماء كثيرة وكل منهم مستعد للتعاون حتى مع الصليبيين دون تورع للحصول على هذا المنصب والخليفة الفاطمي العاضد لدين الله يتفرج على الأوضاع ويرضي بتوزير من يفرض قوته على آخرين ومن يأتي برأس منافسه، وقد حدث نزاع بين أمير الجيوش المصرية «شاور بن مجير الدين» و«مستنصر الدين علي ضرغام» الذي تمكن من التغلب على الوزارة بالقوة وقتل بعض أبناء «شاور» فحضر «شاور» إلى دمشق مستنجدًا بنور الدين على ضرغام، طالبًا

١. ابن الأثير، الكامل، ج ٣٢٢/١١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١٤٨/١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢٥١/١٢. ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٣٦٧/٥.

إرسال الجند معه إلى مصر لمساعدته على استعادة منصبه مقابل أن يعلن ولاءه لنور الدين، وقد تردد نور الدين نظرًا لخطورة الوضع على الجبهة مع الصليبيين، ونظرًا لأن الصليبيين في مملكة بيت المقدس خصوصًا سوف يتدخلون في مصر، وسيجدون من يساعدهم من الخونة، وستفتح على نور الدين وأجناده جبهات أخرى تفوق قواته، وفي الوقت نفسه كان نور الدين يرغب في موالاة مصر للشام ووجود قوة إسلامية فيها تعيد لمصر شبابها وتعيدها إلى الصف الإسلامي الصحيح بعيدًا عن المتعاونين مع الصليبيين، من الباطنية وأتباعهم، وبعد تردد شديد قرر نور الدين مساعدة الوزير «شاور» على استعادة منصبه المفقود بإرسال قائد من قواده وهو «أسد الدين شيركوه» مع مجموعة من الجند قدرت بألفي مقاتل وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ، وقد قام نور الدين بمناورات عسكرية في ممتلكات الصليبيين حتى يشغلهم عن جيش (أسد الدين شيركـوه) الذي كان في طريقه يمـر بالأعداء الصليبيين، وتمكن (شيركوه) من الوصول إلى مصر، ودارت بينه وبين ضرغام معركة انتهت بانتصار «شيركوه» على جند ضرغام ثم قتل بعد ذلك وصفا الجو لـ «شاور»

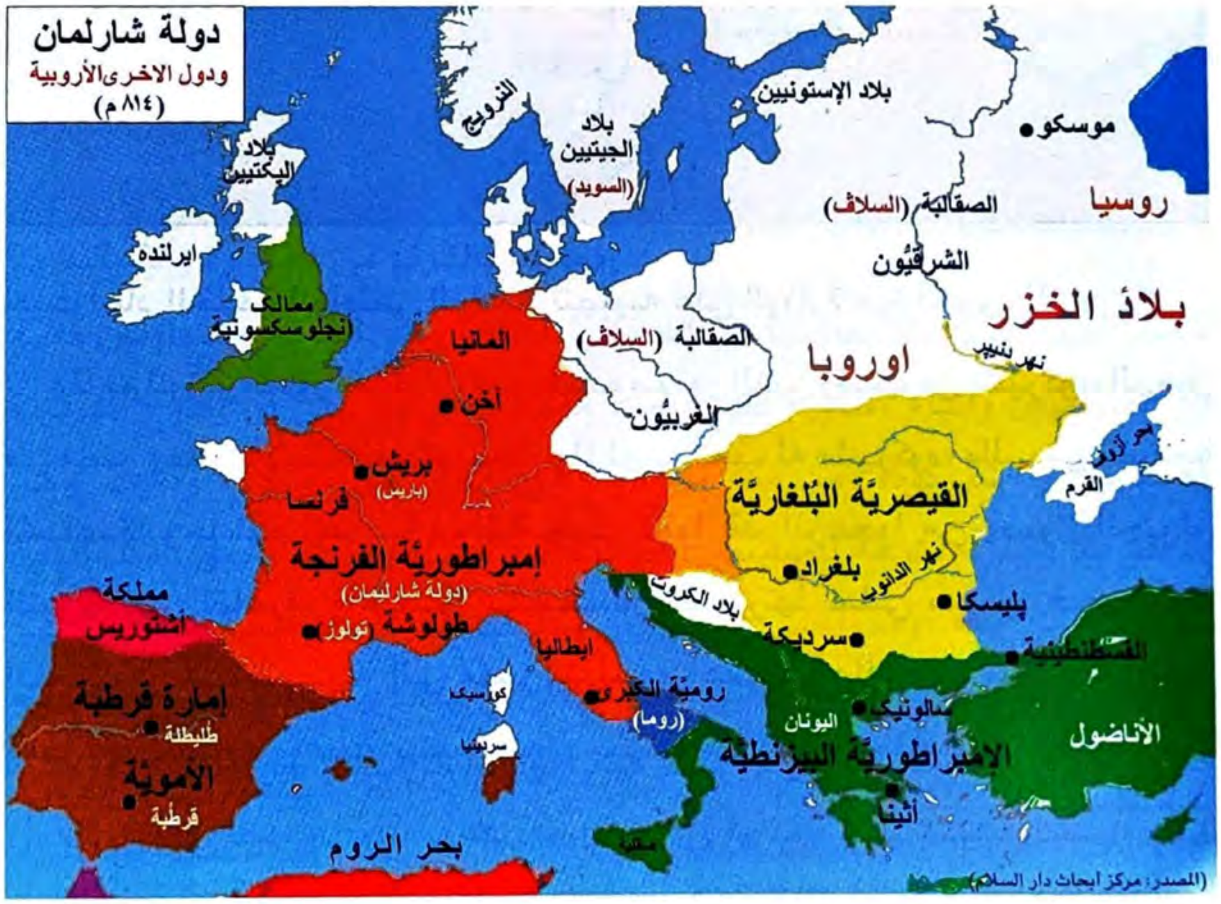

حيث أعاد الخليفة الفاطمي العاضد تنصيبه على الوزارة مرة أخرى.[1]

ولما تم للوزير «شاور» ما أراد نقض عهده مع نور الدين وطلب من «شيركوه» الرحيل من مصر وهدد بالاستعانة بالفرنجة، ولما لم يستجب له «شيركوه» طلب من الفرنجة المساعدة، وجاءتهم الفرصة مواتية حيث كانوا قد انزعجوا من وصول الجيوش النورية إلى القاهرة، وأحسوا باحتمال سيطرتها على مصر، فحضرت الجيوش الصليبية إلى مصر يترأسها «عموري» ملك بيت المقدس، وتعاون معها الفاطميون ووقعت بينهم وبين جيوش نور الدين مناوشات بالقرب من

١. انظر: ابن كثير، الكامل، ج١٢/٢٤٧. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٢٩٨. ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٣٦.

(بلبيس) انتهت بمصالحة على أن يخرج «شيركوه» بمن معه من الجند إلى الشام، وقد ضغط نور الدين بعد ذلك على الصليبيين في بلاد الشام فأوقع بهم هزائم في (بانياس) و(حارم) اضطرت الصليبيين إلى الانسحاب من مصر، وتوجيه قواتهم إلى نور الدين في الشام، فبعث مرة أخرى بـ(أسد الدين شيركوه)، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في حملته الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ لتأديب الوزير الفاطمي «شاور» الذي نقض عهده مع نور الدين واستدعي الصليبيين إلى مصر، وما أن علم «شاور» باقتراب جنود نور الدين حتى أسرع بالاستنجاد مرة أخرى بالصليبيين، الذين قدموا إلى مصر على عجل فدارت بينهم وبين أسد الدين وجنده بعض المعارك بالقرب من القاهرة والإسكندرية انتصر أسد الدين في معظمها، ولكنه نظرًا لكثافة جند الفرنج والمتعاونين معهم من الفاطميين وأتباع «شاور» فقد وقعت مصالحة بينهم على أن يخرج الفرنجة الصليبيون و «شيركوه» ومن معه من أتباع نور الدين من مصر،[1] وبقيت بعض المناطق في مصر مفتوحة للصليبيين، حيث كانت لهم بقايا رغم رحيل «أسد الدين شيركوه» ومن معه، وقد أحس الصليبيون بضعف الدولة الفاطمية وعجزها عن مقاومتهم بعد رحيل الجيوش النورية، فكتبوا إلى ملك بيت المقدس يلحون عليه بدخول مصر مرة أخرى، ولكن دخولهم هذه المرة لم يكن بطلب من «شاور»، فقدموا

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج٣٢٤/١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢٥٢/١٢. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٧. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٩١٨/٢.

رسم توضيحي (دمياط) خلال الحرب الصليبية

بقوات كبيرة وجرت بينهم وبين القوات المصرية مناوشات أدت إلى احتراق أحياء كبيرة من القاهرة وإلى تأذي الناس،[1] وسارع الوزير «شاور» للاستنجاد بنور الدين ناسيًا خيانته السابقة، ولم يتردد نور الدين في إرسال (أسد الدين شيركوه) للمرة الثالثة ويصاحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي كان بدأ يبرز كفارس من فرسان عمه «شيركوه»، ولما اقتربت جيوش (أسد الدين شيركوه) رحل الصليبيون من مصر دون قتال وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ،[2] وأصبحت قوات نور الدين هي المسيطرة في مصر دون منازع، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى قبض أتباع «شيركوه» على الوزير الفاطمي «شاور» وقتلوه، فقام الخليفة بتعيين «أسد الدين شيركوه» وزيرًا فاطميًا، فأصبحت الوزارة الفاطمية في مصر لقائد من أخلص قواد نور الدين، وأصبحت أجناد مصر وممتلكاتها ودولتها كاملة بيد نور الدين محمود بطريقة مباشرة لضعف الخلافة الفاطمية مع بقائها اسميًا، وبعد فترة استمرت شهرين وخمسة أيام توفي «أسد الدين شيركوه»، فعُين صلاح الدين الأيوبي من بعده

١. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٥٥. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/٩٣٠.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٦٠. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٣٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٥٥. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٨.

وزيرًا للخليفة الفاطمي العاضد،[١] وبدأت مصر وبل والعالم الإسلامي بأسره مرحلة جديدة في العديد من القضايا وعلى رأسها الجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا أكثر الناس تضررًا بهذا التغير.[٢]

وهكذا نلاحظ أن نور الدين محمود جاهد جهادًا عسكريًا وسياسيًا ضد الصليبيين، وكانت حلبة الصراع في المرحلة الأخيرة هي مصر التي أدرك كل من نور الدين والصليبيون في وقت واحد أهميتها في الصراع الجاري بينهما خصوصًا أن مصر الفاطمية كانت تقف موقف المتفرج من الصليبيين بل أن حكامها ووزراءها لم يتورعوا عن الاستنجاد بالصليبيين ضد بعضهم البعض ، وكانت الدولة الفاطمية تحتضر، ومع ذلك فقد صبر نور الدين وصابر وأرسل الحملة تلو الأخرى إلى مصر ولم ييأس حتى كان النجاح حليفه، تمكن أتباعه من السيطرة التامة على مصر ويئس الصليبيون منها بعد أن دخلوها عدة مرات بل وصاروا ييأسون من الشام كلها لوجود قوة موحدة في الشام ومصر كان كل

القلعة الفاطمية في القاهرة

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٤١، ٣٤٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٥٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٦٨.

٢. يقول وليم الصوري: «قد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات دفعتنا من حالة سلمية آمنة إلى وضع قلق مضطرب، لقد لبت جميع موارد مصر وثرواتها الضخمة حاجاتنا، وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجانب ولم يكن هناك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب وكان البحر يقدم ممرًا آمنًا وسليمًا إلى الذين يرغبون بالقدوم إلينا، وكان بإمكان شعبنا دخول الأراضي المصرية دون خوف أو وجل والقيام بأعمال الشراء والبيع وفق ظروف مواتية، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسلعًا غريبة إلى المملكة لم تكن معروفة حتى الآن بالنسبة لنا، وكانوا يقدمون لنا منافع كثيرة وشرفًا، كلما قدموا بزيارتنا، وعلاوة على ذلك فإن المبالغ الطائلة التي أنفقوها كل عام بيننا أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشخصية للأفراد بيد أن حدث العكس الآن تغيرت الأمور إلى الأسوأ ..... وحينما التفت لا أجد سوى أسباب الخوف والقلق فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقًا آمنًا والعدو يسيطر على جميع المناطق المجاورة الأخرى التي تستعد لإبادتنا»، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/٩٣٦.

همها تطهير بلاد الشام من الصليبيين الغزاة، ومع كل هذا الجهاد والهم الذي حمله نور الدين طيلة خمس سنوات في محاولته السيطرة على مصر فإنه لم يتوقف عن مقارعة الصليبيين في الشام بل وفي مصر بكل ما يملكه من وسائل.

فقد قام الصليبيون سنة ٥٦٥هـ بالإغارة على مصر من البحر وتمكنوا من الوصول إلى دمياط ومحاصرتها وضايقوا جند صلاح الدين بها ولّما تستقر له أوضاع مصر، فاستنجد بنور الدين فأهمه أمر المسلمين بمصر وبدأ هجومًا معاكسًا على مراكز الصليبيين في الشام وأهمه الأمر حتى ذكر عنه أحد العلماء كان يقرأ بحضرته حديثًا عن التبسم فطلب منه بعض الحاضرين أن يبتسم فرد عليهم نور الدين رحمه الله: «إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج»،(١) وبدأ نور الدين بإرسال الإمدادات إلى مصر في الوقت الذي كان يضغط فيه على الصليبيين قبل الشام مما أضطرهم إلى الانسحاب من مصر خائبين بعد حصار

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٨٢.

الإسكندرية

لدمياط دام خمسين يومًا.

وقد حاول نور الدين أن يقوم بحلمة على الصليبيين بالتنسيق مع صلاح الدين، وطلب منه الإعداد لذلك، لكن صلاح الدين كان يعتذر بانشغاله بترتيب أحوال مصر وخوفه من أن يثب بعض الأجناد بمصر فيفسدوا ترتيبها وهذه الأعذار لم ترق لنور الدين الذي كان شغله الشاغل مقارعة الصليبيين،[١] ومع ذلك فقد سكت على مضض، وكادت أن تقع وحشة بين نور الدين وصلاح الدين لولا نجاح والد صلاح الدين في تهدئته وفي تطويعه لأميره نور الدين.

توفي نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ،[٢] بعد أن روى غرسة

---

١. د. مسفر الغامدي، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، ج١/٣٢٠.

٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢٠/٢٣٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٧٧. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٢٠٤. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠/٢٤٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٥٨. لمزيد من التفاصيل عن نور الدين محمود وسيرته وأعماله راجع: د. عماد الدين خليل، نور الدين محمود الرجل والتجربة. د. حسين مؤنس، رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق.

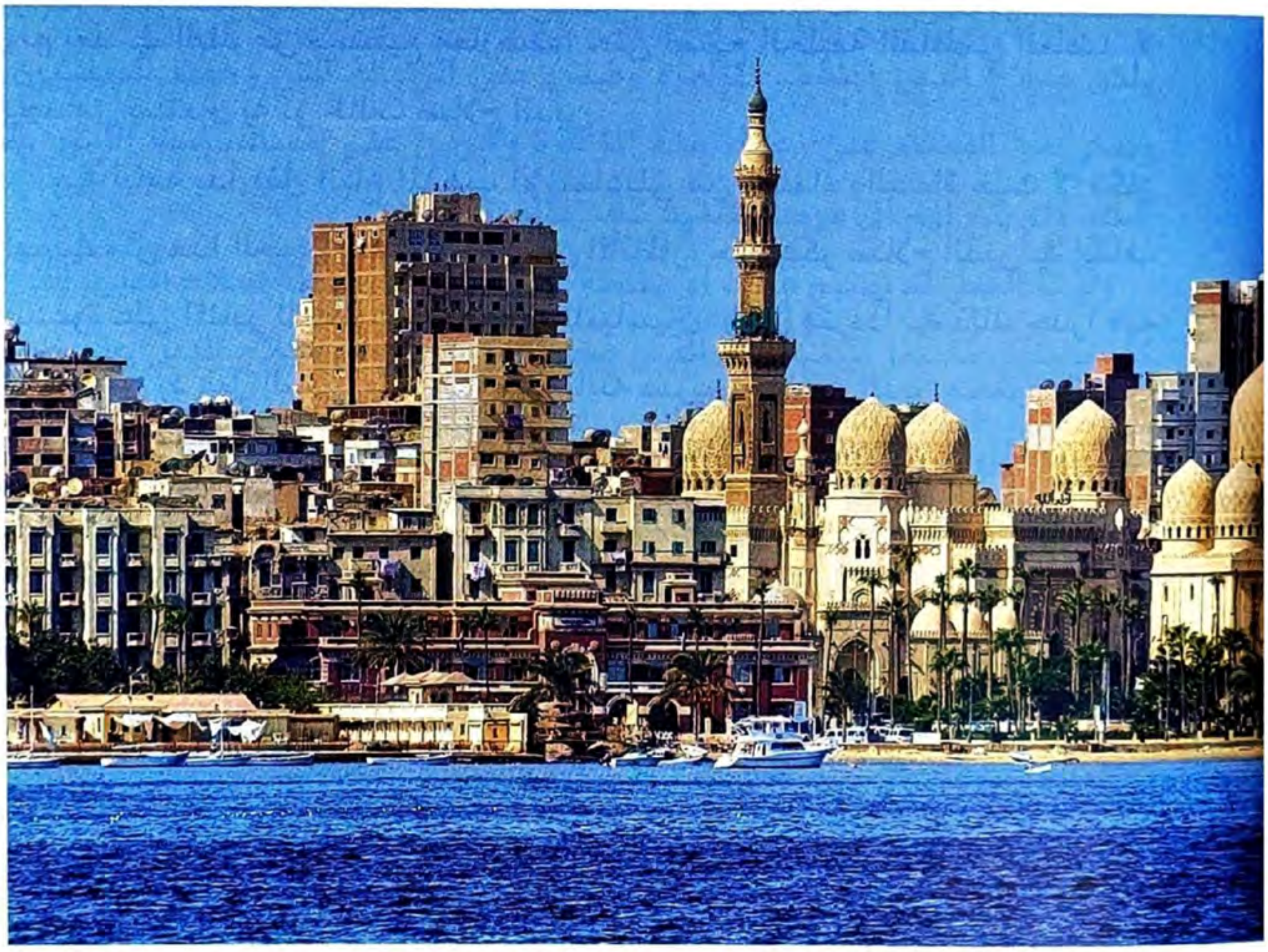

الجهاد التي غرسها والده بدماء الشهداء وعرق المجاهدين وجراحهم، وبعد أن غـرس غـرسة جديدة حملت راية الجهاد بتأسيس الأمور في مصر لصلاح الدين الأيوبي جنديًا جديدًا من جند الجهاد الإسلامي.

## (ج) جهاد صلاح الدين الأيوبي:

كان صلاح الدين الأيوبي أحد الجنود الأكراد المرافقين لعمه «أسد الدين شيركوه» في حملته على مصر سنة ٥٥٨هـ،[1] وأبلى بلاء حسنًا أثناء حصار الفرنج للصليبيين للإسكندرية سنة ٥٦٢هـ،[2] وقد كان شابًا فتيًا حينما تهيأت له الظروف لحكم مصر، إلا أنه لم يكن له ما يميزه عن قواد نور الدين الآخرين في بداية الأمر، وحينما مات عمه «أسد الدين شيركوه» اختير وزيرًا من بعده حلاً وسط بين القواد المختلفين، حيث كان في منافسيه من هو أقدر منه علي المنصب، وبعد اختياره جد في العمل ونجح في تثبيت سلطته بالتدريج بالتعاون مع بقية قواد نور الدين في مصر وتمكن من القضاء على مراكز القوى التابعة للفاطميين والتي من الممكن أن تحدث له مشاكل، ولم يعد في البلد من يستطيع معارضته، حتى أصبح الخليفة الفاطمي العاضد لا يجد من يستعين به لو خالف صلاح الدين.

وفي أيامه بدأ يقل أتباع المذهب الإسماعيلي من العلماء والدعاة حيث لا مكان لهم في مثل هذا الجو، وبدأوا يختفون عن الأنظار، حتى فكر صلاح الدين في إيقاف الدعوة على المنابر للفاطميين وإعلانها للعباسيين، وكان مترددًا في ذلك حذرًا فيه يخشي من رد فعل الناس، ولكن الأوامر جاءته صريحة من نور الدين محمود بالدعاء للخليفة العباسي وإيقاف الدعاء للفاطمي، وكان هذا يعني سقوط الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وهذا ليس بالأمر الهين على أتباعها ودعاتها، فخاف بعض الأئمة من هذا الأمر ولكن رجلاً يعرف بالأمير العالم «لما رأى ما بهم من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها، فلما كان يوم الجمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمس مئة صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة الإمام المستضي بنور الله فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع الخطبة للعاضد

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٢٩٨. ابن شداد، النوادر السلطانية واليوسفية، ص ٣٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٤٧.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٥٣. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٣٦. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٤١.

وإقامة الخطبة للمستضيء بنور الله العباسي ففعلوا ذلك فلم يتحرك مخالف لذكر ولا منكر له وانتظر الأمر، وكوتب الخطباء في ذلك في سائر الأقاليم وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يُعلمه أهله بذلك وقالوا: إن سلم فهو يعلم فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ثم توفي العاضد في يوم عاشوراء من السنة ٥٦٧هـ»[1] وقد كانت الظروف في صالح صلاح الدين حيث أن وفاة العاضد في هذا الوقت بالذات قطعت الطريق على دعاة الفاطميين.

وقد عمت الفرحة جميع أنحاء العالم الإسلامي بانتهاء هذه الدولة التي فضلت خلال سنواتها الأخيرة التعامل مع الصليبيين الفرنجة على مد يدها إلى المسلمين الآخرين، وكان أشد الناس فرحًا بهذا الأمر نور الدين محمود رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي طير المبشرين بهذا الخبر إلى بغداد وإلى كل مكان، ولا شك أن الفضل يعود بعد الله له أولاً ثم لصلاح الدين الذي باشر العملية بنفسه.

وقد حاول بعض رؤوس النظام الفاطمي المنقرض التجمع مرة أخرى والاستعانة بالصليبيين، حتى إذا خرج إليهم صلاح الدين بجنده سيطروا على مصر مرة أخرى، ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة وقبض على الرسالة التي وجهها الصليبيين، وتمكن من القضاء على زعماء هذه المؤامرة وحرص على إمساك زمام الأمور في البلد، ولم يتح لهم أي فرصة لتنفيذ تلك المؤامرة.[2]

وبهذا العمل لم يصبح هناك أي سلطة في مصر سوى سلطة صلاح الدين، الذي كان بالطبع خاضعًا اسميًا لنور الدين محمود حيث حرص صلاح الدين على عدم منازعة نور الدين وكان لأبيه أثر واضح في هذا مما أبعد الخلاف، وجعل أفكارهما مشتركة في التعاون معًا لصد الغزاة الصليبيين وتطهير البلاد الإسلامية منهم، مع أن صلاح الدين يتخوف من أن يعزله نور الدين ويعين قائدًا آخر مكانه.

وكانت جهوده الأولى موجهة إلى ترتيب أحوال مصر وإعادتها إلى الصف الإسلامي الصحيح بعد الحكم الفاطمي الباطني الذي استمر ما يزيد على مئتي سنة، فقد تملك

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/ ٢٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/ ٢٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج ١١/ ٣٦٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠/ ٢٣٧. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٤٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/ ١٥٨.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/ ٢٤٤. ابن شداد، النوادر السلطاينة، ص٤٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/ ١٦٥. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٤٩.

قلوب الناس بكثرة عطاياه ثم سمح في بداية حكمه بافتتاح مدارس سنية، وكانت أول مدرسة أسسها بنفسه مدرسة الشافعية سنة ٥٦٦هـ، كما جعل القضاء إلى أحد علماء الشافعية بعد أن كان هذا المنصب مقصورًا على الإسماعيلية، وكان يكثر من مجالسة العلماء الصالحين من أهل السنة، حيث يتردد على مجلس أحد العلماء ثلاثة أيام في الأسبوع لسماع الحديث ويحرص على أن يسمعه أولاده،[1] وكان يستمع إلى الشعراء الصادقين الذين كانوا يذكرونه باستمرار بالقدس الأسيرة ووجوب فكاكها ومن هؤلاء عماد الدين الكاتب الذي أنشده في أحد الأيام قصيدة قال فيها:

فسر وافتح القدس واسفك به
دمًا متى تجرها تنظف
وأهدي إلى السبتار البتار
وهد السيوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلاد
يخلصك ربك في الموقف[2]

ولذلك فقد كانت القدس شغله الشاغل ومن بحضرته من العلماء والشعراء والأدباء يذكرونه ذلك باستمرار.

ومنذ أن تولى مصر وهو يفكر بجهاد الصليبيين، ويرى أن تكون البداية بالهجوم على مواقعهم الساحلية، ولكن الصليبيين بدأوه قبل أن يبدأهم، فقد فرضوا عليه أن يكون أول جهاد يخوضه وهو مدافعة هجومهم على دمياط في صفر سنة ٥٦٥هـ بقوات برية وبحرية من مملكة بيت القدس ومن البيزنطيين وغيرهم، وقد تعاون صلاح الدين وقواده مع قوات من الشام بعثها نور الدين، وتمكنوا من مقاومة حصار الفرنج، والقيام بهجوم معاكس حيث أحرقوا كثيرًا من سفنهم وتمكنوا من قتل عدد كبير من جندهم مما جعلهم يعلنون عجزهم ويعقدون معاهدة مع المسلمين تمهلهم

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٥٦. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/٢٨٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/ ٢٠٦.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٥٧.

عدة أيام للجلاء، وعند الجلاء تعرضت سفنهم البحرية لرياح عاتية أغرقت معظمها ولم يكد ينجون منهم أحد إلا القلة القليلة،[١] وقد أثبتت هذه المعركة أن التعاون بين جند المسلمين في مصر والشام له ثمرة كبيرة لا يستهان بها كما أثبتت تعاون نور الدين مع صلاح الدين في صد هذا العدوان الصليبي.

وبعد ذلك قام صلاح الدين بالهجوم على الرملة وعسقلان وغزة في العام نفسه وأرهب الصليبيين بها.[٢]

كما كان من أوائل أعمال صلاح الدين العسكرية الهجوم على قاعدة بحرية في جزيرة على بحر أيلة ـ خليج العقبة ـ أقامها الصليبيون بالقرب من أيلة وكان يمكنهم منها الاعتداء على سفن المسلمين في البحر الأحمر حيث يستطيعون تهديد سفن الحجاج وإغراقها، وقد عمل صلاح الدين على صناعة سفن مفككة في القاهرة ثم نقلها إلى ناحية البحر على الجمال وركبت في البحر وهجم منها على تلك القلعة في الجزيرة وتمكن من أخذها وأسر وقتل جميع من فيها من الصليبيين وكان ذلك في

١. ابن واصل، مفرج الكروب ج١/١٨١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٦١، ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٥١. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج ٢/٩٤١، ٩٤٥.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٩٨.

ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ.[١]

وفي تلك الفترة من سنة ٥٦٦هـ إلى ٥٦٩هـ حاول نور الدين محمود أن يتعاون مع صلاح الدين في شن غارات مشتركة على المواقع الصليبية في الشام، ولكن الظروف لم تكن مناسبة حيث انشغل نور الدين بتوحيد بعض أجزاء الشام وضمها إلى الدولة النورية كما انشغل صلاح الدين في الوقت نفسه بترتيب أحوال مصر، والسيطرة على الحجاز واليمن،[٢] وبالتالي لم تتهيأ الفرصة لجهاد مشترك بين نور الدين وصلاح الدين ضد الصليبيين إلى أن توفي نور الدين رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ، فأصبح صلاح الدين الزعيم الإسلامي المواجه للصليبيين.

## توحيد جبهتي مصر والشام:

كان صلاح الدين يدين بالولاء لنور الدين محمود ويعتبر نفسه تابعًا له وأميرًا من أمرائه، وبعد وفاة نور الدين تغيرت الأحوال فقد أحس أنه واحد من الأمراء الباقين، مع أنه كان أكثرهم تأهيلاً لتولي الأمور بعد نور الدين ومع ذلك حرص على عدم الاصطدام ببقية الأمراء خصوصًا أن بعضهم تمسك بالملك الصالح إسماعيل بن نور الدين رغم أنه كان طفلاً صغيرًا ومع هذا فقد كان صلاح الدين سياسيًا، وحريصًا على أن لا يستغل بعض القواد والأمراء وضعاف النفوس هذا الأمر، ويسيروا الأمور باسم ذلك الشاب الحدث بمقتضى مصالحهم الخاصة على حساب مصالح المسلمين وجهادهم، ولذلك فقد كان الأمر صعبًا وشائكًا لصلاح الدين، وكان عامة أهل الشام مهتمين أشد الاهتمام لوفاة نور الدين وخشيتهم من الفراغ الذي حدث وخوفهم من الصليبيين في بلاد الشام واستغلالهم للظروف، وما قد يحدث من نزاع ولذلك فإن العلماء رغبوا أن يكون الأمر لصلاح الدين أكثر من غيره،[٣] لعلمهم بانشغاله في جهاد الأعداء، ومع ذلك لم يستجب قواد دمشق وحلب لهذا الأمر وأصروا على إبعاد صلاح الدين وتحكمهم بالصالح إسماعيل مباشرة، بل ومحاولتهم السيطرة على

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/ ٣٦٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/١٩٩.

٢. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج١/٢٣٧. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٤٦. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/١٦٥.

٣. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ١٦٦.

الكرك.. المسجد الحميدي معلم عثماني من ذاكرة الأمة والتاريخ (شاهد)

صلاح الدين باسمه وأنه الخليفة لأبيه نور الدين ونزعًا للخلاف فإن صلاح الدين قد عمل على أن تكون الخطبة في بلاده للصالح إسماعيل[1] إعلانًا للوفاء والوحدة ولكنه في الوقت نفسه كان حريصًا على أن يتولى هو شؤون الصالح إسماعيل بنفسه، وأن يبعد عنه أولئك المنتفعين الذين يتسببون باستمرار الخلاف والفرقة، وقد كان بعض أولئك الأمراء يعقدون الهدنة مع الفرنجة لأجل التفرغ لمواجهة صلاح الدين كما أنهم تعاونوا مع الإسماعيلية ليكونوا صفًا واحدًا في مجابهته، وقد استغل الفرنجة تلك الظروف وهجموا على بعض المواقع ومنها (بانياس) وحاولوا الاستيلاء عليها ولكنهم لم ينجحوا،[2] ومع كل هذه المشاكل فإن صلاح الدين ظل يناور أحيانًا ويبذل المال أحيانًا أخرى ويعاقب أحيانًا ويستعمل اللين والعنف، لأجل توحيد الصف في بلاد الشام خوفًا من الأعداء الفرنجة، واضطر لترك كثير من البلاد في يد قواد معاندين وغير خاضعين له حتى لا يبدد صف جنده، وظل يسايس هذا الأمر ما

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٤.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٧. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٠٨.

يزيد على عشر سنوات بعد وفاة نور الدين،[1] ومع هذا فإنه لم يتوقف عن مواجهة الصليبيين خلال تلك الفترة بل كان له معهم جهاد طويل.

## الإعداد للجهاد:

لقد وعي صلاح الدين منذ أن كان جنديًا في صفوف نور الدين أهمية إعداد القوة وبذل الأسباب للجهاد، ولا شك أن مجالسته المستمرة للعلماء أوصلته إلى هذه القناعة بالإضافة لخبرته العسكرية، فلما أصبح مسؤولاً مباشرًا بنفسه بعد وفاة نور الدين محمود ولديه الصلاحية في توجيه الأموال، صرفها في هذا الأمر بعناية كاملة فجعل التجهيز والإعداد من أكبر همومه، ولذلك فإنه حرص على بناء القوة العسكرية الإسلامية، متمثلة في بناء الرجال وتجميعهم وبذل لهم الأموال التي يحتاجونها حتى يتفرغوا للجهاد، كما أنه ربى مجموعة من القادة الثقات الذين يعتمد عليهم في مختلف الأمور وبذل لهم الأعطيات والأموال ما جعلهم أكثر راحة للعمل معه، كما أنه رحمه الله جعل أكبر همومه استنقاذ الأسرى المسلمين من أيدي

١. لم يتمكن صلاح الدين من حلب وهي من أهم مدن الشام، ومن قواعد الجهاد فيه إلا بعد عدة منازلات وبعد وفاة الصالح إسماعيل ومنازلة لقواد من بعده حتى استسلمت له في شهر صفر من عام ٥٧٩هـ (وانظر: الذهبي. سير أعلام النبلاء، ج٢١/٢٨٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٠٥، ٤٠٨. ٤١٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢ ـ ٤.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الصليبيين، حتى ولو لم يكونوا من أتباعه، وكان يبذل الأموال الطائلة في ذلك،[1] ومن ثم يعود هؤلاء للجهاد مرة أخرى، ولمحبة الناس لصلاح الدين فقد كان كثير من العلماء والمتطوعة ينضمون إليه،[2] ويرغبون في الجهاد في صفه، ويبذل هؤلاء المتطوعة من التضحيات والفداء وحب الشهادة أكثر مما يبذله الجند النظاميون، وقد كان صلاح الدين وقواته يواجهون أذى كبيرًا من الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ الذين قتلوا بعض رجال وقواد صلاح الدين،[3] وحاولوا اغتيال صلاح الدين نفسه أكثر من مرة وكادوا أن ينجحوا في أحداها، حيث كان خمسة منهم قد اندسوا في جند صلاح الدين فهجم أحدهم عليه فقَتل وقُتل ثم هجم الثاني والثالث وكلهم يحاول قتل صلاح الدين حتى أنهم وصلوا إليه وأصابوه ولكنه كان يلبس بعض الملابس الواقية التي منعت السلاح من التأثير فيه،[4] ولذلك فقد وجه بعض جهوده لقمعهم ومنعهم من أذى المسلمين.[5]

كما أنه رحمه الله اعتنى بقمع الأرمن حيث كانوا يروعون المسلمين المجاورين لهم فغزاهم صلاح الدين في ديارهم وأدبهم واضطرهم إلى احترام المسلمين وإطلاق من بأيديهم من الأسرى.[6]

وقد عني رحمه الله بمختلف أنواع التسليح في عصره فكان يجمع الأسلحة ويشجع على تصنيعها ويبذل الأموال الطائلة في ذلك، كما اهتم بالمنجنيقات والدبابات ومختلف آلات الحصار.[7]

وكذلك عني بالمواقع العسكرية البرية منها والبحرية، فقد حرص على تحصين

---

١. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٧٦، ٨٢، ١٤٧. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٩٣.

٢. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٦٤، ٨٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/١٨٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/٢٨٢.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٦٣.

٤. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٤، ٤٤. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٥٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٣٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٩٣.

٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٤٧. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٣٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٩٣.

٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٩٩. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢/١٦، ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٦٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٠٥.

٧. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢/٤٤. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٦. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/١٨١.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

القاهرة عاصمة دولته وبذل في ذلك الأموال وعمل فيها من الأسوار والحصون ما لم تشهد مثله،[١] كما قام ببناء العديد من الحصون في مواجهة العدو في بلاد الشام،[٢] وفي الوقت نفسه انشغل بالتطهير العسكري للمواقع الصليبية التي تفصل بين حصون المسلمين،[٣] وتهدد مواقعهم العسكرية أو طرقهم التجارية، لتأمين اتصال بعضهم ببعض، وفي الوقت الذي حرص صلاح الدين على بناء القوة الإسلامية في مختلف المجالات فإنه عمل على تحطيم قوى الأعداء واستنزافها وإشغالهم باستمرار عن الاستعداد الأمثل فقد كان يشن الغارة تلو الأخرى على مواقعهم، ويحطم ما يبنون من قلاع وحصون إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، ومن ذلك عمله على تحطيم حصن بيت (الأحزان) الذي بناه الصليبيون بالقرب من دمشق،[٤] كما كان يفاوض الفرنجة ويحاول إغراءهم بالتنازل عن بعض الحصون مقابل أموال يدفعها لهم فإن رفضوا ذلك استعمل معهم القوة، وقد قام بهذه الخطة مع الصليبيين في حصن بيت الأحزان القريب من دمشق والذي كان يهددها باستمرار حيث عرض عليهم الأموال التي وصلت إلى مئة ألف دينار لكي يتركوا الحصن فلما رفضوا ذلك هجم عليهم وحاصره أربعة عشر يومًا حتى تمكن من فتحه وأسر قواد الصليبيين فيه، فاستبقاهم عنده وأراهم بعيونهم وهو يهدمه مع المسلمين صخرة صخرة وقد غنم المسلمون من هذا الحصن وحده قرابة مئة ألف قطعة سلاح أصبحت في نحور الأعداء وندموا على عدم بيعه للمسلمين،[٥] وفي الوقت نفسه فإن المواقع التي لا يتمكن من الاستيلاء عليها فإنه يعمل على التضييق عليها في تموينها الخارجي وفي محاصيلها الزراعية الخاصة بها.[٦]

كما كان يعقد الهدنة مع بعض الصليبيين، وفي محاولة منه لتفتيت قواهم وعزل

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥٢/٢، ٦٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧٨/٦.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٨٤/٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١٨٦/٧.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٦٥/٢، ٦٨.

٤. ابن واصل، مفرج الكروب ج٧٢/٢. ابن الأثير، الكامل، ج٤٥٥/١١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣٠٣/١٢.

٥. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٨٠/٢، ٨١. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٤٥٦/١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣٠٣/١٢.

٦. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٧٥/٢، ١٨٦. ابن الأثير، الكامل، ج٥٢٧/١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣٢٠/١٢.

بعضهم عن بعض وتفريق صفهم أحيانًا، وقد نجح في ذلك وتمكن من إيقاف بعضهم على الحياد أو استمالتهم أحيانًا في الوقت الذي كان يجاهد قسمًا آخر منهم مع أنهم في كثير من الأحيان لا يفون بتلك المعاهدات، ومع ذلك فقد كان لمن يغدر منهم بالمرصاد.[1]

## الجهاد البحري:

في الوقت الذي كان صلاح الدين يعمل على إعداد قوات المسلمين البرية وتجهيز تحصيناتها، فإنه لم ينس القوات والأساطيل والقواعد البحرية، حيث كانت لها أهميتها القصوى في هذا الصراع، مقابل الأساطيل الصليبية التي تقوم بجلب الأعداد البشرية الكبيرة للفرنجة من أوروبا والتموينات والأسلحة ومختلف أنواع العتاد، لأن المسلمين قد ضيقوا الطرق البرية عليهم، ولذلك فقد اعتني صلاح الدين ببناء السفن البحرية المنقولة برًا والتي تنقل قطعًا متفرقة على الإبل إلى المواقع المطلوبة ثم يتم تركيب تلك القطع في البحر وضم بعضها إلى بعض لتشكل سفنًا قتالية بحرية،[2] وقد كانت أساطيل المسلمين أيام صلاح الدين تجوب بحر الروم - البحر الأبيض المتوسط - وكذلك بحر القلزم (الأحمر) لتحمي سفن المسلمين فيها وتضيق علي سفن الأعداء.

لقد عانى المسلمون أيام صلاح الدين من مجابهة الروم بحريًا وخصوصًا مقابل سواحل مصر والشام.

فقد قامت سفن فرنجية مشتركة على رأسها سفن صقلية في أواخر ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ بمهاجمة الإسكندرية من البحر بقوة بحرية قوامها (٢٥٠) سفينة وأنزلت ما يزيد على ألف وخمس مئة من الفرسان إضافة إلى ما يقرب من ثلاثين ألف جندي راجل، وحاولوا الاستيلاء على الأسطول الإسلامي في ميناء الإسكندرية ولكن المجاهدين عطلوا ما يمكن تعطيله من السفن التي لم يستطيعوا الدفاع عنها

١. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١١٣، ١٨٥، ١٨٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٢٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣١٩.

٢. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٧٧، ١٢٧، ١٣١. أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢/٣٦، ٣٧. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٩٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣١١.

انتقلت مملكة القدس إلى أيدي الأيوبيين بعد انتصارهم على الصليبيين في معركة حطين عام ١١٨٧م

حتى لا يستفيد منها الأعداء، وقد حاصر الفرنجة الإسكندرية، وضربوها بالمنجنيق، وحاولوا اقتحامها بالدبابات، فتصدى لهم المجاهدون من أهل الإسكندرية، وقتل منهم سبع مئة شخص في اليوم الأول وفي اليوم الثالث من الحصار خرج أهل الإسكندرية بشجاعة متناهية وهاجموا الأبراج والدبابات وآلات الحصار وأحرقوها، وقاتلوا الفرنجة قتال الأبطال وتمكنوا من إغراق بعض سفنهم وأسر البعض الآخر، ووقعت الهزيمة في صفوفهم ولم ينج منهم إلا القليل الذين فروا بسفنهم تاركين خيامهم وأسلحتهم وأمتعتهم،[١] وكان هذا الغزو الصليبي البحري من أكبر الامتحانات لصلاح الدين وجنده (عليه رحمة الله) في بداية ولايته بعد وفاة نور الدين محمود.

وقد كان أسطول صلاح الدين البحري في تلك الفترة يجوب بحر الروم باستمرار

١. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٦. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٨٧.

ليقطع الطريق بين أوروبا والفرنجة في بلاد الشام، والتي كانت تمد الممالك الصليبية باستمرار بالجنود والسلاح والعتاد ففي سنة ٥٧٤هـ تمكن الأسطول من أسر بعض السفن التي كانت تحمل ما يقرب من ألف مقاتل.[١]

وقد فكر الصليبيون في سنة ٥٧٨هـ بالوصول إلى المدينة المنورة عن طريق بحر القلزم (الأحمر)، وكان هذا أحد أهدافهم حينما بنوا قوة في جزيرة أيلة - خليج العقبة - ولكن المسلمين تمكنوا من الاستيلاء عليها، فأعد الفرنجة مجموعة من السفن وجهوها في بحر القلزم (الأحمر) وأخذت تقطع الطريق على سفن المسلمين التجارية كما تعرضت لبعض السفن التي تحمل الحجاج وأغرقتها وأخذت تقتل وتسلب المتوجهين بحرًا إلى الحجاز وقد أغاظ ذلك صلاح الدين (رحمه الله) فوجه إليهم بعض السفن الإسلامية التي منعتهم من إيذاء المسلمين وضيقت عليهم، فهربوا في نواحي عيذاب من الأراضي السودانية فلحق بهم المسلمون برًا وأسروهم وأمر صلاح الدين رحمه الله ببعضهم أن يساقوا في موسم الحج وينحروا مع الهدي،[٢] الذي يقدمه المسلمون في الحج فكان هذا تأديبًا لكل من تسول له نفسه من الصليبيين إيذاء الحجاج أو الوصول إلى الوصول إلى الحجاز.

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٧٧.

٢. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٢٨. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/١٩٠. أبو شامة، الروضتين، ج٢/٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣١١. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٠٣. نخبة من الأساتذة، تاريخ البحرية المصرية، ص ٥٦٩.

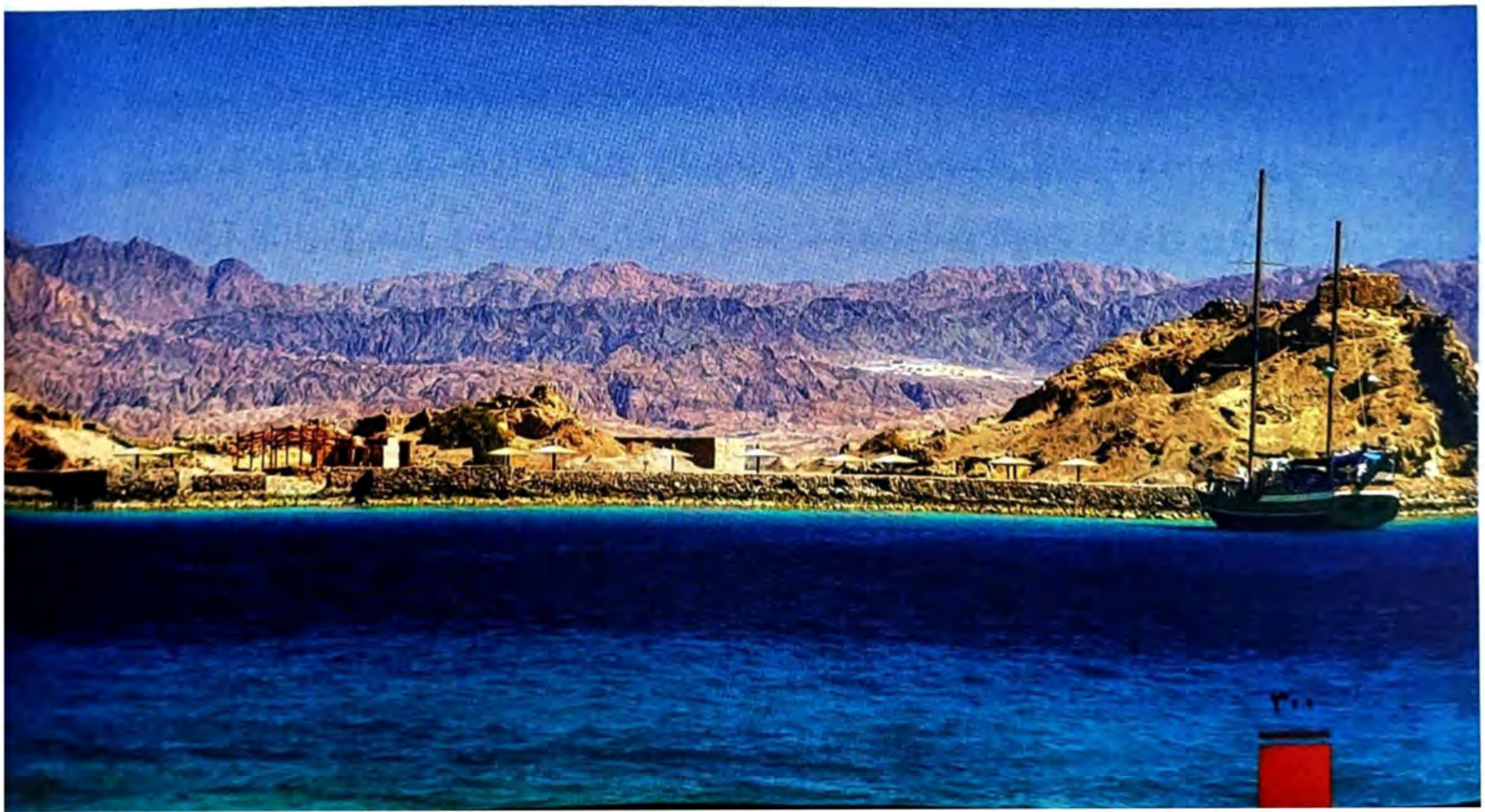

وفي نفس السنة ٥٧٨هـ تمكن الأسطول الإسلامي من الإغارة على بعض الجزر الصليبية في البحر الأبيض. كما استولى على بعض السفن المتوجهة إلى عكا وبها أخشاب ومعدات ونجارون لصناعة السفن فأخذها المسلمون واستفادوا منها وحرموا منها الأعداء.[١]

كما تصدى الأسطول الإسلامي سنة ٥٧٩هـ لسفن صليبية متوجهة بالمقاتلين والأسلحة من أوروبا إلى الصليبيين في سواحل الشام، فغنم المسلمون منها سفينة كبيرة وأسروا فيها ما يزيد على ثلاث مئة مقاتل بكامل أسلحتهم وعتادهم. [٢]

## الجهاد البري:

لا شك أن الممالك ألتي أنشاها الصليبيون كانت معظمها داخل البر الإسلامي في بلاد الشام، ولذلك فإن الصراع بين المسلمين والصليبيين كان في غالبه صراعًا بريًا، بالإضافة لما ذكرنا من أهمية البحر في ذلك الصراع، وقد كانت القدس هي الهدف الأساسي لصلاح الدين الأيوبي، وكان يرى أن بقاءها في أيدي الصليبيين يعني باستمرار تفكيرهم في مواقع أخرى قد تصل إلى الحجاز نفسه وأن طردهم يعني يأسهم من بقية مواقعهم الأخرى في بلاد الشام،[٣] ولذلك فإنه خاض بنفسه

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٣١ . وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٩٥. المقريزي، السلوك، ق ١ ج ١/١٠٣.
٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/ ١٣٩. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٠٤.
٣. انظر: أبو شامة، الروضتين، ج١/٢٤٣. ابن واصل، مفرج الكرب، ج٢/٢٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢١٥.

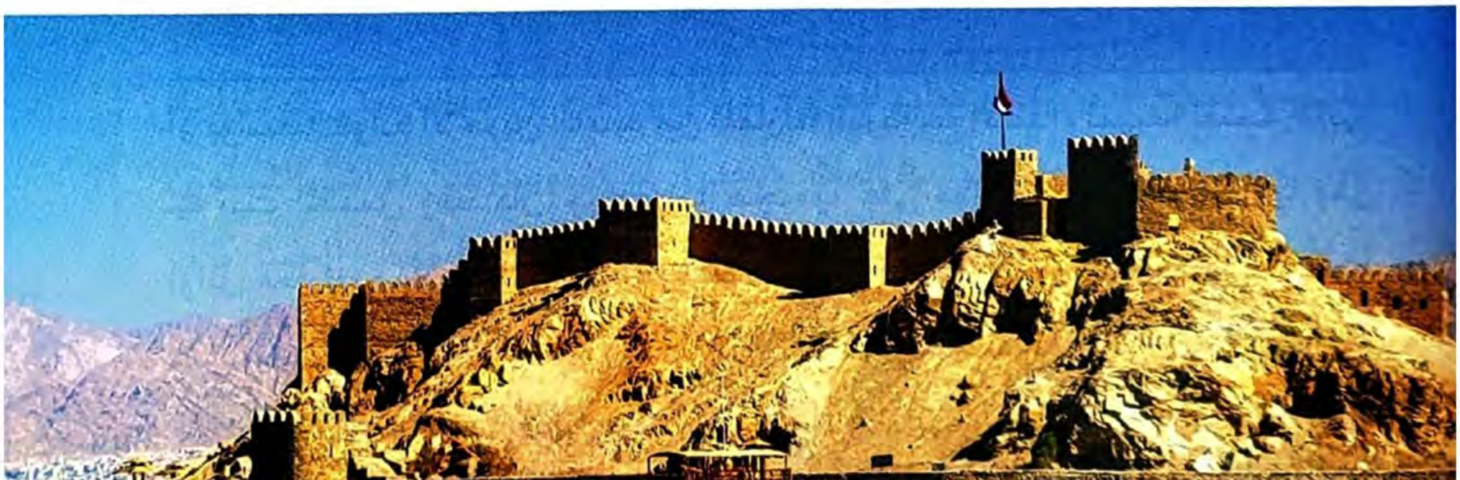

أو بواسطة قواده الآخرين العديد من المعارك البرية مع الأعداء تمهيدًا لفتحه الكبير في بيت المقدس وقد كان جهاده إما هجوميًا على مواقع الأعداء أو دفاعيًا ومن أوائل معارك صلاح الدين مع الصليبيين، المساعدة في مقاومة هجومهم العسكري على (بانياس) سنة ٥٦٩هـ،[1] وقد قام بالاستعداد لمهاجمة الصليبيين في الشام سنة ٥٧٠هـ ووصل حتى نواحي مرج الصفر، فأتاه الصليبيون وعقدوا معه هدنة أطلقوا بموجبها بعض أسرى المسلمين فكف عنهم،[2] وقد تعاون بعض الأمراء المسلمين في

١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٤٠٨/١١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٧/٢.

٢. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣٥/٢. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٤١٨/١١.

حلب مع (البرنس) صاحب أنطاكية في محاولة منهم للإيقاع بصلاح الدين ومن معه من جند المسلمين في شوال سنة ٥٧١هـ ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمته رغم ضعف قواته.[١]

وقد تعرض المسلمون للهزيمة من الفرنجة أكثر من مرة ومن ذلك أن صلاح الدين خرج في جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ للإغارة على العدو في نواحي الرملة في فلسطين، فتمكن من غنيمة العدو وأسر وقتل جموعًا من رجالهم، وقد حاول صلاح الدين عبور أحد الأنهار مع جنوده، ولكنهم فوجئوا بهجوم مباغت من الصليبيين تزعمه (البرنس) صاحب أنطاكية فانكسر المسلمون وانهزموا وتفرق شملهم وقتل وأسر كثير من الجند، وكان ضمن القتلى بعض الأمراء من أقارب صلاح الدين نفسه، كما كان ضمن الأسرى بعض العلماء والفقهاء، وقد كاد صلاح الدين نفسه أن يقع بيد الأعداء، ولكن الليل حال بينهم، فسار في قلة من أصحابه وتاه في الطريق ووصل مصر بعد إعياء شديد وبعد فقد معظم جنده المرافقين له، وقد كانت هذه الوقعة من أعظم ما ابتلي به صلاح الدين رحمه الله ومع ذلك فما ازداد إلا تصميمًا على الجهاد، فقد خرج بعد شهرين من تلك الحادثة إلى الشام بغرض مجاهدة الصليبيين مرة أخرى حيث تمكن من تأمين طرق المسلمين.[٢]

في سنة ٥٧٤هـ كان صلاح الدين في دمشق وقد جاءته الأنباء باستعداد الصليبيين وتجمعهم للإغارة على المواقع الإسلامية يتزعمهم ملك بيت المقدس وبعض قواده، وقد وجه صلاح الدين بعض قواده للخروج لقتالهم، وأمره أن يمهلهم حتى يتوغلوا في بلاد المسلمين، وبالفعل توغلوا في البلاد وأخذوا يقتلون ويسوقون مواشي المسلمين وأنعامهم، فهجم عليهم المسلمون هجومًا صاعقًا وقتلوا وجرحوا معظم الجند، وكاد ملك بيت المقدس أن يقع في أيديهم لولا الدفاع المستميت من بعض مساعديه بعد أن تمكن المسلمين من إصابة فرسه فنجا بصعوبة، وكان لهذه الهزيمة دورها في إرباك

---

١. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٨. أبو شامة، الروضتين، ج١/٢٥٥. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٢٧.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٦٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٤٤٢. أبو شامة، الروضتين، ج١/٢٧٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٢٩٧. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٣. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٨٧.

مسجد قلعة صلاح الدين
(محمد علي) القاهرة.

مملكة بيت المقدس وإشعارهم بخطر صلاح الدين وقواده.[1]

وقد استعد «أرناط» صاحب الكرك سنة ٥٧٧هـ بقوات كبيرة كان ينوي التوجه بها إلى نواحي تيما ومنها إلى المدينة المنورة، فبادر صلاح الدين بتوجيه قواته للتصدي له، فسارت تلك القوات إلى منطقة الكرك، وأخذت تغير على بلده مما أضطره للانسحاب، ثم توجهت تلك القوات لتحول بينه وبين تيماء هدفه، ولما رأى «أرناط» حماس تلك القوات وعلم أنها لن تدع الطريق ولا الإغارة على بلاده إلا عند تفريق جنده، بادر بتفريق تلك الجموع التي أعدت لهذا الغرض وانتهى عما نوى[2] ومع ذلك فقد حاول الصليبيون مرة أخرى الإغارة على نواحي تيماء، سنة ٥٧٩هـ، فخرجوا

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢/٧١. أبو شامة، الروضتين، ج ٢/٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٧٠. المقريزي، السلوك، ق١ج١/٨٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٠٠.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٠١. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٩٨. الأثير، الكامل، ج١١/٤٥٢.

فيما بينها وبين أيلة فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم وفرقوا جمعهم[١] كما هاجم صلاح الدين بنفسه جموعًا للصليبيين حول (صفورية) وجرى بينه وبينهم قتال ومطاردة من مكان إلى مكان فقتل وأسر كثيرًا منهم، كما هاجم الكرك مرة أخرى في نفس العام حتى أرهق العدو واستنزفهم.[٢]

وقد هاجم صلاح الدين الكرك مرة أخرى سنة ٥٨٠هـ هجومًا قويًا وصاعقًا حيث أقام المنجنيقات وآلات الحصار عليها وتمكن من نقب أسوارها وتخليص بعض الأسرى المسلمين من أيدي أهلها، كما ردم المسلمون خندقها استعدادًا لاقتحام المدينة، ويذكر «أنتوني برج» قصة طريفة لصلاح الدين أثناء حصارها حيث كان هناك زواج قائم للأمراء أثناء الحصار يقول: «وأرسلت أم العريس السيدة الوريثة لما وراء الأردن شخصيًا بعض الأطباق من مائدتها إلى صلاح الدين مرفقة برسالة تقول إنها لو علمت أنه سيقدم لأعدت شيئًا خاصًا لضيف نبيل، وبشكل لم يتفوق عليه أحد، استعلم صلاح الدين الذي كان رجلاً متسمًا بالفروسية والكياسة عن الجزء الذي يسكنه الزوجان العروسان من القلعة وأصدر أوامره بعدم قصفه بينما

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٤٠. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٠١، ٥٠٢.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٤٨، ١٥٠. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/١٠٤٢.

قلعة صليبية في الكرك الأردن

استمرت آلات الحصار تقصف الصخور الكبيرة على الأجزاء الأخرى»،[١] وقد أهم الصليبيين أمر الكرك فتجمعوا من كل جهة لفكاكها بقيادة «بلدوين» ملك بيت المقدس فاضطر صلاح الدين لترك حصارها لمواجهة الجموع القادمة من النصارى ولكنهم تحايلوا والتجأوا إلى بعض المواقع ولم يتمكن المسلمون من لقائهم ثم أنهم تمكنوا من الوصول إلى الكرك ودخولها وتعزيز حامياتها فيئس منها صلاح الدين في تلك الغزوة وعاد منها،[٢] وفي طريق عودة صلاح الدين من الكرك أغار على العديد من المواقع والمدن الصليبية وعلى رأسها نابلس حيث تمكن من استنقاذ مجموعة من أسرى المسلمين في تلك المناطق.

## التمهيد لفتح القدس:

وبعد هذه المحاولة لفتح الكرك وغيرها وجه صلاح الدين جهوده لبعض الوقت في محاولة لتوسيع دولته في مناطق جديدة في بلاد الشام والجزيرة وبعض المناطق الأخرى،[٣] وكان هذا التوسع يعني المزيد من القوات والجند في صف صلاح الدين وهذا بالطبع ما يرعب الأعداء ويخوفهم ويقرب من نهايتهم في بيت المقدس وغيرها، ولقد أحس الصليبيون بخطورة توسع صلاح الدين في البلاد الإسلامية، يقول وليم الصوري: «وسبب تقدمه ونجاحاته كثير من الإرباك للمسيحيين ونظروا بذعر كبير إلى الازدياد في سلطانه خشية أن يعود إليهم بتعزيزات كبيرة وبناءً عليه عقد في القدس في شهر شباط اللاحق اجتماع عام لجميع نبلاء المملكة للتداول حول الوضع وكان هناك خوف كبير من عودته كما تم ذكر ذلك وتقرر لذلك السبب استخدام كل وسيلة ممكنة لمقاومته»،[٤] ولقد كان السؤال التالي للصليبيين هل يمكن إنقاذ

١. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٩١.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٥٨. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٠٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣١٤. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٠٨. وانظر: وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/١٠٧٠. وكذلك انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٩٠.

٣. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥١١، ٥١٨. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١١٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٣١٥. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/٢٨٠. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٦، ٥٧.

٤. وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، ج٢/١٠٥٤.

البوابة الشرقية الوحيدة للحرم القدسي

القدس؟[1] حيث تيقنوا أن الجولات القادمة مع صلاح الدين سوف تكون مركزة على بيت المقدس قبل غيرها إذ يعلمون أن الهدف المنشود لصلاح الدين.

لقد زاد ضغط صلاح الدين على الأمراء الصليبيين سنة ٥٨٢هـ حتى أن بعضهم حاول أن يكسب ود صلاح الدين، ومن هؤلاء (القومص) كونت طرابلس الذي كان بينه وبين ملك بيت المقدس معاهدة انضم بموجبها لخدمة صلاح الدين، فكان يغزو المواقع الصليبية لأبناء ملته كسبًا لرضا صلاح الدين،[2] كما قام «أرناط» صاحب الكرنك بعقد هدنة مع صلاح الدين حتى أمنت الطرق وكثرت القوافل بين مصر والشام وأصبحت تسير آمنة مطمئنة ولما رأى «أرناط» قافلة كبيرة من التجار والحجاج المسلمين اغتنم الفرصة غير آبه بالغدر الذي سيحدثه، فاستولى على القافلة وأسر من فيها من التجار والجند فأرسل إليه صلاح الدين يقبح فعله ويطلب منه إطلاقهم، فأصر على عناده وعصيانه، وطلب صلاح الدين تدخل ملك بيت

---

١. انظر: إلى العنوان الذي صدر به وليم الصوري أحد فصوله الرئيسة في كتابه: «تاريخ الحروب الصليبية»، ج٢/١٠٧٣.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٨٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٢٦. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١١٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣١٩.

قبة الصخرة في القدس

المقدس لحفظ المعاهدة التي كان هو طرفًا فيها ولكنه تجاهل الأمر فأقسم صلاح الدين إن ظفر بـ «أرناط» أن يستبيح دمه،[1] وكان قد أسر قبل ذلك عدة مرات من قبل المسلمين وأطلق في تبادل أسرى أو فداء.

وفي سنة ٥٨٣هـ حرص صلاح الدين في أولها أن يؤمن الطريق للحجاج العائدين من مكة قبل موجه جديدة من الفتح في الوقت الذي جمع فيه القوات الإسلامية من مصر والشام، وبعد أن أمن صلاح الدين على الحجاج بدأ الإغارة على المواقع الصليبية في (عين الصفر) وما جاورها وكسر تلك القوات في العديد من المواقع، ثم توجهت القوات الإسلامية إلى طبرية، وتمكنت من فتحها بالقوة في نفس اليوم واستعصت قلعتها على المسلمين فترة قصيرة من الوقت.[2]

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٨٦. ابن الأثير ، الكامل، ج١١/٥٢٨. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٨.

٢. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٢. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١١٨.

## معركة (حطين):

تعتبر معركة حطين أهم المعارك التي خاضها المسلمون مع الصليبيين فهي المقدمة المباشرة لاستعادة المسلمين لبيت المقدس.

أحس الصليبيون بعد استعادة المسلمين لطبرية أن بيت المقدس هو الهدف المقبل ولذلك تكاتفوا جميعًا واجتمعت قواتهم من مختلف الممالك النصرانية حتى أن الذين كانوا في صلح مع صلاح الدين نقضوا عهدهم وانضموا إلى بني ملتهم، وقد تجمع فرسان الداوية والاسبتارية، كما تجمع «أرناط» صاحب الكرك وخصم صلاح الدين العنيد، بالإضافة إلى ملك بيت المقدس «جاي»، كما اشترك في التجمع بطريرك بيت المقدس «هرقل» وأسقف عكا وقد حملوا معهم في هذه المعركة أعز رموزهم الدينية لديهم وهو صليب الصلبوت الذي يعتقدون أنه بقايا الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام،[1] وخروج هذا الرمز يعني عندهم أنها معركة حاسمة إذ أنه لا يخرج

١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٣٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٠. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٨٩. أبو شامة،الروضتين، ج٢/٨٠.

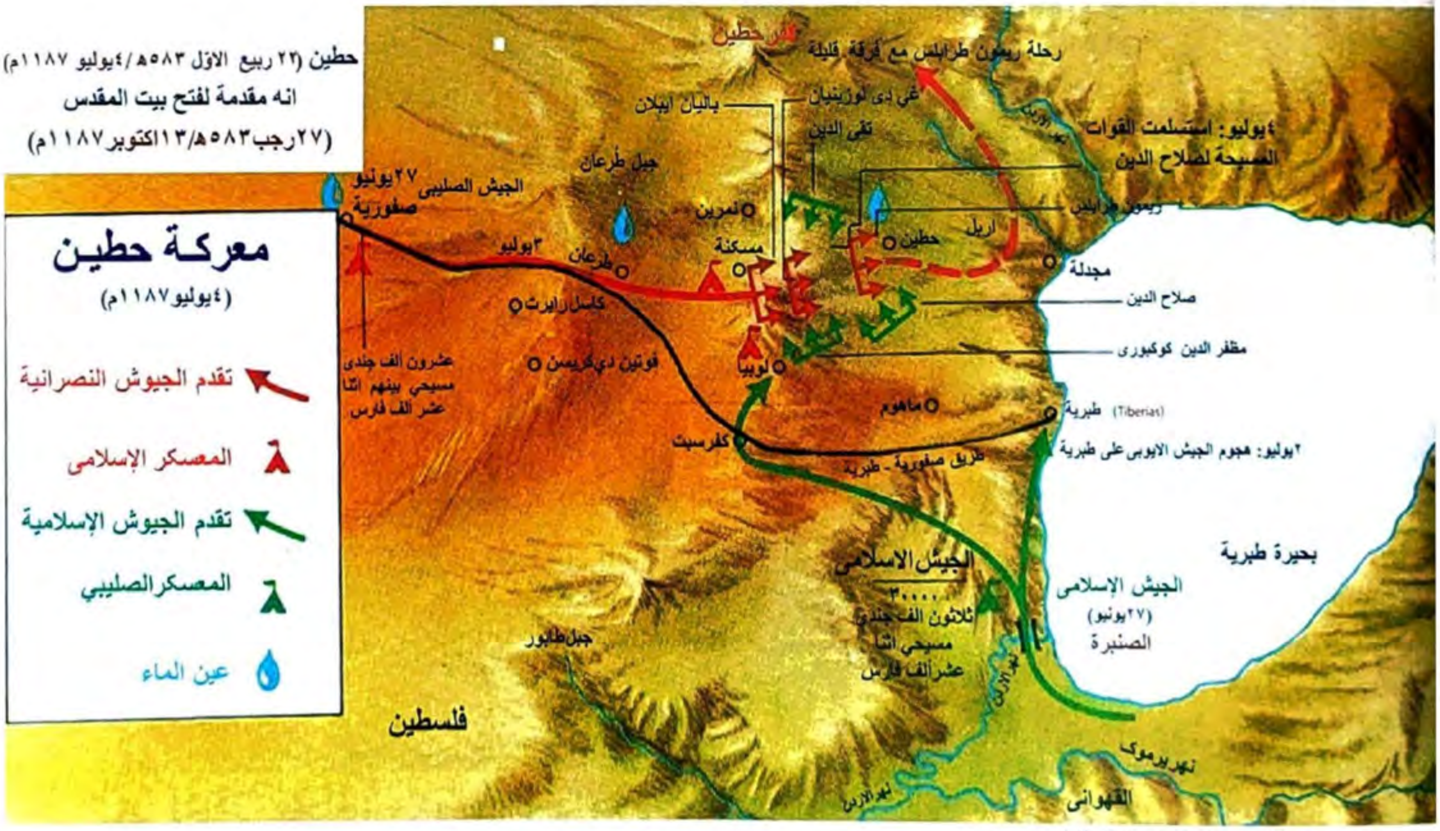


(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

صلاح الدين لحطين (الصورة تخيلية)

لكل المعارك، كان تجمع الصليبيين في صفورية وهي موقع أكثر تحصينًا وأوفر مياه من غيره ومع ذلك فقد خرجوا منه إلى حطين، وهي أقل مياه، وأكثر استواء وهذا الموقع يعني أيضًا مأساة للمنهزم أي كان لأن الموقع المكشوف لا ملجأ فيه إلا للسيف أو القوة، وقد فرح صلاح الدين والمسلمون بتحرك النصارى لهذا الموقع وتفاءلوا بذلك كثيرًا فأعد المسلمون أسلحتهم وملؤوا كنانهم بالنبل التي وفرت للجيش بكثرة فكانت أحمالاً مفرقة في المواضع المختلفة ليتزود منها المقاتلون، كما قام المسلمون بردم المياه الموجودة في المناطق المتوقع نزول الأعداء فيها، وما أن ظهر الصليبيون في أحد الهضاب القريبة من حطين، حتى أسرع المسلمون بالاصطدام بهم، فبادروا إلى التحصن وباتوا ليلتهم تلك، فلما أصبح الصباح اكتشفوا أنهم بعيدون عن المياه وأنهم محاصرون بالمسلمين من كل جانب، وقد بدأت أولى المعارك بينهم وبين المسلمين في صبيحة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ واستمر القتال طوال النهار وتوقف في المساء فما أصبح الفريقان في يوم السبت الخامس والعشرين منه، كان

الماء قد قل لدى الصليبيين وأصابهم العطش، إضافة إلى من أصيب منهم بجراح في اليوم السابق فحملوا على المسلمين حملات شجاعة ليصلوا إلى الماء ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد فردوهم وأسروا منهم وقتلوا وتجمع بقيتهم في جبل حطين ليحتموا به وهرب بعض قوادهم، فعمل المسلمون على إشعال النار في الحشائش المحيطة بمعسكرهم،[1] وكانت أرضًا مليئة بالحلفاء فارتفعت عليهم ألسنة النيران من كل جانب واجتمع عليهم حر النيران وحر الهاجرة والعطش وقلة الماء فحملوا على المسلمين وهو مستميتون ولكن الله ثبت أقدام المسلمين ومكنهم منهم فقتلوا جموعًا كبيرة منهم وأسرت مجموعات أخرى وحاولوا تجميع أنفسهم حول ملكهم أكثر من مرة ونصبوا لذلك خيمة واستماتوا في الدفاع عنه وعنها ولكن المسلمون

---

١ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٩٠. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٣٣٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٠.

معركة حطين

صدقوا العزم فلم يتركوهم حتى أزالوا خيمتهم،[1] وأسروا ملكهم وقد استولى المسلمون على صليبهم المزعوم صليب الصلبوت ففت ذلك في عضدهم وكثر الأسر فيهم، ولم يبق لهم أي مقاومة، وقد ذكر أنه كان الجندي الواحد من المسلمين يسير وقد قرن معه ما يقارب من ثلاثين أسيرًا دفعة واحدة، وكان ضمن الأسرى «أرناط» صاحب الكرك وخائن العهود والمواثيق وملك بيت المقدس «غي لوزنجان» وأخوه وعدد من أمراء المدن والبارونات، ولم ينج من تلك الألوف إلا آحاد من الناس، وبعد أن ظهر نصر المسلمين نزل صلاح الدين على الأرض وصلى لله شكرًا على نصره على هؤلاء الأعداء، وكانت أصوات المسلمون عالية بالحمد والتكبير والصلاة شكرًا لله على نصره،[2] ثم أحضر الأسرى بين يدي صلاح الدين، وفي مقدمتهم ملك بيت المقدس «غي» وأجلس إلى جانب صلاح الدين كما أحضر «أرناط» صاحب الكرك الذي غدر بالمسلمين العزل في وقت هدنة، وحاول صلاح الدين أن يذهب الروع عن ملك بيت المقدس فطلب ماءً مثلجًا ممزوجًا بماء الورد وأمر بإسقاء الملك «غي لوزنجان» وكان قد أخذه العطش، فشرب من الماء حتى إذا ارتوى قدمه «غي» إلى «أرناط» دون إذن من صلاح الدين، فقال له: لم آذن لك في سقيه وليس هذا أمانًا منا له، وهذا يعني أن صلاح الدين حينما سقى الملك فقد أمنه أما «أرناط» الغادر فليس آمنًا لأنه حتى لو شرب ماء صلاح الدين

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٩١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٣٦.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/ ٥٣٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٩١.

فليس بأمره ولا موافقته، وبعد ذلك أخذ صلاح الدين يؤنب «أرناط» على ما فعله بالمسلمين من غدر، وكان حينما غدر بالمسلمين وأسر وقتل منهم قال: قولوا لمحمدكم يخلصكم فقام صلاح الدين وقال له ها أنذا انتصر لمحمد فعرض عليه الإسلام فأبى ثم ضربه بنفسه بالسيف فقتله فلما رأى ملك بيت المقدس مقتل «أرناط» ظن أنه سيقتل من بعده فخاف وارتاع فأحضره صلاح الدين وطيب خاطره وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فتجاوز حده فجرى عليه ما جرى»، ثم رحل بقية الأسرى إلى دمشق حيث فرقوا في البلاد الإسلامية لإعلان الانتصار، وفي الطريق أمر بقتل جميع الاسبارتية والداوية، وهم فرسان خاصون قدموا لحرب المسلمين من أوروبا ومن غيرها.[1]

وكانت هذه النكبة للصليبيين ليس لها مثيل، يقول انتوني برج: «وكانت معركة حطين نكبة لا مثيل لها بالنسبة للمسيحيين في الممالك الصليبية فقد هزم جيشهم،

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٣٧. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١١٩، وانظر إلى أحداث وقعة حطين بتفصيل وافٍ عند ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢/ ١٨٨ ـ ١٩٧. وانظر: أنتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص١٩٧. والمعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٧١.

ولم يترك من الرجال المقاتلين سوى أولئك المنتشرين فوق الأرض في الحاميات وفي المدن والقلاع، وبدأ صلاح الدين يطهر بقاياهم بشكل همجي، وفي أوقات الفراغ، وفي هذه العملية أسر العديد من الصليبيين إلى درجة أنهم أصبحوا فيضًا في أسواق النخاسة في العالم الإسلامي، وكانت قيمتهم التجارية تهبط إلى مستوى منخفض، حتى أن رجلاً قايض رجلاً منهم بزوج من الأحذية»،[1] ولا شك أن في هذا الكلام مبالغة ولكن يصور الحالة النفسية التي وصل إليها الصليبيون بعد معركة حطين، ومع كل هذه الهزيمة التي ألحقها بهم صلاح الدين، فقد كان الصليبيون ينظرون إليه باحترام يقول انتوني برج: «كان الإسلام قد دخله لعدة قرون الفساد بالابتزاز غير المشروع والأنانية والكذب ونوع من إساءة الحكم والإجرام التي دمرت الدولة الفاطمية في مصر، والتي أصبح لديها الآن قائد برهن بنفسه أنه أهل ثقة تمامًا

١. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية،ص ١٩٧. وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢١.

وأنه الرجل الذي لم يعرف عنه أنه نقض عهده لصديق أو عدو، وكان ذلك شيئًا غير عادي في معايير ذلك العصر، وقارب أن يكون غير مصدق، حيث فاز باحترام هائل بين إخوانه المسلمين وبين خصومه المسيحيين».[1]

## فتح بيت المقدس:

أصبح الطريق ممهدًا أمام صلاح الدين للتوجه إلى بيت المقدس بعد حطين مباشرة حيث كان ملكها ومعظم قواده أسرى لديه، كما أن الممالك الأخرى مهمومة بما أصابها من هزيمة في حطين مع مملكة بيت المقدس، ومع كل هذا فإن صلاح الدين لم يتوجه إلى بيت المقدس مباشرة وإنما آثر أن يقوم ببعض الخطوات العسكرية في مناطق أخرى قبل أن يتوجه إلى بيت المقدس، فبذل جهده في احتلال العديد من المواقع القريبة من بيت المقدس، حيث توجه يوم الأحد ٢٦ ربيع الآخر أي بعد نهاية معركة حطين بيوم واحد إلى طبرية وحاصر حصنها، واستسلم أهله فأمنهم المسلمون وسمحوا لهم بالرحيل إلى طرابلس.[2]

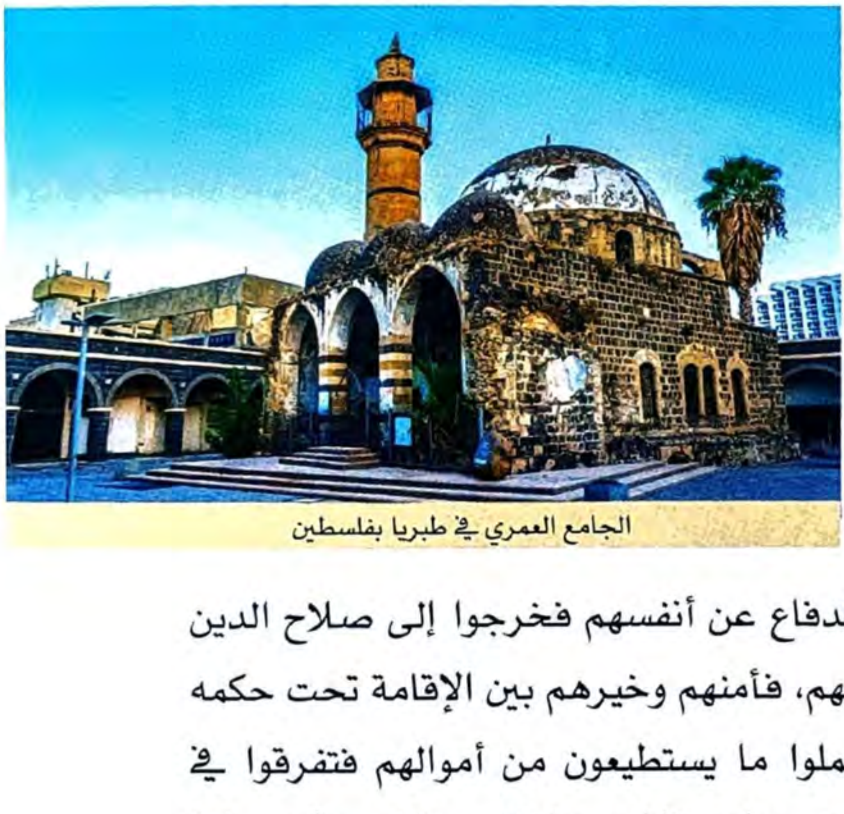
الجامع العمري في طبريا بفلسطين

وبعد ذلك بأربعة أيام كان صلاح الدين رحمه الله يحاصر عكا، ففوجيء أهلها بالحصار وكانوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم فخرجوا إلى صلاح الدين وهم يتضرعون ويطلبون الأمان لأنفسهم، فأمنهم وخيرهم بين الإقامة تحت حكمه أو الرحيل فاختاروا الرحيل وأن يحملوا ما يستطيعون من أموالهم فتفرقوا في البلدان،[3] وأقام المسلمون أول جمعة بعد حطين في إحدى كنائس عكا بعد أن حولها المسلمون إلى مسجد ولعلها كانت أحد المساجد التي قلبها الصليبيون إلى كنائس

١. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٩٨.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج١٩٥/٢. ابن الأثير، الكامل، ج٥٣٨/١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣٢٢/١٢. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٩.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢٠١/٢. ابن الأثير، الكامل، ج٥٣٩/١١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣٢٢/١٢. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٩.

بعد احتلالهم لعكا، وقد استمر في فتح المواقع والحصون التابعة لها ففتح ما يزيد على تسعة حصون.[1]

كما توجهت بعض جيوش صلاح الدين في الوقت نفسه إلى نابلس، وكان معظم أهلها مسلمين والسيطرة فيها للصليبيين فتمكن المسلمون من تخليصها من الصليبيين وأمنوهم على أن يكونوا أهل ذمة،[2] وقد وجه صلاح الدين في الوقت نفسه همه إلى الساحل حيث عمل على تطهيره من الصليبيين ففتح (تبنين) و(صيدا) و(بيروت) واستسلم أهلها وعاملهم المسلمون معاملة حسنة وسمحوا لمن أراد منهم بالرحيل كما اعتبروا من بقي منهم أهل ذمة،[3] وأطلق صلاح الدين في تلك الفتوح جموعًا كبيرة من المسلمين كانوا أسرى في أيدي الصليبيين وقد زادت أعدادهم على عشرين ألف أسير، قام صلاح الدين بكسوتهم وترحيلهم إلى أهلهم.[4]

وقد توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى عسقلان وكانت من أهم وأقوى المراكز العسكرية الصليبية، ولها موقعها العسكري الهام على طريق مصر الشام، واهتم صلاح الدين بفتحها لهذا الأمر، وقد استعصت على المسلمين فأقاموا عليها المنجنيقات وزحفوا عليها واستمر حصارها أربعين يومًا، وأهلها يرفضون التسليم ولكنهم أمام قلة الجند ونقص الإمدادات اقتنعوا بتسليم البلد وذلك في نهاية جمادى الآخرة وطلبوا أن يسمح لهم بالرحيل إلى بيت المقدس فسمح لهم بذلك،[5] وباستسلام عسقلان سلمت (غزة) والحصون المجاورة لها، فاستدعى صلاح الدين الأساطيل الإسلامية من مصر للمحافظة على تلك المواقع الساحلية الهامة.[6]

وعندما ضمن صلاح الدين حماية السواحل بالأساطيل الإسلامية ضد أي هجوم بحري متوقع توجه إلى بيت المقدس، وقد تجمع بها بقايا الصليبيين، يقودهم

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٠٢. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٧٩. ابن الأثير، الكامل، ج٢/٥٣٩-٥٤٠. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٢٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٢.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٠٢.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٠٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٢. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/ ١٨٠. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٢١.

٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٠٤، ٢٠٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٢.

٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٠. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٢. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٢١. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٨٠.

٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٠، ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٦.

البرج المائل في طبريا - فلسطين

بطريرك بيت المقدس، وصاحب الرملة وبقايا من سلم من حطين، ومن هاجر إليها من البلاد والحصون التي فتحها المسلمون وأمنوا أهلها على الرحيل، وكانت القدس مزدحمة بالمدافعين عنها، والذين يرون أن الموت أهون عليهم من استعادة المسلمين لبيت المقدس، التي كما هو معروف لها شأن كبير عند جميع الطوائف النصرانية، وقد كمن النصارى للطلائع الأولى من صلاح الدين فأوقعوا بهم وقتلوا قائدًا من أعظم قواده فأهم المسلمون أمره،[1] ولكنهم مع ذلك أصروا على التقدم إلى القدس. وصل المسلمون إلى أسوارها الغربية يوم الأحد الخامس عشر من رجب وكانت القدس مدينة محصنة تحصينًا عاليًا وبها من المقاتلين ما يزيدون عن الستين ألفًا معظمهم أهل خبرة ومدافعة،[2] مارسوا هذا الأمر في الحصون التي سقطت في يد المسلمين قبل ذلك، وقد بقي صلاح الدين وجنده خمسة أيام وهم يدورون بالمدينة يتحسسونها كالصقور، ويتسقطون أخبارها ويراقبون مواقعها العسكرية الدفاعية ليختاروا المكان المناسب للهجوم، وقد وقع اختيار المختصين العسكريين المسلمين على الجهة الشمالية من المدينة فلم يصبح الناس يوم الجمعة العشرين من رجب إلا وقد نصبت المنجنيقات على ذلك الجانب، وفي المقابل نصب الصليبيون منجنيقات

١. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٧. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٣.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٧. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١١. ابن كثير ، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٣. أبو شامة، الروضتين، ج٢/٩٤.

بقايا تحصينات
بناها الصليبيون

داخل أسوار القدس كانوا يرمون بها المسلمين، وتقاتل الفريقان قتالاً شديدًا، وكان شجعان الصليبيين يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد ويقاتلون المسلمين، والحماس شديد بين الطرفين فبقدر ما كان الصليبيون حريصين على الاحتفاظ بالقدس لوازع ديني عندهم، كان المسلمون أشد حرصًا منهم على استرداد المدينة لنفس الوازع الديني وأقوى واستمات كثير من المسلمين في القتال طلبًا للشهادة عند أسوار القدس،[1] وقد تحمس المسلمون في القتال حتى اضطروا فرسان الصليبيين إلى الالتجاء وعدم الخروج من المدينة ووصل المسلمون إلى الخندق، وتمكنوا من بدء النقب في الأسوار في الوقت الذي كانت المنجنيقات تمنع الأعداء من الدفاع عن الأسوار، حتى أيس الصليبيون من جدوى دفاعهم وأحسوا أن القدس مأخوذة منهم وأن المسلمين لن يدعوها، عند ذلك بدأوا التفاوض مع صلاح الدين على تسليم البلد، وهنا ذكرهم

---

١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٧، ٥٤٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٣. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٣٣٠.

قلعة صليبية بحرية ، صيدا (صيدا) جنوب لبنان

صلاح الدين بما فعلوه بأهلها عندما احتلوها قبل تسعين عامًا تقريبًا، فخشي الصليبيون أن يقتلوا كما فعلوا بالمسلمين، عند ذلك هددوا بحرق المدينة وقتل من عندهم من أسرى المسلمين وتخريب الصخرة وما بقي من المسجد الأقصى وقتل أهلهم والخروج على المسلمين مستميتين للقتال، فاستشار صلاح الدين العلماء والقواد فأشاروا عليه بتأمين الناس، على أن يدفع كل واحد منهم مقدارًا محددًا من المال ويسمح لهم بالخروج، ويعطى الناس مهلة أربعين يومًا لمن أراد منهم الخروج بهذه الشروط، وتم تسليم المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ الموافق ١١٨٧/١١/٠٢م،[١] وكان يومًا مشهودًا علا فيه صوت التكبير والتهليل والتحميد في مختلف أنحاء القدس، وتوجه المسلمون إلى المسجد الأقصى وطهروه من بقايا عبث النصارى، وكانوا قد أقاموا في محرابه الخنازير، وتم تنظيف ما حوله وأزيلت الأبنية التي قسموا بها المسجد وأعاده المسلمون كما كان وأنزلوا الصليب الذي وضعة النصارى على قبته يقول ابن واصل: ((وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من ذهب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم أعلى القبة ليقتلعوا الصليب فحين صعدوا نظر المسلمين إليهم وإلى الأفرنج لينظروا ماذا يصنعون، فلما قلعوه وسقط صاح الناس كلهم صوت واحدًا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحًا وأما الفرنج فصاحوا توجعًا وتفجعًا فسمع

---

١. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٤٩. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٣. أبو شامة، الروضتين، ج٢/٩٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/١٧٩. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٢٢. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٣٣٧.

الناس صيحة كادت الأرض تميد بهم لعظمها وشدتها))، [1] وتم تجهيزه للصلاة في أول جمعة أي بعد قرابة أسبوع من استلام المدينة، وكان يومًا مشهودًا حضره المسلمون من مختلف بلاد الشام القريبة ليشهدوا أول جمعة في الأقصى بعد تطهيره من شرك الصليبيين وشرهم، وزرفت دموع المسلمين، هم يشهدون هذا التجمع المهيب، ويهللون ويكبرون ولربهم يتواضعون، وصعد خطيب المسلمين منبر الأقصى الذي أعد لهذا الأمر مسبقًا منذ أيام نور الدين محمود انتظارًا لفتحها،[2] وبحضور صلاح الدين بدأ الخطيب خطبته بقوله تعالى:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(سورة الأنعام: ٤٥).[3]

وكان مما قال: «الحمد لله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ومديم النعم

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٧. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٥١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٤.
٢. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٥١ .
٣. للاطلاع على نص الخطبة انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٢٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٤.

بشكره، الذي قر الأيام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله وأفاض على عباده من ظله وأظهر دينه على الدين كله القاهر فوق عباده فلا يمانع ... ثم قال .. الله أكبر فتح الله ونصر وغلب وقهر وأذل من كفر» واستمر في خطبته التي حفظتها كتب التاريخ لأهمية يومها حيث كانت أول جمعة بعد التطهير.

وبعد هذا الفتح وفى المسلمون للنصارى بعهودهم فأخرجوا من أراد الخروج بالمبلغ المتفق عليه، وبقيت كنائسهم على ما هي عليه سوى ما أخذوه من مساجد المسلمين، وقد خرج كثير من كبرائهم بأموالهم ولم يدفعوا عن ضعفائهم وعلى رأس هؤلاء بطريرك بيت المقدس وجمع كبير من رجال الدين النصارى والأمراء والقواد،[1] وبذل بعض المسلمين من أموالهم فدية عن النصارى، وقد كان صلاح الدين (رحمه الله) رحيمًا بالضعفاء والأرامل وأعزة القوم الذين ذلوا، ويذكر ابن واصل بعضًا من الحوادث حول هذا الأمر «كان في القدس بعض نساء ملك الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها».

وكذلك خرجت زوجة الملك «غي» وهي ابنة الملك «أماري»، وكانت مقيمة بالقدس مع مالها من الخدم والخول والجواري، فأستاذنت السلطان في الاجتماع بزوجها،

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٦. وانظر: قدري قلعجي، صلاح الدين، ص ٣٣٩.

وكان مقيمًا في برج نابلس موكلاً به فأذن لها في ذلك فتوجهت إليه وأقامت عنده.

وأتت امرأة «الأبرنس أرناط» صاحب الكرك الذي قتله السلطان بيده يوم حطين فشفعت في ولد لها فقال لها السلطان: إن سلمت الكرك أطلقته فسارت إلى الكرك، فلم يسمع منها الفرنجة الذين فيه، ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن يتبعها.

وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع ومن الصخرة والأقصى وقمامة،[1] ما لا يعلمه إلا الله تعالى وكان من المال مثل ذلك فلم يعرض له السلطان فقيل له خذ ما معه لتقوي المسلمين فقال: «لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور».[2] وقد أشاد المؤرخون جميعًا بمعاملة المسلمين لأعدائهم معاملة حسنة «ويثني المؤرخون جميعًا غربيين وشرقيين، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين أثناء فتح بيت المقدس ويتحدثون بإعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين،

١. هي المسماة حاليًا عند نصارى العرب كنيسة القيامة.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢١٦. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٥٠، ٥٥١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٤. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/١٨٩. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٣٣٨ ـ ٣٤٥.

الهجوم على أسوار القدس (رسم توضيحي)

منطقة المسجد الأقصى

والمحتاجين من الفرنجة، وعن إكرامه النساء ورأفته بالأطفال ورعايته للضعفاء منهم ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير أي أمر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على أيدي الجنود المنتصرين والتي وقع كثير منها لما احتل الفرنجة القدس.[1]

وعُدَّ هذا الفتح نعمة كبيرة من الله على المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث عمت به البشرى ودعا الناس لصلاح الدين وأنشده الشعراء قصائد عرفت بالقدسيات وتكلم الأدباء في هذه المناسبة التي أفرحت المسلمين في كل مكان وذكرت بفتح عمر بن الخطاب ﷺ الأول لبيت المقدس، وكان مما قال بعض الشعراء:

أتـرى منامًـا مـا بعينـي أُبصـر
القـدس يفتـح والفرنجـة تُكسـر
وقمامـة قمـت مـن الرجـس الـذي
بزوالـه وزوالهـا يتطهـر
ومليكهـم في القيـد مصفـود ولـم
يـر قبـل ذلـك لهـم مليـك يؤسـر

١. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٣٢٨.

قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا[1]

ومن ذلك قصيدة أخرى لأحد الشعراء في قرابة مئة بيت مطلعها:

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف الله أقوام بما نذروا[2]

وقد بقي صلاح الدين في القدس قرابة شهر بعد الفتح أشرف بنفسه على تنظيم شؤون المدينة وفتح بعض المدارس وترتيب المساجد وأئمتها ومؤذنيها وما يلزمها، كما اعتنى بإقامة الحق والعدل لجميع رعاياها[3] بعد ذلك خرج مرة أخرى للجهاد.

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٢٣.
٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/١٨٧.
٣. انظر: قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٣٥٠.

نابلس ، فلسطين - شارع تاريخي

بعد فتح القدس

## ما بعد القدس:

رغم أن صلاح الدين قد فتح العديد من المواقع الصليبية قبل توجهه إلى بيت المقدس فقد كانت ما تزال هناك مواقع هامة للصليبيين امتلأت باللاجئين إليها من بقاياهم فأصبحت تشكل خطرًا على المسلمين، وكان أهمها طرابلس وصور وأنطاكية وهي تشكل موطئ قدم لغزاة جدد من الصليبيين خصوصًا أن مواقعها البحرية قد تؤهلها لذلك.[1]

كانت (صور) أول المواقع التي حرص صلاح الدين على فتحها وهي مدينة حصينة على البحر، أهمت المسلمين نظرًا لتجمع شراذم الصليبيين فيها، وقد حاصرها صلاح الدين في شهر رمضان من العام نفسه ٥٨٣هـ، واستدعى الأسطول المصري للمشاركة في الحصار، وقد جرت حول المدينة معركة بحرية كانت في صالح الصليبيين، كما جرت معركة برية انتصر فيها المسلمون، ودخل الشتاء والمسلمون يحاصرون المدينة، فألح الأمراء والقواد على صلاح الدين بتركها لوقت آخر وكان رحمه الله يرى الاستمرار في الحصار حتى يتم الفتح ولكنه أمام إلحاحهم ترك حصارها،[2] وقد حاول فتح بعض الحصون الأخرى قبل التوجه إلى دمشق، ونجح في بعضها وفشل في البعض الأخر، وبعد انقضاء موسم الشتاء توجه السلطان للفتح مرة أخرى في موجة جديدة، وتمكن خلالها من فتح ما يزيد على عشرة

١. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٩٨.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٤٦. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٥٣ ـ ٥٥٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢/٣٢٧. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٨٣.

حصون للفرنجة كانت بعضها مدنًا مهمة مثل (اللاذقية) و(طرطوس) و(جبلة)،[1] ولما شاهد الصليبيون قلاعهم تسقط الواحدة تلو الأخرى طلب صاحب (أنطاكية) المصالحة مع صلاح الدين وأن تكون بينهما هدنة، فرضي صلاح الدين بذلك وأن تكون هدنة محددة بثمانية أشهر بشرط أن يطلق صاحب (أنطاكية) من عنده من أسرى المسلمين وكانت عدتهم قرابة ألف أسير،[2] وكان المسلمون في الوقت نفسه يحاصرون (الكرك) منذ عام تقريبًا حتى أجهدوها وأرهقوها فسلمت لهم في شهر رمضان ٥٨٤هـ،[3] واستمرت الحال بين المسلمين والصليبيين حيث كان المسلمون يهجمون على حصونهم وأولئك يدافعون إلى أن جاءت الحملة الصليبية الثانية.

---

١. انظر هذه الحصون وكيفية فتحها في: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٥٥ - ٢٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٥٥٧، ج ١٢/١٩٥. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٨٤. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/٢٨٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٢٩-٣٣١.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٦٩. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/١٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٣٠.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٧٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٢٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٣٠.

موقع أثري في لبنان

قلعة صلاح الدين ، اللاذقية ، سوريا .

لا شك أن استيلاء المسلمين على القدس قد أحدث ردة فعل كبيرة في أوروبا وقد بعث البابا «ريجوري»الثامن بالرسل إلى مختلف البلاد الأوروبية يحث العامة والخاصة فيها على الخروج لبيت المقدس، وأخذ الرهبان والقسس يلعبون دورًا في التحريض وإخراج الناس من أوروبا لحرب المسلمين مرة أخرى، ويصور ابن واصل هذه الحال فيقول: «ان الرهبان والقسس من حين ملك المسلمون بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن وأخذهم بطرك القدس ودخل بهم بلاد الإفرنج يطوفها بهم جميعًا ويستنجدون أهلها ويحثونهم على استرجاع القدس وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه صورة عربي يضربه بعصا، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله»،[1] ولا شك أن تلك الحملات الدعائية في أوروبا كانت تلقى نجاحًا كبيرًا فقد أسرع الناس بالتجمع لحرب المسلمين وكان على رأس أولئك ملكا فرنسا وانجلترا كما تحرك ملك ألمانيا معه قرابة ألف جندي، ولكنه آثر الطريق البري مرورًا بأراضي السلاجقة في الأناضول وقتل «أوتاه»، وبالتالي تحطمت تلك الحملة الألمانية التي كانت أقوى الحملات لو نجحت في الوصول إلى بلاد الشام.[2]

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٨٨، وانظر: قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٦٢.
٢. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٠٣، المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ١٧٧.

كان صلاح الدين قد أسر ملك بيت المقدس «غي لوزنجان» ثم أطلق سراحه بعد أن أخذ عليه عهدًا ألاَّ يحارب المسلمين ولكنه جمع ما يقرب من عشرين ألف مقاتل من بقايا الصليبيين وخرج بهم من صور لينازل بهم عكا وذلك في جمادى الآخر سنة ٥٨٥هـ وكانت هذه أول محاولة هجومية من قبل الصليبيين بعد سقوط بيت المقدس، ولا شك أن علم الصليبيين بقرب وصول الحملات من أوروبا هو الذي شجعهم على مهاجمة عكا إذ أن عكا على ساحل البحر والإمدادات الأوروبية قادمة عن طريق البحر، وقد انشغل صلاح الدين بهذا الأمر فكاتب الأمصار الإسلامية يطلب الأجناد، وفي الوقت نفسه توجه إلى عكا حيث تمكن من هزيمة بعض جند العدو المحاصرين لها، واتخذ للمسلمين طريقًا إلى داخل المدينة وتمكن صلاح الدين بنفسه من دخولها وقد جرت العديد من المعارك المستمرة بين المسلمين والصليبيين المحاصرين لها، وكانت الإمدادات للفرنجة من البحر مستمرة ومتواصلة، فوصلت أساطيل من فرنسا ومن روما وغيرها من البلاد الأوروبية[١] والأغرب من هذا أن الفرنجة وصلهم مركب فيه نساء للترويح عن جنودهم وهم يدعون التقوى والطهارة، يقول ابن واصل: «ووصل في مركب ثلاثمائة إفرنجية مستحسنات اجتمعن من الجزائر وسبلن أنفسهن لله بزعمهن والتزمن أن لا يمنعن من أراد وطأهن من مقاتلة الفرنج وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لا سيما إن مكن من اجتمع فيه غربة وعزبة»،[٢] وقد استغرب بعض الصليبيين المعاصرين للحدث مثل هذا العمل وتساءلوا أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب.[٣]

كان حصار عكا طويلاً وقاسيًا ولذلك طلب بعض الأمراء من صلاح الدين أن يأذن لهم بالانصراف لشدة الإرهاق وكان رأيه البقاء والدفاع عن المدينة حتى هزيمة الأعداء، ولكنه أمام ضغط الجند والأمراء رتب جندًا للدفاع عن المدينة وتركها تصارع الأعداء وبعد ذلك كثر مدد الفرنج وقل مدد المسلمين ووصل ملك بريطانيا «ريتشادر قلب الأسد»،[٤] وملك فرنسا «أغسطس» فتغير ميزان القوى لصالح الصليبيين المحاصرين

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٨٨. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٦١. ابن كثير، البداية والنهاية، ص ٣٤٢. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٣٦٩.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٠٨.

٣. انظر: المعاصيدي وزملاؤه، ص ١٧٨.

٤. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٥٠. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/ ٦٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٤٢.

لعكا، وكان صلاح الدين يحاول مهاجمة المحاصرين لعكا من الخلف، وفي الوقت نفسه يشرف على الأسطول الإسلامي الذي مهمته إيصال المؤن والأطعمة إلى المسلمين المحاصرين داخل عكا، وكان لأجل ذلك يخوض المعارك والمغامرات البحرية وأحيانًا تتشبه سفنه وجنده بسفن وجند الأعداء ليتمكنوا من المرور بين السفن المحاصرة والوصول بالأطعمة لأهالي عكا المحاصرين،(1) ولكن قوات الصليبيين كانت أكثر من المسلمين ولم يبق من يدافع عن المدينة سوى ستة آلاف يقابلون مئة ألف في البر والبحر، وقد طلب المدافعون عن عكا أن يأذن لهم صلاح الدين في تسليم المدينة ولكنه كان مصرًا على التمسك بها، وأخيرًا عقدوا معاهدة للتسليم على شروط بينهم وبين المسلمين على أن يضمن النصارى خروج من في عكا من المسلمين سالمين، مقابل جزية يدفعونها، وهكذا خرج المسلمون منها وهم محل أعجاب من الفرنجة لصبرهم وصمودهم لمدة سنتين كاملتين «وسمح للمسلمين بمغادرة المدينة دون إزعاج وفي الحقيقة شاهدهم المنتصرون يخرجون بشيء من العطف، بينما خرجوا من المكان إلى الأسر، لأن شجاعتهم كانت باسلة جدًا إلى درجة أنهم فازوا بالاحترام وبشيء شبيه بالتعاطف من قبل أعدائهم، وقد كانوا هزيلين مغبري الشعر يتضورون جوعًا ومتسخين، وألبستهم

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٣١. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٤١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٣٣.

رثة، ولكنهم غير مطأطئ الرؤوس الشيء الذي أعجب الصليبيين»،[1] فسقطت المدينة في أيديهم في ١٢ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ الموافق ١١٩١م بعد حصار دام سنتين، وبعد حوالي أربع سنوات من معركة حطين،[2] وكان المسلمون أسرى في يد الفرنج بموجب معاهدة التسليم على أنهم آمنون ولكن الفرنجة جمعوهم في يوم الأيام، وقتلوهم صبرًا دفعة واحدة وقد كان عددهم يزيد على الألفين، فاغتم المسلمون لذلك غمًا شديدًا.[3]

وكانت المعارك التي جرت حول عكا طوال السنتين أشد ما وقع بين المسلمين والصليبيين ومع أن الصليبيين قد احتلوا عكا بالقوة وقتلوا أسراهم فيها من المسلمين، فإن قتلاهم حولها زادوا على الخمسين ألفًا.[4]

## الدفاع عن القدس وصلح الرملة:

كانت القدس هي الشغل الشاغل لصلاح الدين، وهو يعلم يقينًا ما أخذوا عكا إلا في طريقهم للقدس، ولذلك فقد كان هَمّ صلاح المحافظة عليها ومنع الصليبيين منها، ومع هذا فقد توجه الصليبيون برًا وبحرًا إلى عسقلان وهي من أخطر وأهم المواقع بين مصر والشام حيث أن من يسيطر عليها يستطيع أن يبعث منها بيسر جندًا إلى مصر أو جندًا إلى الشام وقد أهم ذلك الأمر صلاح الدين فأخذ يساير الجيوش الصليبية ويغير عليها باستمرار، ووقع العديد من القتلى والجرحى من الطرفين

مسجد الجزار. يقع مسجد الجزار ، المعروف باسم الجامع الأبيض ، عكا.

١. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١٢.
٢. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٠٧.
٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٦٤. وقد كتب بتوسع عن هذا الحصار في ج٢/٢٨٩ ـ ٣٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٦٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٤٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/١٩٧. ابن شداد،النوادر السلطانية، ص١٧٤. وقد كتب بتوسع شديد في حصار عكا من ص ٩٧ حتى ص ١٧٥. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٣٢.
٤. انظر: المصادر السابقة.

والصليبيون مصممون على الوصول إلى عسقلان، وفي هذه الأثناء وقع اجتماع بين الملك العادل أخو صلاح الدين وأكبر قواده وبين ملك الإنجليز «ريتشارد قلب الأسد» طلب فيه «ريتشارد» تسليم بعض المواقع دون قتال فرد عليه الملك العادل ردًا قويًا،[١] ولما رأي صلاح الدين إصرار الصليبيين على احتلال عسقلان وخشي في الوقت نفسه من هجومهم على القدس، فسارع بتخريب حصونها وأسوارها حتى لا يتحصن بها الصليبيون،[٢] وقد ثبت صحة إجراء صلاح الدين حيث احتلها الصليبيون بعد ذلك وعملوا فترة طويلة على إعادة تحصينها،[٣] وما إن فرغ صلاح الدين من تخريب عسقلان حتى أسرع بالتوجه إلى بيت المقدس لإعدادها وتحصينها ضد أي هجوم متوقع، وترك في الوقت نفسه بعض القوات لمشاغلة الأعداء، قد نجحت تلك القوات في إشغالهم، وكادت أن تأسر «ريتشارد قلب الأسد» نفسه في إحدى تلك الوقائع.[٤]

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٦٧، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٨٢.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٧٢. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٨٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢/٣٤٥.

٣. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١١/٧٨. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٨٠.

٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ /٣٧١، ٣٧٣. أبو شامة، الروضتين، ج٢/ ١٩٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٧٢.

وصل صلاح الدين إلى القدس وشرع في تحصينها وأحضر العمال للعمل في الصخور والحفر في مختلف الأماكن، وعمل بنفسه هو وأمراؤه وقواده في نقل الحجارة، وشاركهم في ذلك العلماء والقضاء،[1] وقد صح ظن صلاح الدين فقد توجه الصليبيون إلى بيت المقدس، فأهتم لذلك الأمر اهتمامًا شديدًا وعزم على مقاومتهم من داخل البلد واقترح عليه بعض قواده أن يخرج ويصافهم خارج البلد فإن عجزوا رحل وتركها، فأهتم لهذا الأمر أكثر من غيره ورأي أن موته أهون عليه من أخذهم بيت المقدس وشكى هذا الأمر إلى أحد العلماء وكان كثيرًا ما يلجأ إليهم فكان مما نصحه به ذلك العالم أنه «ينبغي أن يرجع إلى الله تعالى وهذا يوم جمعة وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون في يومنا هذا، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث لا يشعر أنه منك وتصلي بين الآذان والإقامة لربك وتفوض مقاليد أمرك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاك ..... فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجدًا ودموعه تتقاطر على مصلاه»،[2] وهكذا كان صلاح الدين مع اتخاذه للقوة والاستعداد وكونه في مقدمة جنده شجاعة وقتالاً، فقد كان يتضرع إلى الله ليعلن عجزه وحاجته الدائمة إليه وإلى نصر من عنده سبحانه كما كان يكثر من الصدقات الخفية في مثل هذه الحالة، ولا شك أن العلماء الناضجين الذين كان يأنس بهم دائمًا لهم دور كبير في توجيهه إلى هذه الأمور.

وصل الصليبيون قرب بيت المقدس يتزعمهم «ريتشارد قلب الأسد» بعد أن مات «فيليب أغسطس» ملك فرنسا،[3] وقد أقاموا بالقرب من (اللد) وتواصلت المفاوضات بينهم وبين صلاح الدين، حيث أحس ملك الانجليز بصعوبة الاستيلاء على بيت المقدس، نظرًا لشدة تحصيناتها، ولما رأى ما عند المسلمين من تصميم على الدفاع، وقد ألح الانجليز على الصلح إلا أنهم اشتطوا بالشروط فلم يقبل منهم صلاح الدين ذلك وقد ظهر ضعف الفرنجة وعلى رأسهم الانجليز فوجه صلاح

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٧٥. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٧٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٤٧.
٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٨٨، ٢٨٩.
٣. انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ١٩١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٩٣.

الدين بعض قواته إلى يافا لإعادة فتحها في رجب سنة ٥٨٨هـ ونجح في ذلك،[١] وانسحب الإنجليز عن حصار القدس، واستمر صلاح الدين في القيام بأعمال عسكرية مختلفة ضد الصليبيين، فأضطر ملك الإنجليز إلى إعادة المفاوضات مع المسلمين، وبناء على ذلك عقدت مصالحة بين صلاح الدين و(ريتشارد قلب الأسد) عرفت بصلح الرملة وذلك في شعبان سنة ٥٨٨هـ،[٢] ومدة المعاهدة ثلاث سنوات بقيت بموجبها القدس في يد المسلمين على أن يسمح للحجاج النصارى بزيارتها دون سلاح ويحميهم المسلمون أثناء الزيارة، وأن تتوقف الأعمال الحربية بين الطرفين، وأن تكون منطقة الساحل مناصفة بينهما، وأن يدخل المسلمون إلى البلاد التي بيد الصليبيين، والصليبيون كذلك، وتؤمن التجارة بين الطرفين ويسمح بحريتها وقد فرح المقاتلون من الطرفين بهذه الهدنة، إذ أن الجميع قد أرهقوا من

١. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٤٤. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٨٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٩٣.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٨٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٥٠، ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٢٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٤٠٣، المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٣٧.

تواصل القتال على مدى الخمس سنوات السابقة منذ أن استعاد المسلمون بيت المقدس، ومن الجدير بالذكر أنه سادت علاقة سلمية بين ملك الإنجليز وصلاح الدين أثناء القتال فقد مرض «ريتشارد قلب الأسد» فأرسل له صلاح الدين الأطباء كما أنه كان يحتاج إلى الثلج والفاكهة أثناء مرضه فكان صلاح الدين يبعث له ذلك مع أنه خصمه وعدوه مما أثار إعجاب الأفرنج،(١) وبعد تلك الهدنة عاد صلاح الدين إلى بيت المقدس، وأخذ يرتب أمورها ويعتني بتحصينها، ورغم أن المسلمون كانوا في هدنة فإنهم ما كانوا يأمنون غدر الأعداء، ولذلك فهم يتخذون القوة المطلوبة ويحتاطون للأمور، وفي الوقت نفسه يوفون ولا يغدرون، كما قام صلاح الدين في هذه الزيارة بترتيب عدد من المدارس العلمية في القدس وأنشأ لها أوقافًا خاصة بها وعين لها العلماء،(٢) وقد عاد صلاح الدين بعد ذلك إلى دمشق وأقام فيها بضعة أشهر ثم توفي عليه رحمه الله فجر يوم الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ، بعد أن جاهد بنفسه ولنفسه طوال سنوات حياته فكان في مقدمة المسلمين وضرب لهم مثالاً لا ينسى على مر التاريخ واستحق ثناء المسلمين عليه والدعاء له جيلاً بعد جيل فهل لهذا الزمان من صلاح الدين جديد!!.

## (د) الجهاد بعد صلاح الدين:

لا شك أن وفاة صلاح الدين الأيوبي رحمه الله قد ولدت فراغًا كبيرًا في القيادة الإسلامية، لكن صلاح الدين لم يكن وحده في الميدان، ولذلك فإن راية الجهاد ظلت مرفوعة من بعده، وأن بهت لونها وضعف حاملوها في بعض الأحيان.

وقد انقسمت البلاد بين ثلاثة من أبناء صلاح الدين كان أكبرهم «الأفضل» واستقل بدمشق وبعض المدن الساحلية، والثاني العزيز «عثمان» واحتفظ بمصر، أما الثالث الظاهر «غازي» فقد احتفظ بحلب وأعمالها، كما احتفظ عمهم الملك «العادل» بالأردن وبلاد الجزيرة وديار بكر، وبالإضافة إلى هذه الأقسام فقد كانت هناك

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٤٠٣. أبو شامة، الروضتين، ج٢/١٩٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢/٣٥٠. وانظر: قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٤١٢.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٤٠٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧/٢٠٢. ابن الأثير، الكامل، ج١١/٩٥. ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٤٦، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢١/٢٨٦، المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٤٠.

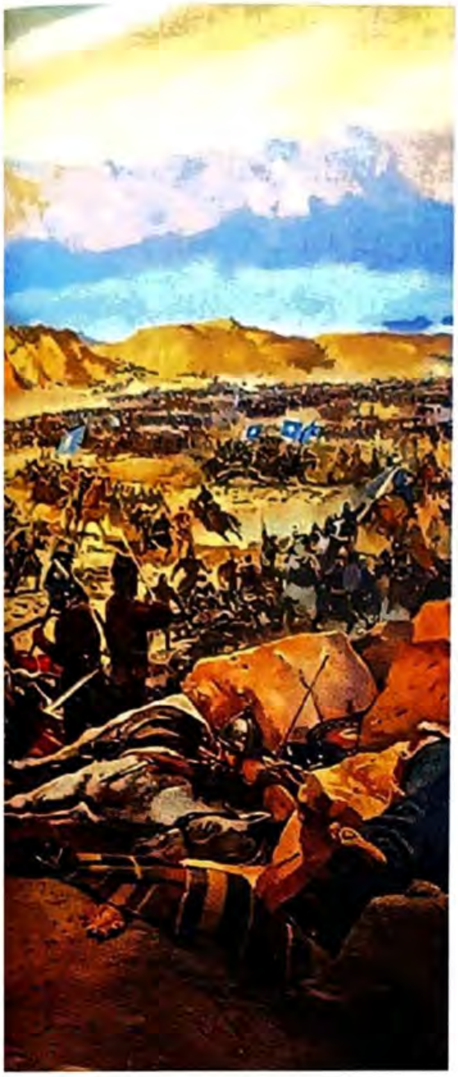

مناطق أخرى كثيرة اقتسمها الأمراء من أقارب صلاح الدين،[1] وكان «الأفضل» هو السلطان رسميًا بوصية من صلاح الدين نفسه، ولكن كثر النزاع بين أولاد صلاح الدين جعل الملك العادل عمهم، هو سيد الموقف والموجه لهم، يدعم ذلك ما عرف عنه من تضحية في مشاركة صلاح الدين باستمرار في معاركه ضد الصليبيين وقد انتهت تلك الخلافات سنة ٥٩٦هـ بسيطرة العادل على الحكم في مصر والشام بعد سنوات من التفرق،[2] وقد كانت هناك بعض المناوشات مع الفرنجة ولكنها لم تكن كثيرة إذ أن المسلمين كانوا في هدنة معهم منذ أيام صلاح الدين.[3]

وقد اشتد القتال مع الصليبيين بعد مرور عشر سنوات من صلح الرملة، وكان من أسباب ذلك أن الصليبيين في بلاد الشام قد بلغهم تحرك حملة صليبية رابعة بقيادة ملك ألمانيا كان هدفها الاستيلاء على بلاد الشام ولذلك تحرك صليبيو الشام مع بعض من وصل إليهم من أوروبا، وبدأوا المعارك مع المسلمين انتظارًا لوصول هذه الحملة التي لم تصل أبدًا حيث غيرت وجهتها واستولت على القسطنطينية وعاشت في صراع مع الدولة البيزنطية، ودارت معارك بين الصليبيين وبين الملك المنصور أمير حماة انتهت بانتصار المسلمين وأسر وقتل قوات كبيرة من الصليبيين، وكان ذلك في رمضان من سنة ٥٩٩هـ[4] ولما يئس صليبيو الشام اضطروا إلى المفاوضة مع المسلمين، وتم عقد معاهدة جديدة بينهم في أوائل سنة ٦٠١هـ،[5] ورغم المعاهدة فقد وقعت العديد من

١. انظر: إلى هذه الأقسام في: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣/٣، ٤. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٩٦. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٤٢ـ ١٤٣.

٢. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/١٠٩، ١٢١، ١٥٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٠٨. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٤٦، ١٤٩.

٣. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/١٢٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣/٧١.

٤. ابن واصل مفرج الكروب، ج٣/١٤٨، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/١٩٠. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/١٩٦.

٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/١٦٢، المقريزي، السلوك، ق١ ج٢/١٩٧، ابن الأثير، الكامل، ج١٢/١٩٤.

صورة تخيلية للجيش السلجوقي.

المعارك بين المسلمين والصليبيين تحت قيادة الملك «العادل».

## الحملة الصليبية (الخامسة) على مصر:

في سنة ٦١٤هـ جاءت الحملة الصليبية الخامسة عن طريق البحر إلى بلاد الشام،[1] وكانت قادمة من (ألمانيا) و(قبرص) و (هنغاريا) و (النمسا) و (إيطاليا) وسائر البلاد الأوروبية، وكانت هذه الحملة بدعم البابا «هنري الثالث»، ورعايته، كانت أولى محطات تلك الحملة هي (عكا) وهي المقر لملك بيت المقدس الرمزي «حنا دي برين» إذ أنها كانت ما تزال بيد المسلمين.

وحينما تكاملت الحملة أخذت تناوش المسلمين في بعض المواقع الشامية، ولكن المخططين لها كانوا يعتزمون توجيهها إلى مصر حيث كانت لديهم قناعة أنهم

١. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٢٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٢٥٤. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٣٢٣.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

لن يتمكنوا من الاستيلاء على القدس مادام في مصر قوة إسلامية تدافع عنه، وتوجهت السفن الصليبية تحمل الأجناد والعتاد مستهدفة مصر التي كانت في تلك الفترة خاضعة للملك «العادل» ويديرها من قبله ابنه «الكامل»، ووصلت في شهر صفر من سنة ٦١٥هـ، وأخذ الصليبيون في حصار دمياط التي امتنعت عنهم لمدة تسعة أشهر، رغم تواصل الإمدادات إليهم من أوروبا ورغم استخدامهم لمختلف أنواع الأسلحة لتحطيم تحصينات المدينة من ناحية البر والبحر، وفي فترة الحصار توفي الملك «العادل» واستمر «الكامل» في المقاومة رغم ظهور بعض القلاقل في جيشه،[١] وأخيرًا تمكن الصليبيون بعد مضي تسعة أشهر من احتلال المدينة في رمضان سنة ٦١٦هـ فأعملوا السيف في المدافعين عنها وحولوا جامعها إلى كنيسة، وحطموا منبره وبعثوا قطعًا مختلفة منه هدايا رمزية إلى ملوك أوروبا،[٢] وأخذوا يخربون في القرى المجاورة لها،[٣] وقد قام الملك «الكامل» بوقف تقدم الصليبيين

١. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٢٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣/٢٧٠، ج٤/١٥. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٢٢٣. وانظر: الماضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي، ص٢٠٤.

٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٢٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/١٠٠. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٢٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٨٠، ٨٤.

٣. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٢٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٩٥.

إلى القاهرة وبنى على الفور مدينة المنصورة لتكون مقرًا له ولجيوش مصر المرابطة لمقاومة الصليبيين وأحس أمراء المسلمين في بلاد الشام وغيرها بخطورة استيلاء الصليبيين على مصر وبادروا بإرسال النجدات والجيوش لمساعدة الملك «الكامل» ووصل كثير من الأمراء للمشاركة في الجهاد بنفسه كما كثر المتطوعون من مختلف البلاد الإسلامية، فكانوا في كثير من الأحيان أكثر نكاية بالعدو من الجيوش والفرسان النظامية،[1] وقد أسهم ذلك في تقوية المسلمين والفت في عضد الفرنجة الصليبيين، وفي هذه الفترة قام والي دمشق بتحطيم تحصينات بيت المقدس خشية من استيلاء الصليبيين عليها والاستفادة منها، فحزن أهلها حزنًا عظيمًا ورحل عنها معظم سكانها،[2] واستمر القتال بين المسلمين والصليبيين، وكان بعض المجاهدين المسلمين يقومون باختطاف بعض سفن الصليبيين من النيل وإغراقها، كما تمكن الأسطول الإسلامي من الاستيلاء على عدد من سفن الأعداء المملوءة بالرجال والسلاح، مما قوى من عزيمة المسلمين وفت في عضد الأعداء حيث بدأوا يبعثون رسلهم للصلح مع المسلمين وقد عرض عليهم الملك الصالح

١. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٢٧. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٩٢، ٩٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٩٥.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢/٣٢٧. وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٢٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٩٥. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٤٩.

منظر لمسجد السلطان حسن بالقاهرة

تسليمهم بيت المقدس وجميع الأماكن التي فتحها صلاح الدين على أن يعودوا ويتركوا مصر ولكنهم تجبروا،[1] وطلبوا زيادة في الحصون والمدن، وأصروا على أن يأخذوا من المسلمين ثلاث مئة ألف دينار مقابل تحصينات بيت المقدس حتى يعيدوها مرة أخرى، فامتنع «الكامل» من ذلك بتشجيع من بعض المجاهدين والقواد، وعملوا على التضييق على الصليبيين الذين بدأوا يزحفون إلى الجنوب من مصر متوجهين إلى القاهرة، وكان الزمان موسم ارتفاع نهر النيل وتمكن بعض الفدائيين المسلمين من رصد العدو، حتى إذا أصبحوا في منخفض معروف لدى المسلمين

عمل أولئك الفدائيون على تفجير بعض السدود وتوجيه بعض أفرع النيل إلى معسكر الصليبيين، ففوجئوا بالمياه تحيط بهم من كل جانب، حيث لم يستطيعوا الحركة، فلا هم في البر ولا هم في البحر، حيث تحولت مواقعهم إلى مستنقعات تمنعهم من الحركة، كما حالت المياه بينهم وبين الوصول إلى معسكراتهم في دمياط، فأحس الصليبيون الهزيمة وذلوا، وطلبوا من المسلمين أن يؤمنوهم للخروج من مصر دون أي شروط أخرى، وقد تردد المسلمون في ذلك فبعضهم يرى أن الله قد أمكن من الأعداء وأنهم لا أمان لهم وأنهم يجب أن يستسلموا دون قيد أو شرط، والبعض الآخر يخشى أن تصلهم إمدادات أخرى، أو حملات أوروبية جديدة تحاول فكاكهم وتنتقم لهم، ولذلك أمنهم المسلمون على أن يخرجوا من مصر واشترطوا عليهم تسليم عشرين من الرهائن من ملوكهم حتى يضمن المسلمون انسحابهم، فسلمت

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج ٢١٩/١٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩٥/١٣. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٤٨.

عشرون رهينة من كبار الكرادلة ومعهم ممثل البابا الشخصي في تلك الحملة، وملك عكا وبعض الكونتات والأمراء، كما سلم لهم أحد أبناء «الكامل» ليضمنوا رد رهائنهم بعد ذلك، فسلم الصليبيون دمياط إلى المسلمين في التاسع عشر من رجب سنة ٦١٨هـ ورحل الفرنجة الصليبيون وأعيد الرهائن من الطرفين،[١] وسلمت مواقع المسلمين وعلى رأسها القدس من الوقوع في يد الصليبين، وكان فشل هذه الحملة ضربة كبيرة وموجعة للجهود الصليبية،[٢] ولكنها في الوقت نفسه أوجدت عند الملك «الكامل» نوعًا من الخوف من الصليبيين، فبدأ يغير من طريقته في التعامل معهم، وحاول أن يرتبط ببعض ملوكهم بعلاقات سليمة أثرت على تصرفاته معهم فيما بعد.

## الملك (الكامل) وتسليم بيت المقدس :

كان الصليبيون قد عقدوا معاهدة مع «الكامل» غادروا بموجبها الأراضي المصرية وتعهدوا فيها بعدم الهجوم على الأراضي الإسلامية، إلا أن صاحب المعاهدة نفسه «حنا دي بريين» الملك الرمزي لبيت المقدس رحل إلى أوروبا ليستحث النصارى على حملة جديدة على الديار الإسلامية عرفت بالحلمة الصليبية السادسة، تزعمها إمبراطور ألمانيا «فردريك الثاني» سنة ٦٢٥هـ الموافق ١٢٢٨م، وقد نشب خلاف بينه وبين البابا «أنوسنت الثاني»، قبل مغادرة الحملة، أصدر البابا بناءً عليه قرار حرمان في حق الإمبراطور، وذلك مما زاده حماسة للقيام بالحملة ليثبت فساد البابا وقراراته، [٣] وقد كان هناك نوع من العلاقة الدبلوماسية بين «فردريك الثاني» والملك «الكامل»، حيث يحاول كل منهما الاستعانة بالآخر على خصومه المحليين، ويضاف لذلك أن الإمبراطور الألماني كان على إطلاع كامل على الإسلام وتعاليمه، وكان يحترمه احترامًا شديدًا ويجيد اللغة العربية ويطلع على

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٣٣٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٩٥. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٩٦ - ٩٩. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٢٤٤، ٢٤٥.

٢. انظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٥٠،. حيث عبر عن خيبة أملهم بقوله: «وانتهت الحملة الصليبية الخامسة بهزيمة مخزية وشائنة للصليبيين».

٣. انظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٥٢.

الثقافة المتصلة بها، ولذلك فقد كان محل احتقار الصليبيين،[1] كما أن اطلاعه على الإسلام وأحوال المسلمين جعل لديه شيئًا من الاحتقار للكهنوتية والنصرانية وطبقات رجال الدين المتصلة بها.

وصل «فردريك» بأساطيله إلى بلاد الشام، وتمكن من الاستيلاء على عكا وتحصينها[2]

وبادر بإرسال الخطابات المرفقة بالهدايا إلى الكامل، وأظهر إنه يرغب في تسلم بيت المقدس بسلام ودون إراقة دماء، وتذلل للكامل واستعطفه وبيّن له أن هدفه من الحصول على بيت المقدس الطعن في قرار البابا حرمانَهُ، وكان «فردريك» سياسيًا لبقًا ومن جملة قوله: «لولا انكسار جاهي عند الفرنج لما كلفت السلطان شيئًا من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم»،[3] ورغم أن الإمبراطور «فردريك» ليس لديه قوة كبيرة ولا يحظى بدعم كامل من البابا أو من أوروبا ولا يتوقع أن يمدوه بمزيد من المقاتلين فإن الملك «الكامل» لان له وتجاوب معه في الهدنة رغم تعنيف علماء المسلمين له، وعقد معه اتفاقية يتم بموجبها تسليم بعض فتوح صلاح الدين في الساحل وفي فلسطين إلى «فردريك» كما أن الشرط الأهم أن يتم تسليمه بيت المقدس وطريق تربطها بالساحل،[4] على أن يبقى بدون تحصينات ولا تجدد أسواره ولا قلاعه، وأن لا يكون للفرنج شيء من المناطق المحيطة به، وأن يبقى المسلمون في بيت المقدس ولهم والٍ مقيم بجواره، وأن منطقة الحرم وتشمل الصخرة والمسجد الأقصى تكون بأيدي المسلمين لا يغير منها شيء، ولا يدخلها أحد من الفرنج الصليبيين إلا للزيارة.

وقعت الهدنة وتخلى الكامل بموجبها عن القدس وسلمها (التسليم الأول) باسم السياسة وباسم العلاقات مع «فردريك» ودعمه ضد البابوية وباسم احترام «فردريك»

١. انظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٥٤.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٢٣٥. وانظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٥٢. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٤٧٨.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٢٤٣.

٤. انظر: ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٤٨٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٢٣، ١٢٤. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٢٦٨. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٣.

للإسلام والمسلمين وحبه لعلومهم وحضارتهم وباسم الوقوف في وجه الأعداء الداخليين والتفرغ لهم إلى غير ذلك من الأعذار المشابهة لما يتحدث به سياسيو هذا العصر، وعم المسلمين البكاء لتفريط «الكامل» ببيت المقدس التي استعادها صلاح الدين بالدم والسلاح. «ولما نودي في القدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج وقع في أهلها الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك «الكامل» هذا الفعل، واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من أعظم مآثر عمه الملك الناصر «صلاح الدين»».[1]

وبعد تسليم بيت المقدس أخذ العلماء يحركون العامة للضغط على أمرائهم لاستعادتها، وكان لكثير منهم مجالس علمية ركزوا في بعضها على ذكر فضائل بيت المقدس، وفضائل الجهاد،[2] كما أن بعضهم عمد إلى إنشاد الشعر في هذه الحادثة والتشنيع على «الكامل» وتحريك العامة والخاصة للعمل على استعادة القدس، ومن ذلك ما كان يجري في جامع دمشق من تجمعات ودروس لتحريك الناس للضغط على «الكامل»، كما كانت تنشد فيه الأشعار لهذه الغاية ومن ذلك قصيدة لأحد العلماء ومما قال فيها:

على قبة المعراج والصخرة التي
تفاخر ما في الأرض من صخرات
مدارس من آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات[3]

وقد دخل «فردريك» بعد ذلك بيت المقدس ودار فيه يرافقه وفد من الملك الكامل، وقد أظهر هذا الملك الأوروبي شيئًا من الاحترام للمسلمين في بداية الأمر، ولكن

---

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٢٤٣.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٢٤٦. ويصف المقريزي الحالة وشيئًا من جهد العلماء بقوله: «وبعث السلطان «فنودي» بالقدس بخروج المسلمين، وتسليمه إلى الفرنج، فأشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم «الكامل» وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعز عليه ذلك».

٣. ابن الأثير، الكامل، ج١٢/٢١٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٩٥. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٤٨.

بقية الصليبيين على ما يبدو لم يكونوا مقتنعين باستيلائهم بهذه الطريقة على بيت المقدس حيث كانوا يريدون زوال المسلمين من المدينة بالكلية، [١] وأن تكون منطقة عسكرية لا منطقة دينية فقط، وقد عاد الإمبراطور بعد ذلك إلى بلاده واستمر على علاقة طيبة بالكامل عن طريق المراسلة، [٢] بعد أن حقق لبني جلدته بالدهاء والسياسة ما لم يحققه سالفوه بالقوة والسيف.

## الصراع الأيوبي الأخير مع الصليبيين:

انشغلت أوروبا بعد تسلمها لبيت المقدس بالعديد من مشاكلها الداخلية، كما شغل العالم الإسلامي وخصوصًا في بلاد الشام بالخلافات الجانبية بين الأسرة الأيوبية قبل وبعد وفاة الملك «الكامل» سنة ٦٣٥هـ،[٣] واستمرت المعاهدة التي وقعها «الكامل» مع الإمبراطور «فردريك» ومدتها عشر سنوات، وقبل نهايتها استعدت أوروبا بحملة صليبية جديدة لتستولي على بيت المقدس هذه المرة بالقوة، فما أن علم الأمراء الأمويين في منطقة الأردن بذلك حتى بادر الملك الناصر (داود)، ومعه جماعة من جند الملك الصالح (نجم الدين أيوب)، بالتوجه إلى القدس وكان الصليبيون فيها قد تسلحوا واحتموا بقلعة هناك وهذا بالطبع مخالف لشروطهم مع الملك «الكامل»، وفي سنة ٦٣٧هـ نازل الملك الناصر تلك القلعة، وحاصرها ونصب عليها المنجنيق حتى سلمت إليه وأمن من فيها ورحلهم، ثم هدم تلك القلعة التي حصنها الفرنج وقد فرح المسلمون جدًا باستعادة بيت المقدس بعد أن ظلت في يد الصليبيين عشر سنوات منذ أن سلمهم إياها الملك «الكامل»،[٤] وقد تجمع الصليبيون في نواحي غزة ولكن جموعًا من المسلمين يقودهم أحد أمراء الصالح (أيوب) لم تمهلهم حيث أوقعوا بهم وهزموهم.[٥]

١. انظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٥٤.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٢٤٦. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٥٤.

٣. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥/١٥٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٤٩. المقريزي، السلوك، ق١ ج١/٢٩٧، (للاطلاع على تفاصيل الخلافات وما دار حولها راجع: ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥/ ١٧١ ـ ٢٠٥).

٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥/٢٤٦. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٦٢.

٥. ابن واصل، مفرج الكرب، ج٥/٢٦٨. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦/٣٢٣، ٣٢٤. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦٢. انظر: د. حامد غنيم أبو سعد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية، ج٢/٢٦٧.

وقد اشتد الخلاف بين أمراء الأمويين وخصوصًا بين الصالح «إسماعيل» حاكم دمشق والصالح «أيوب» حاكم مصر، وتفرقت القوات الإسلامية بينهما ولم يتورع الصالح «إسماعيل» في مد يده للصليبيين والتحالف معهم ضد الصالح «أيوب» وبقية الأمراء المتعاونين معه، وبالطبع فإن للصليبيين مطالبًا من أجل هذا التحالف، وكان على رأس مطالبهم تسليم بيت المقدس إليهم، إضافة إلى بعض المواقع العسكرية الهامة، وبالفعل قام الصالح «إسماعيل» سنة ٦٣٨هـ بتسليم الصليبيين (عسقلان) و(طبرية) ونصف (صيدا) إضافة إلى بيت المقدس، وقد أزعج هذا العمل المسلمين كثيرًا فتكلم العلماء وشنعوا على الصالح هذا الأمر، وكان على رأس هؤلاء «المعز بن عبد السلام» خطيب جامع دمشق الذي كان يتكلم علنًا من على المنبر وبحضور الصالح «إسماعيل» عن تلك الجريمة مما أزعج الصالح «إسماعيل» كثيرًا فسجنه ثم طلب منه مغادرة دمشق،[1] كما أن قواد بعض هذه الحصون رفضوا التسليم للصليبيين، فحضر الصالح «إسماعيل» بنفسه وحاصرها حتى سلمت له ثم قام بتسليمها إلى الصليبيين،[2] وقد وجد الصالح معارضة قوية من قواته في الشام لتعاونه مع الصليبيين، مما دفع كثير منهم إلى الانضمام إلى الصالح «أيوب» في مصر وترك دمشق، وقد أثر هذا بالتالي على موقف الصالح «إسماعيل» وحلفائه من الصليبيين الذين حاولوا التوجه إلى مصر في جيش مشترك لمحاربة الصالح «أيوب»، وقد كاتب الصالح (أيوب) أمراء الخوارزمية الذين وصلوا إلى الشام في تلك الفترة نتيجة للضغط المغولي وطلب منهم المدد، واندفعت ألوف الفرسان من هؤلاء إلى فلسطين حيث استولوا في طريقهم على (القدس) و(نابلس) وقتلوا وطردوا من فيها من الصليبيين، ثم واصلوا المسير إلى بيت المقدس حيث استعادوه من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ وطردوا من فيه وكانوا قرابة ستة آلاف أخذوا طريقهم إلى عكا وتخطفهم المسلمون ولم يصل منهم إلا قرابة

١. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١٨٩/٥، ٣٠٢.

٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٣٠٢/٥، ٣٣٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٥٥/١٣. وانظر: المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢١٤.

منظر لمدينة نابلس - فلسطين يظهر مسجد الناصر في البلدة القديمة

ثلاث مئة،[1] وقد واصل الخوارزمية بعد ذلك مسيرهم إلى غزة لنجدة الصالح «أيوب» ضد الصالح «إسماعيل» ومن معه من حلفائه الصليبيين، ووقعت معركة كبيرة سنة ٦٤٢هـ هزم فيها جيش الصالح (إسماعيل) ومن معه من الفرنجة الذين وقع فيهم القتل والأسر وكان أكثر القتل في الفرنجة الصليبيين أما جند الشام المتعاونين مع الفرنجة فقد كثر فيهم الأسر «وأخذت سيوف المسلمين الفرنجة فأفنوهم قتلاً، وسبيًا، ولم يفلت منهم إلا الشارد النادر»،[2] وقتل من الصليبيين في هذه المعركة قرابة ثلاثين ألفًا وأسر منهم ما يزيد على الألف رُحلوا إلى مصر،[3] وقد كانت المعركة قاسية بالنسبة للصليبيين حتى سماها بعضهم «حطين الثانية».[4]

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٣٣٦. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي، ص٢١٤.
٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥/٣٣٨.
٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٦٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥/٣٣٨.
٤. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢١٥.

كانت هذه المعركة درسًا لا ينسى للمتعاونين مع الصليبيين بأن الله خاذلهم هم وأعوانهم، كما أن كثيرًا من جنود المسلمين رفضوا الاستمرار مع من سلم القدس للفرنجة الصليبيين، وبالتالي فإنهم في الوقت الذي زادت قوتهم بجند الفرنجة فإنها نقصت برحيل المخلصين من جند المسلمين.

وبهذه الأحداث عادت القدس للمرة الثانية إلى المسلمين بعد الاحتلال الصليبي الثالث والأخير حيث لم يعودا إليها مرة أخرى طوال العصور الإسلامية سوى أيام الاستعمار الذي جاء على أيدي الإنجليز بعد سقوط الدولة العثمانية، حيث سلمها الإنجليز وأشباههم لليهود بعد ذلك، وبعد تلك المعكرة تمكنت القوات الإسلامية من تطهير بلاد الشام من المتعاونين مع الصليبيين، وطردتهم من المناطق التي يحكمونها، ثم حاولت الجيوش الشامية الاستيلاء على (عسقلان) وحاصرتها ولكنها لم تتمكن من فتحها،[1] وقد أعدت قوات الصالح أيوب المصرية محاولة أخرى لفتحها سنة ٦٤٥هـ وبعد حصار شديد نجحت في ذلك وتمكنت من تطهيرها من الصليبيين.[2]

## الحملة الصليبية السابعة والأخيرة:

كان لاستعادة المسلمين لبيت المقدس أيام الصالح «أيوب» صداها الكبير في أوروبا، وبالتالي تحرك البابا «أنوست» الرابع، ودعا ملوك أوروبا إلى الخروج في حملة صليبية جديدة. وقد أجاب هذه الدعوة الملك الفرنسي «لويس التاسع»،[3] الذي كان من أكثر ملوك أوروبا تحمسًا للنصرانية في تلك الفترة، وأخذ يعد لهذه الحملة على مدى ثلاث سنوات فاجتمع له ما يقرب من خمسين ألف مقاتل، على رأسهم العديد من الملوك والنبلاء وكبار رجالات أوروبا السياسيين والدينيين والعسكريين، وقد علم المسلمون بأخبار هذه الحملة قبل تحركها سنة ٦٤٧هـ فاستعد المسلمون لها،[4] وقد أشرف الصالح «أيوب» بنفسه على الاستعداد لمواجهة هذا الاعتداء الجديد للصليبيين، رغم أنه كان يعاني من مرض شديد مات منه بعد ذلك أثناء الحملة.[5]

١. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٣٤٠.
٢. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٣٧٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٧٣. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٢١.
٣. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٢٢.
٤. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤/٢٤٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢١٩. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٢٣.
٥. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٣١٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٧٧. قدري قلعجي، صلاح الدين، ص ٥٢٥.

وقد وصل الصليبيون إلى نواحي (دمياط) في صفر من هذه السنة (٦٤٧هـ)، فدارت خارجها معركة بينهم وبين حاميتها انتصر فيها الصليبيون، فانسحب من في دمياط من القوات قبل وصول الصليبيين إليها مما أضطر أهلها إلى مغادرتها فاستولى عليها الصليبيون دون عناء،[١] وحولوا مسجدها مرة أخرى إلى كنيسة وقد قام الملك الفرنسي (لويس التاسع) بإرسال العديد من الكتب للصالح أيوب يهدد فيها ويتوعد باستئصال المسلمين، مظهرًا غطرسته ومعتمدًا على قوته، فرد عليه الصالح (أيوب) بكتاب جعل نهايته، قال تعالى:

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾(الشعراء: ٢٢٧).

وقد رابط الصالح (أيوب) بنفسه في المنصورة بين القوات الإسلامية المدافعة رغم مرضه الشديد، وقد تحرك الصليبيون من دمياط باتجاه المنصورة، واتخذوا لهم طريقًا محصورًا بين المياه ليمنعوا المسلمين من الإغارة عليهم ولكنهم في الوقت نفسه فوجئوا بأنهم لا يستطيعون العبور إلى المسلمين، فقام بعض النصارى المصريين من أهل المنطقة بإرشادهم إلى مخاضة تمكنوا من العبور منها إلى المسلمين، ودارت معركة كبرى في المنصورة بعد أن دخلها الصليبيون يقودهم «لويس التاسع» وبعض القواد الإنجليز والفرنسيين، صبر فيها المسلمون وأبلى المماليك بلاءً حسنًا، وبرز فيهم «بيبرس البندقداري» الذي أصبح فيما بعد من أشهر سلاطين المماليك، وقد توفي الصالح «أيوب» أثناء المعركة، ولكن زوجته شجرة الدر أخفت الأمر حتى لا يهن المسلمون واستمر القتال ضاريًا، وكان النصر فيه حليف المسلمين، حيث عملوا قتلاً وأسرًا في الصليبيين، حتى أضطر «لويس التاسع» إلى الفرار باتجاه دمياط، ولكن المجاهدين المسلمين لحقوا به وتمكنوا من أسره، كما استولى المسلمون على أسطول الصليبيين ودمروا بعضه، وأصبح ذلك المتغطرس أسيرًا لدى المسلمين،[٢] ومع ما سبق منه في حق الصالح «أيوب» وفي حق المسلمين، فقد أحسن إليه المسلمون في الأسر وعاملوه بكل كرم واحترام، ثم أطلقه المسلمون من الأسر على أن يتعهد

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٧٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢١٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦/٣٦٢. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص٢٦٥.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٧٧. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١/٢١٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦/٣٦٥. العيني، عقد الجمان، ص ١٩. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥/٢٣٩، قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٤٧. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٧٠.

الصليبيون بالانسحاب وترك ما بقي بأيديهم من مواقع، وأن لا يحاربوا المسلمين لمدة عشر سنوات.[1]

## جهاد المماليك ضد الصليبيين:

بعد وفاة الصالح «أيوب» بويع ابنه «توران شاه» ولكنه كان صغير السن، وما لبث أن قتل في ظروف غامضة فأصبحت السيطرة في مصر للمماليك،[2] وبذلك انتهى العصر الأيوبي، وبدأ ما يعرف بعصر المماليك.

وقد عمل المماليك بالتدريج على سحب الإمارة الأيوبية من أمرائها في بلاد الشام، وكان من أبرز سلاطين المماليك في هذه الفترة «سيف الدين قطز» و «الظاهر بيبرس»، وكان المسلمون قد ابتلوا قبيل تلك الأيام بالغزو المغولي على العالم الإسلامي الذي ابتدأ في الأطراف الشرقية منه في (مرو) وبلاد (ما وراء النهر) وقام بمجازر بشرية وحشية لم يعرف لها مثيل في تاريخ الإنسانية، وبدأ يتجه غربًا، في بلاد فارس وأذربيجان، حتى اقترب في هذه المرحلة من العراق وبلاد الجزيرة وبدأ تهديده للخلافة الإسلامية في بغداد واضحًا، كما أن تهديده لبلاد الشام موطن الصراع

١. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢١٩.

٢. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/١٧٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦/٣٦٨. ابن الوردي، تاريخه، ج٢/٧٦٢. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢/٢٣٦. العيني، عقد الجمان، ص ٢٣. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص ٥٥٠.

جنود المماليك في معركة ، رسمه تخيلية

الإسلامي الصليبي بات قريبًا ولذلك فقد انشغل المسلمون بترقب أحداث الغزو البغيض.[1]

كان لبلاد الشام نصيبها من الغزو المغولي، وقد مارس الصليبيون دورًا في هذا الغزو، حيث اعتبروه يحقق أهدافهم على كل حال،[2] كما كان هناك تعاون بين الصليبيين في أوروبا وفي بلاد الشام وبين المغول، حيث أن هناك تعاونًا بين ملك فرنسا (لويس التاسع) قائد الحملة الصليبية السابعة على مصر وبين قواد المغول الذين شجعوه في هجومه على مصر وتبودلت بينهم الرسائل حول هذا الأمر،[3] وقد أثمر هذا التعاون عن نوع من العمل المشترك ضد المسلمين، وقد لعب نصارى الأرمن دورًا كبيرًا في هذا التعاون، حيث اشتركوا مع جيش (هولاكو) في مهاجمة بعض المواقع الإسلامية في الجزيرة ومنها (ميافارقين) التي سقطت في أيدي القوات

١. انظر: د. فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص ٦١. إسماعيل الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٤٧.
٢. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦١. إسماعيل الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ١٧٩.
٣. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦٤، ٢٧٨.

المغولية الأرمينية المشتركة، بعد حصار دام سنتين، فأعمل المغول في أهلها قتلاً وسلبًا وتخريبًا ومنها توجه المغول وحلفاؤهم الأرمن إلى (ماردين) وتمكنوا من احتلالها واحتلال نصيبين والعديد من القلاع والحصون في شمال شرق بلاد الشام سنة ٦٥٧هـ،[١] وبعد ذلك ركزت قوات المغول على حلب، حيث استقبلهم نصاراها بكل ترحاب، وكان لهم دور في سقوط المدينة بأيدي المغول ومرافقيهم من نصارى الأرمن وقد أعمل المغول القتل في أهلها أكثر من ستة أيام وأسروا ما يزيد عن ألف مسلم من الأطفال والنساء بيعوا في أسواق الرقيق الصليبية في الشام وأوروبا وقد أساءوا إلى مساجد المسلمين حيث قام «هيثوم» ملك نصارى الأرمن بنفسه بحرق المسجد الجامع في حلب،[٢] وكان لسقوطها أثر كبير في زيادة الرعب بين المسلمين في الشام مما دفع الألوف من الناس إلى الهجرة إلى مصر، ودفع العديد من الأمراء الأيوبيين إلى الفرار بأنفسهم، مثل ما حدث لأمير دمشق الملك الناصر الأيوبي، واستسلم بعض الأمراء المسلمين الآخرين حتى أصبح المسلمون لا شوكة لهم في بلاد الشام.

١. انظر: إسماعيل الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٩٥ ـ ٩٨.
٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/٤٧.

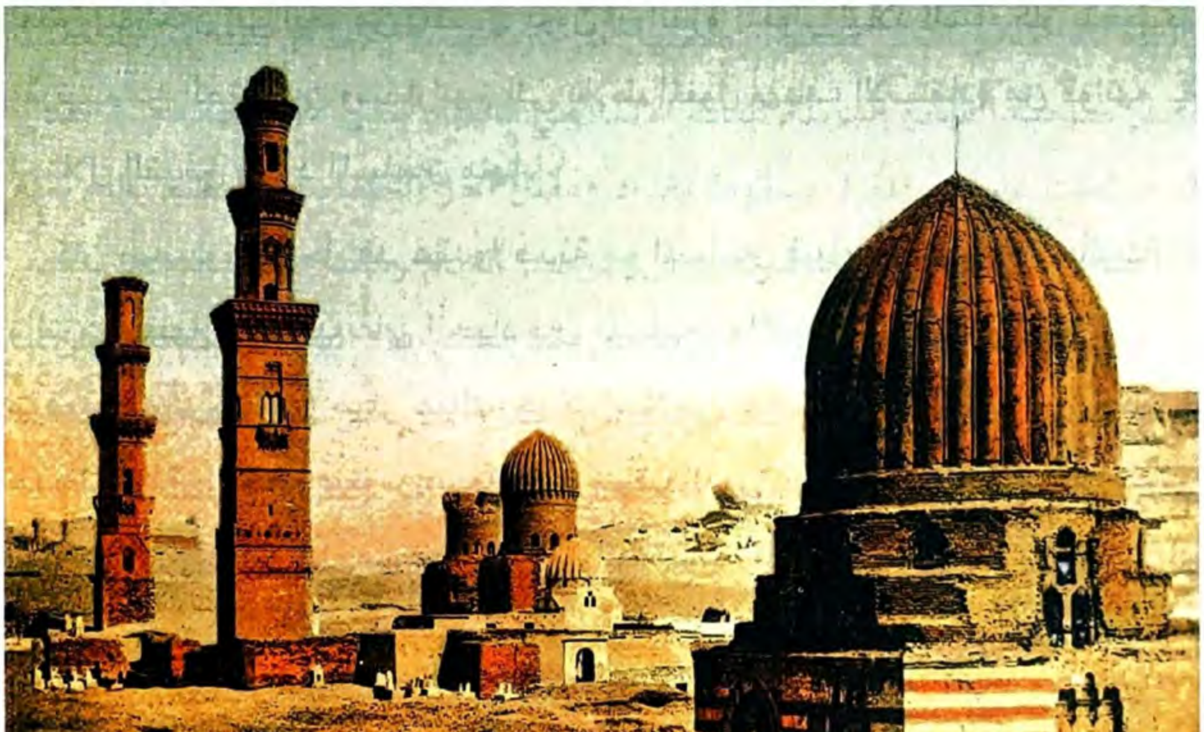

مقابر المماليك ، القاهرة ، مصر ، ١٩١٠م.

دخل المغول وحلفاؤهم من الصليبيين دمشق وتمكنوا من السيطرة عليها تمامًا بعد سقوط قلعتها التي صمدت أربعين يومًا وقد تعرض سكانها المسلمون للقتل والسلب ومختلف أنواع الأذى على أيدي المغول وعلى أيدي الصليبيين بل وحتى على أيدي نصارى دمشق نفسها الذين كانوا يعيشون تحت رعاية المسلمين وحمايتهم، فلما سقطت المدينة في أيدي المغول أخذوا يتجولون في طرقاتها وهو يرتلون تراتيلهم الدينية النصرانية، وأخذوا يدقون نواقيسهم في طرقات دمشق إمعانًا في أذى المسلمين، بل إنهم عمدوا إلى شرب الخمور في نهار رمضان في مساجد دمشق وصبوه فيها، كما قاموا بتحويل بعض مساجد المسلمين إلى كنائس، بالاتفاق مع المغول وأخذوا يمرون بالصلبان على المسلمين ويلزمونهم بالقيام لها وتعظيمها.[1]

وهكذا أثبت الصليبيون في بلاد الشام بل ونصارى العرب فيها تعاونهم مع الغزاة الهمج من المغول، الذين لا هم لهم سوى سفك الدماء، وإفساد الأرض وتحطيم مظاهر الحياة الإنسانية، كل ذلك بدافع الحقد الأعمى الذي كانوا وما زالوا يكنونه ضد المسلمين، وكان هذا التعاون الصليبي المغولي جزءًا من الحرب الصليبية، ويذهب بعض المؤرخين إلى أبعد من ذلك، إذ يرون أن الغزو المغولي لبلاد الشام كان بتخطيط وترتيب من الصليبيين وسفاراتهم إلى بلاط المغول بهدف الإستفادة من قواتهم في احتلال القدس وطرد المسلمين منها.[2]

كان صليبيو الساحل قد عقدوا هدنة مع المسلمين قبيل معركة (عين جالوت)،[3] والتزموا فيها بالوقوف على الحياد بين المسلمين والمغول حتى حسم المعركة، وبعد موقعة (عين جالوت) صار هناك جهاد إسلامي مباشر ضد الصليبيين، قاده في هذه المرحلة «الظاهر بيبرس»، بعد وفاة سيف الدين قطز، حيث خاض خلال عشر سنوات من حكمه ابتداءً من سنة ٦٥٩هـ. العديد من المعارك التي كانت موجهة لبقايا

---

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢١٩. المقريزي، السلوك، ج١/٤١٨. وانظر: المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية، ص ٢٢٣.

٢. انظر: المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص٢٢١. الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٩٧. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٦١.

٣. للحديث عنها موضع آخر من هذا الكتاب انظر ص ٢٣٠ وما بعدها.

الصليبيين في الشام بعد أن انقطعت عنهم الحملات الصليبية الكبرى من أوروبا.

كان لموقعة (عين جالوت) أثر واضح في تحطيم معنويات نصارى الشام من العرب والأرمن وبقية الصليبيين الآخرين من الفرنجة الذين ربطوا أنفسهم في هذه المرحلة بالقوة المغولية، وبالتالي ضعفوا بضعفها بعد هزيمتهم،[١] كما أن تلك المعركة جعلت مصر صاحبة القيادة الفريدة للعالم الإسلامي قاطبة، نظرًا لأن الخلافة في بغداد قد سقطت على يد المغول بسقوط بغداد ومقتل آخر الخلفاء المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ،[٢] ولقد حاول «الظاهر بيبرس» توحيد الشام ومصر بالقضاء على بعض الأمراء المعارضين لحكمه، وتمكن من ضمان ولاء معظم بلاد الشام للحكم المملوكي في مصر الممثل بحكم السلطان «الظاهر بيبرس»، كما قضى على بعض محاولات التمرد في مصر، وفي الوقت نفسه توجه «الظاهر بيبرس» إلى إعداد القوات الإسلامية للمواجهات مع الصليبيين، حيث جمع الجند واهتم بتحصين القلاع في بلاد الشام وشحنها بالعتاد والرجال، وفي الوقت نفسه تحالف مع القوى الإسلامية السلجوقية في الأناضول ضد الصليبيين وضد المغول، حيث كان على «بيبرس» مواجهة عدوين

١. انظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٤.
٢. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/ ٢٠٠.

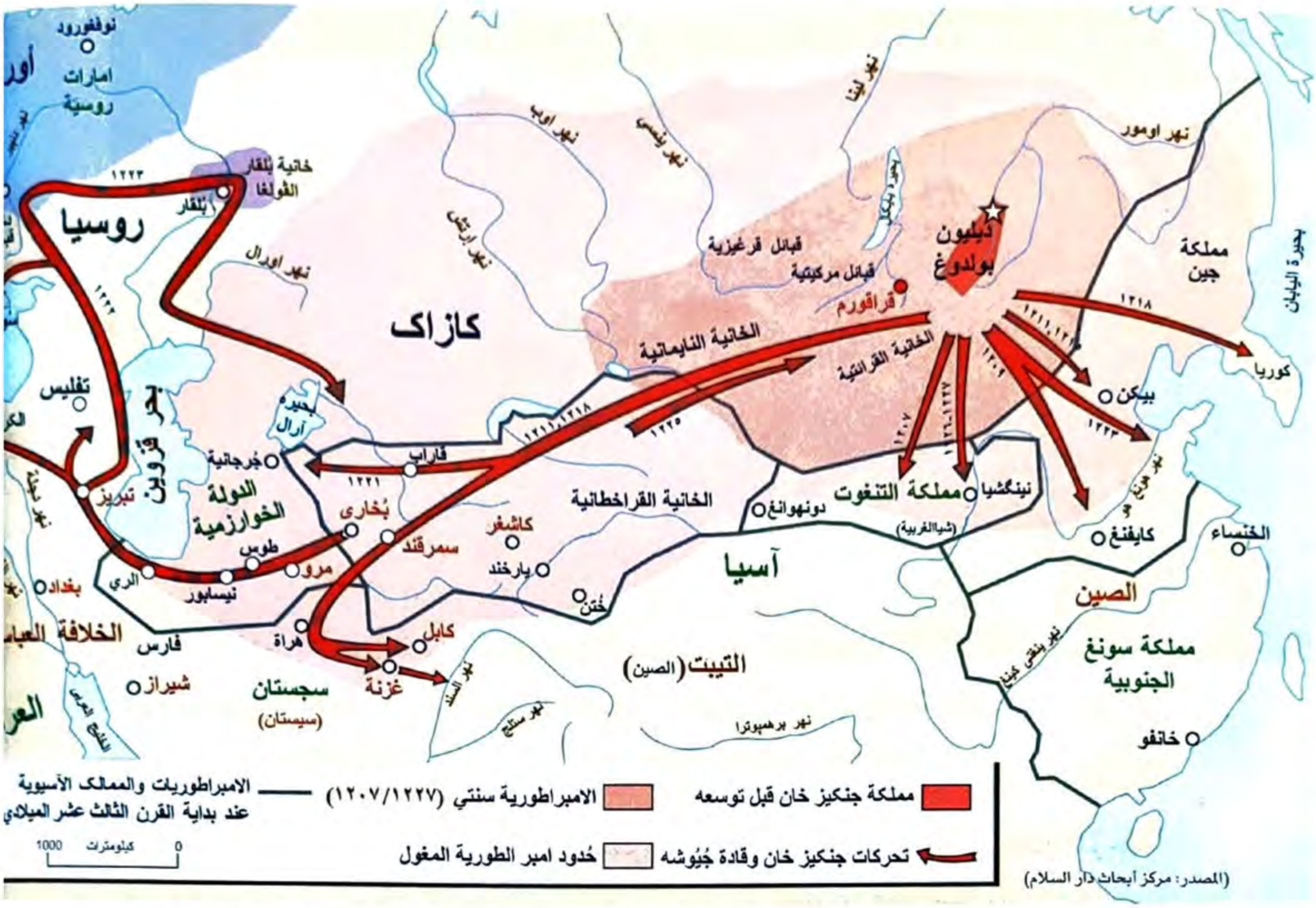


في وقت واحد في معظم الأحيان، كما أن الصليبيين العدو التقليدي للمسلمين، أصبحوا يستحقون وقفة خاصة وحازمة بعد أن تعاونوا مع المتوحشين المغول.

كان الساحل الشامي ما يزال مليئًا بالمواقع الصليبية والقلاع المتفاوتة الحجم والقوة، وما أن شاهد أولئك النصارى انتصار المسلمين على المغول حتى بدأوا يحسبون الحساب لتوجه الجهاد الإسلامي نحوهم، وأحسوا أنهم في هذه المرحلة سيكونون وحيدين في الميدان حيث أحس صليبيو أوروبا باليأس من الانتصار على المسلمين منذ هزيمة الفرنجة في الحملة الصليبية السابعة، وأسر «لويس التاسع» ملك فرنسا، وبالتالي خف دعم أوروبا للصليبيين إلى حد ما، وقد بدأ الصليبيون مفاوضات مع المماليك بعقد هدنة معهم فأصر الظاهر على إطلاق جميع أسرى المسلمين وتراجع الصليبيين عن المواقع التي سبق أن فتحها المسلمون أيام الناصر صلاح الدين، فرفضوا ذلك، ومع هذا فقد اتفقوا مع المسلمين على إطلاق الأسرى

فأطلق المسلمون من بأيديهم من أسرى الصليبيين، ولكنهم بالمقابل غدروا ولم يطلقوا أسرى المسلمين المتفق عليهم،[1] ولما جاءتهم الأخبار بجدية «الظاهر بيبرس» في قتالهم، وتوجهه إليهم جاءوا مرة أخرى معلنين موافقتهم على الشروط التي طلبها «الظاهر بيبرس» سابقًا، ولكن «بيبرس» رفض الهدنة معلنًا أنه قد فات الوقت وأنهم لم يفوا بإطلاق الأسرى، وتحركت جموع المسلمين لقتال بعض حصونهم،[2] وقد قام «الظاهر بيبرس» بحملات متكررة وفي سنوات مختلفة على العديد من المراكز الصليبية في الشام، كان من أهمها حملته على (عكا) وما جاورها من الحصون سنة ٦٦١هـ ١٢٦٣م،[3] كما هاجم (قيسارية) وتمكن من فتحها، وكانت تلك الهجمات تأديبية وفتحت العديد من المواقع الهامة، ولكنها لم تنجح في طرد الصليبيين من عكا، وهي من أهم مراكزهم في تلك الناحية، كما قام الصليبيون في المقابل بالهجوم على بعض المواقع الإسلامية، ومنها (بيسان) وتمكنوا من القتل والإفساد وغنموا غنائم كثيرة ساعدتهم على الصمود في بعض المواقع.[4]

وقد أعد «الظاهر بيبرس» الهجوم مرة أخرى على صليبيي الساحل الشامي سنة ٦٦٣هـ - ١٢٦٥م وركز في هذه المرة على محاولة تطهير بعض المواقع والحصون وتمكن المسلمون خلال هذه الحملة من استعادة (قيسارية) مرة أخرى بعد معارك قوية.[5] وما أن علم الصليبيون في يافا بتقدم المسلمين نحوهم حتى فروا وتركوا مدينتهم وبذلك تمكن المسلمون من تحريرها، وقد حاول «الظاهر بيبرس» الاستيلاء على عكا وعمل على حصارها إلا أن وصول الإمدادات إليها من قبرص ساعدها على الصمود في وجه المسلمين وبالتالي اضطر «بيبرس» لرفع الحصار عنها إلى السنة المقبلة نظرًا لدخول فصل الشتاء.[6]

كان الملك الأرمني «هيثوم» من أكثر الصليبيين تعاونًا مع المغول حيث اشترك شخصيًا بقواته في صفوفهم الأولى المهاجمة لبلاد الشام كما شارك في مجازر

١. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٣.
٢. المقريزي، السلوك، ج١/٥٢٥. وانظر: انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٣.
٣. العيني، عقد الجمان، ص ٢٥٦.
٤. انظر: المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية، ص ٢٣٤. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٥.
٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٤٤. ابن الوردي، تاريخه، ج٢/٣١٠. العيني، عقد الجمان، ص ٣٩٦.
٦. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٣٤. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٤.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

المسلمين في حلب وفي تخريبها، ولذلك فقد جرد «الظاهر بيبرس» حملة خاصة لتأديبه توجهت سنة ٦٦٢هـ الموافق ١٢٦٦م إلى أرمينيا يقودها الناصر «قلاوون»، وقد وقعت معركة بين المسلمين والأرمن كان من نتائجها هزيمة الأرمن، ومقتل أحد أبناء الملك «هيثوم» وأسر ابن آخر له، بالإضافة إلى قرابة أربعين ألف أسير آخر،

كما تمكن المسلمون من الاستيلاء على العديد من الحصون الأرمينية بالإضافة إلى عدد آخر من الحصون تنازل عنها «هيثوم» ملك الأرمن مقابل فك أسر ابنه، وبذلك تم تحجيم قوة أرمينيا،[1] وتأديبها على ما قامت به من تعاون مع الغزاة الذين لم يستطيعوا مساعدتها ضد هجوم المماليك المسلمين.

وقد دفعت انتصارات المماليك المستمرة في بلاد الشام وفي أرمينيا إلى أن يخضع بعض أمراء الصليبيين ويستجيبوا لجميع مطالب المسلمين مقابل هدنة محددة بزمن معين، ومن هؤلاء ملكة بيروت (إيزابيلا)،[2] ومن أهم حملات «الظاهر بيبرس» الجهادية ضد الصليبيين حملته على (أنطاكية) في رمضان سنة ٦٦٦هـ ١٢٦٨م حيث هاجمها المسلمون من البر والبحر ومنعوا عنها الإمدادات، وأنذروا أهلها ثلاثة أيام، ثم شددوا عليها الحصار برًا وبحرًا حتى يئس المدافعون عنها، ثم تسلق المسلمون عليهم الأسوار، وقاتلوا أهلها قتال شديدًا وانتصر المسلمون وتمكنوا من طرد الصليبيين واستعادتها من أيديهم،[3] بعد احتلال قرب من مئتي سنة، وكان تحرير إمارة (أنطاكية) ضربة موجعة للصليبيين حيث كانت أقدم الإمارات الصليبية التي أسست في الحملة الصليبية الأولى، كما استعاد المسلمون تبعًا لذلك العديد من القلاع الصليبية التي كانت تهدد حلب وغيرها من حواضر الشام الإسلامية، وباستعادة المسلمين لـ(أنطاكية) وما جاورها، انقطع الطريق البري بين ما تبقى من مراكز الصليبيين في الشام وبين أرمينيا والدولة البيزنطية، وساعد ذلك على ضعف تلك المراكز المتبقية وعلى رأسها طرابلس وعكا.

وقد سبب تحرير (أنطاكية) نوعًا من التضامن بين بقية الإمارات الصليبية في الشام، وخصوصًا عكا وطرابلس وهما أهم ما تبقى من الإمارات الصليبية، كما دخلت قبرص في هذا التعاون بهدف تشكيل جبهة صليبية موحدة للوقوف في وجه الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين وقد وصلت بعض الحملات العسكرية من أوروبا

---

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/١٤١. العيني، عقد الجمان، ص ٣٨٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٥١. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٣٥.

٢. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٣٥.

٣. المقريزي، السلوك، ج١ ق٢/٥٦٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٥١.

الغربية وخصوصًا من فرنسا بهدف المساعدة في صد الهجمات الإسلامية، لكنها لم توفق في تحقيق أي من أهدافها وخصوصًا حملة الملك الفرنسي «لويس التاسع» التي عادت أدراجها مرة أخرى من تونس قبل وصولها إلى سواحل بلاد الشام.[١]

وقد قام «الظاهر بيبرس» سنة ٦٦٩هـ ١٢٧٠م بمهاجمة طرابلس وتمكن من الاستيلاء على العديد من الحصون التابعة لها، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عكا نفسها، وقد اضطر لعقد معاهدة مع ملكها «بوهمند السادس» كما عقد «الظاهر بيبرس» صلحًا مع صقلية، الذي لم يف بالمعاهدة وتعرض لبعض رسل «بيبرس» بالأذى فحاول المسلمون الهجوم على قبرص بالأسطول البحري ولكنهم لم ينجحوا في ذلك،[٢] وقد قام «الظاهر بيبرس» مع وجود المعاهدات بإعداد القوة وبناء السفن لتعويض ما خسره في هجومه على قبرص، وفي الوقت نفسه كان يغير على مواقع الصليبيين الساحلية التي لم تدخل في صلح مع المسلمين.[٣]

توفي (الظاهر بيبرس) سنة ٦٧٦هـ،[٤] بعد أن نجح في تحجيم الوجود الصليبي في الشام وحصره في بعض المواقع الساحلية، كما أضعفت هجماته المتكررة من قواتهم في الشام، وبالتالي أصبحوا مهددين بالزوال تمامًا من خارطة الشام وهذا ما قام به المماليك بعد وفاة «بيبرس».

## القضاء على آخر معاقل الصليبيين :

كان الصراع الإسلامي الصليبي قد دخل مراحله الأخيرة لما عرف بالحروب الصليبية في عصر «الظاهر بيبرس» ثم في عصر السلطان «الناصر قلاوون» الذي تولى بعد فترة قصيرة من وفاة «بيبرس» كانت من أعمال «قلاوون» موجهة إلى توحيد الصف الإسلامي في مصر والشام، والقضاء على محاولات الانفصال من قبل بعض الأمراء، وفي الوقت نفسه سعى إلى الاستمرار في سياسة (بيبرس) لترتيب

---

١. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٣٦. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٥.
٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٥٩. ابن الوردي، تاريخه، ص ٣١٤.
٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٦١.
٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/٢٧٤. ابن الوردي، تاريخه، ص ٣٢١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/٢٧٨.

القوات الإسلامية وتجهيزها، مما دفع بقايا الصليبين إلى محاولة عقد معاهدات مع «قلاوون»، وكانت تتم بالدرجة الأولى عن ضعف الصليبيين، حيث كانوا يقبلون أن يقيم بينهم ممثل للسلطان «قلاوون» يتولى أخذ نصف خراج أراضيهم، كما سعى «قلاوون» في الوقت نفسه إلى قطع الإمدادات من أوروبا عن الصليبيين في الشام عن طريق عقد المعاهدات مع ملوك أوروبا المعاصرين له، مما أضعف حماسهم لمساندة صليبيي الشام.[١]

وقد أعد السلطان «قلاوون» سنة ٦٨٨هـ حملة كبرى لمجاهدة الصليبيين في طرابلس، وهي مكونة من جند مصر وجند الشام وفيهم عدد كبير من العلماء والقضاة والمتطوعة،[٢] وقد تمكن المسلمون من محاصرة طرابلس من البر والبحر

١. المعاضيدي وزملاؤه، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ص ٢٤٠. انتوني بردج، تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٨٧.
٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣١٢. ابن الوردي، تاريخه، ص ٣٣٦.

وضربوها بتسعة عشر منجنيقًا، وقد حاولت بعض السفن القبرصية مساندة المحاصرين ولكنها فشلت في ذلك،[1] واستمر الحصار ما يزيد على الشهر تمكن المسلمون في نهايته من اقتحام طرابلس ودخولها عنوة وفرض سيطرتهم عليها، وقد وقع كثير من أهلها قتلى أو أسرى بأيدي المسلمين، كما قام (قلاوون) بتحطيم تحصيناتها وتخريب قلاعها وأسوارها خوفًا من عودة الصليبيين إليها مرة أخرى، ويعد فتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ واستعادتها من الصليبيين من أهم أعمال «قلاوون» حيث دام احتلال النصارى لها ما يزيد على (١٨٠) سنة، وقد بادر (قلاوون) بعد الاستيلاء على طرابلس بفتح بعض المواقع المهمة في ساحل لبنان ومنها جبلة وبيروت وما حولها من الحصون.[2]

وقبل وفاة السلطان (قلاوون) سنة ٦٨٩هـ،[3] كانت معظم بلاد الشام قد تطهرت من الصليبيين ولم يبق من معاقلهم الرئيسة سوى (عكا) وقد تولى الأمر بعده ابنه الأشرف (خليل)،[4] الذي حطم في أيامه آخر قلاع الصليبيين، وكانت جهوده مركزه بالدرجة الأولى على إمارة عكا التي أصبحت أكبر معاقل الصليبيين في أيامه.

كانت عكا ترتبط مع المسلمين بمعاهدة منذ أيام السلطان (بيبرس)، لكنها حينما أحست بالخطر بعد فتح المسلمين لطرابلس استنجدت بأوروبا، فأخذت تصل إليها الإمدادات من مختلف أنحاء أوروبا، في محاولة مستميتة للصمود في وجه المسلمين، ولم يراع الأوروبيون الجدد للمسلمين حرمة وتساهلوا بمعاهداتهم معهم فقتلوا من في عكا من تجار المسلمين،[5] وهاجموا القرى الإسلامية القريبة من عكا، فقتلوا كثيرًا من أهلها وأفسدوا في الأرض، فأخذ السلطان «خليل» يعد العدة للهجوم على عكا، ولما أحس أهل عكا بذلك حاولوا الاعتذار من المسلمين، ولكن السلطان لم

١. المقريزي، السلوك، ق٣ ج١/٧٤٧.

٢. المقريزي، السلوك، ق٣ ج١/٧٤٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/٣٧٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣١٢. ابن الوردي، تاريخه، ص ٢٣٤.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣١٧.

٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢١٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨/٣.

٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢٠. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨/٧.

يقبل عذرهم،[١] وأخذ يعد العدة ويجيش الجيوش في الشام استعدادًا للهجوم على عكا، وفي الوقت نفسه جمع السلطان العلماء والفقهاء في القاهرة وطلب من الناس الدعاء بنصر المسلمين، وأخرج كثيرًا من الصدقات على الفقراء والمحتاجين،[٢] قبل توجهه للشام، ثم وصل السلطان وعسكر قرب عكا ووصلت آلات الحصار المعدة من مختلف بلاد الشام، وبلغت المنجنيقات الإسلامية في ذلك الحصار اثنين وتسعين منجنيقًا،[٣] في الوقت الذي استمر فيه تدفق الإمدادات من أوروبا على عكا في محاولة لإنقاذها، وقد اشتد الحصار على نصارى عكا رغم استبسالهم في الدفاع عن مدينتهم، وحرص السلطان على أن يشرف بنفسه على القتال في عدة أيام، فلما

١. المقريزي، السلوك، ق٣، ج١/٧٦٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨/٧.

٢. المقريزي، السلوك، ق٣، ج١/٧٦٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢٠.

٣. المقريزي : السلوك، ق ٣ ج١/٧٦٤.

كان اليوم السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء على عكا بعد حصار استمر أربعين يومًا، وأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين، وهرب الناجون منهم في البحر متوجهين إلى أوروبا وغرق منهم خلق كثير في البحر،[١] وبعد فتح المسلمون لعكا أخذوا يطهرون المواقع الصليبية الأخرى في الشام فتمكنوا من (صور) و(حيفا) و(عثليث) وعمل المسلمون في الوقت نفسه على تحطيم الحصون والأسوار في عكا وغيرها من المواقع التي استردها خوفًا من عودة الفرنجة إليها عن طريق البحر وتحصنهم بها،[٢] ولم يمض شهران من سقوط عكا حتى كانت الشام كاملة قد تطهرت من أرجاس الصليبيين الفرنجة ولم يبق منهم أحد وتم طردهم نهائيًا من الشام وبلاد الإسلام[٣] وقد قال عدد من الشعراء أبياتًا في ذلك ومنها:

الحمد لله زالت دولة الصلب
وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت
رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها
في البحر للترك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفرة إذ خربت
في البحر والبر ما ينجي من الهرب

إلى آخر القصيدة.[٤]

---

١. انظر: ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٨/٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢٠. ابن الوردي، تاريخه، ص ٣٣٦. قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، ص٧٨٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢١. ابن الوردي، تاريخه، ص ٣٣٧. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨/١١.

٢. المقريزي، السلوك، ق٣، ج١/٧٦٤ ـ ٧٦٦. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢١. قدري قلعجي، صلاح الدين، ص ٦٠٤.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢١. ابن الوردي، تاريخه، ص ٣٣٧. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨/١١.

٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٣٢٣.

الفصل ٦

# الغزو المغولي للعالم الإسلامي

# الغزو المغولي للعالم الإسلامي

ابتلي العالم الإسلامي في الربع الثاني من القرن السابع الهجري بهجمة شرسة لمجموعة من القبائل المغولية المشتركة، التي كانت تدين بـ (الشامانية) وتركز على عبادة المظاهر الكونية، وقد قامت فيها حركة سياسية قوية تزعمها «جنكيز خان»، ووضع لهم قوانين وأنظمة تسير حياتها عرفت بـ(الألياسا).

كان الوضع في العالم الإسلامي قبل الغزو المغولي في حالة ضعف عامة نتيجة الانقسامات ووجود القواد والزعماء الذين اهتموا بأنانية بالغة بمصالحهم الشخصية، وقدموها على مصالح المسلمين العامة، حيث ساد بين كثير منهم الترف وحب الشهوة واللهو وضعف الأخلاق وفقدان الشجاعة، كما كثرت البدع بين الناس وضعفت أخلاقهم ومعنوياتهم.[1]

وقد كانت هناك عدة قوى سياسية في المشرق كان لها مواجهات مع المغول، ومن تلك القوى الدولة (الخوارزمية) التي كانت تسيطر على مناطق فارس وخراسان في مناطق ما يعرف بـ (إيران) ـ حاليًا ـ كما كانت هناك الدولة (الغورية) وتقع إلى

١. انظر: إسماعيل عبد العزيز الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٤٣.

الجنوب من الخوارزميين في مناطق أفغانستان وبلاد السند وما جاورها كما وجدت طائفة الإسماعيلية الباطنية وكانت تسيطر على المناطق الواقعة جنوب بحر قزوين يضاف إلى ذلك أمراء السلاجقة الذين يسيطرون على المناطق المحيطة ببحر قزوين والأناضول وبعض المناطق المجاورة لها من الجزيرة وشمال الشام، كما وجد بعض الأمراء الأيوبيين الذين يحكمون في الحواضر والقلاع الشامية، ويضاف إلى كل هؤلاء الخلافة العباسية في بغداد، التي كانت لها سلطة رمزية على كثير من هذه الدول التي ذكرنا، وكانت تعاني من ضعف شديد، وتحتضر في آخر أيامها.

كما كانت المذاهب الباطنية تنتشر في العديد من بلاد العالم الإسلامي ولها تأثيرها على الأحداث في العراق وفي مناطق الإسماعيلية جنوب بحر قزوين وفي مناطق كثيرة أخرى.

تحركت تلك الجموع من مواطنها الأصلية في هضبة منغوليا وما جاورها في وسط آسيا مُشكّلة موجات عسكرية شرسة متجهة إلى الغرب محطمة كل مظاهر الحياة في البلاد الإسلامية الواقعة في طريقها، وكانت أولى مصادماتها مع الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر التي كان يقودها (محمد خوارزم شاه)، وقد صاحب

بخارى

تلك الهجمات من المغول عنف لم يعرف له أهل تلك المناطق من قبل مثيلاً مما أدخل الرعب في قلوب الناس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حيث أعمل المغول المذابح الوحشية في مدن (بخارى) و(جند) و(سمرقند) و(ترمذ) و(بلخ) وغيرها، وقد وصف بعض المؤرخين ما جرى لأهل بخارى عند سقوطها في يد المغول قائلاً: «ودخل الكفار البلد فنهبوا وقتلوا من وجدوا فيه .... وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم، وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضًا، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون، ولا يستطيعون أن يدفعوا شيئًا مما نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل ... ومن استسلم أخذ أسيرًا وألقوا النار في المدارس والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب».[1] كما وصف مؤرخون آخرون الذلة التي أصابت المسلمين فكانوا يجمعون جموعًا كبيرة في مكان فسيح ثم يكتف بعضهم بعضًا حتى إذا انتهوا من ذلك مر عليهم الذباحون من المغول فذبحوهم ذبح النعاج دون مقاومة تذكر من المذبوحين،[2] وعملوا مجازر أخرى في (مرو) (وهراة) وغيرها.

وقد تولى على الدولة الخوارزمية في مراحل الغزو الأولى «جلال الدين منكبرتي»

---

١. ابن الأثير، الكامل، ج٩/٣٣٢.

٢. انظر: إسماعيل الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي، ص ٨١.

عاصمة المغول القبيلة الذهبية - مدينة ساراي باتو. (منغوليا)

واستطاع أن يجمع جيوشًا كبيرة التقي فيها بالمغول في أكثر من موقعة وانتصر عليهم في بعضها، ومع ذلك فقد كانت نهاية تلك المعارك القضاء على الدولة الخوارزمية وفرار جلال الدين من الساحة، وقد سرت أخبار قوة المغول ووحشيتهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، مما أوقع الرعب في صفوف القوى الأخرى القريبة من مناطق المغول، وجعل بعض منهم يهادن المغول ويبعث أحيانًا بالأجناد من قبله لمشاركتهم في حرب المواقع الأخرى اتقاءً شرهم وعلى حساب إخوانهم المسلمين، كما أن تأخر الدولة العباسية في اتخاذ الأسباب لوقف زحف المغول كان له دور كبير فيما حدث حتى أن (هولاكو) حينما احتل بغداد ذكر الخليفة المستعصم بما يجب أن يفعله في هذه المرحلة، حيث شاهد «هولاكو» الأموال الكثيرة في خزينة الخليفة بعد أسره فقدم «هولاكو» للخليفة طبقًا مملوءًا بالذهب وطلب منه أن يأكله فقال المستعصم: كيف آكل الذهب؟ فقال «هولاكو»: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلماذا حفظته، ولم توزعه على جندك حتى يصونوا ملكك من هجمات جيشنا ولما لم تحول تلك

الأبواب الحديدية إلى سهام وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحـول دون عبوري؟ فقـال الخليفة: هكذا كان تقدير الله،[1] وإذا كان الخليفة قد فسر عجزه وتقاعسه عن الواجب بتقدير الله فإن ما أصابه هو أيضًا تقدير الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

## سقوط بغداد والخلافة العباسية:

لقد سبق وصول المغول إلى العراق اقتحامهم لجميع الأقاليم الشرقية للخلافة العباسية تدريجيًا، ولم يتحرك الخليفة لمقاومة المغول بل كان يضيع الوقت فيما لا فائدة فيه، وكان يعتمد في تسيير أمره على وزير رافضي هو مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان يتصل سرًا بزعيم المغول «هولاكو» ويراسله، وقد عمل هذا الوزير على إضعاف جيش الخلافة العباسية حيث خفض عدد الجيش ربما باتفاق مع «هولاكو»، وسير بعض الأموال إلى «هولاكو» لمصانعته، وقد بعث «هولاكو» سنة ٦٥٣هـ رسالة إلى الخليفة العباسي المستعصم يطلب منه أن يمده بالجند لقتال قلاع الإسماعيلية في (آلموت) وما جاورها فامتنع الخليفة عن ذلك، وفي سنة ٦٥٥هـ بعث «هولاكو» برسالة أخرى إلى الخليفة العباسي يهدد ويتوعد ويطلب أن تكون له هيمنة على الخلافة كما كان ذلك للسلاجقة وغيرهم قبل ذلك، فرفض الخليفة طلبه وبادله التهديد بتهديد آخر مماثل، فرد «هولاكو» بتهديد أقوى من الأول، ثم استشار الخليفة وزيره «ابن العلقمي» فأشار عليه بتخفيض الجيش وبعث ما يتوفر

---

١. د. الصياد، المغول في التاريخ، ص ٢٦٧.

جبال التاي على الحدود مع منغوليا

من المصروفات جزية «هولاكو»، ويذكر المؤرخون حادثة أخرى في هذه الفترة تدل على فارق الاهتمام بين المغول والخلافة العباسية، حيث كان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد أقام علاقة قوية مع «هولاكو» اتقاء لشره، وفي الوقت نفسه كان ما يزال على علاقته بالخلافة العباسية، فوصلت إليه في وقت واحد رسل من «هولاكو» يطلبون منه إمدادهم بالأسلحة والمنجنيقات، وما يلزم فتح الأسوار استعدادًا للهجوم على بغداد، كما وصلت رسل الخليفة في الوقت نفسه يطلبون مغنية عند صاحب الموصل قد ذكرت بجمال الصوت، فقال صاحب الموصل: انظروا إلى هذين الرسولين وأبكوا على الإسلام وأهله.

مدينة بغداد القديمة

وصلت جيوش المغول إلى بغداد وأحاطت بها من الناحية الغربية والشرقية، كان المدافعون عن بغداد لا يتجاوزون عشرة آلاف مقاتل في وقت وصل فيه سكان بغداد إلى أكثر من مليون نسمة، ولا شك أنه بالإمكان ترتيب عدد أكبر للدفاع عن بغداد لو جدَّ حكامها في ذلك الأمر، كما أن أهلها يتحملون جزءًا من المسؤولية لكنهم تهاونوا جميعًا في هذا الأمر، ويصور أحد المؤرخين حالة الموجودين من الجند فيقول: «وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة ولا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم، ويرثون على الإسلام وأهله وذلك كله عن آراء الوزير العلقمي الرافضي»[1] وقد كانت حالة الموجودين من

1. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٠٠، ٢٠١.

كان بيت الحكمة مكتبة ضخمة في بغداد ومركزًا فكريًا رئيسيًا حيث يمكنك العثور على كتب ومخطوطات عن العلوم والفن والأدب اليوناني

الجيش من الناحية الظاهرية جيدة لكنهم منهزمون معنويًا رغم كل ذلك، ويصف أحد الفرسان المسلمين الفرق بين مظهر الفارس المغولي والفارس المسلم ونتيجته حيث يقول: «كان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحته فرس عربي وعليه سلاح تام كأنه الجبل العظيم، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفي يده رمح كأنه المغزل، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه، ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة، كانت مفتاح الشر، ثم كان من الأمر ما كان»،[1] وفي أثناء الحصار خرج «مؤيد الدين بن العلقمي» الوزير الرافضي بأولاده وخدمه وأتباعه لمقابلة «هولاكو» حيث كُرم وعُزز وكان على اتصال بأمر «هولاكو» قبل وصوله لبغداد، وقد عاد «ابن العلقمي» إلى بغداد بأمر «هولاكو» حيث أشار على الخليفة بالاستسلام دون قيد أو شرط، وبالفعل خرج الخليفة في ٤ صفر ٦٥٦هـ ومعه ما يقارب السبع مئة رجل من خواصه وخدمه ومن الأمراء والقضاء والعلماء، فما أن وصلوا إلى مخيم «هولاكو» حتى أخذت الإهانات تنصب عليهم، وحجز الخليفة وسبعة عشر من الكبراء لملاقاة «هولاكو» أما بقية السبع مئة فقد قتلوا ونهبوا عن آخرهم،[2] ثم أن «هولاكو» قابل الخليفة واستفسر منه عن الأموال والكنوز، وبعث معه الوزير العلقمي والرافضي «نصير الدين الطوسي» ليتسلما منه بعض تلك الكنوز ويتحفظا عليها، فأحضر الخليفة من داره شيئًا كثيرًا من الذهب والمجوهرات وخبأ أشياء أخرى وقد ذكر أن «هولاكو» أصطحب الخليفة إلى داره فقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف، وكان الخليفة يرتعد فكسرت أقفال الخزائن وأخرجت منها آلاف الدنانير وأنفس المجوهرات فلم يهتم لها «هولاكو» ووزعها على أتباعه، ثم ألح «هولاكو» على الخليفة أن يخبره بالمدفون من الخزائن فأمر الخليفة بالحفر وسط القصر فأخرجوا حوضًا مملوءًا بالذهب الصافي من القطع الكبيرة، فلام «هولاكو» الخليفة كيف يحتفظ بكل هذا الذهب ولا ينفق منه لإعداد الجند.

وبعد أن حصل «هولاكو» على كل ما يريد من الخليفة عمل على قتله بطريقة

---

١. ابن طباطبا، الآداب السلطانية، ص ٦٩.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٠٣.

بشعة، حيث كان لديه اعتقاد أن الخلفاء والملوك إذا أريق دمهم انتُقم لهم، فوضع الخليفة في أكياس وضعت عليه البسط وديس بالأقدام حتى مات، وقيل أن المغول جلسوا يأكلون الطعام عليه ويرفسونه حتى مات.[1]

المغول الفرسان

وقبل هذا وبعده كان القتل قد بدأ في أهل بغداد المسلمين دون تمييز، يقول ابن كثير: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش ـ قضاء الحاجة ـ وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، ففتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون إلى أعلى الأمكنة فيقتلون بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء بالأزقة؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج أحد سوى أهل الذمة والنصارى ومن إلتجاء إليهم وإلى دار الوزير «ابن العلقمي» الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم».[2] وقد عمل المغول في أهل بغداد قتلاً حتى قيل أن عدد القتلى وصل إلى ثمان مئة ألف إنسان، واستمر

---

١. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٠٣.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٠١، ٢٠٢.

القتل قرابة أربعين يومًا وقد كانت آخر خطبة خطبت في جامع بغداد بعد مرور أربعة وثلاثين يومًا من التقتيل قال فيها الخطيب: «الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهلها بمثلها؛ وإنا لله وإنا إليه راجعون»،[1] كما أفسدوا مساجدها ومنازلها، «وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا، قيل أنهم بنوا بها جسرًا من الطين والماء عوضًا عن الآجر»،[2] وقيل إنه لكثرة القتلى فقد أضطر من كان في بغداد من المغول وعلى رأسهم «هولاكو» إلى تركها لعفونة هوائها.

وقد عين «هولاكو» مؤيد الدين العلقمي الوزير الرافضي للخليفة السابق نائبًا عنه في بغداد، وكان لسقوط بغداد أثر كبير بين المسلمين وغير المسلمين، فقد صاحب سقوطها سقوط الخلافة الإسلامية المثلة بالعباسيين الذين حكموا ما يزيد على خمس مئة سنة، ومع ما كان في فتراتهم من ضعف وذلة للمسلمين في كثير من الأحيان إلا أنه كان ينظر لإقامة الخلافة الإسلامية كشعيرة ورمز للمسلمين، كما أن مقتل هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين قد أثر كثيرًا في المسلمين في مختلف المناطق، يضاف إلى ذلك أن بغداد كانت طيلة خمسة قرون هي حاضرة العالم الإسلامي، وموطن العلماء والأدباء والمفكرين، وقد رثى العديد من الشعراء بغداد بقصائد عُدت من عيون الشعر ومن ذلك قول أحدهم:

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/٥١.
٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/٥١.

لسـائل الدمـع عـن بغـداد أخبـار
فمـا وقوفـك والأحبـاب قـد سـاروا
يـا زائريـن إلـى الـزوراء لا تفقـدوا
فمـا بـذاك الحمـى والـدار ديـار
تـاج الخليفـة والربـع التـي شـرفت
بـه المعالـم قـد عفـاه إقفـار
أضحـى لعطـف البلـى في ربعـه أثـر
وللدمـوع علـى الآثـار آثـار

إلى آخر القصيدة.[1]

رسم تخيلي هولاكو خان عند حصار بغداد

ومما زاد المصيبة أن ما حدث كان على يد شعب وثني غير متحضر لم يرع لأحد من الناس حرمة، وفي الوقت نفسه لم يتعرض لليهود والنصارى بشيء.

وقد فرح النصارى في مختلف أنحاء العالم بما حدث للمسلمين في بغداد واعتبروا ذلك جزءًا من حربهم ضد المسلمين، حيث كان ما حدث في أواخر الحروب الصليبية، كما أن وجود زوجات لبعض خانات المغول من النصارى دفع الصليبيين لاعتبار ما جرى جزءًا من عملهم وتخطيطهم خصوصًا أن المبعوثين كانوا يترددون بين بلاط (هولاكو) وملوك الصليبيين.

## الهجوم المغولي على الشام:

بعد أن فرغ المغول من العراق توجهوا إلى الشام والجزيرة تسبقهم دعايتهم بالانتصار في بغداد وسفك الدماء، مما كان له الأثر الكبير في فزع الناس منهم أمراء

١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/ ٥٠.

وعامة، وقد دفع كثير من الأمراء إلى التسليم لرسل المغول قبل وصول الأجناد وإلى إمداد المغول بكل ما يطلبون حتى أمدهم البعض بجند من مسلمين ليشاركوهم في احتلال المواقع الإسلامية الأخرى، يضاف إلى ذلك أن النصارى في بلاد الشام وفي أرمينية وخصوصًا ملك أرمينيا «هيثوم» قدموا كل دعم للمغول وشاركوهم في غزو بعض مدن الشام ومنها حلب ودمشق حتى تمكنوا من الوصول إلى فلسطين وأصبحوا بالقرب من مصر.[1]

## معركة عين جالوت:

بعد وصول المغول إلى فلسطين كانت وجهتهم القادمة مصر التي بقيت المعقل الأول في العالم الإسلامي الذي كان يتمتع بقوة يمكن أن تجابه المغول، وتوقف نيران

١. انظر: ص٣٠٥ وما بعدها من هذا الكتاب.

حقدهم التي أحرقت شرق العالم الإسلامي والعراق وبلاد الشام، وقد كان «هولاكو» زعيم المغول يخطط للاستيلاء على مصر، وقبل أن ينفذ شيئًا من ذلك أرسل خطابًا مرعبًا إلى سلطان المماليك في مصر سيف الدين قطز يهدده فيه ويتوعد، ومنه «يعلم الملك المظفر «قطز» وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية، وما حولها

من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا، ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفّون عند كلام وخنتم العهود والإيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان فابشروا بالمذلة والهوان،

﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأحقاف:٢٠)

﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)

فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وأن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أننا نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة وقد سلطنا عليكم من له الأمور والمقدرة، والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل، فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب»[1] ... إلى آخر ما كتب.

كان سلطان المماليك «سيف الدين قطز رحمه الله» معروفًا بالتقوى والصلاح، كثير الصلاة في الجماعة بعيدًا عن الخمر واللهو والمحرمات ناصحًا للإسلام وأهله يحبه الناس ويدعون له بالخير مع أنه لم يتولى سوى عدة أشهر،[2] وقد استقبل خطاب «هولاكو» فجمع العلماء والقادة والأمراء يستشيرهم في الرد عليه، فتفاوتت

١. المقريزي، السلوك، ج١/٤٢٧.

٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٢٥.

القتال بين المحاربين المماليك

أراؤهم حول الموضوع، وكان بعضهم جبانًا طلب من «قطز» التسليم للمغول بقيادة «هولاكو»، وأنه لا داعي لقتالهم حيث أنهم انتصروا على كل من قبله وسينتصرون عليه، وحاول أولئك الجبناء التهويل على «قطز»، وتذكيره بما فعل المغول في الشام والعراق وغيرها وتخويفه من سطوتهم وقد أقترح بعضهم الفرار إلى المغرب أو اليمن حيث لم يصلها المغول بعد، ولكن رأي «قطز رحمه الله» كان واضحًا وحازمًا وهو أنه سوف يقاتل هؤلاء الغزاة الذين قتلوا العباد وأفسدوا البلاد وانتهكوا المحرمات ولذلك فقد رد على من يرى عدم القتال من الأمراء والقواد قائلاً: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن أختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في

رقاب المتأخرين»،[1] ثم أن «قطز رحمه الله» اتخذ خطوة عملية يقطع فيها التفاوض مع المغول فقد أمر بقتل رُسل «هولاكو» وتعليقهم على أبواب القاهرة، [2] وكان إعلان (قطز) خروجه بنفسه لقتال المغول أكبر دليل على صدقه في نية القتال، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم المصرية بالخروج للجهاد[3] وبدأ «قطز» يعد الأمور المختلفة للترتيب ومن ذلك أن الأجناد كانت بحاجة إلى كثير من الأموال في طور الإعداد والتجهيز للمعركة، ولذلك فإن «قطز رحمه الله» فكر في فرض بعض الضرائب والإتاوات على الناس بغرض الإعداد للجهاد، ولكنه رحمه الله لم يقرر هذا الأمر بنفسه ويفرضه على الناس بل جمع العلماء والقادة للتشاور معهم حول هذه القضية، فوافقه القضاة والقادة على فرض الضرائب على الناس ولكنه سمع كلمة حق من سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله حيث قال: «لابد أن تدفع أنت وجميع الأمراء والمماليك جميع ما تملكون من ذهب وغيره، فإذا لم تكف هذه الأموال دعونا الناس إلى الجهاد بأموالهم، أما أن يدفع الناس أموالهم وأنتم تكنزون الذهب والفضة؟!! فلابد أن تضربوا للناس المثل الأعلى»،[4] لقد لقيت كلمات العز بن عبد السلام الناصحة أذنًا صاغية عند السلطان «قطز» فبدأ بنفسه وأخرج ما لديه من الأموال والكنوز قبل أن يطلب من الناس المساعدة بأموالهم لقتال المغول، كما بادر كثير من الأمراء إلى الاقتداء به فأخرجوا كنوزهم.

كانت خطة «قطز رحمه الله» المبادرة لملاقاة المغول بهجوم مباغت قبل وصولهم إلى مصر، وقد تطلب هذا الأمر من الجيش المصري المسلم أن يكون مرورهم على الساحل عن طريق بعض المناطق الصليبية التي كانت في حالة حرب مع المسلمين، وفي حالة وفاق وسلام مع المغول، فخشي المسلمون منهم، ولذلك بادر «قطز» للاتصال بهم طالبًا منهم أن يسمحوا له بالعبور وأن يقفوا على الحياد بين المسلمين والمغول وهددهم إن هم لم يفعلوا ذلك أن يوجه جند المسلمين إليهم، وقد أحس الصليبيون

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٢٠.
٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٢٠، ٢٢٥، المقريزي، السلوك، ج١/٤٢٩.
٣. المقريزي، السلوك، ج١/٤٢٩.
٤. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧/ ٧٢، ٧٣.

معركة عين جالوت (١٢٦٠ ب م). المماليك ضد المغول (ويكيبيديا)

بجدية «قطز رحمه الله»، ولذلك وافقوا على الوقوف على الحياد،[1] وانتظار نتائج المعركة المرتقبة بين المسلمين والمغول، وهذا بالطبع في صالحهم على أي حال.

كان تجمع معسكر الجيش المصري المسلم في نواحي غزة، وقد أكمل المسلمون استعدادهم وتوجهوا لمكان المعركة عن طريق الساحل مرورًا ببعض الأراضي الصليبية التي كانت خالية من المدافعين عنها، فحاول بعض القواد إقناع «قطز» بالاستيلاء على المواقع الصليبية لخلوها من المدافعين فنهرهم «قطز» وذكرهم بتعاليم الإسلام بالوفاء بالعهد مهما كانت الظروف وأن المسلم لا يستغل ظروف الأعداء لينقض العهد فكان رحمه الله مثالاً للخلق المسلم في هذا الجانب.

وصل المسلمون إلى منطقة (عين جالوت)، وكان بعض الأمراء مترددين في قتال المغول فقال: أنا ألقى التتار بنفسي،[2] فتشجع أمراء المماليك وبقية القوات، وقد

١. المقريزي، السلوك، ج١/ ٤٣٠.

٢. المقريزي، السلوك، ج١/ ٤٢٩.

جعل «قطز» طليعة من الجند بقيادة «ركن الدين بيبرس»، تتقدم المسلمين وتستطلع أخبار العدو، فلقي طليعة التتار بالقرب من (عين جالوت) فأخذ «بيبرس» يناوشهم وأرسل إلى السلطان «قطز» وجنود المسلمين يخبرهم بالوضع فتقدم «قطز» ومن معه حتى وصلوا إلى (عين جالوت)، في الوقت الذي وصلت فيه أجناد المغول يقودهم (كتبغا) نائبًا عن (هولاكو) الذي كان قد رحل عن بلاد الشام بسبب بعض الظروف في شرق بلاده.

كانت المعركة واللقاء مع المغول في (عين جالوت) يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان، كان الجيش المسلم على خوف عظيم من المغول نتيجة أعمالهم السابقة في البلاد الإسلامية ونتيجة لأن جيوشهم لم تغلب قبل ذلك، ولكن وجود «قطز» في صفوف المسلمين وتحميسه وحثه إياهم على القتال وطلب الشهادة إضافة لما يعرفونه من صدقه كان له دور في ثبات المجاهدين وصدق عزيمتهم.

حرص «قطز رحمه الله» قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في مواجهة الأعداء كما قال: «حتى تزول الشمس، وتفئ الظلال وتهب الرياح ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم»،[1] وكان هذا العمل تأسيًا برسول الله ﷺ والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال، وقد نشبت المعركة وكان القتال شديدًا على المسلمين حتى أن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان «قطز رحمه الله» يثبت الناس، وينحاز إلى بعض نواحي الجيش حينما يحس ضعفًا منهم يقوي من عزيمتهم ويشجعهم وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة من ذلك: «أنه قُتل جواده ولم يجد أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب فترجل وبقي واقفًا على الأرض ثابتًا والقتال على أشده في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراء وقال: يا خوند لم لا ركبت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك، فقال: أما أنا فكنت أروح

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/٢٢٦.

إلى الجنة وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقًا من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام»،[١] كان «قطز رحمه الله» يقاتل بنفسه ببسالة وشجاعة نادرة وكان يسمع صوته وهو يتضرع إلى الله باستمرار يا الله أنصر عبدك «قطز»، وقد شن التتار حملة قوية على ميسرة الجيش المسلم وكادت تزلزله، فتمكن «قطز» وبعض الأمراء معه من إسنادهم حتى ثبتوا، وأشتهر رحمه الله في تلك الأثناء بندائه في المعركة «وا إسلاماه، وا إسلاماه وا إسلاماه»،[٢] وقد اشتد القتال، فكان النصر حليف المسلمين حيث قتل قائد المغول «كتبغايون» في المعركة وأُسر ابنه وانهزم جند المغول ولم يبق منهم إلا القلة من الفارين، ولما لاحت الهزيمة في صفوف المغول نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على التراب تواضعًا لله تعالى وصلى ركعتين في أرض المعركة شكرًا لله على نصره للمؤمنين، وكان قد وقع في أسر الجيوش الإسلامية بعض من انضم إلى المغول من أمراء الشام المسلمين فأمر «قطز رحمه الله» بضرب أعناقهم ولم يقبل شفاعة لأحد جزاءً لخيانتهم، كما تخطف الناس في مختلف أنحاء الشام من حولهم من المغول أو الموالين لهم من الأمراء والأجناد والمنتفعين، ومن هؤلاء شيخ رافضي كان مصانعًا للتتار على أموال الناس.[٣]

وتمكن المسلمون مرة أخرى من فرض سيطرتهم على بلادهم وقمع النصارى الذين استطالوا عليهم في ظل المغول في دمشق وغيرها.[٤]

وقد عمل «سيف الدين قطز رحمه الله» بعد انتصاره على المغول على ترتيب بلاد الشام وتعبئتها بالأجناد وأقام بها العدل ونشر الأمن، كما أن هذه المعركة أعادت الوحدة مرة أخرى بين الشام ومصر وأسقطت الأمراء المستسلمين للمغول والانفصاليين الباحثين عن مصالحهم الخاصة بعيدًا من مصالح المسلمين العامة، وأصبحت مصر بعد المعركة قطب الرحى في أحداث العالم الإسلامي، لا ينافسها أي مكان آخر.

كما أن حكام المغول بدأوا ينظرون إلى المسلمين نظرة أخرى جديدة، وبدأ بعض

---

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٢٥.

٢. المقريزي، السلوك، ج١ ق٢/٤٣١.

٣. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٢١.

٤. المقريزي، السلوك، ج١ ق٢/٤٣٢.

زعمائهم محاولة إقامة علاقات جيدة مع المسلمين واسترضائهم بدلاً من مصادمتهم.

وقد استشهد «سيف الدين قطز رَحِمَهُ اللَّهُ» في حادث غامض بعد شهرين من معركة (عين جالوت)، وتولى الأمور من بعده «الظاهر بيبرس»، وفي أيام حكمه الأولى حاول المغول الهجوم مرة أخرى على الشام بترتيب من زعيمهم «هولاكو» إلا أن «الظاهر بيبرس رَحِمَهُ اللَّهُ» تمكن من صدهم وهزيمتهم فرجعوا خائبين.[1]

١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٣/٢٢٣.

(المصدر: مركز ابحاث دار السلام)

# الفصل ٧

# عصر الدولة العثمانية

# سقوط الأندلس

## (ومصرع غرناطة)٨٩٧هـ:

كانت الأندلس منذ فتحها منارًا للعلم، ومركزًا للتوحيد، ومعقلاً للإسلام لقرون عديدة، تخللتها دول وحكام وأمراء وقادة من مختلف الأعراق والقبائل، مرت بفترات قوة وضعف، كان أبرزها أيام عبدالرحمن الناصر في القوة، وفي الضعف في عهد ملوك الطوائف الأول ما قبل الزّلاّقة (٤٧٩هـ) وما تلى ذلك من عهود وخصوصًا بعد زيادة الانقسامات وتحالف بعض قادة المسلمين مع أعدائهم من أمراء النصارى ضد إخوانهم المسلمين، حيث أخذت قوة المسلمين في الأندلس تنحدر تدريجيًا، واستمرت مدنها وحصونها تسقط الواحدة تلو الأخرى في يد نصارى الأسبان، وفي أواخر القرن التاسع الهجري لم يبق في يد المسلمين سوى مملكة غرناطة بمدن وثغور محدودة، وبقصر الحمراء الشهير المطل من ربوتها على ربوعها، حيث انشغل حكامها بالترف والبناء والمآكل والمعازف عن العدة والقوة والاستعداد.

عاشت غرناطة تحت حكم بني الأحمر قبل سقوطها قرابة (٢٥٠) سنة، ولفترات طويلة كان حكامها يخضعون لسيطرة ملوك نصارى الأندلس ويدفعون لهم الإتاوة، ويرون بأعينهم سقوط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى على يد الأعداء دون أن

يحرك ذلك شعورهم أو ينذرهم بالخطر الزاحف نحوهم.

كان ملوك بني الأحمر مع دفعهم للإتاوة لملوك (قشتالة) يتنازلون معها عن حصون وقلاع ومدن من أراضي المسلمين التابعة لمملكة غرناطة لصالح (قشتالة) فكانوا يضعفون تدريجيًا وتقل مساحة مملكتهم ويتناقص عدد سكانها وتضمحل سيطرتها، يقول المقري التلمساني: «ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارًا، ولم يستولوا عليها بلادًا جامعة وأمصارًا، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حُماتها في الفتن المُبيرة، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سِجال، ولله تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رَحْب ومَجال، وروية وارتجال».[1]

والأخطر من ذلك أن يشترط عليهم أحيانًا أن يساعدوا النصارى في حرب إخوانهم المسلمين في نواحي أخرى من أسبانيا فكان سقوط اشبيلية سنة٦٤٦هـ في يد (فرناندو الثالث) بمساعدة من ابن الأحمر في وقت كان فيه أمراء آخرين من ملوك الطوائف يصطفون مع النصارى في مواجهة إخوانهم المسلمين. يقول المقري

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٥٠٨.

التلمساني: «ولما أُخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة واشبيلية وطُلَيْطلة ومُرْسِية وغيرها انحاز أهلُ الإسلام إلى غَرْناطة والمريَّة ومالَقَة ونحوها، وضاق الملك بعد اتساعه، وصار تنين العدوّ يلتقم كل وقت بلدًا أو حصنًا، ويهصر من دَوْحِ تلك البلاد غُصْنًا، وملك هذا النزرَ اليسيرَ الباقي من الجزيرة ملوكُ بني الأحمر».[1]

ورغم شعور مسلمي غرناطة بالتحدي فإنهم لم يعملوا ما يكفي لمواجهته.

وفي السنوات السابقة لسقوط غرناطة تعاظمت قوة نصارى الأندلس باتحاد مملكتي (أراجون) و(قشتالة) حيث تزوج «فرناندو» ملك (أراجون) من «إيزابيلا» ملكة (قشتالة) واتحدت مملكتيهما وتعاونت قوتيهما وتعززت، في وقت زاد الخلاف بين من بقى من مسلمي الأندلس بل دب الخلاف بين أمرائهم في آخر معاقلهم حيث انقسمت قرطبة وتوابعها إلى قسمين بسبب الخلاف الذي وقع بين أمير غرناطة أبو عبد الله محمد النصري آخر أمراء غرناطة وبين عمه محمد المعروف «بالزعل».

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٤٣٨/١.

وقد مكن هذا الخلاف «فرناندو» و«إيزابيلا» عن الاستفراد بإمارة (وادي آش) و(ألمرية) وتوابعها واحتلالها والسيطرة عليها دون أن يقوم أهل مدينة غرناطة بمساعدة إخوانهم ودون أن يقوم أبو عبد الله بن الأحمر النصري أميرها بالوقوف مع عمه.

أخذ نصارى الأندلس يقفون على أطراف غرناطة واستولوا على الأماكن التابعة لها وأطرافها وضيقوا عليها ومنعوا عنها المؤن ففر كثير من أهل الأطراف إلى غرناطة فزاد فيها الجوع وكثر الناس.[١]

وفي محرم سنة٨٩٧هـ كان نصارى الأندلس بقيادة ملكي (قشتالة) «فرناندو» و «ايزاببيلا» يحاصرون غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس التي كان يتزعمها أبي عبد الله الأحمر، والذي ما كان مستعدًا للقاء العدو كما ينبغي لأهل الحرب والدفاع.

وقد حاول بعض المجاهدين من أهل الأندلس وعلى رأسهم «موسى بن أبي الغسان» أن يثني القوم عن الاستسلام ويحذرهم أن القشتاليين لن يرعوا لهم عهدًا أن استسلموا.[٢]

وأخيرًا استسلمت غرناطة آخر معاقل المسلمين للمملكة الكاثوليكية في الثاني من ربيع الأول سنة٨٩٧هـ الموافق الثالث من يناير سنة١٤٩٢هـ.[٣]

ووقعت معاهدة الصلح وتسليم المدينة بشروط طويلة تضمنت (٧٦) شرطًا ونصت على: «تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدًا، وأن لا يولى على المسلمين إلاّ مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم قبل، وأن يفتكَّ جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٤٣٥/١.
٢. محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣١٣ .
٣. ج. س. كولان، الأندلس، ص ١٣٩.

عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومَنْ أراد الجواز للعُدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثمّ بعد تلك المدة يُعْطون عُشر ما لهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يُقهر مَنْ أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، ومن من تنصر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على مَنْ قتل نصرانيًا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العدواة، ولا يكلف المسلم بضيافته أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة

إسبانيا ، إشبيلية. ميدان إسبانيا

كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أموره دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحبُ رومة ويضع خط يده».[١]

وقد كانت أم أبي عبد الله محمد بن الأحمر النصري، تقول له: «ابك مثل النساء ملكًا لم تحفظه حفظ الرجال».[٢]

حسب هذه المعاهدة يفترض التزام ملوك النصارى بما فيها، إلا أنهم نقضوا شروطها الواحدة تلو الأخرى بضغط من القسيسين وأرباب الكنيسة،[٣] ودخلوا قصر

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٥٢٥، ٥٢٦.
٢. د. عبد الحليم عويس، دراسة لسقوط ثلاثين دولة، ص ٥٣.
٣. عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصَّرُون أو المرسكيون الأندلسيون، صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ص ٣٣.

الحمراء بعد أن تركه أبو عبد الله محمد بن الأحمر باكيًا، حيث رحل مؤقتًا إلى منطقة البشرة في الأندلس وفي العام التالي رحل نهائيًا إلى بلاد المغرب حيث ساءت حاله وقد وصف المقري وضعه قائلاً: «وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرًا عمّا أسفله، متلهفًا على ما خلفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتوفى (رحمه الله تعالى) بفاس عام أربعين وتسع مئة، ودفن بإزاء المصلّي خارج باب الشريعة وخلَّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعَقِب هذا السلطان بفاس إلى الآن، وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧هـ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعَدّون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم».[١]

وقد رثيت الأندلس بعدة قصائد منها قصيدة أبو البقاء الرندي:

لـكلَّ شــيء إذا مــا تمَّ نُقْصَــانُ
فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ
هــي الأمــور كمــا شــاهدتها دُوَلٌ
مَنْ سرّه زَمنٌ ساءته أزمان
وهــذه الــدار لا تُبْقــي علــى أحــد
ولا يدوم على حال لها شانُ
يُمــزقُ الدهــرُ حتمًــا كلّ ســابغة
إذا نَبَتْ مشرفياتٌ وخرصانُ
وينتضــي كلَّ ســيف للفنــاء ولــو
كان ابن ذي يزنٍ والغمد غمدانُ

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٥٢٩.

أيـنَ الملـوك ذوُو التيجـان مـن يمـنٍ
وأين منهُم أكاليلٌ وتيجانُ؟
وأيـن مـا شـادهُ شَـدَّادُ في إرم
وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـبٍ
وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ؟
أتـى علـى الـكلِّ أمـرٌ لا مـردَّ لـه
حتى قضوا فكأنَّ القوم ما كانوا
وصـار مـا كان مـن مُلـكٍ ومـن ملـكٍ
كما حكى عن خيال الطيف وَسنانُ
دارَ الزمـان علـى (دارًا) وقاتِلِـهِ
وأمَّ كسرى فما آواه إيوانُ
كأنّمـا الصعـب لـم يسـهل لـه سـببٌ
يومًا ولا ملك الدنيا سليمانُ
فجائـعُ الدهـرِ أنـواعٌ منوَّعـةٌ
وللزّمانِ مَسَرّاتٌ وأحزانُ
وللحـوادثِ سُـلْوانٌ يسـهِّلها
وما لما حلَّ بالإسلام سُلوانُ

دهـى الجزيـرةَ أمـرٌ لا عـزاء لَـهُ
هوى لَهُ أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ
أصابهـا العـين في الإسـلام فامتحنـتْ
حتى خلت منهُ أقطارٌ وبلدانُ
فاسـأل (بَلَنْسـية) مـا شـأن (مُرْسِـية)
وأين (شاطبة) أم أينَ (جَيّانُ)؟
وأيـن (قُرْطبـة) دارُ العلـوم فكـم
من عالمٍ قَدْ سَما فيها لهُ شانُ؟
وأيـن (حمـصُ) ومـا تحويـه مـن نُـزَه
ونهرها العذب فَيّاضٌ وملآنُ
قواعـدٌ كـنّ أركان البـلاد فمـا
عسى البقاء إذا لم تَبْقَ أركانُ
تبكـي الحنيفيـة البيضـاء مـن أسـف
كما بكى الفراق الإلْفِ هَيْمانُ
علـى الديـار مـن الإسـلام خاليـة
قد أقفرت ولها بالكفر عُمْرَانُ
حيـث المسـاجد قـد صـارتْ كنائـس
ما فيهن إلاّ نواقيس وصُلبْانُ

حتـى المحاريـب تبكـي وهـي جامـدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدانُ

يـا غافـلاً ولـهُ في الدهـرِ موعظـةٌ

إن كنتَ في سنَةٍ فالدهرُ يقظانُ

وماشـيًا مرحًـا يلهيـه موطنـهُ

أبَعد (حمْصٍ) تغرُّ المرءَ أوطانُ !!!!؟

تلـكَ المصيبـةُ أنْسَـتْ مـا تَقَدَّمَهـا

وما لهَا معَ طولِ الدَّهرِ نِسيانُ

يـا راكبـينَ عتـاقَ الخيـلِ ضامـرةً

كأنَّها في مجالِ السَبقِ عُقبانُ

وحاملـينَ سـيوفَ الهنـدِ مرْهَفـةً

كأنَّها في ظَلامِ النَّقعِ نيرَانُ

أَعندكُـم نبـأٌ مـن أهـلِ أندلُـسٍ

فقد سرى بحديثِ القومِ رُكبانُ

كَـم يسـتغيثُ بنـا المسـتضعفونَ وهُـم

قَتلى وأسرَى فما يهتزُ إنسانُ

لمـاذا التقاطـعُ في الإسـلامِ بينكـمُ

وأنتم يا عبادَ اللهِ إخْوانُ

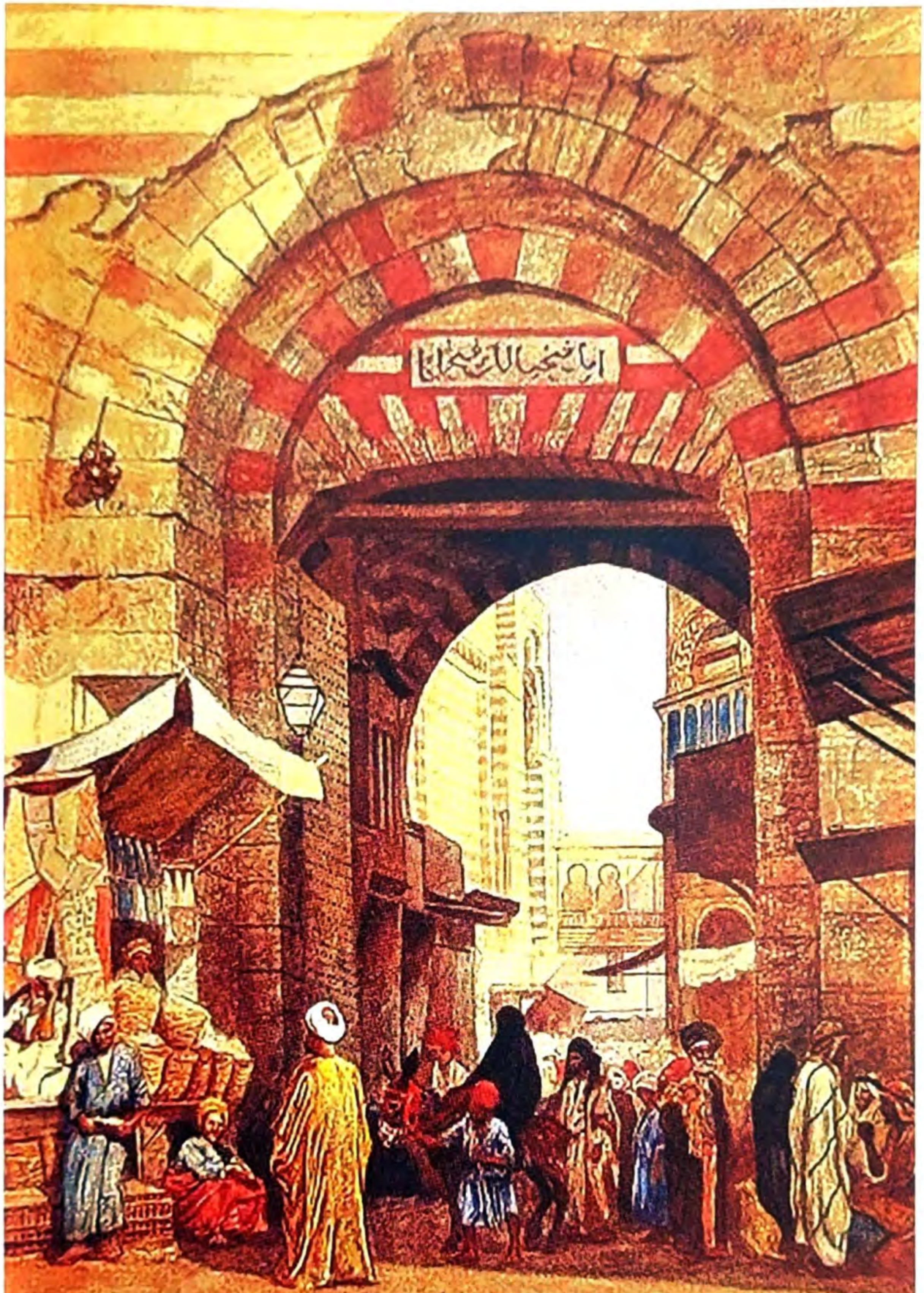

البازار المغربي - الأندلس -

يــا مــن لذلَّــةِ قــومٍ بعــدَ عزَّتِهــم
أحالَ حالهُمْ جورٌ وطُغيانُ
بالأمــسِ كانُــوا مُلُــوكًا في منازلِهــم
واليومَ هم في بلادِ الكفرِ عُبدانُ
فلــو تراهُــم حَيَــارى لا دليــلَ لهــم
عليهِمْ مِن ثيابِ الذُّلِ ألوَانُ
يــا ربَّ أمٍ وطفــلٍ حِيــلَ بينهُمــا
كما تُفرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلــةٌ مثــلَ حُســنِ الشــمسِ إذ
طلعت كأنَّما هي ياقوتٌ وَمَرجانُ
يقودُهــا العِلْــجُ للمكــروُهِ مكرَهــةً
والعينُ باكيةٌ والقَلبُ حيرانُ
لمثــلِ هــذا يبكِــي القلــبُ مِــن كَمــدٍ
إن كانَ في القَلبِ إسلامٌ وإيمانُ[1]

وقد اشتدت الضغوط على المسلمين في الأندلس بعد سيطرة النصارى مباشرة يقول المقري: «ثمّ أن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع و تسع مئة، بعد أُمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرًا للكفر، ففعلوا ذلك، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثمّ تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم، إن جدك كان نصرانيًا فأسلم

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج١/٤٨٧، ٤٨٨.

فترجع نصرانيًا، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من السلطان أن مَنْ قام على الحاكم فليس إلا الموت إلاّ أن يتنصر فينجو من الموت، وبالجملة فإنهم تنصروا على آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر، واعتزلوا الناس، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيًا».[١]

وخلال أقل من أربع سنوات من السقوط نسيت العهود وتم تحويل جميع المساجد إلى كنائس حتى اليوم.[٢]

ووقع المسلمون تحت التعذيب والقهر في التنصّر، والتحول من الإسلام إلى النصرانية قسرًا وبالقوة، ومن كان يخفي إسلامه سرًا ويتم العثور عليه تجري محاكمته لدى تلك المحاكم المشهورة بالظلم والتي لم يشهد تاريخ البشرية لها مثيلاً، فكانت تحكم على من بقي على إسلامه بالحرق حيًا مع ما تبقى لديه من كتب إسلامية،[٣] وعرفوا لدى المؤرخين بـ «المورسكيين»،[٤] واضطر كثير من المسلمين إلى الهروب من الأندلس إلى شمال إفريقيا.

۞۞۞

١. المقري التلمساني، نفح الطيب، ج٥٢٧/١.
٢. محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣١٤.
٣. محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ٣١٥.
٤. ألفت كتب كثيرة عن «المورسكيين»، منها ما كتبه محمد عبد الله عنان بعنوان: «نهاية الأندلس»، وعبد الله محمد جمال الدين، «المسلمون المنصرون المورسكيون في الأندلس وغيرهم».

# الفتوح في عصر الدولة العثمانية:

في أوائل القرن السابع الهجري وبالتحديد سنة ٦١٧هـ تحركت بعض العشائر من القبائل التركمانية في وسط آسيا متجهة نحو الغرب فرارًا من غزو القبائل المغولية التي أخذت تقتل وتفسد في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، وقد عادت كثير من هذه العشائر إلى مواطنها الأصلية بعد أن أحست بشيء من الأمان في تلك الأماكن، وبقي قسم منها يقوده (أرطغرل بن سليمان) في مناطق السلاجقة في (الأناضول) للحصول منه على إذن للإقامة في أراضيه وفي هذه الأثناء كان «أرطغرل» يتجول بمن معه من عشيرته في بعض السهول فإذا به بالقرب من معركة تدور بين جيش سلجوقي يقوده علاء الدين نفسه، وبين أحد الجيوش البيزنطية، فبادر «أرطغرل»

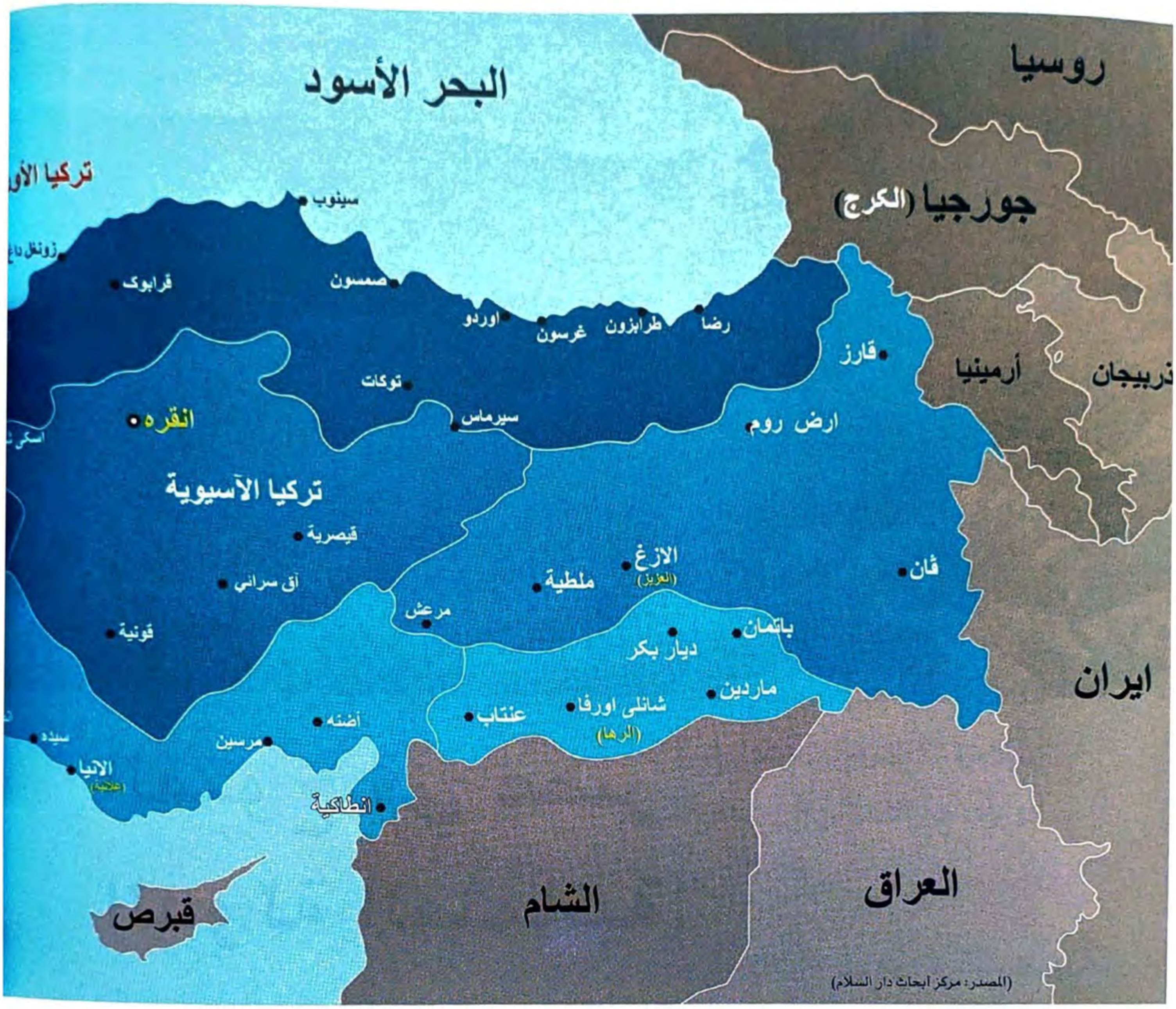

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

بمساعدة الجيش السلجوقي المسلم ضد البيزنطيين، فكان لتلك المساعدة دور كبير في انتصار السلاجقة المسلمين على البيزنطيين، وبالتالي فإن السلاجقة بقيادة «علاء الدين» قدروا هذا الموقف «لأرطغرل» ومجموعته، فاقطعوهم أرضًا في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور مع الروم،[1] وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفًا قويًا ومشاركًا في الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة، نتيجة وجود عدو مشترك، بالإضافة لبعض الأمور الأخرى، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة

١. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١١٥. وانظر: د. محمد، حرب العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٤. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٢٧.

«أرطغرل»، حتى إذا توفي سنة ٦٩٩ ـ ١٢٩٩م[١] خلفه من بعده في الحكم ابنه «عثمان» الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم،[٢] وتمكن من فتح قلاع مهمة من قلاع الروم مما أعجب السلطان السلجوقي «علاء الدين الثالث» مما دفعه إلى إكرام «عثمان» وخلع عليه ألقابًا سلطانية خاصة، ثم أخذ الضعف يسيطر على السلاجقة نتيجة عوامل مختلفة ومن ذلك هجوم المغول عليهم ومات السلطان (علاء الدين الثالث) سنة ٦٩٩هـ[٣] فاستقل أمراؤه بإقليمهم، وأصبح (عثمان أرطغرل) مستقلاً بأراضي خاصة في الأناضول، فاتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين واعتبر بحق مؤسس الدولة العثمانية،[٤] وجعل يبني (شهر) عاصمة له، وبذلك ظهرت الدولة العثمانية مستقلة على مسرح الأحداث، وأخذ أبناء السلطان من بعده يتوسعون في الأراضي الإسلامية وفي الأراضي الأوروبية، وواجهوا قوات معادية كبيرة من داخل البلاد الإسلامية ومن خارجها، وخصوصًا في أوروبا وقد تمكنوا سنة ٩٢٣هـ من القضاء على المماليك ومعهم الخلافة العباسية في القاهرة في الوقت الذي استولوا فيه على مصر والشام والعراق والحجاز وشمال أفريقيا،[٥] وانتقلت الخلافة إلى

---

١. القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، ص ١٠، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١١٦.
٢. محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ص ١٨٠. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١١٥. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٢٩.
٣. القرماني، سلاطين آل عثمان، ص١١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١١٨.
٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٠.
٥. انظر: د. أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

توسيع الدولة العثمانية (الى ١٣٢٦م)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الدولة العثمانية بعد أن أصبحت أقوى الدول الإسلامية على يد السلطان العثماني سليم الأول،[1] وقبل أن تصبح الخلافة في يد العثمانيين فقد خاضوا صراعًا مريرًا مع الأوروبيين في أوروبا نفسها وفي البحر الأبيض المتوسط، وقد تأكدت مواجهة العثمانيين لأوروبا النصرانية بعد أن أصبحت الخلافة بأيديهم وجاهدوهم في مختلف الميادين والأراضي الأوروبية أثناء الفتوح العثمانية لها، أو في أراضي العالم الإسلامي بعد الهجمات الأوروبية الشرسة على العالم الإسلامي في العصر الحديث سواء منها ما أعقب الكشوف الجغرافية في بداية القرن العاشر الهجري، أم الهجمة الثانية في القرن الثالث عشر، وقد استمر الجهاد العثماني ضد أوروبا حتى سقطت الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة.

١. انظر: د. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٢٧.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

## (أ) فتح القسطنطينية:

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية وقد أسست في سنة ٣٣٠م على يد الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين الأول»،[١] وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»،[٢] ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها.[٣]

١. سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ص ٢٩. وانظر: برنارد لويس، استنبول، ترجمة: د. سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص ١١.
٢. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٥٤.
٣. انظر: وصفًا لهذه المدينة في: د. مصطفى صفوت، فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح، ص ٣٦ ـ ٤٦.

حينما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة في ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك ما حدث أثناء غزوة الخندق،[1] ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم عبر العصور المختلفة طمعًا في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ: ((لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش)).[2]

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية سنة ٤٤هـ،[3] ولم تنجح هذه الحملة وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة

١. انظر: الإمام أحمد بن حنبل، المسند، ج٤/٣٠٣. وانظر: تخريج الحديث عند الدكتور أكرم ضياء العُمري في: المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد ضد المشركين)، ص١١٥، وقد حسن الحديث الوارد في ذلك، وهناك بشارات أخرى عديدة في فتحها عند أحمد في مسنده، ج١/١٧٨، ج٢/١٧٤، ١٧٦، ج٤/١٩٣.

٢. رواه أحمد في مسنده، ج٤/٣٣٥.

٣. انظر: خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٢٠٧، ٢١١. الطبري، تاريخه، ج٦/١٣١، ١٦٤. ابن الأثير، الكامل، ج٣/٤٢٠.

أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك، سنة ٩٨هـ.[١]

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزت وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحلمة التي تمت في أيام هارون الرشيد[٢] سنة ١٩٠هـ.

وفي العهد العثماني تجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد (الصاعقة) الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م،[٣] وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلمًا إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوروبية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها «يمور لنك»إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فسادًا، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية حيث دارت بين الطرفين معركة (أنقرة) الشهيرة والتي أُسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة ١٤٠٢م،[٤] وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتًا، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة ٨٢٤ هـ - ٨٦٣ هـ/ ١٤٢١م - ١٤٥١م، جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات

١. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٣١٥. الطبري، تاريخه، ج٨/١١٧. ابن الأثير، الكامل، ج٥/٢٨، ٤٣. ابن خلدون، العبر، ج٣/٧٠.

٢. خليفة بن خياط، تاريخه، ص ٤٥٨. وانظر: الطبري، تاريخه، ج١٠/٦٩. ابن الأثير، الكامل، ج٦/١٨٥، ١٨٦.

٣. القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٨. محمد فريد بك، المصدر السابق، ص١٣٩. محمد مصطفى صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١٢. وانظر: ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر في أبناء العمر، ج٣/٢٤٧.

٤. القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٢٠. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر في أبناء العمر، ج٣/٢٤٧. إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية، ص ٥٠. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ٥١. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٥٣.

يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم بعض الخارجين على السلطان[1] وبهذه الطريقة نجح في إشغاله عن هدفه الذي حرص عليه فلم يتمكن العثمانيين من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة مع البيزنطيين في الظروف المختلفة، كما كان على إطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥ هـ الموافق ١٤٥١م[2] كان يرنو ببصره إلي القسطنطينية ويفكر في فتحها، ولعل حبه للعلماء وتقريبهم لمجالسه، كان سببًا في تعلمه منهم بعض الأحاديث النبوية التي تثني على فاتح القسطنطينية ومن ذلك ما سبق ذكره من قول رسول الله ﷺ: ((لتفتحن

١. القرماني، المصدر السابق، ص ٢٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢٠. ١٢١. د. سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ص ٦٥٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٣٩.

٢. انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠/٤٧. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٠. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٢.

صورة لمضيق البوسفور في اسطنبول.

القسطنطينية على يد رجل فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش))،[1] لذلك فإن الفاتح كان يطمح في أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور.

## الإعداد للفتح:

بذل السلطان الفاتح جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وقد بذل في ذلك جهودًا كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد،[2] وهو عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادً معنويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما

---

١. انظر: ص ٣٥٦، من هذا الكتاب.

٢. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦١.

مسجد الفاتح أو جامع الفاتح اسطنبول ، تركيا.

كان لانتشار العلماء في صفوف الجيش دور كبير في تقوية عزائمهم وربطهم بالجهاد الحقيقي المؤصل وفق أوامر الله.

وقد اعتني السلطان بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوروبي على مضيق (البسفور) في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد بها إلا أن الفاتح أصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة وصل ارتفاعها إلى (٨٢) مترًا وأصبحت القلعتان متقابلتين ولا يفصل بينهما سوى (٦٦٠م) تتحكمان في عبور السفن من شرقي (البسفور) إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة (طرابزون) وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة.[١]

١. يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣١. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦١. وانظر: القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٢٦.

كما اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لهذه العملية المقبلة، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتمامًا خاصة منه حيث أحضر مهندسًا مجريًا يدعى «وربان» كان بارعًا في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران الثقيلة لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجربتها.[1]

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة، وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربع مئة سفينة.[2]

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي)، كما عقد معاهدات مع (المجد) و(البندقية) وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية،[3] مشاركة لبني جلدتهم من النصارى متناسين عهودهم ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره،[4] ولكن السلطان كان عازمًا

---

١. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثماينة، ص ١٣٢. عبد العزيز فهمي، محمد الفاتح، ص ٧٩. محمد مصطفي صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٧٤.

٢. القرماني، سلاطين آل عثمان، ص ٢٦. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٩٠.

٣. يلماز أوزتونا،تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٢. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٢. محمد مصطفي صفوت، فتح القسطنطينية، ص٧٠، وانظر: يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٨.

٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٦٩.

رسم توضيحي لمدينة القسطنطينية القديمة.

على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية، وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا أن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنيطينية، خطب في كنيسة (أياصوفيا) وعاد للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: «أنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية».[1]

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٢. وانظر: سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٨٩ . محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٥٥.

## الهجوم:

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جهات، مضيق (البسفور)، وبحر (مرمرة)، والقرن الذهبي الذي كان محميًا بسلسلة ضخمة جدًا تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر (مرمرة) إلى القرن الذهبي، يتخللها نهر (ليكوس)، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه (٦٠) قدمًا ويرتفع السور الداخلي منها (٤٠) قدمًا وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلى ستين قدمًا، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدمًا وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند،[1] وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصينًا، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلي التحصينات الطبيعية وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، وذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

١. القرماني، سلاطين آل عثمان، ص ٢٠. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٩٦. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٨٨.

استانبول، بورصة، البو سفور، بحر مرمرة

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

برج غلطة ، جسر غلطة ، منطقة كاراكوي والقرن الذهبي ، اسطنبول - تركيا

كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات الجهاد من رجال وآلات في (أدرنة) وفي الوقت نفسه يتفقد القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها،[1] وقد عمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧ هـ الموافق ٦ ابريل ١٤٥٣م، فجمع الجند وكانوا قرابة مئتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما

---

١. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٨٢، يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص١٣٢. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٥٧.

ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء،[1] وكان العلماء ينبثون في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب.

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات كما أقام الفاتح جيوشًا احتياطية خلف الجيوش الرئيسة، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب (طوب قابي)، كما وضع فرقًا للمراقبة في مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها في البداية

١. القرمان، سلاطين آل عثمان، ص ٢٤، ٢٥. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٩٣. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٨٧.

عجزت عن الوصول إلى القرن الذهبي حيث كانت السلسلة العملاقة تمنع أي سفينة من دخوله بل وتحطم كل سفينة تحاول الاقتراب، كما قامت السفن العثمانية بالاستيلاء على جزر الأمراء في بحر (مرمرة).[1]

وفي الوقت نفسه كان البيزنطيون بقيادة الإمبراطور (قسطنطين الحادي عشر) ينتشرون على الأسوار ويبذلون كل الجهود المتوفرة لديهم في تحصين مدينتهم والدفاع عنها.

شدد الجيش العثماني الحصار على المدينة وجرت مناوشات مختلفة بين القوات المهاجمة والمدافعة منذ الأيام الأولى للحصار، واستشهد عدد كبير من الجيش العثماني من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب، وفي الوقت نفسه كانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من المواقع المختلفة نحو المدينة المحاصرة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في (البيزنط) داخل المدينة، كما تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يبادرون لحمايتها وإعادة ترميمها، كما كانت هناك بعض المساعدات التي وصلت من أوروبا وحاولت مساندة المدينة في هذا الموقف العصيب، ومنها القوة الجنوية المكونة من خمس سفن والتي رأسها القائد الجنوي «جوستيان» يرافقه سبع مئة مقاتل متطوع من مختلف أنحاء أوروبا، وتمكنت سفنهم من الوصول إلى القسطنطينية بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة، وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها «جستيان» المتسم بالذكاء والشجاعة قائدًا للقوات المدافعة عن المدينة.[2]

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن البيزنطية والأوروبية في المنطقة ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق هدفهم في

---

١. يلماز أورتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٣. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص٩٨. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٨٩.

٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٠٢. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٩٢. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٧١.

آيا صوفيا في اسطنبول

البداية، مما رفع الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة[1] وكان القسس ورجال الدين النصارى يجوبون المدينة ويحرضون المدافعين عنها على الثبات والصبر، ويحثون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة وأخذ الإمبراطور «قسطنطين» يتردد بنفسه على كنيسة (أياصوفيا) لهذا الغرض.[2]

وقد استبسل الفريقان، المهاجمون للمدينة وعلى رأسهم الفاتح والمدافعون عنها وعلى رأسهم «قسطنطين الحادي عشر»، الذي قدم عروضًا مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله كان يرد بالمقابل طالبًا تسليم المدينة سلميًا،[3] وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: «فليسلم لي

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٢٠.
٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٠٠.
٣. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٨.

إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضًا».[1]

كان الحصار ما يزال ناقصًا ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمرًا دون هوادة، حيث أبدى جنود الانكشارية شجاعة عجيبة وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون على الموت دون خوف وفي أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل،[2] تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي (ليكوس) في الجزء الغربي من الأسوار، فأندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة «جستنيان» استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم.[3]

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة إضافة إلى الفرق الدفاعية الواقعة خلف السلسلة من المدافعين عن مدخل الخليج تمكنوا مجتمعين من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها حيث استشهد فيها عدد كبير من بحارة المسلمين، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

وبعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهودًا كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل، لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود

---

١. عبد السلام فهمي، محمد الفاتح، ص ٩٢.

٢. تم رصد أيام المعركة بالتاريخ الميلادي يومًا بيوم ولم أجد من يتحدث عنها بأيامها حسب التاريخ الهجري ولذلك أعتذر عن إيراد الأيام حسب التقويم الميلادي.

٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٦. عبد السلام فهمي، محمد الفاتح، ص١٢٣.

العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان الفاتح غضبًا شديدًا فعزل قائد الأسطول،[1] وكان لتلك الهزائم دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير (خليل باشا) إقناعه بالعدول عن الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان أصر على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من مختلف المواقع، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، لاسيما أن الأسوار في ناحية القرن الذهبي ضعيفة، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها.

وقد توصل السلطان الفاتح إلى طريقة يستطيع بها إدخال سفنه إلى القرن الذهبي دون الدخول في قتال مع البحرية البيزنطية متجاوزًا السلسلة التي تغلق ذلك القرن، وهذه الطريقة تتمثل في جر السفن العثمانية على اليابسة حتى تتجاوز السلسلة التي تغلق المضيق والدفاعات الأخرى، ثم إنزالها مرة أخرى إلى البحر وقد درس الفاتح وخبراءه العسكريون هذا الأمر، وعرفوا ما يحتاجونه من أدوات لتنفيذه، والطرق البرية التي ستسلكها السفن والتي قدرت بثلاثة أميال، وبعد دراسة دقيقة ومتأنية للخطة اطمأن الفاتح للفكرة ولقي التشجيع من المختصين لتنفيذها، وبدأ العمل بصمت على تسوية الطرق وتجهيزها دون أن يعلم البيزنطيون الهدف من ذلك، كما جمعت كميات كبيرة من الأخشاب والزيوت، وبعد إكمال المعدات اللازمة أمر الفاتح في مساء يوم ٢١ أبريل بإشغال البيزنطيين في القرن الذهبي بمحاولات العبور من خلال السلسلة فتجمعت القوات البيزنطية منشغلة بذلك عما يجري في الجهة الأخرى، حيث تابع السلطان مد الأخشاب على الطريق الذي سوي ثم دهنت تلك الأخشاب بالزيوت، وجرت السفن من (البسفور) إلى البر سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى

١. يلماز أووتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤. عبد السلام فهمي، محمد الفاتح، ص٩٧. محمد عبد الله عنان، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام، ص ١٨٠.

وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يُسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيدًا عن أنظار العدو ومراقبته، وفي صباح اليوم ٢٢ أبريل استيقظ أهل المدينة على صيحات العثمانيين وأصواتهم يرفعون التكبير والأناشيد التركية في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، [١] ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: «ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الإسكندر الأكبر».[٢]

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم وانتشرت شائعة تقول: «ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة»، وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذي اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار ولكنها في السابق تحميها المياه مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى.[٣]

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من هجوم ليلي مباغت على السفن العثمانية في القرن الذهبي في محاولة مستميتة لإغراقها أو تحطيمها ولكن الأسطول العثماني كان للمهاجمين بالمرصاد حيث فشلت تلك الخطط.[٤]

واستمر العثمانيون في ضرب المدينة بالمدافع وتحطيم الأسوار، ومحاولة تسلقها وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوار

١. القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٢٦. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص١٣٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٠٥. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ، ص ٧٢. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٥٨.

٢. يلماز أووتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٥.

٣. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٠٦.

٤. عبدالسلام فهمي، محمد الفاتح، ص ١٠٤، سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٠٧.

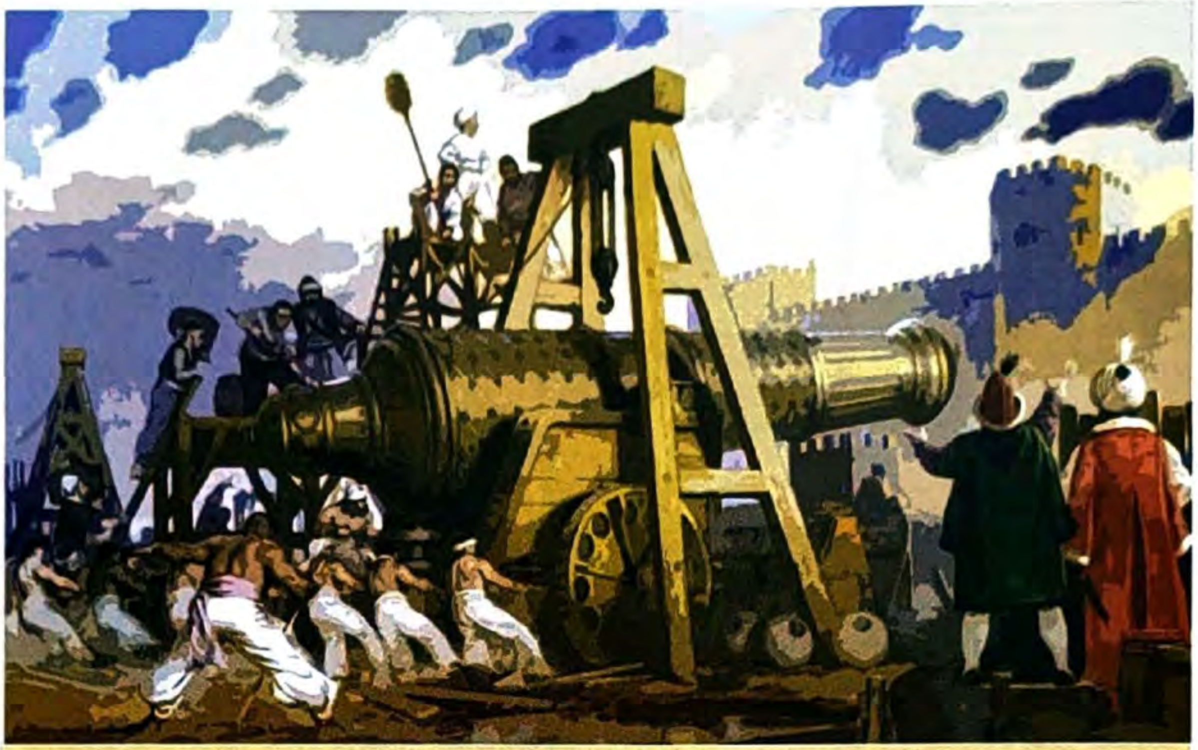

توضيحي لهجوم مدفع على سور القسطنطينية

مدينتهم، ورد المحاولات المتكررة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليها مما زاد في إرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم باليأس، كما ركز العثمانيون مدافع خاصة على الهضاب المجاورة (للبسفور) والقرن الذهبي، مهمتها تصويب قذائفها إلى السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي و(البسفور) والمياه المجاورة مما شل حركة سفن الأعداء تمامًا، وعقد اجتماع بين الملك (قسطنطين) ومعاونيه ومستشاريه ورجال النصرانية في المدينة فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينة والتوجه لطلب النجدات من أوروبا والأمم النصرانية المجاورة، لعل ذلك يخوف الفاتح فيرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر على أن يبقى مع شعبه في المدينة حتى يكون مصيره ومصيرهم واحدًا، وأنه يعتبر هذا الأمر فرارًا وأشار عليهم أن لا ينصحوه بمثل هذا أبدًا واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوروبا لطلب المساعدة.[1]

وقد لجأ العثمانيون في المراحل المتقدمة من الحصار إلى طريقة جديدة ومبتكرة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من أماكن مختلفة إلى داخل المدينة التي سمع سكانها في ١٦ مايو ضربات شديدة تحت الأرض أخذت

١. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١١٦. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٩٧.

رسم توضيحي لمحمد الفاتح في القرن الذهبي مع جيشه

تقترب من داخل المدينة بالتدريج فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا حتى إذا وصل المهاجمون إلى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر، وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا،[1] ومع هذا الفشل في هذا الجانب فإن العثمانيين لم ييأسوا من نجاحهم في بعض الأنفاق الأخرى، ولذلك فقد استمروا يحفرون أنفاقًا أخرى في أماكن جديدة مختلفة حتى فتحت المدينة، وكانت لعمليات الحفر تلك دور كبير في إدخال الذعر في قلوب المدافعين عن المدينة والذين كانوا يتوقعون ظهور العثمانيين في أي لحظة ومن أي مكان تحت الأرض داخل مدينتهم، حتى أخذوا يتوهمون في عدة أماكن أن هناك حفرًا تحت الأرض وبذلك ينشغلون في تلك الأماكن بالإعداد

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٦. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١١٣. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٩٨.

لمواجهة فيها لا تقع.

وقد لجأ العثمانيون إلى طريقة جديدة في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف الأتراك بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب (رومانوس)، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين المدافعين عن الأسوار قتال حامي، وحاول بعض من فيها تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد يأس الإمبراطور وظن أن الهزيمة واقعة به، ولكن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب[١] ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على ما وقع: غدًا نصنع أربعًا أخرى.[٢]

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أُرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعًا في ٢٤مايو داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصيًا، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الإمبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة المدافعين عنها، حيث خرج لتفقد الأسوار والتحصينات.

وقد أخذ التشاؤم والإشاعات تسود المدينة وتفت في عضد المدافعين عنها وكان من أشدها عليهم ما حدث في يوم ١٦جمادى الأولى الموافق ٢٥ مايو حيث حمل أهل

١. سالم الرشيدي،محمد الفاتح، ص ١١٤. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ٩٨.

٢. عبد السلام فهمي، محمد الفاتح، ص ١١٢. وانظر: سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١١٥.

المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء (بزعمهم) وأخذوا يطوفون به في أنحاء المدينة المختلفة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تخلصهم مما هم فيه، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك نذير شؤم، وتأثر بما حدث عموم سكان المدينة وخصوصًا المدافعين عنها، كما حدث في اليوم التالي ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة (آياصوفيا)، فتشاءم البطريرك، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتى أغمي عليه،[1] وكانت المدفعية العثمانية تعمل عملها وتدك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض، التي مل المدافعون من رفعها، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد، وقد درس الفاتح خطة المدينة ومواقع الهجوم، وأوضاع المدافعين وعرف أن المدينة على وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام فكتب إلى الإمبراطور رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون

١. انظر: سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١١٨. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص٩٧.

بأمان،[1] وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذي ويكونوا بالخيار في البقاء بالمدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الإمبراطور إلى رأي المقاتلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: «إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها».[2] فلما وصلت الرسالة إلى الفاتح قال: «حسنًا عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر».[3]

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحًا إلى تكثيف الهجوم وخصوصًا القصف المدفعي على المدينة، حتى أن المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري «أوربان» الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات تبريد المدفع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع، وفي الوقت نفسه بدأت الشائعات تدب في صفوف العثمانيين بأن جيوش أوروبية نصرانية في الطريق لنجدة المدينة، فعقد السلطان الفاتح اجتماعًا ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهمًا بمواطئة البيزنطيين ومحاولة

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١١٩. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١٠٢.

٢. عبد السلام فهمي، محمد الفاتح، ص ١١٦.

٣. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١١٩.

التخذيل عنهم،[1] وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها كما أشار إلى تحمس الجند لإتمام الفتح وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا) وهو من أصل ألباني؛ كان نصرانيًا فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوروبية على السلطان،[2] وقد أيد العلماء هذا الرأي كما فرح به السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك،[3] وفي يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى الموافق ٢٧ من مايو وجه السلطان الجنود إلى

١. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١٠٣. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٠٤.

٢. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٠٤. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص١٠٤. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٤.

٣. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٢٣. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٧. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٤.

الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه، لعل الله أن ييسر لهم الفتح، وانتشر هذا الأمر بين عامة الجند المسلمين، كما قام بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها، وما وصلت إليه أوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف المدفعي، كما قام بزيارات مختلفة ومفاجئة لمعسكرات الجند العثماني، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء، كما بعث إلى أهل (غلطة) التي وقفت على الحياد مؤكدًا عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامنًا لهم الوفاء بعهده معهم، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء ما يحدث، وفي مساء اليوم نفسه أوقد الجنود العثمانيون نيرانًا كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتكبير والتهليل،[1] حتى خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدمًا، مما أوقع الرعب في قلوب الروم، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية

١. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٦٠.

على أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه على المواقع العسكرية المختلفة متفقدًا وموجهًا ومذكرًا بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد[1]

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس على طريقة النصارى لعله أن يستجاب لهم فتنجو المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، حيث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتى لو مات هو، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين، كما صلى الإمبراطور ومعه من النصارى الصلاة الأخيرة في كنيسة (آياصوفيا) أقدس الكنائس عندهم.[2]

وفي الوقت نفسه كان علماء المسلمين في الجانب الآخر يقرأون على المجاهدين آيات الجهاد في سورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه وغيره من استشهد تحت أسوار القسطنطينية.

## الفتح:

في ليلة ٢٩ مايو نزلت بعض الأمطار على المدينة وما حولها فاستبشر بها المسلمون خيرًا وذكرهم العلماء بمثيلتها يوم بدر، أما الروم فقد طمعوا أن تشتد الأمطار فتعرقل المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، فقد كان المطر هادئًا ورفيقًا.

وعند الواحدة صباحًا من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أعطيت إشارة البدء للجنود، فعلت أصوات الجند المسلمين بالتكبير وهم منطلقون نحو الأسوار، وفزع أهل القسطنطينية وأخذوا يدقون نواقيس الكنائس وهرب إليها كثير من الناس، وكان الهجوم العثماني

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٧. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٢٤. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٤.

٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٧. عبد السلام فهمي، محمد الفاتح، ص ١٢١. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٢٩.

رسم توضيحي لدخول محمد الفاتح إلى القسطنطينية (ويكيبيديا)

متزامنًا بريًا وبحريًا في وقت واحد حسب خطة رسمت سابقًا، وطلب كثير من المجاهدين الشهادة ونالها أعداد كبيرة منهم بكل شجاعة وتضحية وإقدام، وكان الهجوم موزعًا في العديد من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي (ليكوس) بقيادة السلطان الفاتح نفسه، وكانت الأفواج الأولى من المهاجمين تمطر الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف والسهام، محاولين شل حركة الدافعين، ومع

جزء من قصر بوكليون البيزنطي في الخريف.
نافذة حجرية قديمة مع أوراق العنب الملونة.

استبسال المدافعين وشجاعة المهاجمين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة،[1] وبعد أن أنهكت الفرقة الأولى الهجومية كان السلطان قد أعد فرقًا أخرى فسحب الأولى ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة من الوصول، إلى الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن المدافعين تمكنوا من قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والمدافعون يبذلون جهودهم في التصدي لمحاولات التسلق، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود بالتراجع لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه أصدر أمرًا إلى قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم على الأسوار من نفس المنطقة، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد ارهقوا، وفي الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة ومعدة ومستريحة وفي شوق لأخذ نصيبهم من القتال، كما كان القتال يجري على أشده في الجانب البحري مما وزع قوات المدافعين وأشغلهم

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٩. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٣١. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١١٤.

في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع ظهور نور الصباح أضحى المهاجمون يتمكنون من تحديد موقع العدو بدقة أكثر، وأخذوا في مضاعفة الجهد في الهجوم مما جعل الإمبراطور «قسطنطين» يتولى شخصيًا مهمة الدفاع في تلك النقطة يشاركه في ذلك «جستنيان» الجنوي أحد القادة المشهورين في الدفاع عن المدينة[1] وكان المسلمون في أشد الحماس لإنجاح الهجوم، ومع ذلك فقد أصدر السلطان الفاتح الأوامر إليهم للانسحاب لكي يتيحوا الفرصة للمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت المدافعين بوابل من قذائفها، وأرهقتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان بنفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي تحاول منع المدافعين من التصدي لهم، وكانت شجاعة الإنكشارية واضحة في هذا الهجوم، حيث تمكن ثلاثون منهم من تسلق السور بشجاعة نادرة أثارت استغراب الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة كبيرة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند (طوب قابي) ورفعوا الأعلام العثمانية،[2] مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتّوا في عضد الأعداء، وفي الوقت نفسه أصيب «جستنيان» قائد المدافعين ومضرب المثل بينهم بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة،[3] مما أثر في بقية المدافعين، وقد تولى الإمبراطور «قسطنطين» قيادة المدافعين بنفسه محل «جستنيان» الذي ركب أحد السفن فارًا من أرض المعركة، وقد بذل الإمبراطور جهودًا كبيرة في تثبيت المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوى المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصيًا على أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدى المدافعين.

وقد واصل العثمانيون ضغطهم في جانب آخر من المدينة حيث تمكن المهاجمون

---

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٩. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٣١. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١١٣.

٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٩. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٣٢. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١١٥.

٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٨. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٣٥. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١١٥.

من ناحية باب أدرنة من اقتحام الأسوار والاستيلاء على بعض الأبراج والقضاء على المدافعين فيها ورفع الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي الأعلام العثمانية ترفرف على الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوى الدفاع وخلع ملابسه حتى لا يعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتى هلك في ساحة المعركة،[١] وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم البيزنطيين، حيث تمكنت بقية الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة وفر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة، وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاطرهم نشوة الانتصار وفرحة الفوز بالغلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده، وكان قواده من حوله يهنئونه وهو يقول: «الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف ولشعبي الفخر والشكر».[٢]

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة والتي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين، وقد لجأ كثير من أهل المدينة إلى الكنائس، ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هـ[٣] الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣هـ، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون: ما شاء الله، فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكرًا وحمدًا وتواضعًا، ثم قام وتوجه إلى كنيسة (آياصوفيا) وقد اجتمع بها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، فلما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها ووجلوا وجلاً عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب

١. محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٣٩. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٣٧، محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١١٥. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣١. برنارد لويس، استنبول، ص ٤٨. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٦٠.

٢. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٣٩.

٣. ابن يأس، بدائع الزهور، ج٢/٣١٦. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٤.

قصر توبكابي أمام بحر مرمرة ، اسطنبول ، تركيا

من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم، والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد،[1] وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون العدة لهذا الأمر، فرفعوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبر للخطيب، وقد جاز تحويل الكنيسة لمسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية، كما أن مثل هذا الأمر وأعظم منه كان يقوم به النصارى حين استيلائهم

١. القرماني، سلاطين آل عثمان، ص ٢٨. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤١. محمد صفوت، فتح القسطنطينية، ص ١١٧. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص١٤٣. وقد حول المسجد إلى متحف ومنع المسلمون من الصلاة فيه في عهد مصطفي كمال أتاتورك وهو الذي أسقط الخلافة العثمانية ١٩٢٤م، ولعل للنصارى دورًا في تحويله إلى متحف تمهيدًا لمحاولات قادمة لإعادته كنيسة.

على مساجد المسلمين في تلك الفترة بل وفي أيامنا هذه.

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية، واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض جزية على الجميع.[1]

وقد كانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوروبا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الباب للإسلام لدخول أوروبا بقوة وسلام لمعتنقيه أكبر من ذي قبل، ويعد فتح القسطنطينية من أهم أحداث التاريخ العالمي، وخصوصًا تاريخ أوروبا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوروبيون ومن تابعهم من نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة.[2]

وقد عمل السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب «بول» أي مدينة الإسلام.[3]

## (ب) شرق أوروبا:

كانت الدولة العثمانية منذ انطلاقتها الأولى تخوض صراعًا مع الدولة البيزنطية في بلاد الأناضول، وقد استطاع العثمانيون السيطرة على السواحل المحاذية لأوروبا من الجانب الآسيوي في نواحي بحر (مرمرة) والبحر الأسود في الفترة من ٧٢٦ ـ ٧٥٥هـ الموافق ١٣٢٦م ـ ١٣٥٤م،[4] وبذلك أصبح العبور إلى الجانب الأوروبي من الدولة البيزنطية متوقعًا، وفي عهد السلطان الغازي (أورخان الأول) سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م طلب الإمبراطور البيزنطي (جن باليولك) من السلطان العثماني المساعدة في ضرب الصرب الذين باتوا يشكلون خطرًا

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٦٥. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤٠. د. عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١/٦٣. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٤٢.

٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤٣. وانظر: برنارد لويس، استنبول، ص٤٩.

٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٠. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص١٦٤. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ١٤٦. وانظر: برنارد لويس، استنبول، ص ٤٨.

٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٤. وانظر: القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٣. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، من ص٢٤، إلى ص ١٢٦. علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٢.

عليه، فأصدر السلطان أمرًا إلى ابنه سليمان باشا بالعبور لأوروبا والاستفادة من هذه الفرصة للجهاد في تلك المناطق، فعبر العثمانيون، بالتعاون والاتفاق مع البيزنطيين لضرب الصرب الذين بدأوا يضايقون الدولة البيزنطية التي كانت في مرحلة ضعف، فكانت فرصة للعثمانيين للتعرف على واقع تلك المناطق،[١] وقد قام العثمانيون بالفعل بمساعدة البيزنطيين في العديد من المعارك ضد الصرب، واعترافًا بفضلهم منح الإمبراطور البيزنطي للعثمانيين قلعة (جمبة) في الجانب الأوروبي، فكانت أول قلعة عثمانية في أوروبا،[٢] ومنها بدأ العثمانيون توسيع رقعتهم في أوروبا تدريجيًا مستغلين فرصة ضعف الدولة البيزنطية والتطاحن بين الأوروبيين أنفسهم وحاجة الدولة البيزنطية لهم في ذلك الصراع.

وفي عام ٧٦٢هـ الموافق ١٣٦١م تمكن السلطان العثماني مراد الأول من فتح مدينة (أدرنه) أحد أهم المدن الرومية في أوروبا ونقل إليها العاصمة العثمانية من بورصة[٣] وبالتالي أصبح المقر الرئيس للعثمانيين في أوروبا مما يعني زيادة حركة الجهاد فيها وكثافته فيما بعد، وقد عمل السلطان على تدعيم الجيش الجديد من أبناء الأسرى الأوروبيين الذي تولى العلماء والقواد تدريبهم وتعليمهم في حياة أبيه، فأصبحوا يشكلون ما عرف بجيش الإنكشارية في الدولة العثمانية[٤] الذي أصبح لهم فيما بعد دور كبير في فتوح أوروبا وغيرها، كما عمل السلطان مراد على التوسع في أوروبا وخاض معارك عديدة مع نصارى أوروبا سواء منهم البيزنط أم الصرب، وأصبح العثمانيون يجارون الصرب والبلغار والألبان مما أفزع العالم النصراني الأوروبي فدعا البابا «أوروبانوس» ملوك أوروبا النصارى لمحاربة

---

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٥. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٢٥.

٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٦. وانظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٢٦. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٢٦.

٣. القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٨. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٣١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٨. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٢٨.

٤. القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٩. وانظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٣٢. وانظر: إلى هذه الفرقة التي عرفت بالانكشارية تحت مسمى هذه المادة في دائرة المعارف الإسلامية، ج٥/١١١؛ وفي: د. عبد العزيز الشناوي، تاريخ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١/٤٧١.

العثمانيين حربًا دينية إحساسًا منهم بخطر الفتوحات العثمانية على النصارى وما سيصاحبها من مد للإسلام في أوروبا على حساب النصرانية، وقد استجاب لهذا النداء ملك الصرب «أوراك الخامس» الذي هجم بجموع كبيرة من فرسان المجر والصرب والبوسنة قاصدًا (أدرنة) في غيبة من السلطان مراد، وذلك سنة ٧٦٦هـ الموافق ١٣٦٣م، ولكن نوابه وقواده تمكنوا من الإيقاع بملك الصرب ومن معه في معركة كبرى كان من نتيجتها «أن ولوا الأدبار تاركين الثرى مخضبًا بدمائهم».[١] وقد اضطرت العديد من الدول الأوروبية نتيجة الانتصارات العثمانية، فبادرت بدفع الجزية لهم، كما قام البعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم، وامتدت سلطة العثمانيين على أمراء المجر ورومانيا والمناطق المجاورة لـ«إدرياتيك» حتى وصل نفوذهم إلى ألبانيا،[٢] وكانت منطقة البلقان من أشد المناطق التي جاهد فيها العثمانيون ضد نصارى أوروبا وخصوصًا الصرب.

## معركة قوصوه:[٣]

كان السلطان «مراد» قد توغل في بلاد البلقان بنفسه أو عن طريق قواده مما أثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها ولكنهم لم ينجحوا في زحزحة العثمانيين عن مواقعهم رغم القتال المتكرر بينهم في العديد من الأماكن، فأعد الصرب والبوسنيون والبلغار جيشًا أوروبيًا صليبيًا كثيفًا لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعدادًا قويًا إلى منطقة كوسوفو في البلقان، وكان يرافق السلطان ابناه يزيد ويعقوب بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأمراء والقواد،[٤] وفي ليلة المعركة كان الظلام شديدًا، وهبت رياح قوية أثارت الفوضى في كل مكان وكادت

---

١. القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٦. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٣١. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٨. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٢٨.

٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٨ ـ ٩٩. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١١٣ـ١٣٢. وانظر: د. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٥٠.

٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤٣. وانظر: برنارد لويس، استنبول، ص ٤٩.

٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص١٤٣. وانظر: برنارد لويس، استنبول، ص٤٩.

رسم تخيلي لمعركة كوسوفو

أن تسبب الإرباك في الجيش العثماني الذي كان يعد الترتيبات رغم الظلام، وقد سمع السلطان مراد في تلك الليلة رافعًا يديه بالدعاء إلى الله وهو يقول: «يا الله يا رحيم يا رب السموات يا من تتقبل الدعاء لا تخزني يا رحمن يا رحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أرسل السماء علينا مدرارًا وبدد سحب الظلام فنرى عدونا يا موجود في كل الوجود أنت الواحد والمالك حقًا لكل الوجود، وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك. ما أنا سوى عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم يا علام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدور ليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولا يحملني طلب المغنم فأنا لا أطمع إلا في رضاك بإخلاص يا الله يا عليم يا موجود في كل الوجود أفديك روحي فتقبل رجائي ولا تجعل المسلمين يبؤ بهم الخذلان أمام العدو، يا الله يا أرحم الراحمين لا تجعلني سببًا في موتهم، بل أجعلهم المنتصرين، أن روحي أبذلها فداء لك يا رب إني وددت ولا زلت دومًا أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام، فلا ترني يا إلهي محنتهم واسمح لي يا إلهي هذه المرة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك...»،[1] كان هذا الدعاء ينم عن شخصية السلطان مراد

١. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٥٢. (ولم أقف على نص لهذا الدعاء عند غيره كما أن المؤلف لم يحل إلى مصدر ولعله نقله من بعض الكتب التركية).

وطموحه للشهادة ورغبته الصادقة في انتصار المسلمين على أعدائهم.

وفي صباح يوم ٢٠ حزيران ١٣٨٩م التقي المسلمون مع أعدائهم في معركة حامية وشديدة استمرت ثماني ساعات شارك فيها السلطان بنفسه، واشتد القتال بين الطرفين حيث قاوم الصربيون ببسالة، وبقيت الحرب سجالاً مدة من الزمن وكثر القتلى من الطرفين،[1] وفي أثناء المعركة انضم أحد قواد الصرب بجموع قدرت بعشرة آلاف مقاتل إلى صفوف العثمانيين[2] مما كان له أبلغ الأثر في ضعف الصرب

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٣٥. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٠٠.

٢. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٣٥.

وإيقاع الهزيمة بهم حيث انتصر المسلمون وقتلوا معظم جند الصرب ومن معهم وقد أسر ملكهم وقتل على يد المجاهدين المسلمين، وفي نهاية المعارك كان السلطان يدور بنفسه بين الصفوف القتلى من المسلمين ويدعو لهم، كما كان يتفقد الجرحى، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه على يديه وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ[1] وكان آخر كلام السلطان: «لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا الله، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة الله فهو الذي

١. القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٦. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٣٦، يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٠٠. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٣٨.

منظر ليلي لجسر حجري قديم والمسجد العثماني القديم سنان باشا. مدينة كوسوفو التاريخية

يحفظ دولتنا من كل سوء».[١]

ولم يصدق الحرس ما جرى ولم يتمكنوا من عمل أي شيء حيث كانت حركة الغادر سريعة جدًا ورغم استشهاد السلطان فإن انتصار المسلمين في هذه المعركة قد هيأ للعثمانيين بعد ذلك حكم البلقان لعدة قرون لاحقة.[٢]

## معركة نيقوبلي:[٣]

بعد وفاة السلطان مراد تولى من بعده ابنه يزيد الذي قام بالمزيد من الفتوح في بلاد البلقان، وتمكن من ضم بلغاريا ورومانيا وسالونيك وألبانيا إلى الدولة العثمانية، كما شكل ضغطًا قويًا على القسطنطينية، وحاول إسقاطها ولكنه لم ينجح في ذلك، وقد كان لهذه المحاولة دورها الكبير في إثارة البابوية والدول الأوروبية واستعدائها على الدولة العثمانية وزاد من ذلك استنجاد ملك المجر بهم،[٤] وأعلنت حرب دينية صليبية ضد الدولة العثمانية، واستجابت لذلك أوروبا الغربية وعلى رأسها فرنسا وولاياتها المتعددة، وبعض مناطق ألمانيا وسويسرا ورودس، رغم الخلاف المذهبي الكبير بين بعضهم البعض حيث كان بعضهم أرثوذكسيًا وبعضهم كاثوليكًا ومع ذلك فقد أُعد جيش أوروبي موحد كان فيه ستون ألف جندي مجري، وعشرة آلاف جندي فرنسي والبقية من الدول المذكورة سابقًا إضافة إلى الصرب، هدفهم إخراج العثمانيين من البلقان وأوروبا وطردهم إلى آسيا.

معركة نيكوبوليس

وتوجه الجيش إلى مدينة (نيقوبولي) وكانت من المدن العثمانية الرئيسة في أوروبا في تلك الفترة وبها حامية عثمانية

١. علي حسون، العثمانيون والبلقان، ص ٥٣، (ولم اعثر على هذا النص في مصدر آخر).

٢. انظر: يلماز أوز تونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٠١.

٣. نيقو بلي: مدينة في شمال بلغاريا على حدود رومانيا.

٤. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٤٠. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ٤٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٠٦. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٣٢.

رسم تخيلي الجيش العثماني يدخل نيكوبوليس

قوية (وهي حاليًا في شمال بلغاريا وعلى حدودها مع رومانيا) وتمكن الأوروبيون من عبور نهر الدانوب وحصار المدينة، فصمد من بها من قوات المسلمين صمود الأبطال، وكان السلطان بايزيد منشغلاً في الأناضول، وما أن علم بتحرك الجيوش الأوروبية حتى أعد جيشًا ضخمًا من العثمانيين والموالين لهم من شعوب أوروبا في بلغاريا والبلقان وغيرهم قدر عددهم بمئتي ألف مقاتل، وتوجه بهم إلى (نيقوبولي) المحاصرة ووصل السلطان ومن معه البلدة المحاصرة وأشعروا من بها من المسلمين بوصولهم ليلاً، وفي صباح اليوم التالي وقعت معركة حامية الوطيس بين الجيوش العثمانية والجيوش الأوروبية وذلك في يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٣٩٦م،[١] وكانت نتيجة المعركة انتصار الجيش العثماني على التحالف الأوروبي مجتمعًا، وأسر أناس من زعمائهم وخصوصًا من القواد والأمراء الفرنسيين بلغ عددهم سبعة وعشرين أميرًا كما غنم العثمانيون راية الفرنسيين الرئيسة، وقتل أغلبية جنودهم[٢] ولم ينج من الجيش الأوروبي المقدر عدده بمئة وثلاثين ألف جندي

١. محمد فريد بك، الدولة العلية، ص ١٤٤. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثماينة، ص ١٠٨.

٢. سالم الرشيدي، محمد الفاتح، ص ٣٣. يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص٤٤. وانظر: القرماني، تاريخ سلاطين آل عثمان، ص ١٨.

سوى قرابة عشرين ألفًا، أما البقية فكانوا إما أسرى أو قتلى في المعركة، وقد قام السلطان بإطلاق الكونت الفرنسي (ري نيفر) بعد أن أقسم أن لا يعود هو ولا بلاده لحرب المسلمين مرة أخرى، ومع ذلك فقد هدده السلطان بايزيد بأنه على استعداد لحرب أمم أوروبا كلها إن أرادت ذلك.[1]

## (جـ) الدفاع العثماني عن العالم الإسلامي:

سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في أيدي النصارى الإسبان ٨٩٧هـ.[2]

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٤٤.

٢. للتوسع حول هذه القضية، انظر: عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٥٦٨.

الدولة العثمانية عند تتويج السلطان سليم. أنا

وبدأت تصفية المسلمين في الأندلس بعد أقل من عشر سنوات حيث صدر قانون ملكي يخير المسلمين بين التنصر أو النفي أو القتل.[1] وجرت لهم مذابح رهيبة يندى لها جبين التاريخ، وحاول السلطان العثماني سليم الأول القيام بعمل مماثل ضد النصارى في الدولة العثمانية، ولكن علماء الإسلام رفضوا ذلك ووقفوا موقفًا قويًا من هذه المحاولة،[2] وبعد ذلك بأقل من عشر سنوات أخذ البرتغاليون يقومون بحملات على الشرق الإسلامي وقد كانوا قساة لا يرحمون من يواجههم عدوًا كان أو صديقًا، فكان من سياستهم تحطيم كل مركب يواجهونه بمن فيه، كما كانوا يحرقون القرى والمدن التي يمرون بها، ويضاف إلى ذلك أنهم يعطون الأمان لبعض الجماعات حتى إذا ظفروا بهم قتلوهم دون رحمة ودون مراعاة لما قطعوه من عهد[3] وكان في مواجهتهم في البداية دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والشام والحجاز، وبالتالي فقد كانت مسؤولة عن مواجهة تلك الحملات الأوروبية النصرانية، وقد حاولت القيام بذلك في البداية، ولاقت بعض النجاح المصحوب بصعوبات مختلفة، كما كان بينها وبين العثمانيين تعاون مبدئي في هذا الجانب، فقد اشتركوا في الصراع ضد البرتغاليين أيام السلطان بايزيد، حيث وقفوا موقفًا موحدًا في الإعداد لحملة (الفاريز كابرال) سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م.[4]

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

وقد اختلت هذه العلاقة بعد أن دخلت الدولة

١. د. عبد اللطيف الحميد، موقف الدولة العثمانية، ص ٤٠.

٢. د. عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١/٤١٤.

٣. تحدثت نفس المصادر البرتغالية عن مثل هذه الأعمال، وانظر: ما نقله لوريمر في: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١/١٢، ١٦، ٢٨.

٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٣١، غسان علي الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٢٠٤.

العثمانية في صراع مع المماليك حول مناطق النفوذ في العالم الإسلامي.[1]

وقد قام المماليك بدور جيد في هذه المواجهة، ووصلت أساطيلهم التي تحركت من مصر إلى المحيط الهندي يقودها حسين الكردي، ولكنهم هزموا في موقعة (ديو) الشهيرة على يد البرتغاليين سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م،[2] مما كان له أثر بالغ على مجريات الأحداث حيث شعر البرتغاليون بعد ذلك بالتفوق، وأخذوا يتصرفون في المنطقة بحرية أكثر من ذي قبل.[3]

وبعد أن تمكن العثمانيون من السيطرة على الشام ومصر والقضاء على دولة المماليك صاروا في مكان الصدارة في العالم الإسلامي، وبالتالي أصبحوا في مواجهة أخرى جديدة في الشرق الإفريقي مع القوى الأوروبية التي كانت في تلك الفترة تحاول التوغل في العالم الإسلامي وخصوصًا البرتغاليين، وهم أول من قام بذلك، وبالتالي وجدت مناطق احتكاك ساخنة بين العثمانيين والبرتغاليين كان من أهمها البحر الأحمر، وشرق إفريقيا، والخليج العربي، التي كانت موضعًا للصراع على النحو التالي:

## الدفاع عن البحر الأحمر:

كان للبحر الأحمر وما يزال أهمية خاصة في العالم الإسلامي فهو يعد أخطر البحار وأهمها نظرًا لأنه أقربها إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كان للصليبيين سابقًا محاولات جادة أيام صلاح الدين الأيوبي للوجود في البحر الأحمر وقد واجهها صلاح الدين رحمه الله بحزم وقوة، وبعد بداية القرن العاشر الهجري، أخذ الأوروبيون وعلى رأسهم البرتغاليون بدافع من عدائهم للإسلام وأهله في محاولة الوصول إلى البحر الأحمر والتعاون مع مملكة الحبشة ضد المسلمين حيث كان لديهم اعتقاد أن تعاون الحبشة والبرتغاليين سيدمر مكة وهذا من أهم أهدافهم[4] ولذلك فقد جرت اتصالات عديدة بين الأحباش والبرتغاليين للتنسيق

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٣١. أحمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر، ص ١١٠.

٢. انظر: نخبة من الأساتذة، تاريخ البحرية، ص ٥٧٠.

٣. غسان الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٨٩.

٤. د. عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها، ج٢/٦٩٨، ٨٦٢. غسان الرمال، صراع البرتغاليين مع المسلمين في البحر الأحمر، ص ٨٩، ٩١. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٢٤.

جامع السلطان سليم من الفترة العثمانية في قونية.

والتعاون ضد المسلمين، وكان المماليك ومن بعدهم العثمانيون الذين تولوا الأمر في هذه المرحلة يحرصون على متابعة أخبار تلك الاتصالات، إدراكًا منهم لخطر هذا التعاون النصراني البرتغالي الحبشي، وما يشكله من تهديد على منطقة الحجاز بالذات، ولذلك فقد حرص العثمانيون على دعم ممالك الطراز الإسلامي في شرق إفريقيا التي كانت في مواجهة دائمة مع الأحباش، مما جعل الأحباش يحسون بالخطر ويحسبون حسابًا للعثمانيين،[1] كما أن العثمانيين أخذوا يكثفون من دورياتهم البحرية في المنطقة، عن طريق أساطيلهم في مصر وكانت أولى الحملات البرتغالية على البحر الأحمر بقيادة (البوكيرك) الذي هاجم عدن سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وذلك قبل الوجود العثماني في المنطقة وقد خطط للهجوم على البحر الأحمر بعد تلك الحملة مباشرة ووصلته الإمدادات من أوروبا لهذا الهدف، مما أفزع أهل الحجاز الذين كانوا يترقبون وصوله إلى نواحي جدة في أي وقت، فأضطر شريف مكة ـ بركات الثاني ـ (٩٠٣هـ ـ ٩٣١هـ) إلى وضع حامية في جدة تحسبًا لهجوم البرتغاليين،

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٣١.

الدولة العثمانية عند وفاة السلطان سليم الاول (٩٢٦هـ / ١٥٢٠م) (المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الذين لم يصلوا إلى المنطقة في الوقت المخطط له سنة ٩٢١هـ لأسباب مجهولة، لعل منها أن الرياح حالت دون ذلك أو لانشغال (البوكيرك) في منطقة الخليج في تلك الفترة، [١] كما كان للمماليك قبل هذا التاريخ دور في تحصين جدة وتجهيزها ضد الهجوم البرتغالي المرتقب، خصوصًا بعد تواتر الأخبار عن وجودهم في الجانب الغربي من البحر الأحمر، ومرت المنطقة في هذه الفترة بمرحلة تحول من السيادة المملوكية إلى الحكم العثماني.

قام البرتغاليون سنة ٩٢٣هـ الموافق ١٥٧١م بهجوم جديد على البحر الأحمر بقيادة (لوبر سواريز) الذي مر بعدن ثم بالحديدة واتجه بعد ذلك إلى جدة حيث وجد مقاومة من حاميتها بقيادة البحار العثماني (سليمان ريس)، الذي تمكن من آسر بعض البرتغاليين بعد تحطم سفنهم وبعث بهم إلى السلطان العثماني في استانبول،[٢]وقد دفعت تلك المحاولة الدولة العثمانية إلى تكثيف وجودها العسكري البحري في جدة تحسبًا لحملات أخرى قادمة من قبل البرتغاليين، وبالفعل وصلت حملة برتغالية جديدة سنة ٩٢٧هـ - ١٥٢٠م يقودها «لوبو دي سكويرا» ولم تنجح تلك الحملة في الوصول إلى جدة رغم اقترابها منها، حيث عاكستها الرياح، كما أن إحساس قائدها باستعداد العثمانيين له دفعه إلى تحويل مسارها إلى (مصوع) غربي البحر الأحمر، وبذلك فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها الرئيسي الذي تحركت من أجله، مما أثر مستقبلاً على تحرك البرتغاليين في المنطقة.[٣]

وقد ركزت الدولة العثمانية بعد ذلك على تحصين البحر الأحمر ومحاولة جعله بحرًا إسلاميًا، ومنع السفن البرتغالية من الوصول إليه، حيث ركزت جهودها على محاولة السيطرة على منطقة مضيق باب المندب في اليمن، وهذا بالطبع ما جعلها تدخل في صراع مع القوى المحلية في اليمن لتحقيق هذا الهدف المنشود، وفي المراحل اللاحقة كان ميدان في المحيط الهادي والخليج العربي، أما البحر الأحمر فلم يعد

١. انظر: غسان الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص ٩٩.

٢. غسان الرمال، المرجع السابق، ص ١٠٣. ولمزيد من الاطلاع على أعمال ذلك القائد العثماني، انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

٣. غسان الرمال، المرجع السابق، ص ١٠٣.

البرتغاليون يجرؤون على دخوله كمحاولاتهم السابقة،[1] وحرص العثمانيون على عدم وصول الأعداء إليه، ولم يدخل في صراع جديد إلا في عصور متأخرة قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى وخصوصًا مع بريطانيا التي وجدت في المنطقة.[2]

## الصراع في الخليج العربي:

كان مركز الدولة العثمانية بعيدًا نسبيًا عن شرق الجزيرة العربية، ومع ذلك فقد كانت تملك أسطولاً بحريًا أهلها للقيام بواجبها كأكبر دولة إسلامية في القرن العاشر الهجري، وحامية للمناطق الإسلامية ضد الغزوات الأوروبية، وبعد سيطرة العثمانيين على مصر أصبحت تملك مركزًا بحريًا هامًا يتمثل في ميناء السويس الذي كان قاعدة بحرية هامة في الصراع حول البحر الأحمر والخليج العربي، كما أن سيطرة العثمانيين على العراق، جعل لها نفوذًا بحريًا وقوة تواجه الأعداء في الخليج العربي عن طريق ميناء البصرة في شمال الخليج، وقد بدأ العثمانيون في مقاومة البرتغاليين في المشرق في مراحل مبكرة، حيث كانت بعض الأساطيل التابعة لهم تشن غاراتها على مواقع البرتغاليين في الهند من سنة (٩٢٣هـ ١٥١٥م)،[3] والذين لم تمنعهم تلك الحملات من التركيز على محاولة إيجاد قواعد لهم في الخليج وجنوب الجزيرة العربية، حيث تمكن القائد البرتغالي «البوكيرك» سنة ١٥١٥م الموافق ٩٢٣هـ من احتلال هرمز واتخاذها قاعدة بحرية رئيسة للبرتغاليين بعد محاولات سابقة،[4] وبالتالي أصبح تهديدهم المحلي للخليج والجزيرة العربية تهديدًا مباشرًا، وكان من أشهر السلاطين العثمانيين في مواجهة البرتغاليين والسلطان سليمان القانوني،[5] الذي بعث بحملات بحرية متكررة ومنظمة لمواجهتهم في الخليج، وكانت أولى الحملات تلك الحملة التي قادها سليمان باشا واليه على مصر سنة ٩٣٠هـ ـ ١٥٢٣م، وتبع ذلك حملات أخرى من أهمها حملة سنة ٩٤٥هـ ـ١٨٣٥م حيث

١. غسان الرمال، المرجع السابق، ص ٣٠٣. د. عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٢/٨٦٣.

٢. لمزيد من التوسع حول موضوع الصراع البريطاني العثماني حول البحر الأحمر، راجع: د. عبد اللطيف بن محمد الحميد، الصراع بين الدولة العثمانية وبريطانيا في منطقة البحر الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٨م.

٣. لوريمر، دليل الخليج القسم التاريخي، ج١/١٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٢٥.

٤. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١/١٤.

٥. انظر: إلى تفاصيل تلك الجهود في: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٢٣.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

بلاد العرب و الشام و فلسطين و العراق ( في عهد السلطان مراد الثالث)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الدولة العثمانية فى عهد السلطان سليم الثاني ( ١٥٦٦هـ - ١٥٧٤ هـ)

تحرك بأسطول بحري قوامه سبعون سفينة من منطقة السويس مسلحة بالمدافع الضخمة، وتحمل عشرين ألف مقاتل، وقد تحركت تلك الحملة وتمكنت من فتح عدن ومسقط وحاولت إسقاط قلعة البرتغاليين في هرمز لكنها لم تنجح في ذلك،[1] ومن تلك الحملات حملة القبطان «بيري محي الدين ريس»[2] إلى الخليج سنة ٩٥٨هـ الموافق ١٥٥١م، وكانت تحتوي على ثلاثين سفينة تحمل قرابة ستة عشر ألف مقاتل،[3] وقد تحرك من السويس وخاض معارك شرسة مع البرتغاليين في عدن وتمكن من تطهيرها منهم وتوجه بعد ذلك إلى مسقط وحاصرها حتى أجبر حاكمها البرتغالي على الاستسلام[4] وتوجه منها إلى هرمز حيث خاض معركة مع حاكمها البرتغالي «الفارودي نورنها»، وتمكن من الوصول إليهم، وقد غادر «بيري» المنطقة إلى البصرة[5] فجاءت نجدات جديدة للبرتغاليين في هرمز مكنتهم من تعزيز قواتهم مرة أخرى في الخليج العربي.

وقد قام مراد بك والي البصرة في عهد السلطان سليمان القانوني بإعداد أسطول واجه به البرتغاليين في العديد من المواقع في الخليج ومن أهم تلك المواجهات ما وقع قرب القطيف سنة ٩٥٧هـ ـ ١٥٥٠م وكذلك خاض معركة بحرية قوية ضد «دييجو دي نورنها» القائد البرتغالي سنة ٩٦١هـ وقد انهزم العثمانيون في المعركة مما شجع البرتغاليين على التوغل في المنطقة أكثر من ذي قبل.[6]

ولكن تلك الهزيمة لم تثن من عزم السلطان العثماني سليمان القانوني فلم يتوقف عن مواجهة البرتغاليين، فبعد قرابة سنة أوكل إلى «سيد علي ريس» أحد القواد البحريين العثمانيين مهمة تلك المواجهة،[7] فأعد ذلك القائد أسطولاً في البصرة تحرك به في الخليج سنة ٩٦٢هـ ودارت بينه وبين البرتغاليين معركة بحرية

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٢٤١. وانظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٣٠.

٢. انظر ترجمته في: دائرة المعارف الإسلامية، ج٩/١٠.

٣. نوال الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص ١٤٦. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٣٣.

٤. نوال الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص ١٤٦. وانظر: لوريمر، دليل الخليج التاريخي، ج١/١٧. والغريب في الأمر أن لوريمر يسمي بيري وغيره من القواد العثمانيين المدافعين عن الأراضي والبحار الإسلامية.

٥. دائرة المعارف الإسلامية، ج٩/١١.

٦. نوال الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج، ص ١٤٩. وانظر: لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، ج١/١٧.

٧. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٢٥.

كبري قرب الساحل العماني، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم رغم تفوقهم في عدد السفن، مما أجبر البرتغاليين على الفرار من ساحة المعركة فلحق بهم العثمانيون، ولعبت الرياح دورًا في تفريق السفن حيث لم تنجح في تحقيق هدفها في تصفية الوجود البرتغالي في هذه الموجة من المقاومة، وقد خاض العثمانيون معركة كبيرة مع البرتغاليين وأعوانهم في البحرين سنة ٩٦٦هـ /١٥٥٩م حيث احتشد (١٢٠٠) جندي عثماني وتمكنوا من استدراج البرتغاليين حتى قتلوا منهم سبعين جنديًا مما دفع البرتغاليين لاستقدام مزيد من القوات من هرمز وبعض قواعدهم الأخرى والتضييق على العثمانيين حتى أجبروهم على الانسحاب مرة أخرى من البحرين.[١]

وقد دخل الخليج بعد ذلك في مرحلة تنافس بين بعض الدول الأوروبية في وقت اضمحل فيه النفوذ البرتغالي، حيث أخذت كل من هولندا وبريطانيا وإسبانيا تحاول الوصول إلى المنطقة وبسط نفوذها عليها، وقد استقرت الأوضاع في المنطقة آخر الأمر لبريطانيا التي بدأت تتخذ لنفسها قواعد رئيسية، وقد حرصت على دعم موقفها وقوتها في تلك المنطقة بعد استيلائها على الهند حيث تمكن الإنجليز من الاستيلاء على هرمز وطرد البرتغاليين منها سنة ١٠٣٢هـ ١٦٢٢م بتعاون من الصفويين[٢] الذين وضعوا أيديهم في أيدي البريطانيين والبرتغاليين بهدف الوقوف ضد العثمانيين، وبذلك أصبحت السيادة الأوروبية في الخليج لبريطانيا.

وقد خف بعد ذلك اهتمام الدولة العثمانية بالخليج حيث انشغلت بقضايا أخرى، وكان تركيزها بالدرجة الأولى على الصراع مع الصفويين بعد ذلك مرت بمراحل الضعف، تمكن الأوروبيون خلالها من البقاء في الخليج[٣] بل ومن مد نفوذهم داخل الدولة العثمانية نفسها في مناطق العراق الخاضعة للعثمانيين وفي غيرها باسم التجارة والمعاهدات الدولية وغير ذلك من الأمور التي ظهرت في تلك الفترة،[٤] وقد لجأت الدولة العثمانية في فترات متأخرة إلى ضم قطر والإحساء إلى سلطاتها،

---

١. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١/١٨.

٢. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١/٤٦.

٣. انظر: د. عبد العزيز عبد الغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ٢٧٥.

٤. لوريمر، دليل الخليج ـ القسم التاريخي، ج١/٣٦٠. وانظر: أمثلة أخرى في: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦٧٠.

قلعة تاروت الأثرية ، القطيف ، المملكة العربية السعودية

وجعلت فيها حاميات عثمانية سنة ١٢٧٤هـ/١٨٧١م، لكن بريطانيا حذرتها من التدخل في البحرين أو تهديد قواعدها وطرقها البحرية[١] وأصبحت الأمور بعد ذلك تسير عن طريق المفاوضات بين الطرفين حتى قيام الحرب العالمية الأولى وما تلاه من أحداث تقاسمت فيه أوروبا تركة الدولة العثمانية، واحتلت معظم أنحاء العالم العربي احتلالاً مباشرًا، والذي كان خاضعًا للدولة العثمانية في تلك الفترة حيث لم يكن هناك من يستطيع الوقوف في وجه القوى الاستعمارية الأوروبية منذ سقطت الدولة العثمانية.

## ميدان البحر المتوسط وشمال إفريقيا:

بعد نكبة المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام هناك لم تسلم سواحل المغرب العربي وشمال إفريقيا من محاولات الأوروبيين مد أيديهم

١. لوريمر، دليل الخليج ـ القسم التاريخي، ج١/٣٨٢. وانظر: عبد العزيز عبد الغني، علاقة ساحل عمان ببريطانيا، ص ٢٨٦.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام) ولايات القوقاز و ايران فى عهد مراد الثالث (١٥٧٤ هـ/١٥٩٥ هـ)

وقواتهم إليها، وبالتالي محاولة ضرب المسلمين في تلك المناطق حيث كانت توجد مجموعة من الإمارات الإسلامية المتناثرة في تلك المنطقة من العالم الإسلامي، ولكنها إمارات ضعيفة وما كانت تستطيع الوقوف بنفسها ضد الغزاة الأوروبيين، ورغم أن الأهالي كانوا متحمسين لمجاهدة الأوروبيين وصدهم عن بلاد المغرب، بل ومحاولة الهجوم عليهم في الأندلس المسلوبة في تلك الحقبة، وإزاء هذه الأوضاع الخطيرة في المنطقة، كان لزامًا على الدولة العثمانية التدخل في الأوضاع القائمة للوقوف في وجه الغزاة الإسبان والأوروبيين ونصرة المسلمين في المنطقة.[1]

وقد استغل السلطان سليم بعض البحارة المتعاونين مع المماليك في السابق من القوى البحرية الموجودة في البحر الأبيض المتوسط ومنهم: «خير الدين بربروس»[2] وأخوه «عروج»، فأمدهما بالسفن والجند وطلب منهما الاستمرار في منازلة الإسبان في السواحل الإسلامية مقابل البحار التونسية والجزائرية حاليًا والتضييق عليهم وتخليص المواقع التي استولوا عليها على الساحل الجزائري وقد نجحا في التضييق على السفن الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط كما قاما بتطهير بعض الجزر المحيطة بالبحر الجزائري وقد استشهد (عروج) سنة ٩٢٢هـ ١٥١٦م في بعض المعارك ضد الأسبان في الجزائر[3] واستمر خير الدين في ضرب سفن الأفرنج بل وتمكن في أيام السلطان «سليمان القانوني» من إنزال بعض قواته على الشواطئ الإيطالية والفرنسية والإسبانية وضرب القواعد العسكرية فيها، التي كانت تنطلق منها السفن إلى شمال إفريقية، وقد كانت لتلك الأعمال صدى كبير في العالم الإسلامي وفي أوروبا نفسها،[4] ومع ذلك فقد كان هناك تفكير لدي خير الدين وبدعم مباشر

---

١. انظر: عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ص ١١٧. عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج٢/٦٤.

٢. انظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس، ط٢ ص ١٥٠، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٣هـ.

٣. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٥٢. وانظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٢٣٠. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٠٢.

٤. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٢٣١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٠٢. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٥٠.

من إستانبول في محاولة تخليص الأندلس من الإسبان الذين طردوا المسلمين،[1] وقد نجح عدة مرات في تخليص الألوف من مسلمي الأندلس من الرجال والنساء والأطفال، وحملهم على سفنه من الأندلس بعد معارك مع الإسبان حيث أنجاهم من الحرق أحياء على أيدي الإسبان الذين كانوا يقومون بذلك بدون رحمة،[2] وقد كانت تلك الأعمال تتم باسم السلطان العثماني سليمان القانوني، الذي أصدر أمرًا بتعيين خير الدين قائدًا عامًا للقوات البحرية العثمانية وطلب منه القدوم إلى إستانبول لتولي هذا المنصب مما جعل خير الدين يترك الساحة المغربية ويتوجه إلى إستانبول لتنفيذ الأمر بعد أن عين ابنه خلفًا له[3] وقد مر في طريقه من الجزائر إلى إستانبول بالسواحل الإسبانية، وقام بهجوم بحري كبير على سواحلها واستولى على عدد كبير من السفن الإسبانية،[4] ولم تدم غيبة هذا المجاهد عن الساحة طويلاً حيث عاد مرة أخرى إلى ساحة الجهاد ضد الغزو الأوروبي لشمال إفريقيا، وقام بخوض معارك كبرى مع الأسبان في منطقة تونس سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٥م، إلا أن بعض أهالي المنطقة تعاونوا مع الإسبان مما أضطره إلى الانسحاب منها حيث قام الأسبان بجرائم لا مثيل لها فقتلوا ما يزيد على ثلاثين ألف رجل واستحيوا ما يزيد على عشرة آلاف امرأة وأحرقوا العديد من المكتبات والمساجد.[5]

وفي عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م أعدت البابوية أسطولاً صليبيًا لمواجهة خير الدين، وقد أصدر البابا بعد اكتمال الحملة بيانًا نشره على البلاد الأوروبية كلها أعلن فيه «أن هذه الحملة هي حملة صليبية، أن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها ويشارك في محاربة الكافرين».[6]

---

١. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٥٣. ولمزيد من التوسع حول الموضوع راجع د. عبد اللطيف محمد الحميد، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤١هـ.

٢. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٥٧. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٢٦.

٣. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٥٨. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٢٣١. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٢٧.

٤. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٩٠. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٣١.

٥. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٩٣. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٢٣٣.

٦. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٥٠.

وقد تمكن خير الدين بعد فترة قصيرة من الإيقاع بهذا الأسطول البابوي المكون من سفن إيطالية وإسبانية وبابوية، حيث خاض معه معركة بحرية قوية انتهت بانتصار الأسطول العثماني انتصارًا حاسمًا أقيمت له الاحتفالات في مختلف أنحاء الدولة العثمانية[1] وأصبحت السيطرة في البحر الأبيض المتوسط بعد هذه المعركة للأساطيل العثمانية دون منازع،[2] وقد كان من نتيجة تلك المعركة أن حاولت الجيوش الأوروبية الهجوم على الأساطيل العثمانية في الجزائر، ولكن قواد البحر العثمانيين كانوا لهم بالمرصاد فهزموهم مرة أخرى، ولم يكتفوا بذلك بل هجموا على بعض المواقع النصرانية في نواحي طرابلس والمغرب وتمكنوا من تحريرها منهم كما حرر العثمانيون بعض الجزر في البحر المتوسط من السيطرة الأوروبية،[3] واستمر خير الدين ومن معه في الجهاد البحري في البحر المتوسط، حيث كانوا يعملون باستمرار على استنزاف قوات العدو والتعرض لسفنه في البحر ومحاولة إيقاع أكبر الخسائر فيها، وكانوا في نظر الأوروبيين قراصنة، أما في الواقع فهم الذين حموا بأعمالهم تلك سواحل الجزائر وما جاورها من القراصنة الحقيقيين الغزاة الأوروبيين الذين كانوا يعملون على احتلال تلك المواطن والقضاء على الإسلام فيها، ومع جهاد خير الدين للأعداء النصارى في شمال إفريقيا فقد تمكن من تركيز الوجود العثماني في تلك المناطق[4] وما تزال شعوب شمال إفريقيا المسلمة تنظر إلى خير الدين وإخوته وجنده بكل فخر واعتزاز وتعدهم نموذجًا رائعًا من المجاهدين في مرحلة حساسة من صراع المسلمين مع النصارى بعد سقوط الأندلس في أيدي الإسبان.

---

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٩٦. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١٤٩.

٢. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٩٩.

٣. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٩٩.

٤. يلماو أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ٣٠٣. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٢٣٠. بسام العسلي، خير الدين بربروس، ص ١١٨.

## (د) الجهاد العثماني ضد الروس:

لقد قامت الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري بالجهاد في مختلف أنحاء أوروبا، وهدد السلطان «سليمان القانوني» وسط أوروبا وغربها بحصاره المتكرر لـ (فينا)، [1] مما استعدى أوروبا النصرانية شرقيها وغربيها ضد الدولة العثمانية، وقد كانت روسيا القيصرية منذ ذلك الوقت وما بعده تحاول الوقوف في وجه الدولة العثمانية سواء بصفة مباشرة أم عن طريق دعم أعداء العثمانيين في البلقان وغيرها، وبخاصة في مراحل متأخرة من أيام الدولة العثمانية بعد أن أخذ الضعف يدب في أوصالها.

ففي القرن الهجري الثاني عشر، السابع عشر الميلادي نشطت روسيا القيصرية بزعامة بطرس الأكبر في التوسع في الأقاليم المجاورة لها وكان يتزعم دعوات نصرانية لطرد العثمانيين من أوروبا، وقام بجولة في أوروبا لهذا الغرض،[2] وقد أعد روسيا في أيامه لهذه الغاية، وحاول التدخل لمساعدة الثوار ضد الدولة العثمانية في البلقان والقوقاز والقرم.

وحاول بطرس الأكبر الاستيلاء على ميناء (قازاق) العثماني على البحر الأسود وحاصره لفترة طويلة إلى أن تمكن من الاستيلاء عليه سنة ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م،[3] وقد نشبت حرب جديدة بين العثمانيين والروس سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م حول (القزاق)، قاد الجيوش العثمانية فيها الصدر الأعظم (بلطجي محمد باشا) الذي نجح في ضرب الجيوش الروسية وتحصيناتهم وخنادقهم التي أقاموها، فقد شن العثمانيون هجمات قوية انتهت بانتصار العثمانيين والقضاء على آلاف الجنود الروس،[4] كما نشبت حرب أخرى بين الدولتين سنة ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م انتهت بحصول الروس على كثير من الأراضي العثمانية على البحر الأسود بناءً على معاهدات وقعت بين

---

١. انظر إلى تفاصيل ذلك في يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٧٢. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٢١٨.

٢. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٧١.

٣. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٣٠٩. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٥٧٢. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٧٥.

٤. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٥٩٧. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٣١٣. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٧٦.

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

(المصدر: مركز أبحاث دار السلام)

الطرفين.[1]

وقد كانت الحرب بين العثمانيين والروس تتأثر كثيرًا بالحروب بين الدولة العثمانية وبقية أعدائها في أوروبا، فانتصار العثمانيين كان يضغط على الروس ويدفعهم للتنازل أمام العثمانيين، والعكس صحيح، ونتيجة لذلك فقد خضع الروس سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م فردوا إلى العثمانيين العديد من المناطق التي احتلوها على البحر الأسود وقاموا بهدم ما بنوه من تحصينات فيها بموجب معاهدة عرفت «بمعاهدة بلغراد»،[2] وقد وقعت حروب أخرى سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م بين العثمانيين من جهة والروس وتعاونهم قوات أوروبية أخرى من جهة ثانية حول بعض الجزر

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٥٩٧. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٣١٤.
٢. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦١١. علي حسون، العثمانيون والروس، ص٧٩.

القريبة من اليونان كانت سجالاً بين الطرفين، كما حاول الروس احتلال (طرابزون) وغيرها وقد نجح العثمانيون في صدهم رغم أنهم هددوا استانبول نفسها عن طريق البحر،[1] وقد قامت محاولات عديدة في ذلك الوقت لعقد هدنة بين الدولة العثمانية وبين «كاترينا» إمبراطورة الروس، إلا أن غطرسة «كاترينا» وشروطها القاسية حالت دون ذلك، فاستؤنفت الحرب من جديد بين الروس والعثمانيين، وجرت معارك عديدة وقوية بين الطرفين في منطقة الدانوب انتصر فيها العثمانيون انتصارات باهرة وقتل من الروس في إحدى تلك المعارك ما يزيد على ثمانية آلاف جندي، وقد تقهقر الروس بعد انهزامهم فقتلوا أعدادًا كبيرة من النساء والشيوخ والأطفال المسلمين في المناطق التي مروا عليها وقد كان القائد العثماني في تلك المعارك هو «عثمان باشا» الذي نال لقب الغازي نتيجة لتك الانتصارات التي حققها.[2]

وقد زحفت القوات الروسية على الأراضي العثمانية سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م واجتازت نهر الدانوب والتقت مع قوات عثمانية يقودها الريس «أفندي عبد الرازق» وتمكن الروس من هزيمة الجيوش العثمانية وعند ذلك جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بعقد معاهدة جديدة هي «معاهدة كينارجة»، والتي أعطت للروس حقوقًا عديدة في الأراضي والبحار العثمانية حيث أصبح لهم حق الملاحة والعبور خلال الموانئ العثمانية، وحق إنشاء الكنائس وحمايتها في بعض المناطق الخاضعة للدولة العثمانية.[3]

ورغم تلك المعاهدات فقد كان الروس يبحثون باستمرار عن الفرص المناسبة لابتلاع الأراضي الإسلامية المجاورة لهم بشعوبها المختلفة، وقد بذلوا جهودًا عديدة لزرع الاضطرابات في بلاد القرم لإيجاد مبرر للتدخل في تلك المناطق،[4] وتمكنوا من دخولها والاستيلاء عليها، ورغم محاولات الدولة العثمانية المستمرة لاستعادة تلك المناطق من السيطرة الروسية إلا أن ضغوط الدول الأوروبية الأخرى على العثمانيين

---

١. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٢٥. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٣٣٦.

٢. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٨٢. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص٣٣٧. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٢٧.

٣. انظر إلى شروط تلك المعاهدة التي عرفت بـ «معاهدة كينارجة» في يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٢٨. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٣٤٢. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٨٢.

٤. علي حسون، العثمانيون والروس، ص٨٥. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثماينة، ص٦٣٦.

عسكريًا وسياسيًا نجحت في إقناع الدولة العثمانية بالرضي بالواقع والسكوت عن الاحتلال الروسي لتلك المنطقة.[1]

وقد استمرت الأوضاع في اضطراب بين العثمانيين والروس، حيث كان الروس يتبنون شعارات تدعو للقضاء على الدولة العثمانية واستعادة الدولة البيزنطية مرة أخرى، وقد كانت الدولة العثمانية في بداية القرن الثالث عشر الهجري تمر بظروف صعبة نظرًا لتعاقب السلاطين عليها واختلاف سياساتهم، وفي الوقت نفسه استمر الصراع مع الروس دون توقف بالإضافة للعديد من المشكلات بين العثمانيين وبقية الدول الأوروبية التي أخذت تطمع في الأراضي العثمانية، ليس في أوروبا فحسب بل وفي مناطق المغرب الإسلامي في إفريقيا، وفي مصر خصوصًا بعد التحرك الأوروبي الذي أعقب قيام الثورة الفرنسية، وما تبع ذلك من تحرك روسي فرنسي وبريطاني استعماري، ومع ذلك فإن الدولة العثمانية كانت في تلك الفترة تعاني من العديد من المشكلات الداخلية الأخرى، مع بذل محاولات جادة من قبل بعض السلاطين والقواد العثمانيين للتغلب على تلك المشكلات، وفي هذه الفترة العصيبة كانت الدولة العثمانية تضعف، وفي الوقت نفسه كانت الإمبراطورية الروسية تقوى وخصوصًا بعد حروبها مع نابليون، وبالتالي فإنها أخذت تستأسد على العثمانيين، الذين شغلوا بحروب أخرى مع إيران استمرت لعدة سنوات.[2]

وفي سنة (١٢٢٦هـ/١٨١١م) وقعت معارك بين الروس والعثمانيين في منطقة الحدود الرومانية حيث حاول الروس احتلال بعض المدن العثمانية في تلك المنطقة ونجحوا في بداية الأمر إلا أن العثمانيين تمكنوا من استعادتها وأجبروا الروس على إخلائها بعد معارك مختلفة.[3]

قامت بعض الثورات بين اليونانيين ضد الدولة العثمانية في سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م وتمكن القائد العثماني إبراهيم باشا من القضاء على تلك الثورات، فتحالفت روسيا

١. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٨٩. يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٣١.

٢. انظر: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، من ص ٦٢٣ ـ ٦٤٨، ولمزيد من التفاصيل حول هذه القضية راجع: د. محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها على المد الإسلامي في أوروبا، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

٣. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ٩. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٤٠١.

مع بريطانيا وفرنسا وبروسيا (ألمانيا والنمسا) ضد الدولة العثمانية وذلك ابتغاء طردها من اليونان، فقامت أساطيل تلك الدول مجتمعة بمهاجمة السفن العثمانية في اليونان، وتمكنت من تحطيمها كاملة خلال فترة وجيزة حيث لم يكن الهجوم متوقعًا، وقد كانت روسيا هي المستفيد الأول من تحطيم الأسطول العثماني،[1] حيث كانت على أهبة الاستعداد لاستغلال الفرصة، فتقدمت في الأراضي العثمانية واستولت على بوخارست عاصمة الأفلاق (رومانيا) كما استولت على (وارنه) و(ياشي) وغيرها من المدن العثمانية التي تقع حاليًا في رومانيا وبلغاريا، وقد استمر القتال حول تلك المناطق حتى عام ١٢٤٥هـ، فكان النصر في النهاية للروس ورغم

١. علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١٠٢. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٤١٦.

مسجد لالا مصطفى باشا ومدينة فاماغوستا. فاماغوستا ، قبرص.

ذلك فإن العثمانيين أوقعوا بهم خسائر فادحة، وقد انتهت تلك المعارك بعقد معاهدة بين الطرفين عرفت بـ «معهادة أدرنه» أعطت الروس العديد من الامتيازات وحددت الحدود بين الطرفين.[1]

ورغم تلك المعاهدة فإن الروس والعثمانيين ظلوا في حالة ترقب وجرت بينهم بعض المعارك حيث كانت روسيا تحاول استغلال الفرص لضرب العثمانيين والاستيلاء على الأراضي التابعة لهم في شرق أوروبا، مما دفع بقية الدول الأوروبية إلى الشعور بالخوف من نمو القوة الروسية حيث أصبح لدي فرنسا وبريطانيا شعور معاد للروس، إذ كانت لدى هاتين الدولتين الرغبة نفسها في الاستيلاء على بعض الأراضي العثمانية، خصوصًا أن الدولة العثمانية كانت تمر بمرحلة من الضعف دفعت تلك الدول إلى التفكير الجدي في تقاسم أراضيها، ولذلك فقد سارعت بريطانيا وفرنسا بالتظاهر بالشفقة على العثمانيين وإظهار الرغبة في مساعدتهم في الحفاظ على أراضيهم والوقوف في وجه الروس، ودخلت تلك الدول مع العثمانيين في حرب ضد الروس سنة ١٢٦٢هـ ـ ١٨٤٥م، وكان لذلك التحالف أسوأ الأثر على مستقبل العثمانيين في المنطقة، حيث خاضت الجيوش العثمانية معارك شجاعة يقودها عمر

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٤٣١. وانظر إلى شروط تلك المعاهدة في: علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١٠٢ ـ ١٠٤.

باشا الذي تمكن من هزيمة الروس حول مدينة (فارنة) مما حدا بالروس إلى الهرب وفي مقدمتهم قائدهم، فلحق بهم العثمانيون للقضاء عليهم فمنعتهم جيوش الحلفاء الأوروبيين للدولة العثمانية وعلى رأسها الجيوش النمساوية، ولم يكتف الأوروبيون بمنع العثمانيين من إتمام نصر محقق على الروس، بل أن النمساويين أنفسهم احتلوا البغدان والأفلاق، وبذلك فإن النمساويين قد تخلصوا من الاحتلال الروسي لبعض المناطق فوقعت في يد الاحتلال النمساوي، ورضخ العثمانيون لهذا الأمر طمعًا في استمرار التحالف وخوفًا من الدخول في حرب جديدة.

وقد انتقلت ساحة المعارك بين العثمانيين وحلفائها الأوروبيين إلى السواحل الشمالية لروسيا، ووقعت معارك بحرية حول مدينة بطرسبرج سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م كما تمكن الحلفاء من احتلال بعض الموانئ الروسية في بحر البلطيق، وتقدموا في جبهات أخرى حتى كادوا أن يتمكنوا من احتلال (كييف) نفسها، وبالتالي آثر الروس المفاوضات على الحرب،[١] وجرت المفاوضات بين الحلفاء ومعهم العثمانيون من جهة وبين الروس من جهة أخرى ووقعت اتفاقية باريس بين مختلف الأطراف في نفس السنة،[٢] وانتهت بذلك الحرب العثمانية مع روسيا مؤقتًا مع بقاء الأطماع الروسية والأوروبية في الدولة العثمانية وممتلكاتها، وبالتالي فقد ظلت تلك الدول مجتمعة تعمل على إثارة المشكلات المختلفة في الدولة العثمانية،[٣] عن طريق دعم الثورات والأقليات العرقية والدينية، وتأسيس جمعيات سرية تعمل ضد الدولة العثمانية وإمدادها بالسلاح والمال، في محاولات جادة لإضعاف الدولة العثمانية وتقويض بنائها، وبالتالي زادت حركات العصيان والتمرد ضد العثمانيين في مختلف أقاليم الدولة الأوروبية.[٤]

وفي أواخر عصر الدولة العثمانية، وبالذات في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٩٣هـ - ١٣٢٧هـ الموافق ١٨٧٦م - ١٩٠٩م) كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية

١. انظر: علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١١٥. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٤٩٩.
٢. انظر: علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١١٧. انظر: نص الاتفاقية في: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٥١٣.
٣. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦١٠. وانظر: محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٢٠٣.
٤. انظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦٠٥.

برج في قلعة بلغراد في صربيا ، يوغوسلافيا السابقة

الأوروبية، وقد قام الولاة والقادة العثمانيون بالقضاء على معظم تلك الثورات، مما أثار الرأي العام الأوروبي ضد العثمانيين.

وقد قامت الدولة العثمانية سنة ١٢٩٣هـ بضربة قوية للصرب الذين حشدوا قوات كبرى لطرد العثمانيين من البلقان فكان النصر حليف العثمانيين وكسروا شوكة أعدائهم في البلقان مما دعا روسيا إلى إعلان العداء مرة أخرى ضد الدولة العثمانية وتجميع قواتها استعدادًا لمحاربة العثمانيين،[1] وقد بذلت مناورات دولية لإرغام العثمانيين على التخلي عن بعض مقاطعاتهم الأوروبية لصالح النصارى هناك، واشترك في ذلك كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا الذين حضر مندوبون عنهم مؤتمرًا في إستانبول سنة ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م، إلا أن المؤتمر انفض دون أن تتفق

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦١٦. وانظر: علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١٣٤.

أطرافه على شيء محدد[1] حث أصر العثمانيون على التمسك بتلك المناطق مع ضمان المساواة فيها بين المسلمين وغيرهم، ولكن الأوروبيين كانوا يطالبون الدولة العثمانية بالخروج من تلك الأقاليم دون قيد أو شرط، وهذا يعني بالطبع استغلال ضعف الدولة وتهديدًا خطيرًا للمسلمين في تلك المناطق والذين سيتعرضون للقتل

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦١٩. وانظر: علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١٣٥.

نهر الدانوب ، النمسا

والاضطهاد مما دعا الدولة العثمانية لاتخاذ موقف متشدد.

وقد أرسلت مذكرات تهديد إلى الدولة العثمانية للضغط عليها، ولكن العثمانيين لم يتراجعوا عن موقفهم في الاحتفاظ بمواقعهم شرق أوروبا وبالتالي أعلنت روسيا بعد إعداد تام الحرب على الدولة العثمانية، فزحفت جيوشها الجرارة على الحدود الشرقية للدولة العثمانية، بعد أن تحالفت مع رومانيا التي كانت خاضعة في السابق للعثمانيين، فانضمت إلى روسيا في هذه الحرب، ووقع سكانها المسلمون في المصيدة بين الجيوش الروسية والنصارى الرومانيين وقد توجهت الجيوش العثمانية لملاقاة الغزاة الروس وأصدر العلماء في إسطنبول فتاوى بوجوب القتال على القادرين، وأعلن السلطان عبد الحميد حالة الحرب في كافة أنحاء الدولة العثمانية، وتأكيدًا لذلك فقد أضاف إلى لقبه الغازي عبد الحميد، تأكيدًا لحالة الحرب التي يعيشها، وذلك تقليد اتبعه السلاطين العثمانيون المحاربون،[1] وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها (تيرنوه) (ونيقو) بلي تقع في بلغاريا حاليًا كما استولى الروس على بعض النقاط الحساسة والمعابر المؤدية إلى البلقان، وقام السلطان عبد الحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية

١. انظر: محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦٢٨. وانظر: علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١٣٤.

للتصدي للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) تقع في بلغاريا حاليًا وهي من أهم المعابر إلى البلقان، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة أخرى مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسومًا خاصًا في الثناء على ذلك القائد.[1]

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي ومعه أشهر قواته للإشراف بنفسه على المعركة القادمة، وقد كان لحضوره أثر كبير في رفع معنويات القوات الروسية، كما حدثت خيانة من أمير رومانيا الذي يفترض أنه مع العثمانيين أو أن يقف محايدًا على الأقل، ولكنه أنضم بقواته البالغة مئة ألف مقاتل إلى الروس فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم (١٥٠) ألف مقاتل، ففرضوا حصارًا من ثلاثة خطوط على القوات العثمانية ومع هذا فإن

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦٣١. أورخان محمد علي، السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده، ص ١٣٣.

قلعة سيغيسوارا، ترانسيلفانيا، رومانيا

فرقاطة قديمة في المساء ، نهر نيفا ، سانت بطرسبرغ ، روسيا

العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان صمدوا صمود الأبطال ورغم أن عددهم كان قرابة (٥٠) ألف مقاتل فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون، فسقطت أعداد كبيرة منهم شهداء على أيدي قوات الروس ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثاني واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة بين جنده باستشهاده ففت ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع إلى المدينة ولكن بعض قوات الروس أصبحت داخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فاضطروا إلى الاستسلام للقوات الروسية وكان ذلك في ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح إلى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه.[1]

١. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٦٣٤. وانظر : علي حسون، العثمانيون والروس، ص ١٣٦. أورخان محمد علي، السلطان عبدالحميد، ص ١٣٣.

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حاليًا) لم يكتف الروس بهذا بل توجهوا جنوبًا ناحية العاصمة العثمانية (استانبول) وتمكنوا من احتلال (أدرنة) العاصمة العثمانية القديمة ووصلوا إلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلومترًا عن إستانبول وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئًا إلى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس إلى الأناضول، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة (أحمد مختار باشا) على الروس في أكثر من ست معارك مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسومًا في الثناء عليه وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ، من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية في أوروبا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة «سان ستيفانس» التي سلخت معظم الأجزاء العثمانية في أوروبا بما في ذلك البلقان ورومانيا وبلغاريا إضافة إلى دفع العثمانيين تعويضات للروس مقابل ما خسروه في الحرب، وقد كانت تلك المعاهدة إذلالاً للعثمانيين لم يسبق له مثيل، ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية قبيل تلك الفترة قد مرت بتغير خطير، حيث أعلنت فيها المساواة بين المسلمين وغيرهم واعتبر جميع الرعايا العثمانيون مواطنون دون تمييز، وبموجب ذلك فإن بعض النصارى دخلوا في الجيش وكان لبعضهم أثر كبير في الهزائم التي

وقعت مع أنه بقي في صفوف العثمانيين من قاتل دفاعًا عن الإسلام حيث كان لديهم شعور قوي أن روسيا حينما دخلت الحرب مع العثمانيين كانت بدوافع دينية نصرانية بالدرجة الأولى وأن صراع الأوروبيين عمومًا مع العثمانيين في تلك الفترة كان صراعًا دينيًا على هذا النحو رغم تظاهر دولهم في تلك الحقبة بالحرية والعصرانية والمساواة وغير ذلك من الشعارات البراقة التي كانوا يرفعونها.

ورغم ما حدث للعثمانيين من خذلان وضعف نتيجة تلك المعاهدة فإن المسلمين في المناطق التي أخذها الروس أصبحوا يشكلون ضغوطًا كبرى على روسيا وقد تعرض المسلمون في تلك المناطق لمذابح كبري على يد النصارى أمام مسمع أوروبا وأخذ الملايين منهم يهاجرون إلى داخل الدولة العثمانية حيث صاروا لاجئين يشكلون عبئًا كبيرًا على حكومة اسطنبول وبهذه الهجرات أخذ الوجود الإسلامي في تلك المناطق يقل، ويضعف إلى حد كبير مما زاد من قبضة النصارى في تلك المناطق، كما أن الدول الأوروبية الأخرى كانت حريصة على إضعاف الدور الروسي في المنطقة وفي الوقت نفسه القضاء نهائيًا على الدولة العثمانية، وقد واتتها تلك الفرصة في الحرب العالمية الأولى بعد أن نخرت القومية التركية في جسد الدولة العثمانية واستعدت عليها الشعوب العربية وغيرها من القوميات.

وبعد أن ضاعت هوية العثمانيين الإسلامية ضاعوا وانحدرت تركيا وشعوبها إلى الحضيض، بعد أن كانت خلال قرون أقوى الدول الإسلامية في آسيا وأقوى الدول الأوروبية في القرن العاشر الهجري دون منازع، وهكذا نري أنهم أضاعوا الإسلام فضاعوا وبقي الإسلام، وسيأتي الله بإذنه بقوم ينصرونه.

# الخاتمة

من خلال الاطلاع على حركة الجهاد الإسلامية ومسيرتها عبر العصور المختلفة يتضح أن الجهاد كانت له أهدافه منذ عهد رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وعلى رأس تلك الأهداف فتح المناطق للدعوة الإسلامية والمحافظة على أماكن سبق فتحها، وقد تراوحت حركات الجهاد عبر العصور بين هذين الهدفين.

ولقد كانت البدايات الأولى للجهاد في أيام رسول الله ﷺ ولم تكن موجه ضد قوم معينين بل كانت ضد كل من عاند الإسلام وعلى رأس هؤلاء قريش قبيلة الرسول ﷺ حيث وجه إليهم رسول الله ﷺ جزءًا كبيرًا من جهاده، في الوقت الذي وجه فيه الجزء الآخر ضد اليهود للدعوة سواءً بسواء لا فرق بين هؤلاء وأولئك.

كما أن من الملاحظ أن حركة الجهاد لم تتوقف في أي عصر من عصور الإسلام المختلفة، فإذا تخلى عنها قوم قام بها قوم آخرون كما حصل في أواخر العصر العباسي، حيث حمل الغزنوين والزنكيون والأيوبيون راية الجهاد حينما تخلى عنها بنو العباس كما حملها العثمانيون الأتراك حينما تخلى عنها العرب واختفوا وراء الظل، وبالتالي فإن الجهاد الإسلامي لم يكن مرتبطًا بقوم أو جماعة معينين.

ومن خلال الدراسة يتضح أن المحافظة على المناطق الإسلامية من غزو الأعداء تعد أكثر صعوبة في معظم الأحيان من الفتح نفسه ولذلك نجد أن العديد من المناطق قد فتحها المسلمون أو أعادوا فتحها مرات متكررة.

ويتضح كذلك أن نجاح الحركات الجهادية يتوقف على الالتزام بتعاليم الإسلام الشرعية وعلى رأس ذلك إعداد القوة والاستعداد في كل الأوقات لمواجهة الأعداء بالسلاح والرجال، ولذا فإن القواد الذين يحرصون على ذلك كانوا أكثر الناس

نجاحًا في جهادهم ضد أعداء الإسلام.

كما اتضح من خلال الدراسة أن المتطوعة، وهم الجند غير النظاميين الذين تحركهم الدوافع الدينية فقط، هم أكثر الناس حرصًا على الجهاد وهم وقوده الرئيس، ويكثر وجودهم مع القواد الأقوياء.

وكان للمجاهدين المخلصين وما يزالون مكانتهم الخاصة في ذهن الأمة فمهما طال بها الزمن فلن تنسى هؤلاء أمثال: خالد بن الوليد، المثنى بن حـارثة، أبو عبيدة ابن الجـراح، وأمثال عقبة بن نافع، محمد بن القاسم، قتيبة بن مسلم، طارق بن زياد، محمود الغزنوي، ألب أرسلان، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، سيف الدين قطز، محمد الفاتح وغيرهم ممن شهدت لهم الأمة بالخير والجهاد (رحمهم الله تعالى)، ولذلك فإن المصادر التاريخية الإسلامية كانت وفيَّه مع هؤلاء فرصدت أخبارهم وأثنت عليهم خيرًا.

كما أنه من خلال الدراسة يتضح أن أعداء الإسلام لا يتركون المسلمين وإن تركوهم ففي الحروب الصليبية أكبر مثال على ذلك حيث حاول الفرنجة الوصول إلى الحجاز ووسط الجزيرة العربية.

ولا شك أن هناك ارتباطًا بين واقع الأمة الحالي وتاريخها السابق فصراع المسلمين مع العالم الغربي النصراني ومع اليهود وقوى الكفر المختلفة ما هو إلا امتداد للصراع السابق منذ أيام الرسول ﷺ حتى أواخر العصر العثماني وإلى يومنا الحاضر ولن ينتصر المسلمون على أعدائهم إلا بالأسباب التي انتصروا بها سابقًا والتي تتلخص بأخذ الإسلام كاملاً غير منقوص، حيث أن الجهاد وقواعده المختلفة من أهم ما قرره الإسلام للعزة والقوة ونحن نعيش اليوم في عالم لا يُحترم فيه إلا القوى الذي يفرض وجوده على الواقع والقوة لا تعني الاعتداء، بل القدرة على الدفاع، من أهم وسائل الدفاع في كثير من الأحيان الهجوم وهي قاعدة فهمها المجاهدون الأوائل، وفهمتها بعض القوى المعادية للإسلام اليوم.

إن حركة الجهاد كثيرة ويصعب ذكرها بهذا الاختصار، لكني حاولت أن آخذ أمثلة لكل عصر من العصور لنرى بعض ما فيه من حركات جهادية كما أن للأمة

جنودًا مجهولين قد لا يرد ذكرهم في المصادر التاريخية، لكن أجرهم عند الله أعظم وأعمالهم مسجلة في كتاب، قال تعالى:

﴿هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ (الكهف: ٤٩).

وقد سعيت إلى توثيق الحوادث وتأصيل المواقف من خلال المنظور الإسلامي والعلمي للأحداث التي صحبت حركة الجهاد في سبيل الله وناقشت بعض المؤلفين السابقين واللاحقين في تفسير التاريخ واجتهدت في استنباط الدروس متخطيًا مجرد السرد التاريخي لهذه الحركة المباركة.

رحم الله مجاهدي الأمة ومن ناصرهم وأعز الإسلام وجنده وجعلنا ممن أعزهم الله بالإسلام وأعز بهم الإسلام.

# المصادر والمراجع


## القرآن الكريم:

## أولاً: المصادر:

ابن الأثير: **عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (٠ ٦٣٠هـ ـ ١٢٣٨م):**

- أسد الغابة في معرفة الصحابة. ـ دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان: بدون تاريخ.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: **عبدالقادر أحمد طليمات**. ـ القاهرة: دار الكتب الحديثة.
- الكامل في التاريخ. ـ بيروت: دار صادر، ١٣٨٥هـ.

### الأزدي: علي بن ظافر (٥٦٧ ــ ٦٢٣هـ):

- أخبار الدولة الحمدانية. ـ تحقيق: تميمة الرواف. ـ الطبعة الأولى. ـ دار حسان للطابعة والنشر، ١٤٠٦هـ.

### الأزدي: محمد بن عبد الله الأزدي ( ت: ٢٣١):

- فتوح الشام. ـ تحقيق: **عبد المنعم عامر**. ـ مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م.

### ابن إسحق: محمد بن إسحق بن يسار (٨٥ ــ ١٥١هـ):

- سيرة ابن إسحق بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي. ـ تحقيق وتعليق: **محمد حميد الله**. ـ الطبعة الثانية. ـ قونية، تركيا: الوقف للخدمات الخيرية، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

### ابن أعثم الكوفي: أبو محمد أحمد (ت: ٣١٤هـ):

- الفتوح. ـ الطبعة الأولى. ـ حيدر أباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٨هـ .

**ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي:**

- بدائع الزهور في وقائع الدهور. ـ تحقيق: **محمد مصطفى**. ـ الطبعة الثانية. ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

**البغدادي: لطف الدين عبد المؤمن بن عبد الحي:**

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع. ـ تحقيق: **علي محمد البجاوي**. ـ الطبعة الأولى. ـ القاهرة: دار أحياء التراث العربي، ١٣٧٣هـ.

**البكري: عبد الله عبد العزيز الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ):**

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. ـ تحقيق **مصطفي السقا**. ـ بيروت: عالم الكتب، بدون تاريخ.

**البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحي بن جابر:**

- فتوح البلدان. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ.

**البنداري الأصفهاني: الفتح علي بن محمد:**

- مختصر تاريخ دولة آل سلجوق. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨م.

**ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت: ٨٧٤هـ):**

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ـ القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بدون تاريخ.

**ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ):**

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ـ ط١. ـ حيدر آباد: دار المعارف العثمانية، ١٣٥٨هـ.

**ابن حبيب: أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت: ٢٤٥هـ):**

- المحبر. ـ تحقيق: الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر. ـ بيروت: دار الآفاق، بدون تاريخ.

### ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ):

- أبناء الغمر بأنباء العمر في التاريخ. ـ الهند: دائرة المعارف العثمانية. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: نسخة مصورة من قبل دار الكتب العليمة، ١٤٠٦هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة. ـ ٤ أجزاء. ـ الطبعة الأولى. ـ القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٨هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ـ راجعه وضبطه: **طه عبد الرؤوف سعد مصطفى محمد الهواري، السيد محمد عبد المعطي**. ـ القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

### ابن حزم: أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ ـــ ٤٥٦هـ):

- جمهرة أنساب العرب. ـ تحقيق: **عبد السلام هارون**. ـ الطبعة الرابعة. ـ القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.

الحميري: محمد بن عبد المنعم: (ت:٩٠٠ هـ)

- الروض المعطار في خبر الأقطار. ـ تحقيق: **إحسان عباس**. ـ بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٥م، ص ٤١٠.

### ابن حنبل: الإمام أحمد:

- مسند الأمام أحمد. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

### الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت: ١٠٨٩هـ).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ـ بيروت: دار المسيرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

### ابن خلدون: عبد الرحمن (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):

- العبر وديوان المبتدأ والخبر.

### ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت: ٦هـ):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. ـ تحقيق: د. **إحسان عباس**. ـ بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.

- **خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري (١٦٠ ـ ٢٤٠هـ):**
- التاريخ. ـ تحقيق: **د. أكرم ضياء العُمري**. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: دار القلم. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

## الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت:٢٨٢هـ):

- الأخبار الطوال. ـ تحقيق: **عبد المنعم عامر، والدكتور جمال الشيال**. ـ بغداد: مكتبة المثنى.

## الذهبي: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت: ٧٤٨هـ):

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام (عهد الراشدين). ـ تحقيق: **الدكتور عمر عبد السلام تدمري**. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: مدار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- سير أعلام النبلاء. ـ ٢٣ جزءًا. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

## الزبيدي: محب الدين أبو الفيض محمد مرتضي الحسيني الواسطي (ت: ٥٤١١ ــ ٥٠٢١هـ):

- تاج العروس من جواهر القاموس. ـ بيروت: مكتبة الحياة، بدون تاريخ.

## السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن:

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. ـ القاهرة: مكتبة القدس، ١٣٥٥هـ.

## ابن سعد: محمد (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)

- الطبقات الكبرى. ـ ٩ أجزاء. ـ بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.

## السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت: ٥٦٢هـ).

- الأنساب. ـ تحقيق: **عبد الفتاح محمد الحلو**. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: منشورات **محمد أمين دمج**، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

**الشارتري: فوشيه:**

- تاريخ الحملة الصليبية الأولى إلى القدس. ـ ترجمة: د. **زياد العسلي**. ـ عمان، الأردن: دار الشرق، ١٩٩٠م.

**أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي (٥٩٩ -٦٦٥ هـ)**

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ط١، بيروت: هندسة والمرسالة. ١٤١٨ هـ -١٩٩٧م

**ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (ت: ٦٣٢هـ).**

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. ـ تحقيق: د. **جمال الشيال**. ـ الطبعة الأولى. ـ القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤م.

**الصالحي الشامي: الإمام محمد بن يوسف (ت:٩٤٢هـ):**

- سبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد. ـ ج ٤. ـ تحقيق: **إبراهيم الترزي، وعبدالكريم العزباوي**. ـ القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٩هـ. ـ ج ٥. ـ تحقيق: **فهيم محمد شلتوت**، و د. **جودة عبد الرحمن هلال**. ـ القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤٠٤هـ.

**الصوري: وليم ــ رئيس أساقفة صور ــ (١١٣٠ ــ ١١٨٥م):**

- تاريخ الحروب الصليبية. ـ ج ١، ٢. ـ ترجمة من اللاتينية: د. **سهيل زكار**. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: دار الفكر، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

**الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م):**

- تاريخ الأمم والملوك. ـ الجزء ٣، ٤. ـ بيروت: دار الفكر، بدون تاريخ.

**المحب الطبري: أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الله (ت: ٦٩٤):**

- الرياض النضرة في مناقب العشرة. ـ الطبعة الثانية. ـ القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٣٧٢هـ.

**ابن طباطبا: محمد بن علي:**

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ـ بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ.

**ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت: ٢٥٧هـ):**

- فتوح مصر وأخبارها. ـ لايدن، هولندا: ١٩٢٠م.

**ابن العبري: غريغورس الملطي (ت: ١٢٨٦م).**

- تاريخ مختصر الدول. ـ الطبعة الثالثة. ـ بيروت: دار المشرق، ١٩٩٢م.

**عياض: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤هـ):**

- ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك. ـ بيروت: دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ.

**العيني: بدر الدين محمود (ت: ٨٥٥هـ):**

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. ـ تحقيق: **د. محمد محمد أمين**. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

**ابن قتيبة: أبو محمد إسماعيل الدينوري (ت: ٢٧٦هـ):**

- المعارف. ـ تحقيق: **محمد إسماعيل عبد الله الصاوي**. ـ الطبعة الثانية. ـ ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

**القرماني: أبو العباس أحمد بن يونس بن أحمد:**

- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ. ـ بيروت: عالم الكتب، بدون تاريخ.

- تاريخ سلاطين آل عثمان. ـ تحقيق: **بسام عبد الوهاب الجابي**. ـ الطبعة الأولى. ـ دمشق: دار البصائر، ١٤٠٥هـ.

**ابن الفلانسي: حمزة بن اسد بن علي بن محمد أبويعلى التميمي(ت،٥٥٥ هـ)**

- ذيل تاريخ دمشق. تحقيق سهيل زكار، ط ١. دمشق، دارحسان للطباعة والنشر ١٤٠٣ هـ-١٩٨٣ م)

**القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت:٨٢١هـ/ ١٤١٨م).**

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. ـ القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

**القيرواني: الرقيق أبو إسحق إبراهيم بن القاسم( ت: ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩م)**

- تاريخ إفريقيا والمغرب. ـ تحقيق وتقيم: المنجي الكعبي، تونس: ١٣٨٧هـ.

**ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت: ٧٧٤هـ).**

- البداية والنهاية. ـ الطبعة الثالثة. ـ بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٨م.

**ابن الكردبوس: أبو مروان عبد الله (ت: ٦٨١هـ):**

- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ووصفة لابن الشباط نصان جديدان. ـ تحقيق: د. **أحمد مختار العبادي**. ـ مدريد: معهد الدراسات الإسلامية،١٩٧١م.

**المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت: ٣٤٥هـ):**

- التنبه والإشراف. ـ بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٨١م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر. ـ الطبعة الخامسة. ـ تحقيق: **محمد محي الدين عبد الحميد**. ـ بيروت: دار الفكر، ١٣٩٣هـ.

**المقري: أحمد بن محمد التلمساني (ت: ١٠٤١هـ):**

- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب. ـ بيروت: دار صادر، ١٣٨٨هـ.

**المقريزي: أحمد بن علي (ت:٨٤٥هـ):**

- السلوك في معرفة دول الملوك. ـ حققه مجموعة من العلماء بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر. ـ ط٢. ـ القاهرة: ١٩٥٧م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية). ـ بيروت: دار صادر، بدون تاريخ.

**النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ ــ ٧٣٣هـ):**

- نهاية الأرب في فنون الأدب. ـ القاهرة: نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب الوطنية. ـ القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للكتاب، بدون تاريخ.

**ابن هشام: أبو محمد عبد الملك المعافري (ت: ٢١٣هـ):**

- السيرة النبوية. ـ تعليق: **طه عبد الرؤوف سعد**. ـ القاهرة: مكتبة شقرون، (بدون تاريخ).

**ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم (ت: ٦٩٧هـ):**

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. ـ ٥ أجزاء. ـ تحقيق: **د. جمال الدين الشيال**. ـ القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م.

**الواقدي: محمد بن عمر (ت: ٢٠٧هـ):**

- كتاب المغازي. ـ تحقيق: مارسدن جونس. ـ بيروت: عالم الكتب، (بدون تاريخ).
- ابن الوردي: **زين الدين أبوحفص عمر بن المظفر بن محمد بن أبي الفوارس العمري الكندي (ت ، ١٢٤٩هـ)**
- تاريخ ابن الوردي. ـ ٣ أجزاء. ـ النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

**ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله (ت: ٦٢٦هـ):**

- معجم البلدان. ـ ٥ أجزاء. ـ بيروت: دار أحياء التراث العربي.

**اليعقوبي: أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب (ت: ٢٨٢هـ):**

- تاريخ اليعقوبي. ـ ج ١، ٢. ـ بيروت: دار صادر، ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

## ثانيًا: المراجع :

**أرسلان: الأمير شكيب:**

- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط. ـ بيروت: دار الكتب العلمية، (بدون تاريخ).
- **أبو إسحق: رافئيل:**
- تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية في الأقطار العربية إلى أيامنا. ـ بغداد: مطبعة المنصورة، ١٩٤٨م.

**آصاف: يوسف:**

- تاريخ سلاطين آل عثمان. ـ تحقيق: **بسام عبد الوهاب الجابي**. ـ الطبعة الثالثة. ـ دمشق: دار البصائر، ١٤٠٥هـ.

**أكرم: الجنرال أ:**

- **سيف الله خالد بن الوليد. ـ ترجمة: صبحي الجابي.** ـ الطبعة الرابعة. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ.

**أوزتونا: يلماز:**

- تاريخ الدولة العثمانية. ـ ترجمة: **عدنان محمود سلمان**. ـ مراجعة: **د. محمود الأنصاري**. ـ المجلد الأول. ـ استانبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

**باشميل: محمد أحمد:**

- حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ.

**باوزير: أحمد العليمي:**

- مرويات غزوة بدر. ـ الطبعة الأولى. ـ الرياض: مكتبة طيبة، ١٤٠٠هـ.

**برجاوي: سعيد أحمد:**

- الحروب الصليبية في المشرق. ـ ط١. ـ بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٤هـ/١٩٤٨م.

**برج: أنتوني:**

- تاريخ الحروب الصليبية. ـ ترجمة: **أحمد غسان سبانوا، ونبيل الجيرودي**. ـ راجعه وقدم له: **د. سهيل زكار**. ـ دمشق: دار قتيبة، ١٩٨٥م.

**بشتاوي: عادل سعيد:**

- الأندلسيون المواركة. ـ دارسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة. ـ الطبعة الثانية. ـ دمشق: دار أسامة، ١٩٨٥م.

**بك: محمد فريد المحامي:**

- تاريخ الدولة العلية العثمانية. ـ تحقيق: **د. إحسان حقي**. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: دار النفائس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

بنز: نورمان:

- الإمبراطورية البيزنطية. ـ تعريب: د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد. ـ القاهرة: ١٩٥٠م.

الحجي: د. عبد الرحمن علي:

- التاريخ الأندلسي. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: دار القلم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

حرب: د. محمد:

- العثمانيون في التاريخ والحضارة. ـ الطبعة الأولى. ـ دمشق: دار القلم، ١٤٠٩هـ.

حسنين: د. عبد المنعم محمد:

- دولة السلاجقة. ـ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

حسون: د. علي:

- الدولة العثمانية. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.
- العثمانيون والبلقان. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.
- العثمانيون والروس. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٢هـ.

الحميد: د. عبد اللطيف بن محمد الحميد:

- الصراع بين الدولة العثمانية وبريطانيا في منطقة البحر الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى (١٣٣١ ـ ١٣٣٧هـ)، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الإجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العام الجامعي ١٤٠٥هـ. ـ لم تنشر بعد.
- موقف الدولة العثمانية تجاه المسلمين في الأندلس. ـ الطبعة الأولى. ـ الرياض. ـ ١٤١٤هـ.
- العالم الإسلامي والغزو المغولي. ـ الطبعة الأولى. ـ الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٠٤هـ.

الخشاب: د. يحيى:

- تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية. ـ القاهرة.

**خطاب: محمود شيت:**

- قادة الفتح الإسلامي (عقبة بن نافع). ـ الطبعة الخامسة. ـ بيروت: دار الفكر، ١٣٩٧هـ.

**خليل: د. عماد الدين:**

- عماد الدين زنكي.
- نور الدين محمود الرجل التجربة. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: دار القلم، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

**ديورانت: ول:**

- قصة الحضارة. ـ ج ٢. ـ ترجمة: د. زكي نجيب محمود. ـ الطبعة الرابعة. ـ القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، جامعة الدول العربية، ١٩٧٣م.

**رزق الله: د. مهدي:**

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ـ دراسة تحليلية. ـ الطبعة الأولى. ـ الرياض: الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤١٢هـ.

**رستم: د. أسد:**

- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: دار الكشوف، ١٩٥٦م.

**الرشيدي: د. سالم:**

- محمد الفاتح. ـ الطبعة الثانية. ـ جدة: مكتبة الإرشاد، ١٤١٠هـ.

**الرمال: غسان علي محمد:**

- صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر. ـ جدة: ١٤٠٦هـ.

**رنسيمان: ستيفن:**

- الحضارة البيزنطية. ـ ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد. ـ مراجعة: زكي علي. ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦١م.

**الرومي: أحمد عبد الجواد:**

- صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله. ـ بيروت: المكتبة العصرية.

**سالم: السيد عبد العزيز، وأحمد مختار العبادي:**

• تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط. ـ الجزء الأول. ـ البحرية الإسلامية في مصر والشام. ـ الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٧١م.

**أبو سعيد: د. حامد غنيم:**

• الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية. ـ ٣ أجزاء. ـ القاهرة: ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

**شاكر: محمود:**

• التاريخ الإسلامي. ـ ج ٨. ـ (العهد العثماني). ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.

• ميدان معركة اليرموك. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٦هـ.

**الشامي: صالح أحمد:**

• من معين السيرة النبوية. ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

**الشناوي: د. عبد العزيز محمد:**

• الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. ـ القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م.

**الصالح: د. صبحي:**

• النظم الإسلامية ـ نشأتها وتطورها. ـ الطبعة الخامسة. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.

**صفوت: د. محمد مصطفى:**

• فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح. ـ الرياض: منشورات الفاخرية. ـ بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ.

**الصياد: فؤاد عبد المعطي:**

• المغول في التاريخ. ـ الجزء الأول. ـ بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨٠م.

**الصيرفي: نوال حمزة:**

- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي. ـ الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٣هـ.

**الطرازي: د. عبد الله مبشر:**

- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب(باكستان الحالية) في عهد العرب في صدر الإسلام والعصريين الأموي والعباسي ـ التاريخ السياسي والديني والاجتماعي والتشريعي والاقتصادي. ـ تقديم: العلامة أبو الحسن الندوي. ـ الجزء٢. ـ الطبعة الأولى. ـ جدة: عالم المعرفة، ١٤٠٣هـ.

**عاشور: د. سعيد عبد الفتاح:**

- أوروبا العصور الوسطى. ـ الطبعة السادسة. ـ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٥م.

**عاشور: د. فايد حماد:**

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية. ـ الطبعة الثالثة. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ.

**عبد الغني: عبد العزيز:**

- علاقة ساحل عمان ببريطانيا. ـ الرياض: دارة الملك عبدالعزيز.

**العتيبي: تركي مسيمر الحافي:**

- الحياة الاجتماعية في صقلية الإسلامية. ـ الطبعة الأولى. ـ الرياض: مطابع القوات المسلحة السعودية، ١٤٠٧هـ.

**العبدة: محمد:**

- أيعيد التاريخ نفسه؟. ـ لندن: دار البيان.

**العبادي: د. أحمد مختار، ود. السيد عبد العزيز سالم:**

- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ـ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس. ـ الجزء ٢. ـ الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.

**العسلي: بسام:**

- خير الدين بربروس. ـ الطبعة الثانية. ـ بيروت: دار النفائس، ١٤٠٣هـ.

**علي: أرخان محمد:**

- السلطان عبد الحميد الثاني ـ حياته وأحداث عهده. ـ الطبعة الأولى. ـ الكويت: دار الوثائق، ١٤٠٧هـ.

**علي: أحمد إسماعيل:**

- تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي(١٣٢ ـ ٣٦٣هـ/ ٧٤٩ـ ١٠٧٠م). ـ دراسة سياسية واجتماعية. ـ الطبعة الأولى. ـ ١٩٨٤م.

**علي: خالد سيد:**

- رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء. ـ الطبعة الأولى. ـ الكويت: دار التراث، ١٤٠٧هـ.

**العُمري: أ. د. أكرم ضياء:**

- السيرة النبوية الصحيحة. ـ الطبعة الأولى. ـ المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٢هـ.
- المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد ضد المشركين). ـ الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

**عواد: كوركيس:**

- مصادر التراث العسكري عند العرب. ـ ثلاثة أجزاء. ـ بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

**عويس: د. عبد الحليم عبد الفتاح:**

- قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ. ـ القاهرة: دار الصحوة، ١٤٠٧هـ.

**الغامدي: علي محمود عودة:**

- المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ـ بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين. ـ الطبعة الأولى. ـ الطائف: مكتبة الصديق، ١٤١١هـ.

**الغامدي: مسفر بن سالم عريج الغامدي:**

- الجهاد ضد الصليبيين. ـ الطبعة الأولى. ـ جدة: دار المطبوعات الحديثة، ١٤٠٦هـ.

**فاشا: سهيل:**

- لمحات من تاريخ نصارى العراق. ـ بغداد: مطبعة شفيق، ١٩٨٢م.

**الفقي: د. عصام عبد الرؤوف:**

- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق. ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٧م.

**فهمي: د. عبد السلام عبد العزيز:**

- السلطان محمد الفاتح. ـ الطبعة الثانية. ـ، بيروت: دار القلم ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

**فهمي: د. علي محمد، ومجموعة من الباحثين:**

- تاريخ البحرية المصرية. ـ جامعة الإسكندرية، ١٩٧٤م.

**فيصل: شكري:**

- حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري ـ دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية. ـ الطبعة الرابعة. ـ بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٤م.

**الفيومي: محمد إبراهيم:**

- في الفكر الديني الجاهلي. ـ القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٩م.

**قلعجي: قدري:**

- صلاح الدين الأيوبي ـ قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ـ الطبعة الأولى. ـ بيروت: شركات المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٢م.

**كريستنسن: أرثر:**

- إيران في عهد الساسانيين. ـ ترجمة: يحيى الخشاب. ـ مراجعة: عبد الوهاب عزام. ـ القاهرة: دار النهضة العربية، بدون تاريخ.

**كوبريلي: محمد فؤاد:**

- قيام الدولة العثمانية. ـ ترجمة: أحمد السعيد سليمان. ـ دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

**الكيلاني: ماجد عرسان:**

- هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. ـ الطبعة الأولى. ـ جدة:

الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ.

**اللميلم: د. عبد العزيز بن محمد.**

- نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١ - ٢٧٩هـ. - الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

**لوريمر: ج. ج (ت: ١٩١٤م).**

- دليل الخليج - القسم التاريخي. - الجزء الأول. - ترجمة ونشر: قسم الترجمة، مكتب سمو أمير قطر،(بدون تاريخ).

**لويس: برنارد:**

- استانبول وحضارة الخلافة الإسلامية. - تعريب: د. سيد رضوان علي. - الطبعة الثانية. - جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ.

**متولى: أحمد فؤاد:**

- الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له. - القاهرة: دار النهضة المصرية، ١٩٧٦م.

**مجموعة من المستشرقين:**

- دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية. - ترجمة وإعداد: إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي، د. عبد الحميد يونس. - الطبعة الثانية. - القاهرة: كتاب الشعب. - المؤسسة العامة للكتاب، ١٩٦٩م.

**المزيني: د. إبراهيم بن محمد بن حمد:**

- الحياة العلمية في العهد الزنكي. - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوارة في التاريخ والحضارة الإسلامية من قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، للعام الجامعي ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، لم تنشر بعد.

**المعاضيدي: د. خاشع، ود. سوادي عيد عبده، ودريد عبد القادر نوري:**

- تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي. - الطبعة الثانية. - بدون مكان: ١٩٨٦م.

**مؤنس: د. حسين:**

- نور الدين محمود رائد نصر المسلمين على الصليبيين. ـ الطبعة الثالثة. ـ جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

**هريدي: د. محمد عبد اللطيف:**

- الحرب العثمانية الفارسية وأثرها على المد الإسلامي في أوروبا. ـ القاهرة: دار الصحوة، ١٤٠٨هـ.

**يلماز أوزتونا:**

- تاريخ الدولة العثمانية. ـ ترجمة إلى العربية: عدنان محمود الأنصاري. ـ المجلد الأول. ـ استانبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م.

**اليوسف: د. عبد القادر:**

- الإمبراطورية البيزنطية. ـ بيروت: ١٩٦٦م.

# فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| إهـداء | ٥ |
| المقدمة | ٦ |
| تمهيد | ١١ |
| مفهوم الفتوح | ١١ |
| أهداف الفتوح: | ١٢ |
| مقدمات الفتوح: | ١٥ |
| **الفصل الأول : عصر السيرة النبوية ﷺ** | ١٨ |
| عصرالرسول ﷺ | ١٩ |
| معركة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ) | ٢٢ |
| غزوة أحد(شوال سنة ٣ هـ) | ٣٥ |
| غزوة الأحزاب (الخندق) | ٤٦ |
| فتح خيبر(ربيع الأول سنة ٧ هـ) | ٦٠ |
| غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) | ٦٦ |
| فتح مكة (٢٠ رمضان سنة ٨ هـ) | ٧٠ |
| غزوة حنين والطائف (شوال سنة ٨ هـ) | ٧٨ |
| غزوة تبوك (رجب سنة ٩هـ) | ٨٦ |

الموضوع الصفحة

**الفصل الثاني : عصر الخلفاء الراشدين ﷺ** ٩٧
ميادين الفتح في فارس والروم ........................................ ٩٨
الفرس: .................................................... ٩٨
الروم: .................................................... ١٠١
**أولاً: خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه** ........................................ ١٠٤
حملة أسامة بن زيد رضي الله عنهما: ........................................ ١٠٥
موقعة اليمامة (سنة ١١هـ): ........................................ ١٠٨
فتح فارس والعراق: ........................................ ١١٣
موقعة ذات السلاسل (سنة ١٢هـ): ........................................ ١١٥
موقعة الولجة، موقعة أليس (سنة ١٢هـ): ........................................ ١١٦
فتح الحيرة والأنبار (سنة ١٢هـ): ........................................ ١١٨
فتح دومة الجندل (سنة ١٢هـ): ........................................ ١٢١
فتح الشام (الروم): ........................................ ١٢٣
معركة اليرموك (سنة ١٣ هـ): ........................................ ١٢٦
**ثانيًا: خلافة عمربن الخطاب رضي الله عنه** ........................................ ١٣١
(أ) فتوح فارس: ........................................ ١٣١
موقعة الجسر (شعبان سنة ٣١هـ): ........................................ ١٣٢
معركة القادسية (سنة ١٤هـ): ........................................ ١٣٤
فتح المدائن (سنة ١٤هـ): ........................................ ١٤٤
نهاوند «فتح الفتوح» (سنة ٢١ هـ): ........................................ ١٤٧

**الموضوع** **الصفحة**

(ب) فتوح الشام: ........................................ ١٥٠
فتح حمص وقِنّسرين (١٥ هـ): ........................................ ١٥٣

فتح فلسطين وبيت المقدس (١٦هـ): ........................ ١٥٥

(جـ) فتوح الجزيرة (سنة ١٨ هـ): ........................ ١٥٩

(د) فتح مصر (سنة ٢٠هـ): ........................ ١٥٩

فتح الإسكندرية «سنة ٢١ هـ»: ........................ ١٦٤

ثالثًا: خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ........................ ١٦٧

(أ) فتوح أفريقيا سنة (٢٧) هـ: ........................ ١٦٧

بلاد النوبة (سنة ٣٣هـ): ........................ ١٧١

(ب) فتح أرمينية (٢٩ هـ): ........................ ١٧٢

(جـ) الفتوحات البحرية: ........................ ١٧٣

فتح قبرص سنة (٢٧) هـ: ........................ ١٧٥

معركة ذات الصواري سنة (٣١) هـ: ........................ ١٧٨

(د) فتوح الشرق والقضاء على مملكة الفرس: ........................ ١٨٠

رابعًا: خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ........................ ١٨٣

**الفصل الثالث: عصر الدولة الأُموية** ١٨٤

الفتوحات في العصر الأُموي (٤١ ـ ١٣٢ هـ) ........................ ١٨٥

(أ) الفتوح في بلاد الروم: ........................ ١٨٥

(ب) فتوح الشرق: ........................ ١٩٠

(جـ) فتوح السند: ........................ ١٩٥


**الموضوع** **الصفحة**


(د) فتح شمال إفريقيا: ........................ ١٩٨

(هـ) فتح الأندلس «سنة ٩٢هـ»: ........................ ٢٠٤

حملة طارق بن زياد: ........................ ٢٠٦

معركة وادي لكة (شذونة) (٢٨ رمضان ٩٢هـ):........ ٢٠٨
حملة موسى بن نصير: ........ ٢١٠
بلاط الشهداء (سنة ١١٤هـ):........ ٢١٣
## الفصل الرابع : عصر الدولة العباسية ٢١٦
الفتوحات في العصر العباسي (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ) ........ ٢١٧
(أ) الحروب مع الروم: ........ ٢١٧
موقعة ملاز كرد (سنة ٤٦٣هـ):........ ٢٢٣
(ب) فتوحات المشرق: ........ ٢٢٥
الغزنويون:........ ٢٢٧
(جـ) الفتوح البحرية:........ ٢٢٨
(د) موقعة الزَّلاّقة (رمضان ٤٧٩ هـ): ........ ٢٣١
## الفصل الخامس: عصر الحروب الصليبية ٢٣٧
عصر الحروب الصليبية ........ ٢٣٨
بداية الجهاد ........ ٢٥١
ضد الصليبيين: ........ ٢٥١
(أ) جهاد عماد الدين زنكي: ........ ٢٥٥
فتح الرها(جمادى الأخر ٥٣٩هـ): ........ ٢٦٤

الموضوع الصفحة

(ب) جهاد نور الدين محمود:........ ٢٦٨
(ج) جهاد صلاح الدين الأيوبي: ........ ٢٨٧
توحيد جبهتي مصر والشام : ........ ٢٩٢

الإعداد للجهاد: ........................................ ٢٩٤

الجهاد البحري: ........................................ ٢٩٨

الجهاد البري: ........................................ ٣٠١

التمهيد لفتح القدس: ........................................ ٣٠٦

معركة (حطين): ........................................ ٣٠٩

فتح بيت المقدس: ........................................ ٣١٥

ما بعد القدس: ........................................ ٣٢٦

الدفاع عن القدس وصلح الرملة: ........................................ ٣٣٢

(د) الجهاد بعد صلاح الدين: ........................................ ٣٣٦

الحملة الصليبية (الخامسة) على مصر: ........................................ ٣٣٨

الملك (الكامل) وتسليم بيت المقدس: ........................................ ٣٤١

الصراع الأيوبي الأخير مع الصليبيين: ........................................ ٣٤٤

الحملة الصليبية السابعة والأخيرة: ........................................ ٣٤٨

جهاد المماليك ضد الصليبيين: ........................................ ٣٥٠

القضاء على آخر معاقل الصليبيين: ........................................ ٣٥٩

**الفصل السادس: الغزو المغولي للعالم الإسلامي ٣٦٣**

الغزوالمغولي للعالم الإسلامي ........................................ ٣٦٤

**الموضوع** **الصفحة**

سقوط بغداد والخلافة العباسية: ........................................ ٣٦٨

الهجوم المغولي على الشام: ........................................ ٣٧٤

معركة عين جالوت: ........ ٣٧٥

## الفصل السابع : عصر الدولة العثمانية ٣٨٥

سقوط الأندلس (ومصرع غرناطة) ٨٩٧ هـ: ........ ٣٨٦

الفتوح في عصر الدولة العثمانية: ........ ٣٩٩

(أ) فتح القسطنطينية: ........ ٤٠٣

الإعداد للفتح: ........ ٤٠٧

الهجوم: ........ ٤١١

الفتح: ........ ٤٢٦

(ب) شرق أوروبا: ........ ٤٣٢

معركة قوصوه: ........ ٤٣٤

معركة نيقو بلي: ........ ٤٣٨

(جـ) الدفاع العثماني عن العالم الإسلامي: ........ ٤٤٠

الدفاع عن البحر الأحمر: ........ ٤٤٢

الصراع في الخليج العربي: ........ ٤٤٦

ميدان البحر المتوسط وشمال إفريقيا: ........ ٤٥١

(د) الجهاد العثماني ضد الروس: ........ ٤٥٦

الخاتمة ........ ٤٧٠

المصادروالمراجع ........ ٤٧٤